الدكتور سامى الدهان

قدماء ومعاصرون



دار المعارف بمصر

قدماء ومعاصرون

الدكتور سامي الدهان

قدماء ومعاصرون



دار المعارف بمصر
١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة ج. ع. م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قصة العرب في نشأتهم وفي تقلبهم على الأمصار والأحقاب قصة جميلة أخاذة ، تغرى بالرسم والتصوير ، لأنها تحتوى على فصول مدهشة ، هي فصول « المعجزة العربية » . فقد خرج العرب من جزيرتهم إلى ربوع غنية ، وغلبوا أمماً قديمة فوقفوا لحضاراتها وعلومها وفنونها ، ولم يكن من اليسير أن يهضموها أو يفهموها أو يسيغوها لو لم يقم بينهم هؤلاء النوابغ الذين ولدوا بين ظهرانيهم ، وانطلقوا كالمارد الجبار في مختلف ميادين الفكر والأدب والفلسفة والتاريخ .

ولهؤلاء النوابغ الأعلام سير يجب أن تكتب اليوم بأساليب العصر وذوق الجيل ، وأن توضع في متناول الجمهور المتعطش ، وأن ترسم رسماً حياً ، وأن تجعل في قالب حديث ميسر ، لتبلغ إلى قلوب الملايين من شعبنا العربي الذي ينظر إلى فصول المعجزة العربية وأعلامها فيراها بعيدة عن الوضوح ، لأنها سطرت على تفاصيل مشتتة ، ووقعت في كتب متفرقة لا يستطيع أن يبلغ إليها إلا إذا خص بها كل وقته ، ووقف عليها كل فراغه ، فأساليب السير ما تزال بعيدة عن التوفيق .

وقد درج الغربيون على خطة جميلة في بسط السير وكتابة التراجم ، فوضع كتابهم صفحات للشعب ، ميسرة بسيطة ، ترسم جانباً من جوانب الأعلام والنوابغ ، بريشة ملونة ، أو بقلم محبب ، ليعلم الشعب منها على سهولة ويسر ما يجب أن يعلم ، فهي قد لا تقف للعلم في استكمال الجوانب كلها وإحصاء التفاصيل جميعها ، لأنها ليست كتب تاريخ بالمعنى العلمي ،

وليست كتب آدب بالمعنى الجامعى ، ولكنها صحائف من التاريخ والأدب والفن والفكر ، قامت لنفع الناشئة ، وتثقيف الملايين ، تحوى أمتع ما يجب أن يفيد منه الشعب ، وأروع ما يجب أن يقرأ . فكتب السير والتراجم عندهم من أنفع الكتب للناس ، ومن أحسنها فى هداية الجيل ، وتكوين العقلية ، وبعث الهمة ، ورسم السبيل للذين يسيرون فى أول الطريق .

وقد كانت كتب السير منذ نشأ اليونان مثار نفع وموضع فائدة ، وكانت عند العرب تراجم موجزة لأدبائهم ومؤرخيهم يجمعون فيها أخبار الأئمة والرجال النوابغ لكلّ الميادين ، يرجع إليها العلماء ليعرفوا تواريخ الوفاة ، ويقرءوا سطوراً بارزة عن الحياة ، لكنها سطور قليلة لا تنقع غلة غالباً ، ولا تكفى فى فهم الترجمة وتحليل السيرة . وإنما تصلح منطلقاً لكتابة الحياة ورسم السيرة ، إذا اعتمد الكاتب على إنتاج المترجم وآثاره ، ورجع إليه يقرؤه ويحلله ، يستخرج من سطوره صورة لحياته ، ولذلك ظلّ فن السيرة عندنا قاصراً عن بلوغ المستوى الذى تنشده السير الغربية فى العصر الحاضر .

ولا نريد هنا أن نبسط أثر القدماء فى الغرب خلال العصور الأخيرة فالأمثال كثيرة ، ومراجعة التاريخ تغنى عن كثير ، وما يزال كتاب « بلوتارك » عن العظماء مثلاً رائعاً ونوراً هادياً . وقد فكرتُ منذ زمن فى أن أفعل لهؤلاء العظماء ما فعل الغربيون ، فرحتُ أكتب صفحات عن نوابغنا من القدماء والمعاصرين ، فى أسلوب بسيط ، لا تغلو فيه التفاصيل ولا تسرف فيه الدقائق ، لأضعه فى متناول الجمهور العربى . وكلما تمت لى منه صفحات كنت أنشرها على سبل مختلفة منها المحاضرات والمقالات فى مشرق العالم العربى ومغربه ، وكان لها أن أثارت فى الوجوه والعيون والأسماع ما شجعنى على المضى ، وكان لها أن أثارت فى نفسى شعوراً غريباً بإعلانها معاً .

وهذه الصفحات ليست فى موضوع واحد ، وليست عن عصر واحد ، أو فى فن واحد ، بل إنها مختلفة ، فهى فى شعرائنا العرب وفى أبطال تاريخنا وفى أعلام مفكرينا ، نشئوا جميعاً على هذه الأرض الطيبة العربية ، وترعرعوا

فى مدارس مختلفة ، وأوساط متباينة ، منهم من عاش فى القرن العاشر للميلاد ، ومنهم من عاش فى هذا العقد من القرن العشرين ، وبينهم على ذلك عشرة قرون فى التفكير وفى الزمان والمكان والظروف .

ولكنّ سيرهم تنصب فى أمجادنا الثقافية والتاريخية والفكرية والأدبية ، وهى التى شادت هذا الصرح الشامخ الذى نعتز به ، فقد تعاقب هؤلاء الأعلام فى ميادين الجهاد ، ووضع كل منهم لبنة كريمة فى هذا البنيان ، فالحديث عنهم حديث عن البنيان والحضارة والعزّ .

وهؤلاء الأعلام تنقلوا فى أطراف هذه الأرض الطيبة المباركة ، فنشئوا فى إقليم عربىّ وقضوا نحبهم فى إقليم عربىّ آخر ، دافعوا بأقلامهم أو بسنانهم عن حدود هذه الوحدة العربية الكبرى ، فأذابوا نور عيونهم ، وأذبلوا زهرة شبابهم فى سبيل هذا الشعب العربى منذ أجيال ، وماتوا فى سبيل هذه الشعلة العربية الخالدة . فكأنهم من أبناء هذا الجيل الحاضر فى نضالهم البطولى بميادين الفكر والأدب والحرب والتاريخ ، أو لكأنهم أحسوا بتكالب الغرب على حدود الوطن العربى منذ أقدم العصور فتجمعوا للذود عن حماه والدفاع عن كرامته بكل ما يملكون من عبقرية ونبوغ .

فيهم الشاعر كشاجم والشاعران الخالديان ، عاشوا فى بلاط سيف الدولة الحمدانى بالقرن الرابع وتركوا فى صفحات الأدب نثره وشعره أثراً خالداً لا يمحى ، فارتفع بهم العصر ، وازدهر الأدب ، واعتزت الثقافة فكانوا أعلام الجيل إلى جانب المتنبي وأبى فراس . وفيهم الوزير المغربى ، وابن حيوس والخفاجى ، عاشوا فى عصر المرداسيين بالقرن الخامس فأسدوا إلى أدب العصر نثره وشعره يداً كبيرة ، وارتفعوا بأدب المرداسيين إلى مستوى الأدب الحمدانى . وفيهم أسامة بن منقذ وابن الساعاتى وابن جبير عملوا للثقافة العربية فى القرنين السادس والسابع ما عمله زملاؤهم ، فتكاملت بهم سلسلة الأدب حلقة بعد حلقة ، يشدُّ بعضها بعضًا نحو الإجادة والإمتاع ، بسطنا سيرهم فى القدماء لنشيد بما كان منهم فى الشام وغيرها ولنسطر اعتراف

الأدب بما ركزوا من صوى فى طريق الخلف ، وبما خلفوا له من روائع .

وفيهم أدباء سورية الذين ظهروا مع أول سنة من القرن التاسع عشر للميلاد وظلوا يمسكون الراية ويحتلون المواقع الأمامية فى معركة الفكر والأدب حتّى قضوا بطلا بعد بطل ، منذ صدر القرن التاسع عشر حتّى منتصف القرن العشرين ، وقد خلفوا فى سجلّ الثقافة والمعرفة خلال قرن ونصف صفحات مشرقة ترفعهم إلى مصاف العباقرة والروّاد ، وتنبه إلى أياديهم ، وتبعث فى ربوعنا الفخر والاعتزاز ، فقد ولدوا فى سورية وكانت تشمل لبنان ، لا حدود بينهما ولا فواصل، وإنما كانتا بلداً واحداً وعشيرة واحدة ، وانتقل أكثرهم إلى مصر فارتوى من ينابيعها وشارك فى نضالها الفكرى والأدبى ، وقضى بعضهم فى تربتها الطيبة كما قضى القدماء ، وقضى بعضهم الآخر فى بلادهم . وقد رحل واحد إلى أمريكا الشمالية وآخر إلى أمريكا الجنوبية، فكان منهما معاً أدب يعتز به المغترب الشمالى والجنوبى ، وهكذا اشترك هؤلاء جميعاً فى هذا الإكليل من الغار ضفروه بعبقريتهم وركزوه فى خير أمتهم وفى رفعة شعبنا العربى، فبسطنا سيرهم فى المعاصرين اعترافاً بما تركوا لجيلنا وما خلفوا لتاريخنا .

وكل منهم قد قضى نحبه وأصبح فى الخالدين من أعلامنا، فيهم من كتبت عنه الكتب ، وفيهم من لا تعرف عنه الكتب السائرة كبير أمر ، وأكثر الذين يجهلهم جيلنا هم من نوابغ الإقليم السورىّ، فلم يظهر حتّى الساعة كتاب يتحدث عن سيرهم وجهودهم ، وإنْ كان منهم من شارك فى الثقافة كما شارك المشهورون ، ولكن الدّنيا حظوظ والشهرة حظوظ . ومن حظى أن أتحدث عنهم فأكشف للقراء عن نواح مجهولة عرفتها بنفسى ، ووقفت على دقائقها ، فاقتصرت على أهمّ ما عندهم ، وتركت تفصيل الأمر لكتاب كبير قد يظهر عنهم . ولو كان لى أن أتحدّث عن الأحياء لأطلتُ فى الشوامخ الذين أجتمعُ إليهم فى الإقليمين السورى والمصرى صباح مساء ، أطال الله أعمارهم ، وأمدّهم بالصحة والقوة ، ليبلغوا بالجيل العربى إلى أقصى ما تطمح إليه هممهم الشمّاء وأقلامهم الساحرة .

وينبغى أن أنبه على أننى لم أرتب هذه السير على السنين أو الفنون ، ولم أجمع الشعراء من كل إقليم أو عصر معاً ، ولم أصنّف الصحائف تصنيفاً علمياً لأن هذه الصفحات كالجداول تنصبّ فى البحر الكبير وهو البطولة فى الرأى وفى الفن والفكر والأدب .

وقد كتبتّها فى سنوات مختلفة ، وأرسلتها فى ظروف مختلفة ، فاختلفت العبارة وتباين الأسلوب ، ولم أسع إلى التبديل والتصحيح ، بل جعلتّها كما قيلت فى عهدها تمثل الساعة التى كتبت فيها ، والظرف الذى قيلت فيه ، وهى ساعات حرجة من تاريخ حياتنا لم تعرف الهدوء والقرار خلال سنوات . تمثل القلق الذى استولى على الفكر والسياسة وتمثل الحماسة التى فرضها الكتاب على مقالاتهم وبحوثهم فى سبيل الوطن والعروبة . وقد خلت الصفحات مع ذلك من حزبية ضيقة ، أو وجهة سياسية ، أو نعرة مذهبية ، لأنها تتحدث عن أعلام أصبحوا ملك الشعب العربى كله ، وملك التراث العربى جميعه فلا سبيل إلى تجريح أو نقد أو تحطيم . وما لمثل هذا تكتب السير العاطرة ، وتبسط التراجم ، وإنما تكتب لتسطر الاعتراف بالجميل لهؤلاء النوابغ ولتشيد بالشعلة التى أناروها لأمتهم ، لعل الجيل العربى المقبل يهتدى بما فيها من دروس ويفيد بما فيها من عظات فالتاريخ يعيد نفسه .

فإلى هذا الجيل أتقدّم بها مخلصاً ، آملاً أن تقع من نفسه منشورة كما وقعت من نفوس السامعين حين تلونا بعضها عليهم ، فإن لم يكتب لها ذلك فقد تعشق الأذن حين تسمع أكثر مما تعشق العين حين تقرأ ،وثوابنا أننا أسهمنا فى الحديث عن نوابغ قد يطوى الدهر كثيراً من محاسنهم فبسطناها خدمة للتاريخ والأدب لا نريد بها إلا وجه الله والوطن العربى ، والله الموفق للصواب والمسدّد للخطى ، والكمال لله وحده .

دمشق الشام فى ٢٨ مارس ١٩٦٠ — محمد سامى الدهان

القدماء

كشاجم *

وقف الأدباء فى القديم طويلاً عند تعليل هذا اللقب ، وانتهى أكثرهم إلى أنه منحوت من جملة حروف تختصر صنعة الرجل ، فقد كان كاتباً وشاعراً ومنشئاً وجواداً ومنجماً . ولكن هذا لا يحسم الجدل حول لقبه ، ولا يصل بنا إلى غاية مقنعة ، فاللقب أعجمى واضح ، والنسب صريح ، فهو محمود ابن محمد بن الحسين بن السندى بن شاهك كما تذكر الكتب القديمة . أما أبوه فلا نعرف من أخباره ما يشفع لنا بالحديث عنه أو الإشارة إلى موطنه ، ولكننا نعرف عن جده « السندى بن شاهك » أنه كان فى عهد الرشيد موكلاً بحبس الإمام « موسى الكاظم » ، والجاحظ يقول فى « البيان » إنه كان من وجهاء العصر العباسى وأمرائه ، وكانت له مكانة فى ذلك العصر فلعله قدم مع أبيه من « فارس » ودخل الإسلام فارتقى وعظم حتى عمه الخير وأصبح من الأمراء والوجهاء . ويروى « الجاحظ » أن السندى كان له ولدان أحدهما الحسين والآخر إبراهيم ، وأن إبراهيم كان من العلماء الفضلاء الحافظين لأخبار الدولة العباسية وأنه كان ضخم الألفاظ ، فخم المعانى ، وأنه كان من الفلاسفة والمتكلمين والأطباء .

وقد قدمت هذه الأسرة إلى الشام ، وسكنت فى « الرملة » من حواضر فلسطين وفيها ولد الفتى « محمود » — كما يبدو — أو سكن فيها فنسب إليها ، ولسنا ندرى أى أمر آخر عن ولادته وعن تاريخها ، فلم يكن هذا الشاب يلفت نظر التاريخ أو الأدباء المؤرخين ، فهو بعيد عن الطموح إلى الرياسة ، غريب على الإمارة والملك لا يشبه جده وأفراد أسرته ، فقد كان يعيش على مهنة تكفل له بعض ما يسد عوزه ، ولولا شعره وما ترك من صفحات كتبه لأغفله التاريخ الأدبى وعفى على ذكره كما عفى على ذكر غيره من الأدباء ،

* أبو الفتح محمود بن محمد بن السندى بن شاهك (توفى سنة ٣٤٠ هـ)

وذلك لأنه عاش فى صدر القرن الرابع ، وأعلام المتنبى مرفوعة واسمه على كل لسان ، فأخفاه كما أخفى غيره من الشعراء ، والشعر فى تلك الأيام إنْ لم يكن حماسة وقومية وعزّة وطنية ، ومدائح للأمراء ، ومراثى للعظماء وتسجيلاً للمفاخر والمآثر لم يذكره المصنفون ولم يسع إليه أصحاب التأليف .

وقد روت « يتيمة الدهر » شعراً كثيراً لزملائه وأغفلت رواية شعره ، واعترفت له حين الحديث عن السرى الرفاء أنه كان ريحان الأدب فى البلاد وأن السرىّ فى طريقه يذهب وعلى قالبه يضرب ، وأنه كان مغرًى بنسخ ديوان كشاجم ، يزيد فى حجمه حين يريد ، فيدخل فيه شعر الأخوين الخالديين ليشنع عليهما بسرقة الشعر ، وليغضّ من قيمتهما فى الابتكار والابتداع ، ولذلك أصبح ديوان كشاجم شديد القلق ، لا يعرف قارؤه ما لكشاجم ولغير كشاجم . وكلما تقادمت نسخهُ كان القدم ألصق بما نسب إليه وأدخل فيه . وهذا ظلم كبير ألحقه بهالسرىّ الرّفاء علىشدّة حبه له ، وهذا تعب كثير أورثه لمحقق ديوانه ودارس شعره .

وقد طرق الشاعر كشاجم فى هذا العصر ما طرق كثير من زملائه ، فتشابهت الموضوعات ، وتقاربت العناوين ، وتناسبت التعابير والألفاظ ، فكأن العصر الحمدانى جعل الشعراء على فرقتين ، فرقة تقول الشعر كما يقوله أمراء الشعر المقدّمون ، فى حماسة ورثاء وغزل ومديح ، تتبع طريقة العرب الجاهلية والإسلامية ، فتركب إلى الممدوح ، وتقف على بابه ، وتصف غبار النقع وزحف الجنود ، وهذه الفرقة تتقدم بشعرها إلى الأمير سيف الدولة ، كما يتقدم كتاب المقالة فى الزعماء والساسة وأرباب السلطان . وفرقة انصرفت إلى نفسها وآثرت أن تتلفت إلى عيشها وما حولها من زخرف أو بساطة من نعيم أو بؤس ، فنظمت فى ذلك وجالت فى موضوعات جديدة وأغراض جديدة ، فأتمت ما بدأه القرن الثالث الهجرى على أيدى ابن الرومى وأبى تمام ، فتغنت بالفصول كلها ، وبالنور والزهر ، والصحو والغيم ، والثلج والمطر ، وبالحيوان على أنواعه حيًّا وميتاً ، ودخلت فى المطابخ والمطاعم وأدوات العيش والرفاه ،

وغشيت منازل اللهو ووصفت آلات الطرب واللعب . وركبت إلى المنطق والحكمة والفلسفة والطب والتنجيم فكأنها تريد للأديب أن يرى كل شيء وأن يصف كل أمر ، وأن يرسم كلّ موضوع وأن يخوض في كل مشكلة ، وأن يعنى أشد العناية بالشعر لأنه فنّ ليس غير . فقد آمنت هذه الفرقة بقدسية الفنّ كما نقول اليوم ، وأرادت أن يكون الشعر مدرسة الحياة يصور العيش الذى يحياه الناس ، ويرسم عواطف الناس نحو هذا العيش ، فلا تعيش للملوك والأمراء والعظماء والزعماء ولا تزين لهم من شعرها هدية تفرح بها نفوسهم ، ولا تتقدم به على صينية من ذهب ليقرأ ما عليها هؤلاء الحكام وليردّوها بعد ذلك مثقلة بكيس من المال عطية وأجراً .

وأرباب هذه الفرقة من الرجال وفدوا من أقطار الوطن العربى ؛ فالسرىّ قدم من الموصل والصنوبرى وفد من أنطاكية وكشاجم جاء من الرملة ، وأقبل الخالديان من قريتهما قرب الموصل ، فاتخذوا حرفة يعملون لها نهارهم لكسب القوت ، وأخذوا خلال فراغهم بقرض الشعر والتغنىّ به وروايته ، والخروج إلى الرياض والبساتين يشربون ويعبثون ويعودون مع الليل فى أخرياته أو مع الصباح فى أول إشراقه يجرّون ذيول اللهو وفى عيونهم من حمرة اللذائذ بقايا وفى رؤوسهم من آثار الخمرة خماره، ولعلهم كانوا ينفقون كل ما تصل إليه أيديهم ، فهم فى حرف بسيطة لا تكاد تدّر عليهم الرزق الموفور .

فالسرىّ كان خياطاً فى دكانه يرفو ويرقع ويخيط ، والصنوبرى كان خازن كتب لسيف الدولة ، والخالديان عملا كذلك خازنين لخزانة أمير الحمدانيين ، وأما كشاجم فقد كان يعمل عند أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان — فيما زعموا — ثم راح يعمل فى كنف ابنه سيف الدولة ، حتى قيل إنه كان طباخاً له .

وقد فرغ هذا الطباخ للتأليف والكتابة والشعر ، فألف كتاباً فى « أدب النديم » بسط فيه ما يجب أن يتحلى به النديم من فضائل وما يعرف من معلومات . وكانت زخارف الحياة قد زحفت إلى الزعماء والأمراء ، فدخلهم الترف ، وأصبحوا على دين المتحضرين من فرس وروم يشربون فى أوان خاصة ويأكلون

على طرائق معينة ، ويتحدثون فى أساليب مرسومة مما يشبه أدب الكياسة أو لطف المعاشرة أو طريقة معرفة العيش كما يقول الأوربيون . ويقول هذا الطباخ إنه جمع كتابه « من أمثال الحكماء ومنظوم الشعراء ومنثور البلغاء وأخبار الظرفاء وأودعه من أدب النديم ما لا يستغنى عنه شريف ولا يجوز أن يخلّ به ظريف » . فجعله دستوراً للعيش ، يشرح به كيف يصطنع النديم ألفاظه وحركاته وحكاياته ليدخل السرور على من يعمل فى معيّتهم . فهو منْهج للمستوظفين والمستخدمين الذين يريدون أن يبلغوا إلى قلوب رؤسائهم قبل أن يبلغوا إلى عقولهم .

وهذا الكتاب قليل الحجم كثير النفع ، فى لغة متينة ، وألفاظ مختارة ، وجمل قصيرة يغلب عليه الإيجاز فى التعبير والتوفيق فى الاختيار ، فهو يرسم العصر فى أيامه والمجالس فى زمانه وكأنه لكلّ زمان بين رئيس ومرءوس فيطلب إلى النديم أن يكون فيه « مع شرف الملوك تواضع العبيد ، ومع عفاف النساك مجون الفتاك ، ومع وقار الشيوخ مرح الأحداث » .

ثم يقول : « ومن صفة النديم أن يجمع إلى الصبر على مضض الجوع احتمال كظة الازدياد على الشبع لأنه مدفوع إلى مؤاكلة أحد رجلين إما سخىّ شديد المحبة لأنه يؤكل طعامه فيطالبه بالإكثار ومساعدته عليه ومساواته فيه ، فإذا فعل ذلك حظى عنده وقرب من قلبه . . أو لئيم طعامه عنده بمنزلة سمعه وبصره . . »

ويرسم كشاجم زى النديم فيرى له أن يحضر بزىّ الموكب ولبسة الخدمة ، ويطلب إليه أن لا يتخلى عن العمامة والخفّ وأن يلازمهما لئلا ينحسر الرأس وتبدو القدم ، ويفعل ذلك إجلالا للسلطان العظيم عن مشاركته فيما اتسع له من التبذّل والتخيّر . ويعترف كشاجم بأن « هذا مما يسلك فيه سبيل ملوك الأعاجم وكانوا رسموا لكل طبقة من طبقات أهل ممالكهم برسم من الزى ، ليتميّزوا ولا يشتبه سوقة بملك ولا دنىء بشريف ولا تابع برئيس . ولكل أهل عصر زىّ » .

ويرسم مؤلفنا طريقة المشى عند النديم ، وسبيله فى لعب الشطرنج والنرد ،

وحفاظه على لبسته ونظافتها ، وكل ذلك مما اقتضاه الترف في العصر وأوصل إليه الإقطاع واختلاف الطبقات في العيش ، وهو هام في دراسة الحالة الاقتصادية ووصف الحياة لذلك الزمان .

ونثرُ الرجل بارع جميل ملوّن مفوّف شبيه بنثر الكتاب الفحول ، وشعره بارع كذلك أشد البراعة في تناول الموضوعات الإنسانية والمعاشية ، وسنمضي في قراءة ديوانه على مخطوطاته القديمة لنرى كيف وصف عيشه وحياته وما حوله ، ونخلص من ذلك كله إلى رسم قريب يصور الرجل أقرب تصوير ، وذلك لأن عصرنا ظلم الرجل فلم يعرض له في دراسة تستوفي عناصر شخصيته ووصف نفسيته .

إن هذا الطباخ الشاعر — كما قال القدماء فيه — لا يشبه في شيء ما قد يذهب إليه تصورنا في رسمه ، من حال رثة ولباس زريّ ، وضعة في السكنى . فلقد كان الشاب يعرف أنه من أسرة عريقة وآباء مشهورين . ويعرف نسبته إلى الفرس فيفخر بهم ، ويرى لهم مكانهم في الأمم وحضارتهم في العالم ، فيتخذ ذلك سبباً للظهور والاعتزاز ، فيقول في شعره :

وأنا ابن فرسان السيرا ع معـاً وفرسان الصفاح
قومي « بنو ساسان » ليـ ـس حماهم بالمستباح
والعاقدي التيجان تَضْـ ـحك عن وجوهم الصباح
والجاعلين عداهم لهم بمنزلة الأضاحي
وإذا تشاجرت السرما ح فإنّ أقلامي رماحي
يمزجن نضح مداده ن بمستفاض دم الجراح

فليس أجداده من السند أو الهند كما زعم الزاعمون ، وإن كان اسم جدّه يشير إلى شيء من ذلك ، وقوله يدل صراحة على نسبته وفخره يدل على قومه . ولكن الزمان أنزل به المصائب وطوحت به الأيام ، فساقت أباه فيما نظن إلى الشام وسكن « الرملة » من فلسطين — كما قلنا — وتعلق بالشعر صغيراً ، وروى منه وحفظ وفتن من غير شك بابن الرومي ، وأحب شعر أبي نواس ،

وضرب على قوالبهما ومعانيهما فأصبح يقول الشعر ويحسن فيه ، فسافر إلى « مصر » لعل بضاعته تروج فيها كما سافر أبو تمام وكما ارتحل « المتنبي » ، فوجد فيها خيراً كثيراً ، واستمتع بأرضها ، وأحب أهلها ، وكان له فيها صحبٌ يخرج معهم إلى الصيد ، فيلهو ويطرب .

ويبدو أنه استطاع أن يجد فى مصر منصباً يحتله فى الدواوين ، فهو كاتب وأديب وشاعر ، ولذلك ذكر فى شعره أنه كان يقضى الصباح فى الدواوين ، ودوائر الدولة كما نقول اليوم ، فإذا انصرف منها فإلى بيوت اللهو والطرب يعبث ويعبث ، حتى ليخيل إلى من يراه فى الصباح رئيساً أنه انقلب فى المساء إلى خمار فى الحانات :

قد كان شوقى إلى « مصر » يؤرقنى ... فاليوم عدتُ وعادت مصر لى دارا
بينـا أساى رئيساً فى مراتبه ... إذ رحتُ أحسب فى الحانات خمارا
فللـدواوين إصباحى ومنصرفى ... إلى بيوت دُمى يعملن أوتـارا

ولسنا ندرى كم أقام فى مصر ، فديوانه خلو من كل إشارة ، والمؤرخون — كما قلنا — لا يعنون بمثله فلا يترجمون له ولا يتحدثون عن تنقلاته وإقامته ، وإنما نأخذ من شعره ما نستطيع حين يفصح هذا الشعر عن أمر من أمور حياته . فالرجل يعترف فى شعره بأنه يتمنى أن يقسم عمره إلى شطرين اثنين ، يتمتع ساعة بالشراب والحسان ثم يميل ساعة إلى الحديث والكتب فيقول :

عجبى ممن تعالت حالـه ... وكفـاه الله ذلات الطلب
كيف لا يقسم شطرىْ عمره ... بـين حاليْن نعيم وأدب
سـاعـة يمتـع فيها نفسه ... من عذاب وشراب منتخب
ورنوّ من دُمى هنّ لـه ... حـين يشتاق إلى اللهو لعب
فإذا ما نال من ذا حظّـه ... فحـديثٌ ونشيـدٌ وكتب
مـرّة جداً وأخرى راحـة ... فإذا ما غسق الليل انتصب
فقضى الدّنيـا نهاراً حقها ... وقضى لله ليـلاً ما يجب

وكذلك فعل الشاعر حين أتيح له أن يحيا حياته الخاصة ، فانصرف مرة إلى الجدّ يكتب ويقرأ ويتحدّث ، ويصلّي ، ويدعو لقومه الشيعة فيرثي الحسين وغير الحسين ، ويذكر « كربلاء » ومصائب الشهداء ، ويتصدّى لحق « عليّ » وقوم علي ، وكأنه إمام أو زعيم من زعماء الشيعة ، يفند هذا الحقّ ويرمى الجاحدين بسهام النقد ، ويرجع إلى جهاد « ابن أبي طالب » فى زمن الرسول الأعظم ، وجهاد آله بعد الرسول ، فيستوى مع شعراء الشيعة فى المطالبة بالحق وفى نقد العباسيين ، ويقف مع « أبى فراس الحمدانى » فى هذا الصعيد ، فهو جادّ كل الجدّ يطلب الانتقام والثأر ويأسى لما أصاب القوم من ظلم ومن حيف .

وحين تقرأ له شعره خلال هذا الجدّ يخيل إليك أن الشاعر ما عبث قطّ ، ولا دخل فى المجون ، ولا خاض مع الخائضين فى الحبّ ، فهو يطلب إلى الرجل أن لا يميل مع النساء كل الميل وأن لا تشغله المرأة عن طلاب العلا ، فالخود تحلو أوائل حبها وتشوب آخر الحبّ مرارة ، فليس المجدّ زقًّا وقينة ، وإنما المجد فى أن يذبّ الفتى عن أعراض قومه وفى أن يوقد النار للطرّاق والزّوار ، ويروح إما للإمارة أو للوزارة . وكأنه فى ذلك يقبس معانى الأمراء من الشعراء ، أو كأنه يقول مع أبى فراس الحمدانى :

مَن كان مثلى لم يبت إلاّ أميرًا أو أسيرا

وهو فى هذا كله ينصح الشاب بأن يتعلق بالكتابة والخطابة والبلاغة فهى سبيل إلى تسنم المناصب العالية والأمجاد وركوب المفاخر ، وعند ذلك يقبل الناس عليه ويرجون عنده الرغائب والمطالب ، ويسدّون عليه السبيل فى الرجاء وفى الإلحاف ، فلذلك يقول :

فادأبْ لمجد حادث أو سالف تبنى مَناره
واعمر لنفسك فى العلا حالاً وكن حسن العماره

ولعله فى هذه المطالب والمبادئ يتشبه بغيره من شعراء الفخر والحماسة فيتمنى أن يسير فى نشدان العلا وفى ركوب المخاطر وفى السعى إلى الرئاسة

والأمارة والأمجاد . بل لعله أفنى فى طلاب هذه الأمجاد أكثر أيامه فسافر إلى البلاد وارتحل، وشرّق وغرّب ، فلم يلبث فى « الرملة » من أرض فلسطين وإنما تحمل إلى مصر فأقام فيها ولقى فيها العزّ والمجد ، ولقىَ فيها الغربة والنكد بعد ذلك ، وسافر إلى الشام ، وإلى العراق طلباً للشهرة وسعياً وراء الظفر ، ويبدو كأنه عاد من أسفاره لا يلوى على شىء مما طلب ومما سعى إليه ، فلم ينل ما كان يرجو ، ولم يقع على ما كان يبتغى من وراء بلاغته وكتابته وفصاحته ، فخاب أمله ، وعاد يقول :

قد سئمتُ النوى وأبليتُ فى السَّيْـ	ـر جسوم المضمَّرات العِتَاقِ
وسلكتُ البلاد شرقًا وغربًا	وشـآمًا موصـولة بعراق
وترامتْ بىَ المرامى فأخلقَتْ	وفى ذاك شـدّة الإخلاق
لو بحق تناول النجمَ خلقٌ	نلتُ أعلى النجوم باسْتحقاق
أو ليس اللسانُ منىَ أمضَى	من ظبات المهنّدات الرّقاق
ويـدى تحملُ الأناملُ منها	قلمـًا ليس دمعُه بالراقى
أفعـوانا تهاب منه الأعادى	حَيَّةً يستعيذُ منها الرّاقى

ويبعد كشاجم فى وصف قلمه وما كان له من شعره ، كأن قوافيه عقود الدّر قد نظمت على الأعناق ، ومعانيه كأنها تدقّ على الأفهام لصورها الحسان الدّقاق . وهذا الشعر نفسه أحلى من غناء القيان ونشيد العشاق . ولكنه مع ذلك عاد وهو يتحرّق من خيبة الأمل ومرارة الفشل ، فلا العراق أعطاه ما يستحق ، ولا الوجهاء والأدباء قدروه كما يجب . وكم استعطف فى العراق وكم شكا ، ولكنه لم يمدح فى ديوانه كله مديح الشعراء الكبار ، فلم نقع على شعر فى تمجيد الممدوح . ولكن شعره كان كهؤلاء المستجدين الذين يطلبون أمراً يسيراً يتبلغون به ، ويعيشون معه على الكفاف . فقد شكا إلى جاره الوجيه حين سكن على أطراف دجلة ببغداد ، وبسط له عسر الحال وظلم الدهر ، فأرسل إليه يقول :

وصلْ بحبلك حبلاً طالما بسطت	إليه أيدى رجال تبتغى الوصله

إنى لموضع أنس حين تفرغ لى وإن شغلت فكاف ترتضى شغله

وقيل : كنْ جار بحر أوفنا ملك وأنتَ جارى ومثوانا على «دجله»

ولكن هذا الجار لم يشفق ولم يتكرّم فيما نرى ، وبخل البحر فلم يمدّ بموجه ولم يغمر بمائه ، ولبث الشاعر المسكين حيث هو من الحاجة والفقر . ولذلك سافر فى أطراف العراق يسعى وراء المال ، فزار الأهواز ، والبصرة ، ولكنه عاد منهما كما عاد من بغداد خالى الوفاض يائساً ، حتى قال :

يا ليتنى لم أر العراقَ ولم أسْـ ـمَع بذكر الأهواز والبَصْرة

ترفعــنى بلدة وتخفضنى أخـ ـرى فمن سهلة ومن وعــرة

وقد عشق مصر وحن إليها ، وتمنى العودة إلى ربوعها ، ففيها رجال كرام الفعال ، للناس فيهم منافع ، ولهم أيد فى الأنام مشهّرة ، ولقد هام شوقاً إلى وجوههم فهى بهية نضرة . وظل كذلك يقضى أيام الشباب ينزل المدن ويزور العواصم العربية ، فإذا بلغ حلب حطّ فيها رحاله ، وأحبها كما أحب مصر بل إنه أحبها فوق حبه لمصر ، فلبث فيها سنين يستمتع بسحرها وجمالها كما يقول ، ولعله كان ينال رفد الحمدانيين أو ينال من عطايا « سيف الدولة » ، ولسنا ندرى إن كان قد فسح له فى العيش فشاهد « سيف الدولة » بحلب طويلا واجتمع إليه كثيراً فما فى الدّيوان مديح فيه أو ذكر له ، وإنْ كان القدماء يجعلونه طباخاً لهذا الأمير الحمدانى ، ويمدّون فى سنة وفاته حتى سنة ٣٥٠ للهجرة ، كما أن بعضهم يجعله فى خدمة من قبله من الحمدانيين فى أنطاكية أو فى غيرها — كما قلنا فى صدر الكلام — .

وسواء أ أقام فى رحاب سيف الدولة طويلا أم أقام فى رحاب غيره من الحمدانيين ، فالديوان يروى شعر كشاجم فى مدح حلب وفى وصفها مدحاً بلغ فيه إلى العشق والهيام والسرور ، فهو يرى أن عينه لم تقع فى حلب إلا على رياض واسعة ، يضحك فيها نبات الشقيق ، ويدنو بعضه من بعض كما يدنو الحبيب من الحبيب ، والنرجس يغضّ الطرف حيناً ويحدق بالبصر

أحياناً ، فالزائر يستمتع بالألوان والظلال والأنوار وكأنه فى جنة الخلد ، فيقول كشاجم :

وما أمتعتْ جارَها بلدةٌ كما أمتعتْ حلبٌ جارهـا
هى الخلد تجمعُ ما تشتهى فزُرها فطُوبى لمنْ زارها
ولله فيها شهـور الربيـ ع حين تعطر أسحارها
إذا ما استمد «قويق» السّما ء بها فأمدتـه أمطارها
وأقبـل ينظم أنجادهـا بفيض الميـاه وأغـوارها
وأرضـع جناتهـا درّه فعمّم بالنَّوْر أشجارها

ولقد صدق الشاعر فى وصفه ، فقد كانت « حلب » تنتعش بالأمطار فتسيل فى نهر « قويق » ، ويعمها النهر بالخير آنذاك ، ويبسط نعماءه على بساتينها وقد كانت واسعة زاهرة ، وعهد الحلبيين بالبساتين غير بعيد ، يعرفون لها جمالها وفضلها وزهرها وأشجارها قبل أن ينقطع مجرى النهر عنها ، وقد حجب الأتراك ماءه منذ سنين وأسالوها فى بقاعهم ، فمات النهر وذبل الزهر ويبس الشجر . وأصبح ربيعها جافـًا لا يوحى شعراً ولا يوحى نثراً ، وقديماً كان الربيع فيها يقف لربيع دمشق ، على قصره .

وفى الربيع كان شاعرنا يستمتع بالجمال على ألوانه ، ويرتع فيه مزهوًّا ، يصطاد ما يصطاد من أنس ولذائذ ، ويعود بالأوصاف الجميلة ، فالنهر كالأفعوان يتلوّى ويستوى أو كالسيوف تنضى وتغمد ، والزهر على طرفيه كسراج يتوقد وأوراقه تشبه خفاف الإبل فى تربة من زمرّد ، والشاعر مع الحسان يجرى ويسابق الدهر فى غفلة قصيرة عن الحزن والمآسى .

ولعل الشاعر استمتع بجمال حلب أكثر مما استمتع بغيرها فقد وقع على صديق أليف ، كان يفهم سحر الروض ويقرأ سر الجمال ، وكان يسكرُ للزهر والعطر والماء وينتشى بالنهر والبساتين ذلك هو الشاعر « الصنوبرى » . فتآلفا على عشق الجمال واصطياد الألوان والأنوار والظلال ، وتآخيا على الإعسار واليسر ، وأكبّا معاً على اللذائذ فى الصحو والسكر ، وشغلا بالبساتين عن الناس ،

فوقع فى ديوان « الصنوبرى » ما لم يقع فى ديوان عربىّ من وصف هذا السحر وهذا العطر .

وذكر كشاجم فى ديوانه أن صديقه « الصنوبرى » كان يملك البساتين فى حلب ، وقد شيّد فيها داراً وقصراً للخلوة ، وجمع فيها الغرس والحرث والبذر ، فغصت بالنارنج والريحان والمنثور ، فقد كان موسعاً عليه فى الرّزق ، وكان يعيش على أيسر حال ، منعّماً موفور الخير . واعترف كشاجم بأنّه كان يملك أرضاً وبستاناً فى حلب ونهراً يجرى فيهما ، ولكن الأرض والبستان كانا من العرى والجفاف بحيث يشبهان الصخر والحجر ، فكانا خاليين من النبت ، كالبكر ليس لها بعل أو كالرأس ليس له شعر ، ولذلك كان يرجو من صديقه أن يقاسمه سراء العيش وأن يغدق عليه من خيرات الغرس ما ينبت الودّ فى صدره والاعتراف فى قلبه .

ولكن جفوة وقعت بين الصديقين أبعدت الصنوبرى عن صديقه الشاعر ، ولعل مصدر ذلك كان التنافس فى المعانى والصّور ، فقد كانا يصّبان قوافيهما فى مواضيع متشابهة ، دخل النقاد فى تفضيلها فأفسدا بين الرجلين . وهذه الجفوة كانت قصيرة محاها كشاجم بقصيدة تعطّف بها صديقه واعتذر له من ذنبه ، فعاد الوفاء والصفاء وضحكت الأيام للصداقة من جديد ، ولسنا ندرى كم امتدت هذه الصداقة ، وما كان من أمرها بعد ذلك ، لأن كتب الأدب لا تتحدث عن الرجل كما قلنا فهو لم يشترك فى الأمور الرسمية ، ولم يدخل فى مدح الملوك والأمراء ، وإنما انصرف إلى نفسه وعيشه ، لا يطمح إلى منصب أو مقام ، فكأنه عاش عيشة الفنانين ، يجرى وراء اللهو حين يهزل ، ويجرى وراء اللذائذ ، فنراه يملأ ديوانه بأوصاف عجيبة لو جمعت لكانت صورة حياته اليومية ، ولو أحصيت ووزّعت على الأيام لاستغرقت أيامه كلها .

ونستطيع أن نعرض لهذه الأيام وأن نقرأ ما كان منه فى وصفها جادّاً وهازلا ، فإننا سنقع على بعض نواحى حياته ، ونفهم منها ما نسيه المترجمون

وما أغفلوه ، فقد جاء فى ديوانه ما يفيدنا فى تصّيد خطوط عريضة من هذه الحياة ، ليس فيها تحديد أو بيان ، وليس للشعر أن يكون تاريخ حياة أو ترجمة شاعر ولكنه يدل على شىء ينير السبيل إلى ذلك . فقد يبدو أن أباه مات بعد أن تقلب فى العلل ، وكان من قبل قد تقلب فى فلك المعالى والأمجاد ، فخلف ابنه مفتقراً إلى هذه المعالى ساعياً فى غير نجاح ، وتركه عرضة لأنياب الدهر وريب الزمان .

ويبدو كذلك أن للشاعر أصبية كالفراخ الزغب ، هى التى أقعدته عن السعى والترحل فى سنّ معينة ، فهو لا يستطيع فراقهم ولا يجد بديلا منه يعوض عليهم الإشفاق والحدب ، وإنّه قد وصف أمهم وصفاً عظيماً فجعلها « النجيبة ابنة النجباء » وهو يحبّ أولاده حبًّا عميقاً ، ويأنس بقربهم نهاره ويسامرهم ليله ويحاورهم . ولقد ذكر عن أحد أبنائه أنه كان يصطحبه معه ويزيره العلماء ليأخذ عنهم ويبذّهم بعد ذلك فى طرق العلياء ، فهو لذلك يحنو ويتيه ، فيقول فى ابنه :

فأبيت أدنى مهجتى من مهجتى وأضمّ أحشائى إلى أحشائى
والمــرء يفتن بابنــه وبشعره لكنّ هــذا فتنة العقــلاء

وهذا شعر إنسانى عظيم ووجدانى وفىّ لم يقع لكثيرين من الشعراء ، وإنما وجدناه عند ابن الرومى متجلياً فى أوضح الصور الوفية . وكشاجم مفتون بابن الرومى — كما قلنا — يأخذ منه ويقرؤه ويتخذه إماماً فى كثير من شعره ، بل إنه ينظر إلى شعر ابن الرومى فى وصف ما حوله وما يقع عليه نظره ، فيتبعه فيه ، ويسلك طريقه فيصف المحبرة ، والمعزفة ، والعود ، والمسواك ، والمضرب ، والمشط ، والقدح المكسور ، والمذبة ، والمنديل ، والإسطرلاب ، والطاوس ، والثلج ، والبرذون ، والبركار ، والقطايف . ويرسم الآكل ، والقينة والمغنية والساقية ، على ألوان تنظر إلى ابن الرومى نظراً قريباً جدا ، يعنينا أن نعرض له هنا لنبسط الريشة الفنية فى رسم هذه الألواح .

وابن الرومى ليس إماماً لكشاجم فى الشعر فحسب بل إنه إمام لهذه المدرسة

الشامية كلها التى ظهرت فى القرن الرابع ، فتلفتت إلى نفسها وعيشها ، وآثرت أن تصف ما يقعُ لها وما تراه ، وأن تشرك حواسّها كلها فى الرسم والتصوير — كما قلنا — . ولا نريد هنا أن نعرض لهؤلاء الشعراء ، وإنما نحب أن لا يفهم القراء أننا نفرد شاعرنا فى هذه الطريقة . فهو شبيه بزملائه فى هذا كله ، يستعمل حاسة الشم ، أوسع ما يستعمل ويستعمل . حاسة السمع ، ويبالغ فى ذلك كأنه يحب أن يبلغ إلى ما بلغ إليه ابن الرومى وطلابه . ولقد أعجبت طريقة ابن الرومى فى الاختراع والابتداع بعض نقادنا القدماء ، ومدحوه لها ، ولم يروا الشعر الصحيح إلا عندها ، فهى جديدة بارعة ، وهى حديثة موفقة أحدثت هزّة فى دنيا الشعر العربى ، لم يكتب فيها الناقدون طويلا ، ولم يسمّوها باسمها لأنهم لم يؤرخوا لأدبنا على الطريقة الغربية ولو فعلوا لعرفوا بأنها مدرسة من مدارس الشعر يجب أن تخص بالدراسة ، كما تخصّ مدرسة الرومانسيين أو الإبداعيين ، وطلابها هم أصحاب المدرسة الشامية وعلى رأسهم كشاجم . فهم لم ينصرفوا إلى المديح والهجاء أو الغزل والرثاء ، ولم يركبوا إلى هذه الأبواب والأقسام على مطالع معروفة ، من بكاء الآثار والأطلال ، وذكرى سعدى ولبنى وهند ، ولم ينتقلوا من غرض إلى غرض فى سبيل الوصول إلى ما يريدون . وإنما طرقوا موضوعاتهم من غير مقدمات ، وبلغوا منذ أوائل الأبيات إلى ما يرغبون . ولعلهم بذلك وفقوا إلى نصرة أبى نواس فى دعوته التجديدية ، وأبو نواس نفسه دعا إليها ولم يسر طويلا على سنها ، فتعلق فى أكثر شعره بما كان قبله .

ولكن هؤلاء الشعراء الشاميين قالوا الشعر فى الشام أو بين العراق والشام ، ولبوا الدعوة وساروا على غرار ابن الرومى فانتصروا فيما نرى أقوى نصر ، وأدركهم التوفيق إلى أبعد الحدود .

وإذا كان ابن الرومى قد وصف الغناء وبرع فيه وتعلق به ، فإنّ ديوان كشاجم يصف العود والقينة والغناء على ألوان كثيرة ، وفى قصائد متعددة ، فدلّ على أنه كان يفهم الغناء ويعشق الطرب ، ويقضى وقته منصرفاً إليهما فى شغف ولذة .

فهو يقول إن العود فى نغمته يشبه صوت فتاة تشكو فراق فتى ، دارت ملاويه فيه واختلفت مثل اختلاف الكفين قد شبكتا ، ولو حركت أوتاره لناب عن الغناء ، ولو سكتت لناب الغناء عنها . ويقول فى مكان آخر إن العازفة على العود تلوى ملاويه فى أناملها لطفاً ، وتعرك آذانه وتخنقه ما بين سبابة وإبهام ، فيتكلم ويغنى مثل غنائها ، تقول بصوتها ويقول بصوته فكأنها تحاوره وكأنه يجيبها ويحاورها .

وكشاجم يسمى الأوتار بأسمائها ويجعل لكل منها صوتاً خاصاً وحواراً خاصاً ويرسم العازفة وهى تضرب عليه بيمناها وتطوقه بيسراها ، فتتحدث إليه ويتحدث إليها ويشتبكان فى نغم جميل وغناء عذب ، وهو يقول فى مكان رابع :

ومسمعة تحنو على مترنم	له زجلٌ عال وليس له سحر
إذا طوقته بالأنامل والتقى	على جسمه من جسمها الصدر والنحر
بكى طرباً فاستضحك اللهو نحوه	وفضّت عرى الألباب واستلب الصدر
وتمنحه اليمنى حساباً مفصّلا	فتحمل فيه الخمس والستّ والعشر

فالعود يضحك ويبكى ويعبر عن إحساس صاحبته أصدق تعبير ، وينقل الغناء والنغم على أصدق ما يريد العازف ، وكأنه قطعة من صاحبه أو كأنه نغم من أنغامه يتصرّف فيه كيف يشاء ، بل إنه يطيع صاحبه فى السرور والألم والشكوى والطرب ، فيقاسمه سراء الحياة وضراءها ، فهو صديق أنيس ورفيق وفىّ يفهم فى ذكاء ويشارك فى وفاء ، وينسى الوحشة والوحدة ويبعث اللذة والهناءة .

ووصف العود يستتبع وصف المغنية المطربة ، وكشاجم مثل ابن الرومى عكف على ما حوله ومن حوله فوصف كل ما رأى وسجل كلّ ما سمع ، فالمغنية عند شاعرنا تشغل عقول السامعين ، ونغماتها ترد الجوارح وتختلف إلى القلوب ، فالعقول شواخص واقفة لا تريم متعلقة بها مشغوفة بحبها . ومغنية أخرى وصفها كشاجم فرأى أنها كثيرة الغناء تحسبها فى كلّ عضو أوتيت حلقاً ، فلما غنت سماصوتها إلى الفلك ، فحكا أنينها أنينه وكأنّ أوتارها تشكو

العشق والهيام ، وكأنها عالمة بالحال ، يقول فيها :

وترى لهـا عـوداً تعانقـه وكأنـه وكلامهـا وفقـا
لـو لم تحركـه أناملهـا كان الهـواء يفيده نطقا
جَسَّتْه عالمـة بحـالتـه جس الطبيب لمدنف عرقا
فحسبتُ يمنـاهـا تحرّكه رعـداً وخلتُ يسارها برقاً

وهذه الأصوات الموسيقية على العود تختلف فى أسماع الشعراء ، فبعضهم يراها كالأمواج الهادرة وبعضهم يحسبها كالرعد فى سماء ملبدة بالغيوم ، كما رأينا عند شاعرنا . وهو لا يصف العود فحسب ، وإنما يرسم مجموعة الآلات الموسيقية معاً . فقد زار منزل قينة قد اجتمع إليها كل آنسة كعاب ، وكل منهن تعزف على آلة مختلفة ، فهناك عوّادة تشدو وأخرى لها معزفة ، وثالثة لها رباب ورابعة محسنة توقع بطبل كصوت الرعد من خلل السحاب ، ولا نريد أن نصف تتمة الجوقة ، وإنما نترك لكشاجم فضل ذلك فيقول :

وشافعـة صواحبها بناى أحَنَّ من الخليع إلى التصابى
وراقصة على كـرة وطبـل كخطف البرق أو لمع السَّراب
ركبتُ بها مطايا اللّهو حتى حططتُ به ملطخة ركابى
فـا بقيتْ به عذراءُ إلا صبتْ نحوى وهام فؤادها بى
أواصـل هـذه فتغار هذى وتعتب أو تعرّض بالعتـاب

ولعلنا نستطيع أن نقف على صورة من صور العيش الخليع فى ذلك العصر ، حين نقرأ هذه الأبيات ، بل لعلنا نرى صورة لعيش الشاعر وقد استسلم للهو والطرب ، وانصرف للشراب فأخذ يعدّد لنا ويرسم ويصف ، فهناك شراب معتق ، وهنا نديم دمث رقيق الحاشية ، فهو يطرب للسماع ويترنم بالغناء ، ويؤخذ بالشراب وهو يستمع إلى البيضاء تغنى فتجيبها السوداء بنايها ، ويرى الدنيا قصيرة بهذا الاستمتاع لأنه يدعو إلى السرور فى فلسفة بسيطة :

فاحضرْ فقد حضَر السرور ولاتَدَعْ يوماً يفوتك فهى دنيا فانيـة

ولا تسلْ بعد ذلك عن سرور الشاعر بالنساء وانصرافه إليهن ، فديوانه

يشهد بأنه قضى حقًّا شطر عمره بهذا اللهو ، فهو يغصّ بألوان الاستعطاف والهجر والفتك والعنف وهو يشير إلى أنه كان جميلا ظريفاً يأخذ بقلوب النساء، ويستهويهن بشبابه وأدبه فيعطى الهوى زمامه ويستسلم للبطالة ما دام فى الشباب فيقول :

لم لا أصرّ على البطالة والهــوى	وعلىّ برد شبيبتى وإزارها
وإذا تراءت للقيان محاسنى	طمحت إلىّ بعينها أبصارها
لو أنّ عيدانًا بغير ضوارب	قابلننى لتحركتْ أوتارهــا

وهذا الشعر رقيقٌ صادق لا تكلّف فيه يصفُ المجونَ واللهوَ والخلاعة فى بيوت القيان وقد كثرت فى الشرق ، وانصرف إليها الشباب فيما نرى ، واختلف إليها الشعراء المـُجّان. ونحسب أن كشاجم سلخ فيها أكثر أيامه الأولى فى الشباب قبل أن ينصرف إلى بيته وإلى زوجه وأطفاله ، فما نستطيع أن نتصور الرجل فى سن متقدمة يقضى ليله كله حتى الصباح فى هذه البيوت ، يستمع ويطرب ، ويشرب ، ويستسلم لهذا العبث الصارخ . بل إننا نحسن الظن بالرجل فنرى أنه انصرف شطراً من حياته إلى هذا ، وانصرف شطراً آخر إلى الجدّ والكتابة والتأليف ، فقد خلف كتاباً كما قلنا فى « أدب النديم » حشد فيه رائع الشعر والنثر ، ثم انصرف إلى كتاب آخر صوّر فيه الصيد والقنص ، وما يصطاد وما يحرّم صيده وسماه « المصايد والمطارد » ونرى أنه حين انصرف إلى هذا الجدّ بعقله وتفكيره ، لم يخل من لفتات إلى الجمال والحبّ والغناء ، فهو يقول فى ديوانه ما يعبر عن شىء من هذا :

صحوتُ من كل شىء كان يعجبنى	إلاّ سماعى أحاديث المحبينــا
إذا شكا بعضُهم وجداً بكيتُ له	وإن دعا قلتُ بالإخلاص آمينــا
ما ذاك إلا لأنى قــد لقيتُ كما	لاقوا وكابدتُ ما قد كابدوا حينا
لكننّى لم يكنْ لى من يساعدنى	وها أنا مسعدٌ من كان محزونا

ولو كانت قصائد الديوان مؤرخة أو مشروحة أو مسبوقة بتقديم لهان

الأمر ، ووضح السبيل ، ولكن الشعر يتلو بعضه بعضاً من غير كلام أو بيان ، ولهذا نعوج على الافتراض والتخمين ، ونرسم حياة شاعر ما كان يلفت نظر النقاد فى زمانه أو بعد زمانه . فلما قرأناه وجدنا فيه صورة لحياة ليست غريبة عن بشار وأبى نواس وأضرابهما ، فيها ما فى حياة هؤلاء من عبث طويل ، وفيها ما فى شعرهم من جدّ كثير ، فيها هذا اللهو العابث بالطرب والقيان والنساء ، وفيها إلى ذلك هذا الشعر الحزين فى رسم الذين قضوا فرثاهم ، وفى وصف الظلم الذى وقع على قومه الشيعة ، وهو من الفرس كما رأينا ، وأكثر هؤلاء كانوا يتشيعون فى شعرهم ، ويقولونه ، ويجدون فى بعض الدول الحاكمة سوقاً رائجة لهذا الشعر . ويبدو أن « سيف الدولة » فى حلب وفى الموصل وفى أطرافهما قد فتح أذنيه لهذا القول ، وشجعه واستطابه ، فكثر المتشيعون والمحبون ، وسالت الأبيات الحزينة فى وصف أمانى القوم وفى رسم خيبتهم . ولو جمع الشعر الذى انطلق على لسان أبى فراس والصنوبرىّ والسرىّ الرفاء وكشاجم لكان ديواناً ضخماً جديراً بالقراءة والدراسة وفهم التشيّع .

وهذا الشعر الحزين فى الرثاء والبكاء شديد الرقة قليل التكلف يثير الغرابة والدهشة ويشير إلى عواطف الشاعر وشدة إحساسه ، فقد رثى طاوساً مات ، فأخلص فى وصفه كأنه عاكف على ضريح أو واقفٌ على جدث ، وهل يستطيع إنسان أن يصدّق قولَ الشاعر وهو يبكى الطاوس « فلا يجد عذراً لمقلة لم تفض بدم حزناً عليه ، فهو روضة تسعى على قدم » وهو جمال يمشى فى الدار ، فعيناه جميلتان كأنهما فصّان لازورديان ومشيته مشية العروس فهو معجب بنفسه ، لأنه كان يزين صحن الدار ويجعل ضيقها فسيحة ، ولذلك تدرّع الشاعر بالصبر فى هذا البلاء الكبير . . .

ورثى الشاعر امرأة شقراء حسناء لم يسمها ، ولكنه يقول إن المنايا أزعجتها عن قصرها وأسكنتها ضريحاً فهو يدعو لها ويستمطر الرحمة ثم يقول :

لو أكون التراب ما كنت أبلى حين يهدى إلىّ وجهاً مليحـــا

وما زلنا نذكر رثاءه لأحد أولاده ، وتعزيته لصديقه الصنوبرى بوفاة

ابنته . ولا شك فى أن الحياة ابتلته بكثير ، فأصابته العلل والأسقام فوصفها خير وصف ، ثم أصابته بوفاة إخوانه وصحبه ، ورمته بتغير الحال ، فأصبح يشكو فيما نرى أواخر سنيه . وعزيز على شاعر قضى أكثر شبابه فى سرور وطرب أن يرى سحابة الأيام ملبدة متجهمة فى شيخوخته . وما ندرى كم امتدت هذه الشيخوخة لأن الكتب تجهل عنه كل شىء ، فتتخبط فى سنة وفاته ، وتجهل سنة ولادته .

وما نعرف من أواخر سنيه ما يجب أن نعرف لنتم الصورة التى أردنا أن نستخلص من ديوانه ، ولكننا وقعنا فى الديوان على قصيدة تصف علله وأسقامه ، ووقعنا على أخرى تصف تجهم الزمان يقول فيها :

وخانني الدهر فى ثقاتى فشت بعضٌ وخان بعضُ
وعضّنى فيهم بناب والدهر مود بمن يعضُّ
وأسرعتْ فيهم المنايا وسير خيل المنون ركضُ
واسترجعتْ منهم الليالى قروضَها والحياة قرضُ

وكذلك يحس الإنسان انفراده فى الدهر حين ينصرف أصحابه واحداً بعد واحد ، ويشعر أن دوره قد حان ، وأن الشيخوخة مريرة ، وأن الدهر لا يبقى على أحد ، ولا يبقى للشاعر حينذاك إلا الذكريات يتغذى بها ويعيش على صورها . وكذلك فعل كشاجم ، فقد ظل يعيش مع أيام الشباب ، ويتفيأ ظلال ذلك الزهر الذى رتع بقربه ، والنغم الذى عبث بلبه ، والخمرة التى سرت فى جسده ، وظل يحيا مع الأشباح حتى غدا هو نفسه شبحاً ، وأمسى ظلا ، وأصبح اليوم ذكرى من ذكريات الشعر العزيزة ، نتلذذ باستعادتها وتذوقها ، ففيها ابتكار وأصالة ، وفيها اختراع وابتداع ، وذلك كل مزية الشاعر والشعر فى نظرنا .

الخالديان *

تحدثت كتب الأدب والمختارات الشعرية عن هذين الأخوين ، وروت لهما شعراً ، وحكايات ونوادر ، واتفقت على أنهما كانا مبدعيْن أشد الإبداع ، مخلصيْن لفنهما أوفر الإخلاص ونسبت إليهما معاً كتباً ومؤلفات ، وحارت فى التفريق بينهما وفى الحديث عن كل منهما منفصلا عن الآخر ، فكأنهما شخصٌ واحد واسم واحد .

وسبب ذلك أنهما نشآ معاً فى قرية صغيرة قرب الموصل هى « الخالدية » وأقبلا معاً إلى التعلم ، وانصرفا عن القرية بعد ذلك إلى مدينة الموصل نفسها فى مطلع القرن الرابع الهجرى ، والمدينة تنعم بالحركة والنشاط ، وتحتلّ مكانة فى السياسة لذلك الزمان جعلتّها قبلة الأنظار ، فقد لمعت فيها أسرة الحمدانيّين ، واختلف إليها الشعراء ، ووفد إليها فيمن وفد هذان الفتيان ، يمرحان فى رياضها ويسرحان فى جنباتها ، ويطوفان فى مغانيها . ولعلّهما اختلفا إلى مجالس الأدباء والشعراء وسمعا شعراً كثيراً ، وحفظا منه ورويا من محاسنه ، فكانت لهما ملكة فى القول والنظم ، وكانت لهما بعد ذلك أشعار أذاعت اسمهما معاً ، ولفتت إليهما الأنظار ، فقد كانا قبل ذلك بعيدين عن كل شهرة أو صيت . وكتب الأدب لا تكاد تعرف من أمرهما فى الأسرة والنشأة شيئاً . فهى تجهلُ ما كانت عليه أسرتهما وما كان عليه أبوهما ، وما كانا يدينان به ، والمصادر قد تتفق على أنهما ينسبان إلى « خالد بن عبد القيس » أو إلى قرية « الخالدية » .

وتذكر بعض هذه المصادر أن الأخ الأكبر هو أبو بكر محمد الخالدىّ توفى سنة ٣٨٠ هـ وأن الثانى وهو أبو عثمان سعيد الخالدىّ توفى سنة ٣٩٠ هـ ، وهذا هو الاختلاف الوحيد بينهما ، ولولا ذلك لكانا اسماً واحداً وشخصاً واحداً فى الولادة والوفاة والحياة — كما قلنا — .

---

* أبو بكر محمد (٣٨٠ هـ) وأبو عثمان سعيد (٣٩٠)

ولعلّ هذا كان مبعث العجب فى أمرهما ، لأنهما لا يكادان يختلفان فى أمر ، فهما يجتمعان على كلّ مشرب ، ويتفقان فى كلّ غاية ، وينطقان بلسان واحد ومذهب واحد فإذا أحبّ أحدهما فكأنهما أحبا معاً وعشقا معاً وسهرا معاً ، وتغزلا معاً ، ينظمان الشعر ، أو ينظم أحدهما الشعر فيسير بين الأدباء على أنه لهما جميعاً ، ويكتبان فى الأدب وينتشر ما يكتبان على أنه لهما جميعاً .

وقد انتقلا من الموصل إلى بغداد سعياً وراء المعرفة والأدب فاجتمعا فى هذه المدينة الكبيرة على السماع والرواية ، وطفقا يأخذان عن كبار العلماء وعظماء الرواة ، من محدّثين ولغويين ونحاة ، فاشتركا فى القريض ونظما فى أغراض الشعر ، وعملا على تأليف الكتب وتصنيف المختارات . ويبدو أنهما تلفتا إلى جمع دواوين الشعراء واختيارها فكان منهما اختيار شعر البحترى وبشار ومسلم بن الوليد وأبى تمام وابن المعتز والخباز البلدى ، وكان لهذا الاختيار والتصنيف فضل كبير فى صقل شعرهما وفى تغذية أدبهما بالرائع الجيّد من أقوال هؤلاء الفحول . وأكثر الكتب التى صنّفاها ضاعت ولم يصل إلينا منها إلا أخبار ونقول توارثها المؤلفون بعدهما . وقد وقفنا على عملهما لشعر بشار ورأينا فيه ذوقاً وفهماً وأصالة . ووصل إلينا من تصانيفهما كتاب « التّحف والهدايا » .

ونحب أن نقف عند هذا الكتاب فهو يمثّل ناحية هامة من نواحى عملهما الأدبى لذلك الزمان ، صنّفاه على غرار ما كان يصنع رواة الأدب ومؤلفوه ، وجمعا فيه الأخبار على أسلوب العصر وجعلاه فصولا مختلفة ليرسما فيه ما كان فى الهدايا بين الشعراء والأمراء والوزراء والخاصة ، وعند العامة وقد نقلا فيه ما كان من شعر ومن نثر فيمن قبل الهدية أو رفضها ، وفيما كان بين ملوك الغرب وخلفاء المسلمين ، وما كان بين ملوك الهند وبغداد . وفى هذه الفصول صفحات مطوية لا تعرف تاريخها السياسة الغربية فقد أهدت ملكة « رومة » فى القرن التاسع للميلاد إلى الخليفة « المكتفى » هدايا عجيبة ،

وأرسلتْ رسولاً يقابله ، وحملته رسالة تتقرّب بها منه ، ويفهم من هذه الرسالة والرسول أنها أرادت أن تصرفه عن حلفه مع القسطنطينية وأن تدفعه عن البزنطيّين إلى حلف جديد مع الأمم الكاثوليكية اللاّتينية . وكتبت رسالتها السياسية على أحدث ما نتعارف عليه اليوم فى السياسة والدبلوماسية . وقد ضاع نصّها الغربى لقدم العهد وظلام ذلك الزمان ، وحفظ الخالديّان ترجمة الرسالة وتناقلها بعض الكتب القديمة وأصبحت وثيقة هامة للتبادل السياسى بين الغرب والعرب ، وصفحة من صفحات التاريخ تنير جانباً كبيراً من صلاتنا بأوربة .

وإذا أضفنا إلى هذه الوثيقة ما جاء فى « كتاب التحف والهدايا » من رسائل بين ملك الهند وخليفة بغداد وما قام بينهما من صلات فهمنا خطر العرب آنذاك ، ينشد ودّهم الشرقُ الأقصى وينشد ودّهم الغربُ ، وهم بينهما فى منتصف الطريق ، يرسلون السفراء والممثلين ليربطوا بين الممالك وبينهم عن سبيل الهدية والصلة ، كما أراد الخالديان أن يرسما وأن يقولا فى هذا الكتاب .

وفى الكتاب أشياء أخرى ترسم الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العراق وغير العراق خلال القرن الثالث أو القرن الرابع ، لن نعرض لها هنا ، لأننا أردنا أن نشير إلى يدهما فى براعة التأليف والجمع ، وتسقّط الأخبار فحسب ، وضربنا مثلاً لذلك هذا الكتاب ، لنصل إلى معرفة الثقافة التى كان عليها هذان الأخوان ، ولنرسم طريقة التأليف عندهما . فالكتاب منسوب إليهما جميعاً لا يستقل أحد منهما به دون الآخر ، فلعلّ الكبير منهما جمعه وسعى إلى تصيّد أخباره ، وترك لأخيه الصغير تبويبه ونقله وعرضه ، فأتمه كما يقع عادة للمعاصرين من الغربيين أو للمؤلفين المتشاركين . وقد فهم أبو العلاء نسبة الكتب إليهما على هذا الشكل فكتب يقول : « فأما أن يعمل الرجلُ شيئاً من كتاب ثم يتمه الآخر فهو أسوغ فى المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان » .

ولعلنا نستطيع أن نقنع بأن يؤلف الكبير كتاباً وأن يتمه أخوه الأصغر ويبوّبه ، وينسب إليهما معاً ، ولكن كيف نقنع فى نسبة الشعر إليهما معاً ؟ وكيف يقول الكبير شعراً أو يقول الصغير شعراً وينسب إليهما ، وهل يتفق

للرجلين أن ينظما فى معنى وأن ينسب لهما معاً ؟ ذلك ما وقع فى كثير من الشعر الذى روته الكتب والمختارات فنقرأ فيها : « وقال الخالديان ، وأنشد الخالديان » وهكذا نجدهما ماثلين معاً . وهذا الذى يحيرنا اليوم قد حير الأدباء والنقاد منذ ألف عام ، فقال الثعالبيّ فى اجتماعهما معاً وسفرهما معاً كأنهما شخص واحد ما نرويه عن « اليتيمة » :

« وكان ما يجمعهما من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوة النسب ، فهما فى الموافقة والمساعدة يحييان بروح واحدة ، ويشتركان فى قرض الشعر وينفردان ، ولا يكادان فى الحضر والسفر يفترقان . وكانا فى التساوى والتشابك والتشاكل والتشارك كما قال أبو تمام :

رضيعىْ لبان شريكىْ عنان عتيقىْ رهان حليفىْ صَفاء

بل كما قال البحترىُ :

كالفرقديْن إذا تأمَّل ناظرٌ لم يعلُ موضعُ فَرقَد عن فَرْقَدِ

وقال العمرىّ فى « مسالك الأبصار » وهو من رجال القرن الثامن يصفهما وصفاً بليغاً جميلا ، نرويه هنا لترى إلى حيرة الأدباء كذلك :

« كانا رضيعىْ ندى ، وصديعى صباح تبلج عن هدى ، وفرقدىْ سماء ، وموقدىْ ذكاء يقدح ضوءه للفهماء ، وعلمىْ ملَّة من الأدب كادتْ تذهب ، وعلمىْ حلة هى الديباج الخسروانى وهو الطراز المذهب ، وشقيقين تشاطرا الألفاظ والمعانى ، وتشارطا أن تطبعها الجواهر وترفعها المبانى ، وصقرين حطا إلى وكر ، وقلبين اتحدا فى فكر » .

وقد قلَّب النقاد عليهما الأوصاف والتشبيهات والصور، لعلهم يقعون على شبيه لحالهما ، وهى حال تكاد تكون نادرة فى أدبنا العربى ، فلم نسمع بأخوين شقيقين عملا معاً ونظما معاً ثم نسىَ كلّ منهما نفسه ونسب إلى أخيه عمله . والذين يقرءون الأدب الغربى يجدون من الأخوة فى الأدب ما يعيى الحصرَ والوصف والحديث . فقد وقع فى فرنسا مثل ذلك فى القرن التاسع عشر ، واشتهر اسم الأخوين « غونكور » وهى قرية صغيرة لا يتجاوز سكانها أربعمائة

نسمة ، تقع فى مقاطعة « الدّورين» نسب إليها أخوان شابان ، حملا اسمها ، وأنشآ مجمعاً باسمهما ، فخلدا اسم القرية به ، هو «مجمع غونكور » يهب الهبات السمحة للأدباء المتفوقين ، ويمنح الجوائز للمبرزين ، وعلى غلاف مئات الكتب تجد اسم « غونكور » تخليداً لهذين الأخوين .

ومثل الأخوين « غونكور » الأخوان « غريم » فى ألمانيا والأخوان « تارو » ولكلٍّ من هؤلاء وجهة فى الأدب ، وشعار فى العمل والتصنيف لا نعرض له خوف الإطالة ، ولكننا ضربناه مثلاً لما يقع من التشارك والتساوى . ولكن الذى يظلّ يحيّرنا فى قصة الأخوين الخالديين هو هذا الشعر الذى قالاه فى مناسبات مختلفة ، فتشابها فيه شبه القطرة بالقطرة من حيثُ المبنى والمعنى ، لا يكاد يفرّق بين الأخ وأخيه إلا ما وقعنا عليه من التلميح حيناً والتصريح حيناً آخر بالنسبة إلى واحد منهما ، ولكن أشعاراً كثيرة ظلت منسوبة مع ذلك إليهما جميعاً من غير تفريق بينهما .

وما كنا لنعرض لهذه الأشعار ونخصّ بها وقتنا ودراستنا وتسقط المصادر فى الفصل بين الرجلين لولا أنهما من فرائد الشعر الجميل ومن عيون روائعه فقد اصطاد الرجلان صوراً ندر أن تقع فى شباك شاعر من شعراء القرن الرابع ، بل إنها تصلح للعصر الذى نعيش فيه . فالشعر العالمىّ يصلح لكل زمان ومكان . ولقد أغرانا بها أنها قيلت فى حلب وفى بغداد والموصل ، وكانت هذه المدن تعج بالشعراء الأفذاذ يقولون الشعر كما يقولون النثر ويبدعون ، ويعجبون فتسيل الدواوين فى المديح والهجاء والوصف والفخر ، وأحسنها ما قيل فى بلاط حلب حيث اجتمع الشعراء على الإجادة والتسابق حتى لكأن جدران « قصر الجوشن » وهو قصر سيف الدولة كانت ترنم بالأغانى ، وحدائقه تسمع وشوشات الغزل ، كما كان قصر « فرساى » فى عهد لويس الرابع عشر ، إبان العصر الذهبى .

ونريد أن نفرد الأخوين الخالديين من هؤلاء الفحول فى الشعر والنثر والفلسفة وكلهم أعلام لو توزعوا على القرون والأقطار لكان كلٌّ منهم علمَ

القطر والقرن ، فيهم المتنبي وأبو فراس والصنوبرى وكشاجم والسلامى والنامى والببغاء وابن نباتة الفارقى وابن سينا والفارابى وابن جنى وغيرهم ، حتى لقد بلغوا أربعة عشر أديباً يقولون وينشدون روائع الكلام . فماذا كان من هذين الأخوين ؟

كان من الأخوين ما لم يكن لغيرهما ، فقد اتخذا من حياتهما حرية فى العيش ليس لها حدود ولا سدود كما يقولون ، كانا يشربان فى النهار أو فى الليل فيما يبدو ويطربان بالموسيقا والغناء والرقص ، وكان ذلك معهوداً لغيرهما كأبى نواس وبشار وطبقتهما كما كان معهوداً لكشاجم والصنوبرىّ ، ولكنهما دخلا فى طريقة عجيبة هى التى سنقف عندها ، تلك أنهما طافا البيع والأديرة فى كلّ مكان بالموصل وغير الموصل وفى أطراف حلب ، فعاشا أحياناً عيشة السكارى والمجان فى هذه البيع وهذه الأديرة ، ووصفا ما كان من النصارى لعصرهما ، وهما وحدهما فى تاريخنا الأدبى أسهبا فى ذلك وأمعنا فيه وذهبا مذاهب غريبة . فلقد كان غيرهما يطوف بالدّير ويعود منه على شراب وخمرة ليصل بشعره إلى موضوع آخر لا صلة له بالدير وسكانه . ولكنهما كانا يصفان كلّ ما يصادفان ، ويهتمان بأشياء نادرة ، فيرسمان ما لم يرسم غيرهما فى لغة بسيطة رشيقة ساحرة ، وفى أسلوب عذب مستحب .

وقد رسما الأشياء كما رسما الأشخاص فى دقة وتفصيل وذكاء وابتكار ، نحب أن نعرض من صوره .هنا مثالاً لنبوغ هذين الشاعرين وخلودهما فى ميادين الأدب ، فهو ينفع فى فهم الحياة آنذاك ، ويقرّب إلينا صور العيش نستخرجها من خلال الشعر ، بادئين بالأخ الأكبر وقد استطعنا بعد جهد أن نفرد أكثر شعره عن أخيه .

دخل هذا الأخ أبو بكر محمد أديرة مختلفة ، وصفها وخرج منها بانتصارات فى الحب والغزل والوصف ، ولقد دخل ديراً فى الموصل ، فرسم دجلة تحته ، وعرض للغدير والخليج ، وهو على شرف عال ، حسن هواؤه وطاب منظره ، ورقت بساتينه وغدرانه فسكر كما قال بين شروقه وغروبه ، وغنى الجمال فيه ،

فانتهى إلى غزال وصفه بقوله :

واهتزّ غصنٌ البان فى زنّاره وأضاء جيد الريم تحت صليبه

فرسم الزّنار والصليب ، وعبث بالجمال كما راق له أن يعبث ، فلما دخل غيرَه من الأديرة وصف عيشه فيه حين راق وحلا ، فأحسّ ، بأن هيكل الدّير أصبح بيته ، ينادم فى قلاليه رهابنة كانت أخلاقهم أصفى من الراح :

قد عدّلوا ثقل أوزان ومعرفة فيهم بخفة أبدان وأرواحِ

وشّحوا غرر الآداب فلسفةً وحكمةً بعلوم ذات إيضاح

فى طبّ بقراط لحن « الموصلى » وفى نحو « المبرد » أشعار « الطّرماحِ »

وهذه صورة لثقافة الشاعر وفهمه وثقافة الرهبان فى الدير ، يعكفون على الأدب والفلسفة والحكمة ، فيأخذون من كلّ علم بطرف ويجمعون الطبّ إلى الغناء ، والغناء إلى النحو ، والنحو إلى الشعر . وهى صورة رائعة مفيدة تقفنا على الحياة الاجتماعية فى بعض الأديرة وعند بعض الرهبان ، كما تقفنا على جانب من تفكير شاعرنا وحبه وما كان يناقش فيه ، فلم تكن الخمرة كلّ شىء عنده ، ولكنها كانت جانباً من جوانب حياته . وهو يعترف أنه كان ينفق فى الدّير ما معه من أكياس المال فى سبيل هذه الخمرة ، ولكنه كان يفلّ بها جيشَ همومه وأتراحه — على حد تعبيره — .

وهذه الهموم والأتراح كانت سبباً من أسباب الدعوة إلى الخمرة وإلى الشرب ، فهو يدّعى أن قلبه طفح بها فيجب أن تطفح الكأس بالشراب :

قد طفح القلبُ بالهموم فإن طفتَ بكأس فهاتها تطفحْ

ويرسم الرجلُ الجو الذى يريد أن يشرب فيه ، فيطلبُ الليلَ المظلمَ ويتطلب البساط وقد ألقى عليه الورد ففاح العطرُ ، وهناك بعد هذا كله ساقٍ يدير الراح ، شبيه بالقمر أو هو القمر نفسه فى جمال طلعته ينيرُ الظلامَ ، ويحيى ميتَ الليل ، وينعش القلبَ ، ولا تسلْ بعد ذلك عن شعر مطرب مرقص يصف به الأعطاف والبسمات والقدّ . وفى هذا الليل يناجى الثريا ويحسدُها ، فهى مجتمعةُ الشمل على أنها سبعة ، فكيف يفرّق عن حبيبه ؟

فإذا طاب الشراب قام العبث والمجون ، ورقص الدير بمن فيه لهواً وطرباً ، فافتخر الشاعر بما كان منه فى الدّير كما يفخر الفرسان بضحاياهم فى ساحة الوغى ، ومن العجب أن لا يبالى الرجل بما يقول وأن لا يتوفر على شىء من الحشمة وهو فى ذلك الهيكل ، بل يقولُ فى « دير سعيد » ، واصفاً ما وقع :

كم فتاة مثل المهاة سلبنـا ها صليبًا من بين نَحر وجيد
وغرير مثل الغـزال حللنا عقـد زنار خصره المعقـود
وحططنـا رحالنـا بفناء الا هيكل الموثق البعيـد المشيد
والـروابى مشهـرات كغلما ن لنا فى مُحَبَّرات البُرود

وهذا الفخر يرسله أبو بكر الخالدى فيعدّد ما صنع من سلب وسبى ، شبيه بالفخر الذى كان يرسله معاصره أبو فراس الحمدانىّ حين يزور « خرشنة» أسيراً فيعدّد ما صنع من غارة ومن سبى فى حروبه ضدّ الروم ، يختار فى السبى كما يقول : « الغادة الحسناء والظبى الغرير » ، وهذا الشبه باصطياد السبى لا يقرب بين الأمير الشاعر ، والشاعر الماجن ، فلكلّ امرئ من دهره ما تعود وعادة هذا الشاعر الخالدى أن يغير فيما رأينا على بيوت الأديرة وأن يجد فيها صيدَه ، فيشرب ويسكر وكأنه فى حانة ، ليغنينا هذا الشعر الذى نجد فيه على فجوره وتّهتكه صورة بارعة لحياة عدد من الشعراء عاشوا لأنفسهم ولذائذهم ، فما طمحوا إلى سلطان ولا طمعوا بالحكم ، وقد كان بعض حياتّهم زقّاً وقينة ، وكانت حياة غيرهم بعيدة عن هذا ، لذلك أردنا أن نصف جانباً من هذه الحياة بعد أن عرف الناس من حياة المتنبى وأبى فراس وغيرهما ما عرفوا ، طموحاً إلى الحكم والشهرة والمجد ، وعزوفاً عن هذا المجون حتّى لكأن الشاعر الحمدانى ينقدُ هؤلاء لعيشهم حين يقول :

لئنْ خـُلِق الأنامُ لحثّ كأس ومزمار وطنبـور وعـُـودِ
فلمْ يـُخلق بنو حمدانَ إلاّ لحمـد أو لبأس أو بجودِ

ولسنا هنا فى صدد الموازنة والتفضيل ، بين عيش الأديرة ومقارعة الكؤوس ، وعيش المعارك ومقارعة الأبطال ، لأننا نعرف أن الحياة ألوان ، وأن هذا اللون

الذى كان يصطنعه الشاعر الخالدى لا يتصل أكثر ما يتصل إلا بالحرية والانفلات من القيود الاجتماعية يجرى فى حلبة اللذائذ ، ويشرب كلما عنّ له أن يشرب ، فلا يجرى مع أولئك الشعراء الطامحين فى مضمار واحد ولعل أحسن ما يعبر عن حياة الخالدىّ قوله فى طريقة العيش :

ألا فاسترزق الرحمن خيراً ... وسرْ بالكأس نحو السكر سكرَا
فأيام الهموم مقصَّصَاتٌ ... وأيام السرور تطيرُ طَيرَا

وهى فلسفة قال بها غيره من المجان قبله أيام « والبة » وقبل « والبة » ، بل نادى بها أبو نواس وبشار وغيرهما ، وتحملوا فى سبيل الدعوة لها عنتاً كبيراً ولعنات كثيرة ولكن الشاعر الخالدى يلح على هذا اللّون وينحو باللائمة على من يخالفه فيقول :

يا تاركًا طيبَ يومه لغد ... تَبيعُ عينَ السُّرور بالأثرِ

بل إنه يعجب للدنيا كيف تهاجمه وتحطمه ، وهو يحاول عمرانَ أيامها باللذائذ والخمرة والنساء فيقول :

يا خليلىَّ مَن عذيرى مِن الدُّنْـ ... يا ومِن جَورها علىَّ وصَبرى
عجبًا إننى أنافس فى عمرا ... ن أيامها وتخربُ عمرى ؟

ونحن نعجب لهذا العمران الذى يصطلح الشاعر على وصفه والفخر به والاعتداد بإتيانه ، بعد الذى بسطنا من عكوفه على المجون ، مما أبحنا روايته وتخيرْنا فيه فكتمنا ما لا نبيح مثله لبحوث سائرة كالذى نسجل هنا .

ونحن بعد أن وصفنا جانباً من حياة الشاعر الخالدى الأكبر فى الخمرة والعبث أو السعى إلى الأديرة ، نحب أن نتعرض للجوانب الأخرى ، فقد قلنا إن الخمرة لم تكن عنده كل شىء فى شعره وحياته وإنما كانتُ له جوانبُ أخرى ، فقد دخل الرجلُ فى المديح وفى الهجاء وفى الوصف الخالص ، فمدح الوزير « المهلبىّ » ومدح « سيف الدولة » ، وهو حين أراد أن يهنئ المهلبى بالعيد بارك له بالفطر ودعا له بالقبول وقال إن الهلالَ كبّر حين رآى الوزير كما يكبر الوزيرُ حينَ يرى الهلال ، ثم تمنى له السعدَ والإقبالَ واليمن ،

ولكنه لم يستطع ختام المديح أنْ يسكت عن الخمرة وكئوسها فقال :

وإنْ رمضانُ أطاح الكئوسَ فشوالُ يأذن فى أنْ تُشالا
فواصلْ بيُمْن كئوسَ الشَّمول يمينًا مقبَّلةً أو شمالا
ولا زلتَ عن رتب نلتَهــا ومن ذا رأى جبلاً قطّ زالا ؟ !

فابتكر وابتدع وأضاف إلى المديح ما لم يضف الشعراء ، ورأى أن وزيره فى مراتبه لا يزول لأنه جبلٌ والجبال لا تزول .

ولكنه حين تلفت إلى دار « سيف الدولة » ، وصفها بريشة بارعة ، ولعل هذا الوصف وحده هو الذى بقى لنا من صورة قصر الأمير ، فهو يغنى عن التاريخ ، ويسد ثغرة كنا نأسى لها ، وهذه الألواح التى خلفها الخالدى الأكبر تصف ظاهر العمران والحدائق فحسب ، ولكنها مجزية جميلة ، فقد قال إن الجدران عالية حتى لتعلو سموّ الفرقدين وإن صحنَ الدار واسع يرتدّ الطرف دون مداه ، وأنّ الحدائق ناضرات تستدعى الصبوح والغبوق ، فالخشخاش على أوراقه الخضر اللدان كأنها سوالف غانيات فاتنات ، وشقائق النعمان تحكى اليواقيت المنظومة أو الخدود حين تكسوها الراح ثوباً أرجوانيًّا ، والمنثور قد بدا كأثواب القيان ، والآذريون مثل كأس من عقيق . وهكذا أحصى الشاعر كلّ ما فى الحديقة مما وقعتْ عليه عينه واستقرّ فى ذهنه ، فكان رساماً بارعاً ، يصطاد الصور الجميلة فى مديحه أو فى هجائه ، فهو وصاف دقيق لا يقلّ فى إحسانه عن زملائه أرباب هذه المدرسة الشامية التى نزعت إلى تجسيد الأشياء والإيغال فى الصورة ، والذهاب مع الخيال إلى أبعد أغواره ، يكاد يسير على مذهب ابن الرومى . ولعله يزيد عليه فى رقة اللفظ وفى موسيقا التعبير ، فهو يصف ستارة عليها صورة لحيوانات فيها البزاة والطيور والسباع والظباء فيقول :

وإنْ بَدتِ الستورُ لنا رأينا بزاةً قد قرنَّ بطيرِ مــاءِ
وأسداً فى مرابضهــا ظبــاء تقابلها على حــال استواء
فلا هـــذا يُراع لذا ولاذا يـَرّوع ذا بجـَوْر واعتـــداء

كأنّ الدارَمكةُ وهى أمنٌ لتلك الوحش من سفك الدماء

وقد رأى الشاعر أن الصورة المرسومة تمثل هذه الحيوانات تمثيلاً قوياً يقربها من الحياة بل يبعثُ فيها الحياة ، فيخاف على الضعيف منها أن يفترسه القوى ، ولكنّ هذا الخوف بدّده تلمس الشاعر للستارة فيهدأ روعه ، ويتمثل لذهنه أنها شبيهة بمكة ، لا يسفح فيها دم ولا يقع فيها قتل ، لأنها الأرض الحرام .

ومن أجمل شعره ما جاء فى وصف النجوم والسماء والطبيعة ، وقد وصف غيماً أبيض ظهر فى السماء فقال :

وتنقّبَتْ بخفيف غيم أبيض هى فيه بين تخفر وتبرج
كتنفس الحسناء فى المرآة إذ كملتْ محاسنُها ولم تتزوَّج

ونحن نرى فى هذه الصورة جمالاً وابتكاراً وإبداعاً لم يسبق إليه ، وهذا هو الشعر فى رأينا : لمحات عبقرية وصور بديعة مبتكرة يحدوها الإلهام إلى ساح الخلود . فالغيم حين بدا فى السماء كان يشبه فى خيال الشاعر هذه القطعة التى كونتها حسرة الحسناء فى مرآتها ، وقد أرسلت فيها نفسَها الجميل وأساها العميق .

ومثل هذه الصورة فى الوصف براعة وقوة قوله فى الغزل يستجدى دمعة يبكى بها المحبوب :

يا نازحًا نزحتْ دمعى قطيعتهُ هبْ لى من الدّمع ما أبكى عليكَ به

ولن نوغل فى الاستشهاد وعرض الألواح فقد قر فى ذهن القارئ أن الشاعر محسن مجيد يستحق الإكبار والذكر ، وأن من الظلم السكوت عنه أو إغفال شعره فقد جمع دواوين الشعراء قبله كما قلنا ؛ ومن الخير أن يتصدى الدارسون لجمع شعره وقراءته .

* * *

هذا ما يقال فى شعر الخالدىّ الأكبر أبى بكر محمد ، أما شعر أخيه « أبى عثمان سعيد » فلا يكاد يختلف عنه فى المعانى والصور ، وطريقته فى التعبير هى طريقة أخيه نفسها لا تختلف ولا تتميز ، ومن العسير أن يصدر

ذلك عن شخصيتين مختلفتين ، ولو كانا أخوين لأب واحد ، وأم واحدة ، ولكنها كانت معجزة هذين الأخوين الشاعرين فقد انطلقا معاً فى دروب الحياة ، لم ينفصل أحدهما عن الآخر إلا بالموت ، فسلكا سبيلهما إلى العواصم والحواضر ، وطرقا الأديرة ، واستسلما معاً للمجون واللهو والعبث فشرب الأخ الأكبر بكئوس كبيرة وتغزل بالساقى وقضى ليله سكران ، وعبث بمن حوله من دُمى الجمال فكان منه الشعر الذى عرضنا له ، وشرب الأخ الأصغر كذلك وتغزّل ودخل الأديرة مع أخيه ، فكان منه شعر كذلك لا يختلف عن أخيه فى التصوير والتعبير كما قلنا إلا فى سخرية ظهرتْ على لسانه ونقد للناس عرضه فى صور وألواح بارعة .

طرق أبو عثمان ميدانَ الشعر مقتفياً أثر أخيه وبينهما عشر سنوات كما ذكرنا ، فتهافت على الوصف وكان طابع العصر وأسلوب الشاميين بين الموصل وحلب ، فما رأى شيئاً إلا رسمه كأنه فنان من معاصرينا قد اتخذ الشعر ريشة يرسم بها الألواح ، فى خفة روح وحركة مدهشة وسرعة خاطر وحضور بديهة يكاد يسبق بها أخاه .

دخل أبو عثمان « دير سعيد » بالموصل كما دخله أخوه ، ووصف الأرض موشاة بالديباج والأغصان تزيّنها الزّهور ، والحمائم تغنى الألحان فتذكر بالأحباب ، كأنها أصوات على رمل وهزج ، ثم راح يصف النسيم ومجلس الخمر بقوله :

وللنسيم على الغُدران رفرفةٌ	يزورها فتلقاه بأمواج
والخمر تجلى على خطابها فترى	عرائسَ الكرم قد زفت لأزواج
وكللنا من أكاليل البهار على	رءوسنا كأنوشروان فى التاج
ونحن فى فلك اللهو المحيط بنا	كأنّنا فى سماء ذات أبراج

فأحاط بكل ما ترى العين وتسمع الأذن وتشتّهى النفس ووصف الحالة النفسية للشرب حينذاك فبلغ بدقته ورقته مبلغاً لطيفاً يسيل عذوبة وجمالاً ثم عطف على الندمان والغزال فقال :

أهزّ عطفىْ قضيب البان معتنقاً منه وألثمُ عينىْ لُعْبَة العاج

ونحن نرى فى الصورة والتعبير توفيقاً بارعاً ، على قافية لا تلين دائماً لمثل هذه المواقف .

ويحلو للشاعر أن يخلو إلى الليل وأن يعبث فيه وأن يصف ما يقع منه خلاله فيقول :

يا حسننا نحنُ فى لهو وليلتُنـــا بزُهر أنجمها تُرمى العفاريتُ
وقدْ تضايقَ فى السكر العناق بنا كما تضايقَ فى النظم اليواقيتُ

وهذه الصورة تصفُ الحركة فى دقّة ، فالكلّ يعمل : لهو دائم ، ونجوم ترمى العفاريت ، وسكر وعناق ، ويزيد الحركة حسناً هذه التعابير المنتقاة المختارة « يا حسننا » و « تضايق العناق » وهى موفقة بديعة .

وكانت له جارية سوداء اسمها « شغف » أحبها وتغزل بها غير مرة ، فهى مغنية محسنة رقيقة ، خفيفة الظلّ وصفها بقوله :

تركتْنـــا بطيبها إذْ تغنتْ « شغف » بين أنّة ونحيب
طبــة بالغنـــاء فهى لأسقا م النـــدامى لطافـــة كالطبيب
ألفتْها القلوبُ حين رأتْهـــا صاغَها اللّهُ من سَواد القُلوب

ولا شك فى أن الشاعر نظر إلى قول ابن الرومى حين وصف جارية مثلها فقال إنها صيغت من حبّ القلوب والحدق ، كما أشار الثعالبى إلى ذلك ، ولكنها سرقة لطيفة إن جاز اتّهام الخالدى بالسرقة . ويعود الشاعر إلى هذه الجارية فيقول إنها واحدة الحذق لا نظير لها ، كالمسك لوناً وبهجة وغنى ، فجمع كلّ ما يقال فى السواد وفاق نظراءه .

وما دمنا فى صدد العبث بالحسان والغلمان ، فلا بد من رواية بيتين عبث فيهما أبو عثمان فقال :

وشادن قلتُ له : ما اسمه ؟ فقال لى بالفَتح : « عباثُ »
فصرتُ من لثغتـــه ألثغـــا فقلتُ : أين الكاثُ والطاثُ ؟

وهذا يدلّ على ما قلنا قبل قليل فى رقة الشاعر وخفة روحه مما تميز به .

فإذا عرضنا لقصيدته فى غلامه « رشأ »— وكان شاعرنا يتخذه خدناً وصديقاً وأميناً للسرّ كما نقول اليوم — وجدنا فيها دقةَ الوصف وبعدَ الخيال وقوةَ الوفاء ، فالغلام قد كتب ديوان الشاعر بيده ، وهو الذى خلفه للأجيال ، فاعترف له أبو عثمان بذلك ، وذكرَ محاسنهَ الخلقية والخلقية ، فقال إنه صغيرُ السنّ كبيرُ المعرفة ، تمازج فيه الضعفُ والجلد ، أكحل العين ، كيس ، طريف المزاح ، مليح النادرة ، ولنستمع إلى تتمة ما يقول الشاعر فيه بلسانه على أسلوب مطبوع خال من كل تكلف وتعقيد :

ما غاظنى ساعةً فلا صخبٌ يمـرّ فى منزلى ولا حردُ
مُسامرى إنْ دَجا الظلامُ فلى منه حديثٌ كأنّه الشَّهَدُ
مباركُ الوجه مُذْ حظيتُ به بالى رخىٌّ وعيشتى رَغَدُ
خازنُ ما فى يدى وحافظُه فليسَ شَىء لدىَّ يفتقدُ
يصونُ كتبى فكلها حسنٌ يَطوى ثيـابى فكلها جددُ
وحاجبى فالخفيف محتبسٌ عندى به والثقيـل مطردُ
وصيرفىّ القريض وازنُ ديـ نار المَعانى الجيادِ مُنْتقدُ

ولا نستطيع أن نورد القصيدة كلها ، فهى مشهورة منشورة فى عيون الكتب ، يتابع الشاعر فيها وصف المزايا ، فيقول إن الغلام بصير بالطبيخ ، يدير المدام ، فهو يحوى أفضل الصفات التى يشتهيها الشاعر فى نديمه ، ويتمناها الأديب فى أمين سره لذلك العصر ، وهى من الشعر الشخصى الذى عرضنا له من قبـل يصف الحياة الداخلية — إذا صح التعبير — ويدخل فى الشعر الواقعى ، فلا يتصل بغبار المعارك ووصف السباسب ، وركوب الصعاب ، والسعى إلى الأمير أو الخليفة ، لأنه شعر لا يمتّ بنسب إلى الشعر الرسمىّ ساد حقبة طويلة ، وعاصر هذا الشعر . فمن الظلم أن يسكت عنه النقدُ ، لئلا يتهم شعرُنا بأنه كله فى الاستجداء والوقوف على أبواب الملوك . وهو شعر إنسانىّ يصف الطبقةَ العامةَ فى بيوتها وأسواقها ومباذلها وصفاً واقعيًّا أو قريباً من الواقع ، مستخدماً ألفاظ العامة وتعابيرَها لزمانه ، بل يستعملُ لغةً قريبة من

هذه الأوساط ، مفهومة ميسورة ، يدركها من يتقن الشعر ومن لا يتقنه ، فكأنه يصوّر المعانى والألفاظ التى يحبها الشعبُ ويستسيغها ، فيترنم بها ويتغنى ، وفى أغلب الظنّ أن الشعبَ يفهمُ الشاعرَ الذى يقولُ فى غلامه :

إذا ابتسمتُ فهو مبتهج وإنْ تنمّرتُ فهو مرتعدُ
ذا بعض أوصافه وقد بقيت له صفات لم يَحوها العددُ

بل لعله يحب هذا الشاعر الذى لا يتنطع ولا يتكلّف حين يصف بيته وبيئته وجوه فيساير العصرَ ويوافق المحيط ، ويمثلُ العيشَ فى صور قريبة يسيرة لا تسفّ ولا تبتعد عن الفهم ، وهذا أبعد ما يرمى إليه الشاعر الموفق .

وهذا الشاعر صريحٌ فى شعره لا يكادُ يخفى أمراً يقع له من خير أو شرّ بل إنه يصوّر حاله فى شجاعة وجرأة وصدق فهو يعرف أنه لا يصطنع الشعر للناس ولا يرصف الجواهر للبيع ، وإنما جعله لنفسه فى حاجات نفسه . فقد أحب فتاة وصدت عنه الفتاة لفقره وملابسه الزريّة فقال :

صدّت مجانبةً « نوارُ» ونـأى بجانبها ازورارُ
ورأتْ ثيابى قـدْ غـدَتْ وكأنّها دِمَنٌ قـفـارُ
يا هذه إنْ رُحت فى خـلَق فما فى ذاك عارُ
هذى المُدام هى الحيا ةُ قميصُها خـزَفٌ وقـارُ

فانظرْ إلى التشبيه وإلى الموازنة بينه وبين المدام ، والخمرة مع ذلك هى الحياة فى نظره ، وثيابها خزف وقار ، والمهمُّ فيها مفعولها وأثرها ، كما أن المهم فى الإنسان عمله وما يحسنه . وقد كان أبو عثمان يعرف لنفسه قدرَها ، ويعرف لشعره مكانته ، ويعلم أن الثيابَ لا تقف حائلاً دون إكبار الشاعر وتقدير شعره . فهو يرى نفسه فوق البشر وفوقَ الناس ، بل ينظرُ إلى الناس نظرةً لا نستبيح نقلها بلساننا وإنما نترك له التعبير عنها ، فهو يقول :

لو لم أكن مشبهـًا للناس فى خلقى لقلت إنىَ من جيل سوى البَشَرِ
أو لم يكن ماءُ علمى قاهرًا فكرى لأحرقتْنىَ فى نيرانها فِكَرى
تزيدنى قسوة الأيام طيبَ ثنا كأنَّنى المسكُ بينَ الفهر والحجر

ألفتُ من حادثات الدهر أكبَرها فما أعُوج على أطفالها الأُخَرِ
لا شيءَ أعجب عندى فى تباينه إذا تأملتُه مِنْ هذه الصُّوَرِ
أرىَ ثياباً وفى أثنائها بقرٌ بلاَ قُرُون وَذا عيْبٌ على البَقَرِ

وفى هذا القول فخر بالعقل والفكر لا بالنسب والنشب ، وهو نادر قليل إلا عند الفحول كأبى الطيب المتنبى وهو معاصر للخالديين ، وقد جاراه أبو عثمان وقلده فى الحكمة وسخر من زمانه وأهليه واستصغرهم كما استصغر المتنبى ملوكَ عصره فجعلهم كالأرانب . ولكنّ شاعرنا هجا الزمانَ وأهله هجاءً لم نقع على مثله إيلاماً وإيغالاً فى السخرية . وللمتنبى عذر فى تعاليه فقد وطئ بساط الملوك ، واستمع إليه هؤلاء الملوك وسعوا إلى سماع قوافيه فى مديحهم ولكن الخالدى لم يقع من عصره إلا على الفقر فى لباسه والفوضى فى معاشه والمجون فى لياليه ، فكيف ساغ له أن يجعل من حوله كالبقر بل يجعل البقر فوقهم ، وإذا كان شاعرنا فى القرن العاشر يقول هذا فإن الأخوين « غونكور » اللذين تحدثنا عنهما فى صدر البحث نظرا إلى الناس فى القرن التاسع عشر فقالا : « إن الرجال قرود ولكن القرود لا يأكلُ بعضُها بعضاً كما يفعل الرجال » وهما فضلا القرودَ على الرجال ، على تسعة قرون بين القولين . فكيف اتفق للفكر الإنسانى أن يقول بلسان الخالديين فى الشرق هذا الهجاء ، وأن يعود ثانية لينطق بلسان الفرنسيين فى الغرب على هذه الصورة . إن الرءوس الكبيرة تلتقى فيما تولد من معان على اختلاف العصور والأوطان — كما تقول الأمثال الغربية — .

ونحن لا نحب هنا أن نوازن بين الفكر العربىّ والفكر الغربىّ ، ولكننا عجبنا للمشابهة والقرابة ، ودهشنا لإغفال الشاعرين فى الشرق ، ورفعة غيرهما من الأنداد فى الغرب .

وإذن فإن شاعرنا أبا عثمان لم يكن حليفَ مدامة فحسب ، ولم يكن أليف صبابة فحسب ، وإنما كان مفكراً عاقلاً يستخلصُ من دهره وعيشه بين العامة حكماً وأحكاماً جليلة جميلة . وحسبنا أن نروى له بعض أبياته فى

الحكمة لنجعله فى مصاف الحكماء فى شعرنا العربىّ حين يقول فى هذه القصيدة نفسها :

أصفو وأكدر أحيانًا لمُختبِرى ... وليس مستحسنًا صفوٌ بلا كدَرِ
إنى لأسْيَرُ فى الآفاق من مثَلٍ ... سارٍ وأملأُ للأبصار من قمرِ
إذا تشككْتَ فيما أنتَ مبصرُه ... فلا تَقُلْ إنّنى فى الناس ذو بَصَرِ
لقدْ فرحتُ بما عانيْتُ مِنَ عدمٍ ... خوفَ القبيحيْن من كبرٍ ومن بطَرِ
وربّما ابتهجَ الأعمى بحالتهِ ... لأنه قد نجا من طيْرة العوَرِ
ولستُ أبكى لشيْبٍ قد مُنيتُ به ... يبكى على الشّيْب من يأسى على العُمُرِ
كنْ من صديقك لا من غيره حذرًا ... إنْ كان يُنجيكَ منهُ شدّةُ الحذَرِ
ما أطْمئِنُّ إلى خلقٍ فأخبره ... إلاّ تكشّف لى عن لؤم مُختَبَرِ
وقدْ نظرْتُ إلى الدُّنْيا بمقْلتِها ... فاستصغرَتْها جفونى غايةَ الصّغَرِ
وما شكرتُ زمانى وهو يصعدُ بى ... فكيفَ أشكرُه فى حال مُنْحدَرِى
لا عارَ يلحقنى أنى بلا نشَبٍ ... وأىُّ عارٍ على عيْنٍ بلا حوَرِ
فإنْ بلغْتُ الّذى أهْوى فعَنْ قدَرٍ ... وإنْ حُرِمْتُ الذى أهوى فعنْ عُذُرِ

ولعلنا أطلنا فى رواية الأبيات ، ولكننا رأيناها جديرة بالرواية كلها ، جديرة بالحفظ لأنها تصوّر الزمان على اختلاف العصور ، وتصوّر الناس على اختلاف الأقطار ، فهى بعيدة النظر ، عميقةُ الفهم ، موسيقيةُ التعبير ، نتمنى أن تستوىَ فى مدارسنا مع قصائد أبى تمام والمتنبى والمعرّى فى الحكمة التى تلقى على طلاّبنا شعراً ، فهى وإن كانتْ تتشح بالسواد كما يقولون ، وتنظرُ من وراء منظار أسود إلى الحياة ولكنها صادقة بليغةٌ صريحة توجز الحكمةَ العباسيةَ وتمثلها خيرَ تمثيل .

وهكذا استطعنا أن نتبين فى الشعر الذى جمعناه من أطراف الكتب والمخطوطات جوانبَ من شعر الشاعر ، فيها العبثُ والمجون ، وفيها السخرية والنقد ، وفيها الحكمة والفخر ، وفيها البراعةُ فى الوصف والتمثيل ، ولا نحبّ أن نختم شعر هذا الشاعر قبل أن نعرض لنظرته إلى الشعر ، فقد أراد أن يهجو زميلاً له

من الشعراء فصوّر شعرَه فى بيتين يقعان من الظرف واللطف موقعاً بعيداً ، قال فيه :

شعرُ « عبد السلام » فيه ردىءٌ ومُحال وساقطٌ وبَديعُ
فهو مثل الزّمان فيه مَصيفٌ وخَريف وشتوةٌ وربيعُ

فانظر إلى البراعة فى تشبيه الشعر بالزمان واختيار الأقسام من الفصول بما يقابل الأقسام من ألوان القول . وفى جملة براعته مما غنّى له قوله :

بليتُ بأحسن الثّقلَيْـ ـن إقبالاً ومُنْصَرفَا
فمثل الخِشف ملتفتاً ومثل الغصن منعطفاً
يسوّفنى بنائله وقد أهدى لىَ الأسَفا
وآخُذُ وصلَهُ عِدةً ويأخذ مُهجتى سَلَفا

وهذه المعانى أكثرها مطروق معروف ، ولكنّ صياغتها وخفة وزنها تجعل لها فى ميدان الغناء مكاناً رحباً لألفاظها المختارة كذلك وتعابيرها المستساغة .

ولا نريد أن يفهم القارئ أننا نستحسنُ شعر « أبى عثمان» ونفضّله ، أو نميزه على شعر أخيه الأكبر ، فنحن لا نملك ديوانهما كاملاً ، وإنما هى مختارات جمعناها . ونحن لا نستطيع مع ذلك فى هذا العصر أن نقول فى الحكومة بينهما ، فقد اختلف معاصروهما فى ذلك ، فأقبلوا إلى أبى إسحاق الصّابى يسألونه رأيه فى تفضيل أحدهما على الآخر ، فقد كانوا يغرمون بالتفضيل والسبق والتغليب والزعامة والرئاسة والإمارة شأن أجدادهم فى ذلك فتخلص أبو إسحاق فى جوابه ونظم رأيه شعراً فقال فيهما :

أرى الشاعريْن الخالديَّيْن سَيّرا قصائدَ يَفنى الدّهرُ وهى تخلَّدُ
جواهرُ من أبكار لفظ وعُونه يقصّر عنها راجزٌ ومقصّدُ
تنَازعَ قومٌ فيهما وتَناقضوا ومرَّ جدالٌ بينهم يتردَّدُ
فطائفةٌ قالت : « سعيدٌ» مقدَّم وطائفةٌ قالتْ لهم : « بل محمَّدُ»
وصاروا إلى حكمى فأصلحتُ بينهم وما قلتُ إلاَّ بالَّتى هى أرشدُ :
هما فى اجتماع الفضل زوجٌ مؤلَّفٌ ومعناهما من حيثُ يثبتُ مُفْرَدُ

ويبدو أنّ القوم قبلوا هذه الحكومة من أبى إسحاق الصّابى ، وهو ركن من أركان الأدب ، ورضى الثعالبى عن هذه النتيجة فقال : « وما أعدل الحكومة من أبى إسحاق . فما منهما إلاّ محسن ينظم فى سلك الإبداع ما فاق وراق . ويكاثر فى محاسنه وبدائعه الأفراد من شعراء الشام والعراق » وقد أعجب المعرى بهما ودهش لحالهما فقال : « ولهما ديوانٌ ينسب إليهما لا ينفردُ فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلاّ فى أشياء قليلة . وهذا متعذّر فى ولد آدم ، إذْ كانت الجبلة على الخلاف وقلة الموافقة . فأما أن يعمل الرجلُ شيئاً من كتاب ثم يتمه الآخر فهو أسوغُ فى المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان » .

وقد رأينا أنّ العمرىّ صاحب «مسالك الأبصار» جعلهما شيئاً واحداً ، فكأنهما فرقدان أو علمان ، أو صقران حطا على وكر ، أو قلبان اتحدا فى فكر ، بلْ هما كاليدين فى المقاصد تعاضداً ، وكالمبتدأ والخبر يترافعان ، أو كالسمعين يوديان إلى خاطر ما يسمعان بل هما كالعينين فى وجه ، أو كالمصراعين على باب واحد . . .

ولعل العمرىّ استنفدَ التشبيهات فى الاثنين المتماثلين فأعياه الوجهُ الذى يريد ، كما يعيي غيره بعد قرون أن يجدَ وجهاً للموازنة بينهما . وقد سقنا من محاسن شعر كلّ منهما وألوانه ما يكفى لفهم طريقتهما فى الشعر والقول . وقد ذاقا ألوان الحاجة والبؤس والعوز ، وتحملا الحسدَ والغيرةَ والحقد ، وقام لهما معاصرهما الشاعر « السرىُّ الرفاء » فى خصومة عنيفة فدس أحسنَ أشعارهما فى « ديوان كشاجم » ، ليبرهن للناس أنهما سرقا شعر الرجل ، وليؤلب عليهما الخصومَ ، لعله يمحو ذكرهما . ولكنهما لبثا فى قائمة الشعراء الخالدين رغم الحسد والتنافس ، فقد انطلقا من قريتهما الصغيرة الخالدية ليحملا شهرتها إلى عواصم العصر وحواضره بل ليبلغا إلينا على عشرة قرون ، لعلّ هناك من ينهض لتكريمهما كما ينهض الغربيون لإكبار شعرائهم ، فقد أنفقا معاً عشرات السنين أخوين متفقين فى الاسم والتصنيف ، فتركا كتباً كثيرة فى مختار الشعر ، وكتاباً فى « التحف والهدايا » وآخر فى « الديارات » ، وخلفا هذا الشعر الذى

عرضنا لبعض ألواحه وألوانه ، فلما طوت المنية أكبرهما عاش الأصغر عيش الهزال والضعف والمرض ينتظر الموت فى كل يوم ليلحق بأخيه فى الرمس ، ويقع منه فى الجوار والرفقة والمشاركة كما كانا خلال هذه الحياة الدنيا ، لأنه فقد نصفه العزيز ، ولا يستطيع أن يحيا بالنصف الذى بقى له ، فكأنه أصبح نصف إنسان ومن المحال أن يبقى كذلك .

والذين يعملون لتخليد الشعر يجب أن يفكروا فى إنشاء مؤسسة أو جمعية تحمل اسم الخالدين ، كما فعل الغرب ، تحمل إلى المتسابقين الجوائز ، وتشجع التسابق نحو الشعر وبذلك يخلدون شعراءنا وأدباءنا .

أحمد بن فضلان *

لم يفقد العرب عنصر الجرأة والمغامرة والانطلاق فى ميادين الاكتشاف والرحلة والسياسة ، وإنما كانوا فى فتوح مستمرة على العصور ، كما كانوا حين الفتح الإسلامى . فاتصلوا بجيرانهم من الأمم ، وخرجوا من اتصالهم بآراء وأفكار وآداب وثقافة لم يتناولها البحث العلمى الصحيح عندنا ، بل إنهم اتصلوا بغير جيرانهم فأبعدوا فى المسافة وفى الخيال حتى صعب على العقل أن يصدق ما فعلوا غالباً . ولكنّ النصوص التى بلغت إلينا تؤكد هذه الهمة الجبارة فى السعى وراء المجهول ، وفى الانتصار على الصعاب واقتحام المخاطر . وأتتنا أخبار رحلاتهم فى أقطار بعيدة الشقة شديدة الخطورة ، فأعجبنا بالرحالين والمسافرين إلى أقصى الأرض من شرق وغرب .

ونحن اليوم أمام نص غريب لا يتصل بالأفراد فحسب ، وإنما يتصل بالحكومات وسياستها والخلفاء وأعمالهم وأهدافهم . فقد فكر « المقتدر بالله » ، أو دعاه وزيره إلى ذلك ، فى أن يتصل بأقصى الأصقاع من الشمال ، وأن يبلغ بصلاته الدينية والسياسية والاقتصادية إلى بلاد نهر « الفولغا » ، عند الروسيا ، إلى مستوى الخط الذى يوازى « موسكو » اليوم ، فى تنفيذ معاهدة للصداقة مع مليكها ، يمدّه بالمال والعون والحماية والنصرة . فأرسل لهذا من يسفر بينه وبين ذلك الملك فى وفد رسمىّ ، على وسائط ذلك الزمان وأبعاده وعقباته ، مما يستكثره بعضُنا لهذه الأيام على وجود « الكوميت » الطائرة .

ولكنّ يد المقتدر بالله الخليفة العباسى لصدر القرن الرابع الهجرى كانت فوق ما اتهمه به المؤرخون من إسراف وتبذير وطيش ، وتبديد لأموال الخلافة حتى استدان . فقد أرسل عالماً من علماء المسلمين هو « أحمد بن فضلان » فى بعثة

* رحل إلى بلاد الروس ، سنة ٣٠٩ هـ

دينية سياسية ، مع عدد من رجاله أحدهم من الروس ، والآخر من الترك والثالث من الصقالبة (السلاف) وكان هذا الأخير من قبل ملك الصقالبة ليكون فى صحبة الوفد وفى إرشاده بالمسالك والدروب .

غادر الوفد بغداد فى ١١ صفر ٣٠٩ هـ (الموافق ٢١ يونية ٩٢١ للميلاد) إلى بلاد الفولغا ، وعاد إلى بغداد فى ١٢ محرم ٣١٠ هـ (الموافق ١١ مارس ٩٢٢ للميلاد) فقضى قرابة عام كامل فى رحلته .

وعاد « ابن فضلان » يصف فى كتابه هذه الرحلة ، كما يكتب السفراء تقاريرهم اليوم بعد القيام بمهماتهم . وجاءت رسالته فى أسلوب بديع رائع ممتع ينبض بالحياة ، ويسيل بالغرائب والعجائب وأطرف المشاهدات . تصوّر حال الأقوام والبلاد وعاداتهم المدنية والاجتماعية والدينية ، وترسم الطريق إليهم ، والفوارق التى تفصل بين الشرق والغرب . وهذه الرحلة جديرة بالدراسة والتعليق ، تصف رأى مسلم بتلك الربوع من جانب واحد ، فلا نجد ما يقابلها فى كتب الروس والصقالبة من أثر لذلك العهد ، فهى وثيقة تاريخية ترفع للعرب شأناً فى التأليف والوصف ، وذخيرة من ذخائرنا المدهشة النافعة ، نحب أن نعرض لخطوطها الكبرى فى إيجاز وتبسيط .

ذكر ابن فضلان فى أسلوب مقتضب بليغ هدف الرحلة ، وما كان من مهمته فيها وما وقع له خلالها . وافتتحها بقوله إنه « رسول المقتدر إلى ملك . الصقالبة يذكر ما شاهده فى بلد الترك ، والخزر ، والروس ، والصقالبة ، والباشغرد ، وغيرهم من اختلاف مذاهبهم وأخبار ملوكهم وأحوالهم فى كثير من أمورهم » وأفادنا بأن « يلطوار ملك الصقالبة » سأل أمير المؤمنين المقتدر أن يبعث إليه « من يفقهه فى الدين ، ويعرّفه شرائع الإسلام ، ويبنى له مسجداً ، وينصب له منبراً ، ليقيم عليه الدعوة له فى بلده وجميع مملكته » . وسأله كذلك « بناء حصن يتحصّن فيه من الملوك المخالفين له » . وهؤلاء الأعداء هم ملوك الخزر اليهود ، قد استذلّوا الصقالبة واستعبدوهم ، وفرضوا عليهم الإتاوات والرسوم وأخافوهم بكل سبيل ، فنهض المسلمون لنصرتهم .

فالدعوة جاءت من جانب هؤلاء الصقالبة ، الذين كانوا يسكنون حول نهر

"الفولغا" ، ويمتد ملكهم حتى يبلغ قرب « قازان » اليوم. أرادوا أن يفهموا الإسلام على حقيقته ، بعد أن اعتنقه كثير منهم ، وأن يدعوا للسلطان على منابرهم ، وأن يتخذوا عملته بينهم ، وأن يكونوا حلفاء له ، على أن يعينهم الخليفة العباسي عوناً عسكريًّا ضدّ خصومهم . فأجاب « المقتدر » إلى ذلك وأرسل هذه البعثة ، وحملها مالاً وجراية تنفق فى هذا السبيل وأعطاها هدايا وأدوية تسلم إليهم فدلنا على غنى العباسيين ، وسعة دعايتهم ، وانتشار حضارتهم ، حتى توفرت عندهم الأموال والأدوية والهدايا لعون أوربة الشرقية آنذاك .

واجتاز الوفد فى رحلته شرقاً إلى بلاد فارس ، فمر بالنهروان ، فالدسكرة ، فحلوان فقرميسين ، فهمذان ، فالرى ، فالدامغان ، فنيسابور ، فمرو ، وحطّ رحاله ببخارى ، وهى من أوزبكستان اليوم — إحدى الولايات السوفيتية — تضجّ بالسعى والحركة كما عمرت من قبل بالعلماء والمحدثين والأدباء .

وطالت إقامة الوفد فى « بخارى» ثمانية وعشرين يوماً ، ثم قصد بعدها إلى خوارزم فالجرجانية ، وجمد نهر جيحون ، واشتد الشتاء ، وأقبل شوال (فبراير) فلبث الوفد ينتظر انتهاء الشتاء حتى قضى ثمانية شهور منذ فصل عن بغداد ، وابن فضلان يصف البرد هناك فيقول : « ولقد رأيتُ لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو ، حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحداً ، ولا يستقبله إنسان . ولقد كنت أخرج من الحمام ، فإذا دخلتُ إلى البيت نظرت إلى لحيتى وهى قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار . ولقد كنتُ أنام فى بيت جوف بيت ، وفيه قبة لبود تركية ، وأنا مدثر بالأكسية والفراء، فربّما التصق خدّى على المخدة » . ويصف حال الطبيعة المخيفة فيقول : « ولقد رأيتُ الأرض تنشقّ فيها أودية عظام لشدة البرد ، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك » .

وهكذا قاست البعثة إلى غايتها مصاعب ومخاطر ، أقلها البرد ، بل إنه قد ازداد شدّة حتى قال ابن فضلان بعد ذلك إنّ البرد الذى قاسيناه من قبل يعدّ كالصيف لما يمرّ بنا الآن . وقامت الأنهار والمؤامرات فى سبيلها ، حتى رأينا

أنفاس الكاتب تضطرب وقلبه يخفق، فيحسب فى كل يوم أن الموت منه قاب قوسين أو أدنى . ولكنه مضى فى طريقه على إيمان وعقيدة راسخة يبشر الأقوام بإله واحد ، ويندّد بعقائدهم وكفرهم ، وتحللهم من عادات المدنية الصحيحة ، فرسم لنا بعض القبائل وقد تعرّى الرجال فيها والنساء وسبحوا معاً فى الأنهار ، فصرف وجهه عنهم حياء وخجلا .

حتّى إذا بلغت البعثة إلى أطراف « نهر الفولغا » ، هال ابن فضلان ما رأى من قصر الليل وطول النهار ، فرسمه فى طرافة جميلة ، وقال : « وذلك أنّ الإنسان يجعل القدر على النار وقت المغرب ، ثم يصلى الغداة وما آن لها أن تنضج » ورأى القمر يسطع ساعة فى أرجاء السماء ثم يغيب ويطلع الفجر ، فإذا هو ذاهل لما يرى ، لم يسمع به من قبل ذلك ، ولم يقرأ عنه ، حتّى نقل إليه أن جنًّا تعبث بالأرض والسماء ، فرواه ونقله .

ووصف مراسيم ملك البلغار وما فى أرضه ونهره وعيشه من طرائف وغرائب . فإذا لقى قوماً من الروس وفدوا على تلك المملكة فى تجارة فتح عينيه ليرى ، وأصغى ليسمع ، وأعمل قلمه ليصف ، فإذا بالروس شقر وحمر ، وإذا بنسائهم يضعن على أثدائهن حققاً من حديد أو فضة « وفى كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدى أيضاً » . فلما حدثوه عن إحراق الموتى عندهم ، بهت وسارع ليتحقق ذلك بنفسه كما يفعل الطلعة من العلماء والمحققون من المؤرخين فقال : « وكان يقال لى إنهم يفعلون برؤسائهم أموراً أقلها الحرق ، فكنت أحب أن أقف على ذلك ، حتّى بلغنى موت رجل جليل منهم ، فجعلوه فى قبره ، وسقفوا عليه عشرة أيام ، حتّى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها . والغنىّ يجمعون ماله ، ويجعلونه ثلاثة أثلاث ، فثلث لأهله ، وثلث يقطعون له به ثياباً ، وثلث ينبذون به نبيذاً ، يشربونه يوم تقتل جاريته ، وتحرق مع مولاها . »

وذلك أن الرئيس يسأل أهله وجواريه وغلمانه من يموت معه يوم حرقه .

فتنتدب له جارية أو يتقدم غلام ، وأكثر من يتقدم لهذه التضحية الجوارى . فيصنعون لها ثياباً عظيمة وتشرب كلّ يومها وتغنى فرحة مستبشرة لأنها ستدخل الفردوس مع سيدها ، ولا يتاح لغير النبلاء فى نظرهم دخول الفردوس . فإذا انتهى القوم من إعداد الحفل ، وجهزوا السفينة والقبة والسرير ، وأعدّوا الحطب ، أخرجوا الميت وألبسوه الثياب المذهبة ، وسجوه فى القبة على السفينة ، وشربت الجارية وودعتْ صواحباتها ، وحانَ دخولها إلى سيدها استعداداً فى الصعود إلى الجنان ، وعند ذاك تتقدّم إليها العجوز وتدفعها إلى القبة عند مولاها « والرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها ، فيجزع غيرها من الجوارى ، ولا يطلبن الموت مع مواليهن » . ويصف ذلك وصفاً دقيقاً فيقول : « وأضجعوها إلى جانب مولاها ، وأمسك اثنان رجليها ، واثنان يديها ، وجعلت العجوز التى تسمى ملك الموت فى عنقها حبلاً مخالفاً ، ودفعته إلى أثنين يجذبانه وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه . والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت . ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة وأشعلها بالنار ثم مشى القهقرى » وتحترق السفينة بمن فيها ، وتصبح رماداً فيضع القوم مكانها خشبة يكتبون عليها اسم الرجل واسم ملك الروس ، وينصرفون إلى أمورهم .

ولعلنا أفضنا فى رواية كلام ابن فضلان ، ولكننا أردنا أن نستشهد بعبارته لنشرك القراء فى الوقوف على ما فى الرسالة من متعة وفائدة ، فقد أعجب بها العرب القدماء والمستشرقون المحدثون على حد سواء . فهى وحدها شاهدة على تاريخ هؤلاء الأقوام وعاداتهم ، وخاصة ما يلم منها بالروس . نقل عنها الجغرافيون من العرب واستشهدوا بها منذ القرن الرابع الهجرى . فلما ألّف ياقوت معجمه الجغرافى أخذ منها فى مواضع كثيرة من كتابه ، وذكر أن نسخها كانت متوفرة لعهده ، ولكنه شك فى بعض أجزاء منها لغرابتها وعجائب ما فيها .

وعنى بها الغربيون عناية عظيمة ، وخاصة علماء الروس ، فتلفت إليها المستشرق « فرن » Frahn ، فقد عكف على المخطوطات ، ونشر ما جاء فى

معجم ياقوت من أجزائها ، وطبع ذلك سنة ١٨٢٣ ، فى سان بطرسبورغ (لننغراد) قبل أن يطبع كتاب ياقوت فى ليبزيغ . وترجم النص إلى الألمانية وعلق عليه ، ولفت الروس إلى فائدته فى فهم تاريخهم القديم . وأقبل العلماء بعدهم منذ صدر القرن التاسع عشر يوسعونها تعليقاً وشرحاً وتحقيقاً ، يوازنون صلاتها بتاريخهم وصدق ما جاء فيها . فنهض لها فون روزن وكرتشكوفسكى وبرتولد ، حتى اكتشف عالم تركى هو المستشرق أحمد زكى وليدى طوغان نسخة خطية منها نشرها لأول مرة سنة ١٩٣٤ ، وقدمها للعالم الغربى ، وترجمها إلى الألمانية فى كتاب مفيد . وقام الروس بطبع الرسالة، فعنى بها كوفالفسكى وترجمها إلى الروسية . وبادر العلماء فى العـالم إلى التعليق عليها وإرسال الدراسات فى فائدتها ، فى إنكلترة على يد ماكدونالد ، وفى أمريكا على يد فراى ، وفى المجر بمجلاتهم . وتأثر بها الفنانون فصنع الرسام الروسى الكبير (هنرى سميرادسكى) « Henri Semiradski » لوحة كبيرة فى إحراق الجثة ، مستوحياً من وصفها دقائق براعته واشتهرت فى العالم سنة ١٩٢٤ ، وأودعت فى أكبر متاحفهم دليلاً على يد العرب فى خدمة الحقيقة والتاريخ .

وهذه الطبعات الغربية لرسالة ابن فضلان بالروسية والألمانية والمجرية لا تصل إليها أيدى المثقفين الدارسين ، لأنها مفقودة لم تحصل عليها مكتباتنا فى القاهرة ودمشق وبيروت ، ولم تحوها مجامعنا وخزائننا العامة ، فكأنها ما تزال فى نظرنا مخطوطة لم تنشر . وهى على ذلك فى لغات لا يتقنها أكثر العاكفين على الآثار ، لم يقم لها محقق عربى ، فينشرها بيننا ويعلق عليها ويقدم لها ويفهرس للأعلام العربية فيها وما يقابلها بالروسية ، فى لغة عربية تيسر للمثقفين الاطلاع عليها ، فهى كنز وذخيرة من ذخائرنا العظيمة ، تفيد الجيل العربى وتقفه على ما كان لنا من صلات وما فعل أجدادنا فى نصرة الغرب المسلم ، وما قام بيننا وبين الروس والبلغار منذ ألف عام فى عهود ومعاهدات تشبه ما يقع اليوم حين انعكست الآية ، فوقفوا فى قمة الحضارة الإنسانية ونحن ما نزال نصعد طامحين إلى الذرى . والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون .

الوزير المغربي *

لم يكن مغربياً حقاً من بلاد المغرب العربي ، وإنما كان من أسرة فارسية قديمة ، يتصل نسبها بالملك « بهرام جور » أحد ملوك فارس المشهورين ، قدمت إلى العراق وسكنت البصرة وتغلغلت فى حياة العرب والمسلمين ، وانتقلت من البصرة إلى بغداد حاضرة الخلافة ، وشاركت فى حياتها كذلك ، وظلت ترقى حتى أصبح أحد أفرادها على ولاية « ديوان المغرب » فاتصل بالكبار والعظماء والساسة والقواد ، وعرف بمنصبه وسمى به فدعى « بالمغربى » ، وخلفه أولاده فاتصلوا كذلك بالحكم والسياسة والدهاء ، وحملوا لقب أبيهم ودعوا بالمغاربة .

وشغل هؤلاء المغاربة تاريخ العراق والشام ومصر بدسائسهم وفتنهم وحركاتهم ، فكان هذا الجد مع العباسيين يدبر الأمور الخطيرة ، فإذا به ينقلب عليهم ويسير مع الإخشيديين ، ثم ينقلبُ على الإخشيديين ليكون مع الحمدانيين فيصبح صديقاً لسيف الدولة وشعاره الحيل وإعداد الخطط والمناورات فتعلم ابنه « على » سياسته وخطته وسار عليها ، فخدم سيف الدولة ثم ابنه سعد الدولة ، ثم مال عن الحمدانيين إلى الإخشيديين فأفسد بين حلب ومصر ، وأراد أن يلجأ إلى العراق فخاف على نفسه وعاد يلوذ بالعزيز ملك مصر ، ليسير معه حيناً ثم ينقلب عليه حيناً آخر ، ويضطر إلى أن يسكن مصر فلا يبرحها بعد ذلك .

وكان « على » هذا خلال خدمته للحمدانيين مع أسرته ، فولد له غلام فى حلب سنة ٣٧٠ هـ ، سماه « الحسين » فتنقل مع أبيه فتى ، ورأى فى حلب عظماء الرجال وكبار الأدباء فى مجالس أبيه ، وأخذ بأسباب الثقافة والأدب ، فتعلم القرآن والحديث والشعر والنثر والجبر والمقابلة ، فأتقن بعضها . وكانت حلب

* أبو القاسم الحسين بن على المغربي ٣٧٠ هـ – ٤١٨ هـ .

تعج ببقايا العلماء والأدباء ممن عاصر سيف الدولة أو من تخلّف عنه . فلما انتقل أبوه إلى مصر سنة ٣٨١ ، دخل الفتى كذلك فى مجالس عامرة بالعلم والأدب ، وكانت تنافس الشام ، وتجتلب الشعراء والأدباء ، وتغريهم على الوفود إلى رحابها ، فأفاد منها وقد شبّ فاستطاع « الحسين » أن يكمل دروسه وأدبه ، وأصبح موضع تقدير فى البلاد ، فراح يكاتب أبا العلاء المعرىّ ، ويكتب إليه المعرّى مديحاً خالصاً . ويبدو أنه كان يفخر بنسبه ويعتز بأدبه ، ويطمح إلى أن يبلغ مرتبة فى السياسة كما بلغ أبوه وجدّه ، فراح يناوئ الساسة فى مناصبهم ، ووقع فى ذمّ « منصور بن عبدون » وكان ناظراً فى الدواوين بمصر فنجح فى إيقاع الأذى به وبأمثاله من النصارى ، حتى ضربهم الحاكم بأمر الله ، ورمى بهم للكلاب . ولم يسكت النصارى عنه وعن أهله فأوغروا صدر الحاكم ، فأحضر أبا « الحسين » وعمه ، ثم أحضر أخوىْ « الحسين » وأدخلهم الحجرة ، ثم ضرب أعناقهم .

وقد طلب الحاكم إلى جنده أن يحضروا إليه « الحسينَ » ليوقع به ، ولكن الحسين لاذ بالفرار ، واجتاز حدود مصر هارباً سنة ٤٠٠ هـ ، وهو فى الثلاثين من عمره .

وعرف الشاب « الحسين » المغربى أول مرة مرارة الثكل والأذى والنفى والحرمان والخوف ، دخل مصر مع أهله وأسرته مطمئنًّا هادئاً معززاً مكرماً ، وخرج منها مع بعض الأعراب خائفاً يترقب ، يحمل فى صدره جراحاً عميقة خلفتها هذه الفاجعة الأليمة بمقتل أبيه وعمه وأخويه ، فرثاهم بأبيات حزينة ترسم مبلغ أساه ، فقال :

إذا كنتَ مشتاقًا إلى« الطف»تائقًا ... إلى «كربلا» فانظر عراصَ «المقطَّمِ»
تجدْ من رجال « المغربى » عصابةً ... مضرَّجة الأوداج تقطرُ بالدَّم
فكم خلّفوا محرابَ آيٍ معطَّلاً ... وكم تركوا من ختمة لم تتمَّمِ

فأهله شهداء أطهار تبكيهم المنابر وتندبهم المحابر ، سالت دماؤهم فى سبيل الجهاد ونصرة المذهب ، فأصبحت عراصُ المقطم حيث دُفنوا مزاراً

مقدّساً كالطفّ وكربلاء عند قومه من الشيعة المناضلين .

ولا شك فى أنه عقد العزم على الانتقام من الحاكم ، وطوى النية على أن يهدّد ملكه ، وأن يثير الأطراف على المملكة الفاطمية وأن يدفع الأمراء والحكام على الانتقاض والثورة والانقلاب ضد الحاكم . فقدم فى « الرملة » إلى حلة « حسان بن المفرج الطائى » ، وتقرّب منه بشعره ، وأغراه بالطموح إلى منصب عريض وجاه بعيد ، وحبب إليه السموّ والملكَ ، ودفعه إلى أن يخرج من سيطرة الحاكم ، وأن يتفق مع أمير مكة ، وأن يصل بين الحجاز والشام . وقبل أمير الرملة ذلك واتفق مع الحسين على تنفيذه .

وسار « الحسين المغربى » بنفسه إلى مكة ، فاجتمع بأميرها وحدّثه فى الخروج على « الحاكم » ، وفى الاتفاق مع صاحب الرملة ، وفى التوحيد بين القطرين ، وزين له الملك ، فلقبه « بالراشد » وجعله خليفة هذه البلاد الواسعة . ثم دفعه إلى أخذ ما كان بمكة من محاريب الفضة والذهب فضربها دنانير ، وفرّق منها على ذؤبان العرب . وراح الحسين يدعو لسياسته وسار فى القبائل العربية مبشراً بخلافة « الراشد » ، فبايعته ، وطمع فى أن يستولى على مصر :

وقفل الحسين مع الخليفة « الراشد » من مكة إلى الرملة ، ودخل مع الخليفة الجديد إلى حلة حسان ، فتلقاه أمراؤها وقبلوا الأرض بين يديه ، وسلموا عليه بإمرة المؤمنين وقامت المنابر بالخطبة له ، على أنه ملك تلك البلاد العربية الواسعة ، وفيها مصر .

وكاد الشاب الداهية « المغربى » يفوز وينتصر ، ويصبح مصرفاً لأمور هذه المملكة الجديدة كمملكة مستقلة ، إليه تدبيرها ، كما كان تدبير الشام لأبيه وجدّه قبله ، وكادت الأيام تبسم له ، ولكن الرجاء خاب ، فقد علم « الحاكم » بهول الموقف وخطره فبادر إلى إرضاء أمير الرملة . وبذل له الأموال الكثيرة ، وأغدق على أفراد أسرته بمبالغ كبيرة ذكرتها التواريخ ، فأرتدّ أمير الرملة ، ونكث المعاهدة مع أمير مكة . ولما رأى أمير مكة ما كان من حليفه

خاف على ملكه ، وأشفق على مكة أن تخرج من يده ، وطلب إلى صاحبه أن يؤمن سيرَه إلى مكة ، فأجاره ، وأوصله إلى بلده ، وكتب كلٌ منهما إلى « الحاكم بأمر الله » بتجديد الدعوة له ، وإبطال كل ما عداها .

وهنا فشل الشاب فى خطته الثانية ، وأسرع فى الكتابة إلى الحاكم يعتذر ويطلب الأمان فى رسالة صدّرها بقوله :

وأنتَ وحسبي أنتَ تعلمُ أنّ لى لسانًا وراء المجد يبنى ويهدم
وليس حليماً من تقبَّل كفّه فيرضى ولكن من تعضّ فيحلم

وقد قنع الحاكم بتوبة « الحسين » ، وأرسل إليه أماناً لعله من أجمل عهود الحاكم بأمر الله فى تعابيره وألفاظه ، وقد خيّره فيه بين أن يعود إلى مصر ويعرض نفسه للخدمة أو يتوفر على العبادة ، أو أن يرحل إلى غير مصر ، ولكنه جعله خارجاً على الإسلام إذا ما نقض الأمان وبدّل العهد أو دسّ أو اغتال فجميع المسلمين يبرءون إلى الله منه .

ولكنّ هذا الأمان تأخرَ وصولهُ ، فيئس الحسين المغربى من قبول الحاكم وعزم على السفر إلى العراق ، فطلب إلى أمير الرملة أن يؤمّن مسيره ، فأرسل طائفة من رجاله معه حتى خرج به عن أعمال الفاطميّين كلها . ورضى المغربىّ من غنيمته هذه المرة كذلك بالفرار والهرب ، وخابت مشاريعه وخططه وساءت سمعته فى الشام كما ساءت فى مصر ، ويبدو أنّ هذه السمعة سبقته إلى العراق . فلما وصل إلى « واسط » بلغه أن الخليفة « القادر بالله » اتّهمه بالورود لإفساد الدولة العباسية ، وكتب إلى وزيره فخر الملك فى إخراجه ، ولكن الوزير اعتذر عن ذلك ، وأقام أناساً لحراسته ومعرفة حقه ، فلبث عنده مكرماً حتى توفى الوزير مقتولاً .

وشرع « الحسين المغربى » فى استعطاف « القادر بالله » وكتب إليه رسالة فى ذلك ، وصلت إلينا ، وهى تدل على أدب المغربى وبارع حجته وعظيم ذكائه وتشير إلى أثر الأدب فى النفوس آنذاك ، وخاصة فى نفوس الخلفاء والملوك ،

فقد تأثر «القادر» بأدبه وسمح له بدخول بغداد، فشمر إليها الحسين ليرى موطن أجداده ، وحال أسرته فيها، ولكن مقامه لم يطل بها إلا أياماً قليلة لأسباب نجهلها.

وخرج الحسين من بغداد إلى الموصل قاصداً « قرواش » أميرها سنة ٤١٤ هـ ، وهو فى الرابعة والأربعين ، فأقام بها أياماً قليلة فحسب، وذلك لأن وزير قرواش خافه على نفسه ، وحسب له ألف حساب ، وعرف أنه يحتل مكانه قريباً ، فأغراه بمال كثير وطلب إليه الرحيل عن الموصل .

وهكذا كانت توصد الأبواب دون « الحسين المغربى » فى بغداد ، وفى واسط ، وفى الموصل ، بأنحاء العراق ، خوفاً من دهائه وسياسته وفتكه ومؤامراته . وكان يرحل عنها طوراً بالتهديد وطوراً بالإغراء .

واضطر الحسين إلى قصد « ديار بكر » وأميرها إذ ذاك أحمد بن مروان الكردىّ ، فأقام عنده ضيفاً ، ثم عرض عليه أن يكون وزيراً ، فقبل بعد إباء شديد وتمنع كثير . فأقام فى أحسن حال وأرغد عيش ، وخلع ما كان فيه من بساطة وشظف ، وازدهاه الحكم ، وغشيه التكبر والترفع .

وطلبه بعد ذلك أمير الموصل « قرواش » ليعينه وزيراً خلفاً لوزيره الذى مات . وقبل الوزير المغربى الطلب وترك ديار بكر ، واعتلى الوزارة سنة ٤١٥ هـ ، فأرضى الديلم والأتراك واستمالهم ، وتوسط فى السفارة بين الموصل وبغداد بما عرف عنه من سياسة ودهاء . وكاد الأمر يصفو للوزير المغربى ، ولكن فتنة عمياء ثارت فى الكوفة بين العلويين والهاشميين ، زهقت فيها أرواح وذهبت فيها نفوس وأموال ، اتهم الرجل بها ، ففسد مقامه فى العراق ورحل عنه إلى غير رجعة .

وهنا عاد الوزير المغربى إلى صديقه الحميم أحمد بن مروان الكردى أمير ديار بكر ، فأقام عنده ضيفاً معززاً ، يرتع فى النعيم ، ويعيش فى سعة من الرّزق ، على هدوء جميل وقرار هادئ ، بعد أن طوّف ما طوّف فى جنبات الأقطار العربية ، فعرف مسالك الحجاز والرافديْن وشمالىّ الشام وتقلب بين القلق والفزع والأمل والرجاء يحلم بإمارة أو وزارة ، أو إقطاع أو

رزق ومال . فأصبح اليوم على قوّة فى الحكم وبسطة من العيش ، على مقربة من أمير كان يستمتع بالعيش كذلك ، فى رخاء عجيب ، وانهماك بالملذات فقد ذكر ابن خلكان أنه كانت للأمير ثلاثمائة وستون جارية ، يقضى عامه بقربها فلا يعود إلى واحدة منهن إلاّ فى العام التالى ، وكان إلى ذلك ينظر فى مصالح دولته ، ويجتمع بأهله ، ولم تفته صلاة الصبح عن وقتها ، وخلّف أولاداً كثيرين ، وقصده شعراء عصره ومدحوه ، وخلدوا مدائحه فى دواوينهم .

ويبدو أن هذه المملكة الصغيرة كانت صورة للحياة الجميلة فى هدوئها وقرارها ورغدها ونظامها ، فأصبحت فى عينى الوزير المغربى صورة للمدينة الفاضلة ، ورسماً للمملكة السعيدة ، فوصفها الوزير المغربىّ فى « كتاب عن السياسة » ، وأخذ عنها مبادئ الحكم وطريقة الإدارة ، وصلات الطبقات فى الشعب بعضها ببعض ، وما للملك والأمير والوزير والحاجب والقائد من عمل فى المملكة ، وكيف يسوسونها . وهذا الكتاب شديد الذكاء واسع الفهم ، لا يكاد يدانيه فى فهم الحكام كاتب أو فيلسوف على كثرة من كتب فى السياسة بين العرب . بل هو خير كتب الوزير فى نفع الحكام والأمراء والملوك ، فكأنه دروس عملية خطها الرجل خلاصة لتجاربه الثمينة ، فقد رأينا أنه دخل فى سياسات الأقطار العربية ، فعرف « الحاكم » بمصر وعرف « الراشد » بمكة ، و « حسان » بالرملة « والقادر » ببغداد « وأحمد بن مروان » بديار بكر ، « وقرواش »، بالموصل . عرف كل هؤلاء معرفة شخصية وخبرهم عن قرب وأفاد من آرائهم فى الشعب وفى طبقاته ، كما عرف عن أبيه سياسة الحمدانيين . وهكذا رضع السياسة صبياً ، وعالجها شاباً ، وانتصر فيها كهلاً ، وفهمها قبيل وفاته فهماً عميقاً واعياً .

وكتابه « فى السياسة » صغير لا يتجاوز الصفحات المعدودة ، وهو يضيف إلى خزانة الفلسفة والاجتماع كتاباً جديراً بالمطالعة والتقدير . وللوزير المغربىّ كتب أخرى سطرها قبل هذا الكتاب وهى كلها هامة ، فقد اختصر « إصلاح

المنطق » ، وألّف كتاباً فى أنساب العرب وأشعارهم القديمة ، وآخر فى تفسير القرآن ، وفى اختصار الأغانى ، وله ديوان شعر جميل ، ولكنّ كتابه « فى السياسة » أعجبها ، وضع فيه زبدة تجاربه وخلاصة آرائه ، فكان جريئاً جدّاً أباح للمليك أن يشرب الخمرة على ألاّ يبلغ منها مبلغاً يزيل العقل ويصدئ الذهن ، بل ما يكسب هزة وأريحية ويقول : « وأقبح ما بالسلطان أن يبلغ آخر أمد السكر ، فيبقى سلطانه فى ذلك الوقت مهملاً ، بل يجعل لنفسه وظيفة يتعلل بشربها ولا يتعدّاها . ويتناول منها فى أول مجلسه كؤوساً وافرة ، توقد نار الطبيعة وتذكيها . ثم يتعلل بعدها بما يستديم المؤانسة إلى أن ينقضى وقت الشراب وهو ثمِلٌ طيب النفس غير زائل العقل . وليحذر النهوض عن مجلسه وقد انهتك السّتر بينه وبين خدمه وحاشيته » .

وهو فى هذا الكتاب يطلب إلى الحاكم أن يديم السهر وأن يكون يقظاً أبداً ، فالانقلاب ضدّ الحكم يحصل غالباً فى الليل ، فيقول : « والصّبر على السّهر من أشرف صفات الملوك . وغلبة النوم من أدونها . ويجب أن يسهر ربعَ الليل الأول . ويستيقظ وقد بقيت منه بقية صالحة ، وأن يستعين بنوم النهار ، لأنه لا يخاف من طروق حوادثه وفوت تلافيها . ومما يخاف من حوادث الليل جلب الحوادث الهائلة » .

وفى الكتاب نصائح هامة للساسة ، فهو يطلب إليهم ألاّ ينقطعوا عن الزّهاد والعلماء الصادقين فى تديّنهم وورعهم ، وأن يكرموا الأخيار ويقمعوا الأشرار . ويضرب الأمثال فى ذلك ، وكلها مستخرجة من تجربته الشخصية عرفها بنفسه وعاش فى غمارها خلال تنقله بين الأمراء والملوك والحكام ، وخاصة فى بلاط أحمد بن مروان الكرديّ ، فقد اتخذه صورة للحكم الصحيح والسياسة المثالية ، كما قلنا . ويمكن أن يقال فى الوزير المغربى إنه احترف السياسة ودخلها موظفاً ، فكتب مذكراته عنها بشكل نصائح ، فهى نافعة أشد النفع لمن يريد أن يخوض هذا الغمار وأن يدخل فى هذا الباب بل لعلها من أوائل الصفحات التى يجب أن يدرسها الدبلوماسيون فى

مدرسة السياسة ، فإن لم تصلح كلها لزماننا ، فهى تصلح فى جملتها للسياسيين .

وهذه الصفحات التى خلفها الوزير المغربى كانت خلاصة رحلته الطويلة بين الآفاق المختلفة والتيارات السياسية المتناقضة ، على قصر حياته ، فقد سابق الزمان والعصر ، وتعب فى السير والسرى ، كما يفعل العباقرة ، فقضى قبل الخمسين من عمره ، فى ١٣ رمضان سنة ٤١٨ هـ .

وقد روى المؤرخون قصة موته ووصيته ، فكانت غريبة كقصة حياته نفسها ، قال ابن الجوزى : إنه لما أحسّ بالموت كتب كتاباً إلى من يصل إليه من الأمراء والرؤساء من ديار بكر والكوفة ، يعرّفهم أن حظية له توفيت وأن تابوتها يجتاز بهم إلى مشهد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وخاطبهم فى الرعاية لمن يصحبه ويخفره ، وكان قصده ألاّ يتعرض أحد لتابوته ، وأن ينطوى خبره ، فتم له ذلك .

وهذه القصة أو الوصية تثير الظنون حول سلوك الوزير المغربى حيال بعض الشيعة ، أو حيال الممالك التى تمرّ بها جنازته ، وتبعث الحيرة فى فهم أسبابها ، وتشير إلى قلق الرجل فى حياته وقلقه فى مصيره بعد مماته ، فلا شك فى أنه كان يخاف مما جنت يداه من فتن ودسائس واضطراب . ويخاف أن يعاقبه الملوك والأمراء وهو جثة هامدة بعد أن فاتهم وهو جسد يسعى بالدسائس والحذر والفتنة .

وقد شاع عن الوزير المغربى أنه كان يغالى فى مدح علىّ ، وأنه كان يقول : « لولا علىّ لقلت فى الأربعة إنهم أستار لؤم » وذكر بعض المؤرخين أنه كان يتعصب لقحطان على عدنان ، وأنه نظم لذلك قصيدة تناول فيها النبى صلى الله عليه وسلم .

والذين تحدثوا عنه من معاصريه اتهموه بالتهور والدسائس ، وعلى رأسهم « ابن القارح » المشهور الذى كتب أبو العلاء المعرى « رسالة الغفران » فى الردّ عليه . فقد كان ابن القارح يرمى الوزير المغربى بالحقد والعقوق وسوء

التدبير ويلصق به سرقة محاريب الكعبة وضربها دنانير . وتبعه المؤرخون فى الحكم عليه كابن شاكر الكتبي والمقريزى فقد قال هذا فيه : « كان مشاراً إليه فى قوة الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر والبديهة ، عظيم القدر ، صاحب سياسة وتدبير وحيل كثيرة وأمور عظام ، دوّخ الممالك وقلب الدول » .

ولم يكن له صديق يمدحه — فيما نعلم — غير أبى العلاء المعرى ، فقد كان يثنى عليه فى رسائله إليه ، ويفتتح بعضها بقوله : « السلام عليك أيتّها الحكمة المغربيّة والألفاظ العربية » وكان يجد فى إنشائه صورة للفحول من كتاب العرب ، ويدعوه بقوله : « سيدنا » ويصف أدبه بقوله : « ولد من سحر المتقدمين حكمة للحنفاء المتدينين ، يجمع بين اللفظ القليل والمعنى الجليل . . » وهذه شهادة لا تدانيها شهادة لأن أبا العلاء لا يمدح لثواب ولا يشكر لغاية مقصودة ، وهو نفسه يقول للوزير المغربى : « إن كاتبت فلست ملتمس جواب ، وإن أسهبتُ بالشكر فلست طالب ثواب » وظل وفيًّا له ما عاش ، فلما قضى الوزير المغربى شق عليه نعيه وبكاه بدموع سخية حارة ، وتمنى أن يموت قبله ، وذكر آثاره الخالدة من الكتب الثمينة التى تركها للناس ، وتعزّى بأنه لاحق به ميت بعده ، فإن كان الوزير قد أتى ذنباً فالحسنات الكثيرة التى أتاها كافلة بمحوه .

والناظر إلى آثار الوزير المغربى فى النثر والشعر يجد مصداق حكم المعرىّ فيه ، ويفهم سرّ إعجابه به ، فقد كان الحسين على متانة فى التعبير ورقة فى التصوير سواء فى الغزل أو فى الوصف ، وكان مبتكراً ، مبتدعاً فى صوره ورسومه وأخيلته ، فقد كان غزله يصف الأسى ولوعة البعد وشدة الشوق ، بدموع تتسابق على خديه وزفرات تصعدها ضلوعه ، وكان رثاؤه خلاصة حكمته وتجاربه ، فاتعظ بالموت ، وخاف الشيب ، وعرف أن الحياة فانية . وأما نثر الوزير المغربى فيشبه ترسل العصر على متانة وفصاحة ، وبعد عن السجع المتكلّف فى إيجاز بغير إخلال ولين بغير سقوط . فكان كاتباً مطبوعاً وأديباً رفيعاً لعله من أحسن كتاب النثر فى القرنين الرابع والخامس ، بل لعله يلزّ

بعبد الحميد وابن المقفع ويقرن بالصابى ، ففى أسلوبه طلاوة وله حلاوة ، وملؤه حكمة وعقل ومنطق مستقيم .

وهذا هو الذى يجعل الوزير فى طليعة الأعلام تفكيراً وأسلوباً ، ويجعل آثاره فى ذخائرنا الثمينة ، لا تبلى جدتها على الزمان ، بل تزيدها الأيام خلوداً .

ابن سنان الخفاجى *

كان العصر الحمدانى عصر الاستقلال السياسى لسورية الشمالية ، فقد وقف سيف الدولة للتيارات المختلفة حوله تتجاذب دولته ، فنهض العباسيون طوراً لإخضاعه واستمالته ، وسعى الإخشيديون أطواراً إلى إخضاعه وإزالته ، وهبّ الروم البزنطيون بجيوشهم إلى الثغور وما وراء الثغور فنازلهم فى كلّ مكان وتعقبهم فى سورية وفى كليكية ومشى بجحافله إلى الذرى والسهول فردّهم عن الحمى . وعاد بأكاليل الغار يضفرها له حفنة من الشعراء كانوا غرة فى جبين الدهر ، تغنّوا بفتوحاته وانتصاراته العربية وأغدق عليهم فكان موضوع شعرهم وفخرهم ، وكانوا موضع رعايته وإكرامه . حتى أصبح للعصر الحمدانى فى الأدب مكان مرموق وصفحات بيضاء ، تناقلها العرب جيلاً بعد جيل ، كما يتغنّى كل شعب فى العالم بما كان له من نصر وفوز وما كان له من مجد وتاريخ . ويكفى أن نتذكر الأسماء اللامعة التى قرنت باسم هذا الأمير العربى وأن نتذكر القصائد البارعة التى وصفت بطولة الشعب العربى ، ضد المغيرين والغزاة لنعرف أىّ فضل كان لهذا الأمير فى إذكاء نار الحماسة وإيقاد شعلة الحرية والكرامة . ولو جُمعت الأشعار التى قيلت فى معارك العرب ضد البزنطيّين ووضعت القصائدُ بعضُها إثر بعض لكانت « إلياذة العرب » فى القرن العاشر للميلاد .

فلما مات سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ تفرق أهله وأولاده فى سمع التاريخ فما نهضوا لهذا الإرث الخطير ، وما وقفوا لهذا التاريخ وقفة البطولة ، فسكت البيان وخمدت المعارك ، وتحرّك الطامعون وأصبحت سورية الشمالية هدفاً للمستعمرين . فقد خلف سيف الدولة ابنه « سعد الدولة » ولكن الحاكم الفعلى كان الحاجب التركى « قرغويه » فهجم الروم على حلب وعاثوا بالثغور ، وثار

* أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجى ٤٢٣ هـ – ٤٦٦ هـ .

العرب فى كل مكان ، وظل الولد فى هم وغم حتى مات بالفالج سنة ٣٨١ هـ ، فخلفه ابنه « سعيد الدولة » ولكن المدبر لأمره كان « لؤلؤ السيفى » يتصرف بالمملكة تصرف الحاجب « قرغويه » ، فأقبل الفاطميون من مصر يبسطون ظل الحكم على سورية كلها ، وقد كانوا يملكون أكثرها وزحف البزنطيون يصدون الفاطميين فتحالف عدو الأمس مع الحمدانيين ضد المصريين . وكان العار والخذلان حتى مات « سعيد الدولة » سنة ٣٩٢ هـ وخلفه ولداه فى الحكم ، وهما صغيران فأرسل الفاطميون « الوزير المغربى » وغيره ممن خبروا أمر سورية فاستجلبوا الولدين إلى رحاب مصر وتبعت سورية للحكم الفاطمى فى مطلع القرن الخامس الهجرى وأصبح الإقليمان بلداً واحداً آنذاك .

وهنا هبت قبائل العرب فى الشام تريد أن تحكم الولاية ، وأن تنهض بها نهوض سيف الدولة ، فتجمعت حول حلب والثغور ، وأعملت الحيلة والحرب فانتصر منهم « صالح بن مرداس الكلابى » واستولى على حلب وحمص وبعلبك وصيدا وبالس، حوالى سنة ٤١٥ للهجرة . وكان هؤلاء المرداسيون يسيرون على سياسة جديدة هى سياسة الولاء للفاطميين بمصر ، يدفعون ما عليهم ويرسلون من الأموال ما تبقى لديهم ، ولكنهم يريدون أن يقفوا للروم وغير الروم وقفة الدولة المستقلة الحاكمة .

وعاشت فى سورية الشمالية من جديد بطولات جديدة ، وقامت على أرضها معارك جديدة ، وأقبل الشعراء إليها ينشدون ويتغنون لعلهم يعيدون إلى البلاد أنغام الحمدانيين ، ويتقيلون أشباح المتنبى وأبى فراس والنامى والسلامى والسرى الرفاء وغيرهم . وظلت هذه الأنغام الأصيلة العربية تتردد فى جوانب الولاية الشمالية من سورية خلال نصف قرن ، تحت راية المرداسيين ، واشتهر فى هذه الربوع آنذاك الشاعر الأمير ابن حيوس ، والشاعر ابن أبى حصينة ، والشاعر الأمير ابن سنان الخفاجى . وانطلق هؤلاء الثلاثة فى مدائح البطولة العربية ، حتى كان ديوان ضخم جديد قريب أشد القرب من الديوان الحمدانى ، نتحدث هنا عن

شاعر من شعرائه وهو ابن سنان ، ظلمه التاريخ وأغفلته المصادر ، فلم يتحدّث عنه النقاد بما يروى الغليل ، ولم ينصفه المعاصرون ، مع أنه كان طامحاً طموح غيره من كبار الشعراء إلى سدّة الإمارة فى السياسة وفى الشعر . وكلّ الذى جاءنا عن حياته لا يعدو صفحتين تحدّثتا عن مقتله على يد حاكم حلب ، حديثاً لا يخلو من خيال ولا يتعدّى حدود الأخبار التى كان يتملح بها الأدباء لذلك العهد .

ونحن نملك للشاعر ديواناً سجّل فيه ما كان لحياته ، فى الصّبى والشباب والكهولة ، إلى كتاب له سمّاه « سرّ الفصاحة » وجعله فى النقد الأدبىّ كما كانوا يفهمون النقد ، تعرّض فيه للبلاغة والفصاحة ، وضرب الأمثلة من الشعر والنثر . وعن هذا الديوان وهذا الكتاب نسجنا هذه الخيوط ، ورسمنا هذه السطور لعلنا نعيد سيرته فى السياسة والأدب ، فهى سيرة حافلة بدأت بالأسى والحرمان وختمت بالأسى والفاجعة ، فقضى فى سن لا تعدو حدود الأربعين إلاّ قليلاً ، كما قضى عباقرة الشعر فى بلادنا ، فدفع ثمنَ طموحه غالياً ، وسدّد الدّين من دمه .

اتفقت قصائدُ الديوان ومصادر التاريخ على أن اسم الرجل كان « عبد الله ابن محمد بن سنان » ، كما اتفقت على نسبته إلى قبيلة « خفاجة » وهى من عقيل ، عربية تنتمى إلى عدنان ، وقد سكنت أطراف الشام ، وخاصة قرب حلب ، فولد فيها الفتى حوالى سنة ٤٢٣ هـ ، كما يعترف الديوان فى مواضع عدة ولسنا ندرى أين ولد من البادية أو الحاضرة ، ولكننا نلمح فى شعر الفتى آثار البداوة وأخلاق القبيلة ، يذكر الرمل والكثيب ، ويكرّر فى أقواله حبّ العذريين ونلمح كذلك اعتزازه بقبيلته وأمجادها ، فيقول فى مواضع عدّة ، إن أباه من مفاخر القبيلة وإن أمه من بنى تميم ، فنسمعه يفخر على خصمه بقوله :

مهلاً فإنك ما تعدّ « مباركًا» — خالاً ولا تُحصى «سنانًا» والدا
بيتٌ له النسبُ الجلىُّ وغـــيره — دعوى تريد أدلّة وشواهدا

فمن هو أبوه «محمد» وماذا كان موقعه فى العشيرة ، وماذا صنع جدّه « سنان »؟

إننا لا نجد لهؤلاء فى تاريخ حلب أثراً كبيراً هاماً يفيدنا فى تتبع الأمجاد . ولكننا نرى فى حلب قاضياً من الأسرة ، فنفهم أنّ فيها علماء وقضاة ، وأنها من طبقة حسنة لتلك الأيام . والشاعر يعيد علينا فخره بالنسب مرة أخرى فيقول :

ضـلالك ما نسبت إلى « سنان » ولا ضربت خؤولك فى « تميم »

والمهمّ أن نعرف من أقواله أنه عربىٌّ خالص ، نشأ فى طفولته نشأة عربية ، ولكنّ هذه الطفولة لم تخلص من المأساة ، فقضى أبوه وهو صغير . وخلفه مع أمه طعمة للغوائل ونوائب الزمان وحاجات الدنيا ، فلم يستطع الطفلُ حين شبّ إلاّ أن يقول فيه :

أنا ابنُ من لم يدع ذُخراً لوارثه إلاّ الجيادَ وسمراً ذاتَ زعزاعِ

وفى ذلك أسى بما وقع له ، وما خسر من ذخر مالى ، وما بقى له من ذخر معنوى سيبقى زاده فى الفخر ما عاش . ولكنه سيظل محتاجاً إلى غيره ينتظر العون والنجدة ، فهو يصف أسرته وصفاً مؤثراً محزناً حين يقول :

وأترك أسرتى بمقرّ بؤس تَوارى عنه لاعبةُ الغروبِ
أجابوا فيه داعيةَ المنايا لقدْ صعب النداءُ على المُجيبِ

فقد تولى عنه أبوه ومعيله ، وأصبح هو رب الأسرة من غير شك . وأضحى يتألم للحال التى بات عليها أهله ، من بؤس وفاقة وحرمان ، يستنجد ولا منجد ويستغيث بأهله الأقربين ممن يستطيعون ولا مغيث ، ويرسل فى شعره ذلك ، ويصوّره تصويراً يقفنا على ما كان يفعل ، فهو لا يُخفى أمراً ولا يكاد يغفل حاجته ، فيكتب ثانية وثالثة إلى قبيلة « خفاجة » يستحثها ويطلبُ منها العون حتّى ليقول :

بلّغْ « خفاجةَ » عنى إن مررتَ بها ونادها لا أجابتْ دعوةَ الدّاعى
يا خيّب اللّهُ مَن يرجو نوالَكم كمْ تمنعونَ آمالى وأطماعى
وتلبسون الهوينا وابنُ عمكم فى ساحة الذلّ مقذوفاً بجعجاع [١]

(١) الجعجاع : الموضع الضيق الخشن ، لا يقر فيه صاحبه ، والأرض الجدبة

والقبيلة مع ذلك لا تجيب ، ولا تلبي النداء ، ولا تغيث ابن العم ، ولا تصل الرحم ، وإنّما تترك الشابّ فى فلاة مجدبة وأرض خشنة يقاسى آلام البؤس والفقر . ونكاد نستغرب سكوتَ القبيلة عنه ، وانصرافها عن نصرته والعناية به وبأسرته ، فقد عودتنا فى الجاهلية والإسلام غيرَ هذا الذى نراه منها ، ولكننا وقعنا فى الدّيوان على أبيات نرى فيها سبباً من الأسباب التى بسطها الشاعر . ولعل هذا السبب واه لا يُقيم عذراً ولا يردّ خيبة ، وهذا السبب هو انصراف الفتى فيما يقول إلى هواه وعبثه ، فقد استسلم للحب والعشق ، وراح يغنى ويذكر العشقَ والهيام ، فانصرفتْ عنه القبيلةُ ورأت فى حالته خروجاً على المتعارف عندها من كتمان الهوى والبعد عن التصريح ، فأنكرته وأنكرتْ ما كان يقوم به . وكان ذلك هيّناً يسيراً فى الجاهلية وبُعَيْد الجاهلية ، ولكننا فى صدر القرن الخامس للهجرة ، فكيف نقبل هذه الحجة وكيف نصدّق وقوعَ ذلك ! ومع هذا صرّح الشاعر فى هذه الأبيات بالحادثة فقال عن القبيلة بالقصيدة نفسها :

وأنكروا بِىَ أسقاماً مؤرّقة ... ولوعة تتوارى بينَ أضلاعى
وما عليهم إذا ما قلتُ مِن طَرَب : ... يا ديمةَ الغَيْثِ حَيّى سرحةَ القاعِ
نعمْ أحبُّ «سليمى» فأهجرُوا عذلى ... فالقلبُ قلبى والأوجاع أوجاعى
وإنْ دعانى الهَوى لبّيْتُ دعوتَه ... والحبُّ أكرمُ ما لَبَّيْتُ مِنْ داعِ

ولعلنا حين وقفنا عند هذه الأبيات أصبنا سبباً من أسباب الهجر والتقاطع بين الشاب وقبيلته . أو لعلّنا أسرفنا فى تحميل الأبيات من التفسير ما لا تحمل فأبعدنا وأغربنا . ولكننا على كلّ حال وقفنا علىَ خيط من الأسباب التى دعت القبيلة إلى النفور منه ، فوجدت من العار أن يصرّح أحد أفرادها بالهيام والعشق وأن يجرى مع الصبابة واللهو فى كل سبيل .

ومهما يكن من أمر فقد استطعنا أن نقف على حال الفتى فى صباه من خلال قصائده فى الديوان ، فرأينا بؤساً وفاقة وحاجة ، وعلمنا أنه كان فى شظف من العيش ، يُقاسى ، وفى رأسه الصغير تدور آمال ، وتضحكُ مطامع وتتحرّك فى قلبه ذكرى الأمجاد ، فهو يجوع ويعرى إلاّ من الخلق الطيب

والصفات العربية الرفيعة فيصيح بمن يُزرى عليه بالفقر ، ويذكّره بالحرمان قائلاً له :

وقدخبّرت عن نَشَب قليـــل فهلْ خُبّرْتَ عنْ خُلُق ذميمِ

أجل إنه كان لا يملك المال ولكنه كان على خلق جميل يعتزّ به ، ويفخر ويردّد فى هذه السنّ كما ردّد الأولون :

وعَزمى يستقلّ الأفْقَ داراً ويأنَفُ من مُصاحبَةالنُّجومِ

فلم يفتّ فى عزمه فقرُه وإملاقُه ، ولم يقتله اليأسُ ، بل دفعه إلى التعلق بالأمجاد الموروثة عن آبائه ، وصرَفه إلى الأخلاق المثالية العربية ، كما قلنا ، فجاع ولكنه ظلّ يغنى ويغنى فى فخر وفى حماسة خلالَ هذه الحقبة التعيسة من أيامه ، فيقول :

عليكَ إذاحسدتَ طلابَ فضلى وليس علىّ أن أذَر المعَالى
حويتُ فضائلاً ما نلتَ منها سوى بثّ العداوة فى الرّجال
وما ذنبى من الأقــوام إلّا مكاثرتى لأطــراف العوالى
وإنى لا أعــدّ الرفدَ جوداً لمن حملته ذلّ السؤال
وما أبغى طريفَ المال إلّا لتروى راحتاى من النّوال
عرفتُ الدهرَ معــرفتى بَنيه فلست أخاف من نُوَب اللّيالى

واعتزاز الفتى بالفضائل العربية وسعيُه إلى المعالى يدلنا على ما ورث من قبيلته ، وما أخذ من الأدب والشعر ، وما تعلق به من أقوال القدماء ، ويشير إلى ثقافته فى الصّبا ومدارسته للشعراء الفحول ، فقد تعلم من غير شكّ على عادة ذلك الزمان فى أطراف حلب أو فى المدينة نفسها ، ولا ندرى من هم أساتذته فى تلك الأيام فهو لا يتحدّث عن شىء من ذلك إلاّ بعد أن شبّ واكتمل ، فقد ذكر فى كتابه « سرّ الفصاحة » أنه أخذ عن شيخه أبى العلاء المعرى ، وأعاد وكرّر إكباره لهذا الشيخ ، فأعجب بآرائه وأخذ بطريقته فى النظم ولعله تأثر به أقوى التأثر ، فنظر إلى الحياة نظرة قاتمة ونظم منذ صباه هذا الذى

رأينا فى الفخر ، ونوب الليالى ؛ واحتقار الدّهر ، ومعرفته للناس ، فنظر إلى المتنبي فى حِكَمه وكان المعرّى يعجب بها ، وفُتن بالبحترى فى شعره ، ومدحه مراراً فى كتابه ، وحذا حذَوه بعد ذلك كما نرى بعد قليل ، ولعله كان يسكن مع قبيلته أطراف المعرّة ، فكان يتردّد على أبى العلاء ، ويتتلمذ عليه ، ويعرض عليه ما نظمه من شعر فيلقى التشجيع والحبّ ، بل لعله صرف همّه وشعره إلى حلب نفسها ، فراح ينظم الشعر فى أعلامها وقد جاء فى الديوان أنه نظم قصيدة : « وكتب بها فى صباه إلى الشريف أبى على محمد بن محمد ، وقد اعتقل سنة أربعين وأربعمائة » وهذه القصيدة طويلة افتتحها بالغزل والشوق والحنين ، على طريقة العرب الجاهليين ، فذكر العرب مراراً ، وعرض للعرار والشيح والركب والعقيق والحمى ، وتأسّى لبعده عن هذه الديار وتساءل هل أقفرت من بعده ، ثم انتقل إلى صاحبته « عذيبة » وبثّها حبّه وأقسم بأبيها أنه لن ينساها وأنه عائد إليها ، ثم قال مفتخراً :

سبقتُ وما بلّغت عشراً كواملاً فكيف وقد جاوزتها بثمانِ
ولى فى قراع النائبات عزائم تريكَ بلوغَ النجم بالدَّمَلاَنِ .

ونقف أمام هذه القصيدة فى دهشة لسبكها وصياغتها ، كما نقف أمام معانيها ؛ فالفتى فى الثامنة عشرة يفخر بنفسه فخراً لا يقوله مثله فى قراع النائبات وبلوغه فى ذلك مبلغاً رفيعاً ، بل إننا ندهش كذلك لجرأته فهو يكتب إلى شريف حلب وقد اعتقله حاكمها سياسيًّا ، فانتصر له ، وعلل ذلك لما بينهما من نسب فى العرب عريق ؛ وامتدحه لبيانه وشجاعته ، فهو لا يرجو من معتقل أمراً ولا ينتظر مالاً ، وإنما يجعل نفسه معه فى شعره كأنهما صديقان أو أخوان ، بينهما الودّ والوفاء فيقول :

مدحتُك لا أبغى نَداك وإنما أبوح بودّ منك غير مُهَانِ
وليس يبين الودّ فى اليُسْر إنما وفاءُ الفتى فى أزمة الحدثانِ
فياليتنى شاطرتُك السوءَ سامحاً ببسط بنان بالأذى وجَنانِ
وأصبح قَلبانا نديمىْ نوائب كما غودرا فى الخَفْض يصطحبانِ

فهل نعتقد أنّ الفتى كان يصحبُ الشريف أيام خفض العيش قبل الثامنة عشرة وهل نرى أنه كان يزوره فى حلب ويلمّ بداره وهى واسعة مشهورة ، يقصدها الأدباء والأمراء على حدّ سواء ؟ وأىّ عون يسديه الفتى إلى معتقل كبير سياسى بيده أو جنانه ؟ إذا صحّ هذا ، فقد كان شاعرنا يجوس خلال حلب ، ويطمئن فى رحابها ، ويلوذ بعلمائها وأدبائها ، ويأخذ عن شيوخها وأساطينها ، وهم بقية العصر الحمدانىّ الزاهر ، وتلاميذ العباقرة الشيوخ ممن درج على هذه البقعة الخالدة ، كابن جنى وابن خالويه والفارابى وابن سينا ، والمتنبى والسلامى وأبى فراس . فالعصر المرداسىّ خليفة العصر الحمدانى فى كل شىء . والخفاجى أراد أن يكون خلفاً لهؤلاء النوابغ ، فملأ صدره بالعلم والمعرفة ، وقرأ الشعر وحفظ منه ، وروى ، ونظم وأسمع غيره فى حلقات الأدب ، فأعجب به من أعجب ، وسرّ لنبوغه هؤلاء الوجهاء فى حلب فاحتضنوه وعلى رأسهم هذا الشريف المعتقل . بل إننا نحبّ أن نتصور أنّ الفتى فكر فى تأليف كتابه « سرّ الفصاحة » خلال هذه الحقبة، وأتمه بعد ذلك ، وكتابه — كما قلنا — دروس جيدة فى النقد الأدبى ، يعدّها النقاد من طلائع الكتب الرصينة فى هذا الباب ، ويعترفون لمؤلفه بسعة الاطلاع ، ودقة المعرفة وسلامة الذوق ، يعرض لآراء الفحول والقدماء من النقاد ، فيقف لهم ويبدى رأيه فيهم ، فيخالف ويوافق ، ويستحسن ويستقبح ، ويورد شواهده من الشعر والنثر فى اختيار رفيع يدل على رسوخ قدم وقوة بيان ، وأسلوبه فى الكتابة هو أسلوب الفحول فى النثر ، ليس فيه سجع ولا التزام ، وإنما هو رقيق فصيح بليغ كأجمل ما تكون الأساليب النثرية .

والكتاب متداول بين الأيدى ، يستطيع الناقد أن ينصرف إليه دراسة ومطالعة فيرى فيه هذا الذى قلناه من اطلاع الرجل وذوقه ووقوفه على اللغة العربية وبيانها وفصاحتها ، حتى غدا به إماماً من أئمة النقد الأدبى . والغريب فيه دقة الملاحظة وعمق النقد ، وتطبيقه القواعد الفنية على ما قرأ وما سمع ، وهذه القواعد نفسها لو سحبت على شعره لفاز الشاعر بقصب السبق فقد خلا ديوانه فيما بعد من كلّ

ما قرره من مآخذ سجلها على الشعراء السابقين .

ونحن لا نتحدث فى قيمة « سر الفصاحة » لابن الخفاجى ، ولكننا أردنا أن نعرف مصادره فى الصبا ومراحل ثقافته ، بعد أن اعترف بصداقته للشريف فى حلب قبل سن الثامنة عشرة ، لنذهب إلى أنه كان يختلف إلى حلب حيناً وإلى المعرة أحياناً ، قبل أن يقضى شيخ المعرة أبو العلاء ، سنة ٤٤٩ هـ . ولنذهب كذلك إلى أنه أفاد من ينابيع الثقافة فى زمانه منذ الصبا ، فكانت له هذه الأصالة التى نراها فى شعره بعد هذه السن .

وفى الديوان قصيدة أخرى نظمها سنة ٤٤٣ هـ . وهو فى العشرين من عمره ، أرسلها إلى « محمود بن نصر بن صالح المرداسى » قبل أن يحكم هذا الأمير حلب ، فدلت على أنه كان يتصل بالأمراء ، ويكاتب الوجوه ، لا طمعاً بالمال ولا سعياً وراء الرفد ، كما يعترف فى شعره ، فليس فى أقواله ما يدل على استجداء الرزق ، وإنما فيها شىء آخر ، هو طموحه إلى المناصب ، وتعلقه بالرفعة والرئاسة منذ مطلع شبابه . وسنرى أنه ظل على ذلك إلى أن قتل شهيد هذا الطموح وهذه الرفعة .

ولعلنا نظلم الرجل ونحن نعرض لشعره فى الصبا إذا وقفنا عند هذا اللون السياسى أو الاجتماعى فى شعره ، فقد نظم خلال هذه الحقبة فى ألوان الشعر الأخرى ، خلا الوصف ، ودخل فى الغزل فتغنى بأناشيد ضلوعه يردد علينا حبه « لسليمى » حيناً و « لعذيبة » حيناً آخر ، فانصرف كذلك إلى هوى قلبه كما انصرف إلى همة نفسه ، وكان فى كليهما مثال الصراحة والسلاسة والقوة ، فقال فى السادسة عشرة :

هلمّ طيف « سليمى » قد جلوتَ لنا ... غياهبَ الصدّ لولا خدعة الحلمِ
نشدتُك اللّه هــل أنسيت ليلتنا ... على « الثنية » دون السّفح من إضَمِ
وليلـــة الحىّ إذْ أغرى الرقيبُ بنـــا ... فـــا اتّقينا بغـــير الخَمر واللّثمِ
فكيف ضيعتَ ودًّا كنت تحفظه ... لقد خصمتك لو صرنا إلى حـــكمِ

ولا ندرى من « سليمى » هذه ، كما نجهل من هى « عذيبة » ، ولا نعرف

من هي التي أصبحت زوجته فيما بعد ، وما هو اسمها ؟ فمن الصّعب أن يعرف الناقد في الشعر العربي أمر هذه الصلات وتطوّرها ، لأن الشعراء لا يبوحون به ، ولا يتركون لدارس خيطاً يتعلق به في ذلك . ويكفي أن نلاحظ طريقة الفتى في معالجة هذا الشعر وتعلقه بالموسيقيّ منه في لفظه ، والبدويّ في معانيه ، سعياً وراء أنفاس البحتري أو غيره من الفحول . ويعجبنا قوله في الحديث عن ركب الأحبة :

ركبُ هـوىً تجاذبـوا حديثَه فأترعـوا من الغَرام أكؤُسا
فأسبَلُوا من الجُفُون أدمُعـاً ظننتُهـا ماءً وكانت أنفُسا

وهذا قول رقيق يصدر عن مثله في هذه السنّ ، يقلّد به ما كان قبله من شعر جميل في الغزل والنسيب ، بل يعجبنا انصرافه بعد هذه السنّ إلى قومه فحسب ، حين يقول :

وقال فؤادي : لا تُطـع متجنبـا فخالفتُه واخترتُ قومي على قلبي
ألفنـا ظلامَ الليل حتّى كأننا وجَدّك ، أولى باللّيالي من الشهب

وظلّ الفتى في هذه الحقبة قلقَ القلب حائرَ اللب ، ينصرف إلى أغراض مختلفة ، لا يقرّ قراره على حال حتّى جاوز الحادية والعشرين من عمره . فرأيناه ينصرف إلى أمر جديد يعلق به ، ويدور حوله في السنين القادمة التي يستقبلها من حياته .

ذلك أنه صرف شعره إلى السياسة إذا صحّ التعبير ، فراح يراسل الأمراء المرداسيين وأمراء « بني منقذ » ، وبقايا الحمدانيين ، وكان في هؤلاء حكام الشام بأطرافها المختلفة ، في حلب أو في طرابلس أو في جنوبي الشام . ولم تكن هذه الرسائل الشعرية طمعاً بالمال أو الرفد والعطاء كما كان يصنع ابن حيوس أو ابن أبي حصينة أو غيرهما ، وإنما كانت في أغراض مختلفة ، تصف صلاته بهم وعلاقاته معهم ، ولا يلوح عليها طابع المديح الرخيص ، فلم يكن الرجل يتنازل عن أخلاقه العربية الخالصة ، ولم يكن يبيع نفسه للممدوح ، ويهبُ حياته للأمير ، وإنما كان يقف من هؤلاء جميعاً موقف الندّ للندّ ، والصديق

للصديق ، يعرف لنفسه قدرها ، ويعترف لشعره ونبوغه فيجعلهما فى المستوى الرفيع ، كأنه يريد أن يفخر بالبطولة العربية ، والشجاعة المأثورة ، حين يراها فى ممدوحيه ، فيسبغ على الأمراء ثوب الكرامة والدفاع عن حمى الوطن العربىّ ، وقد ظل على ذلك عشرين عاماً ، قال فيها شعراً كثيراً ، لم يحفظ الديوان منه فيما نرى إلاّ مختارات جمعها الجامعون بعده ، فكان هذا الذى نقبس منه صفحات الحديث عنه .

أرسل إلى حاكم حلب « ثمال بن صالح بن مرداس » ، سنة ٤٤٤ هـ يمدحه بقصيدة طويلة ، نلمح عليها أثر البداوة والقوة فى الألفاظ والمعانى يصف فيها دفاع الرجل عن البلاد ، فقال فيها :

تُغير على سوابقــه الفيــافى ... وتضرب فى صوارمه الفلولُ
تزور جياده أرضَ الأعادى ... وأطرافُ الرمــاح لها دليلُ
طَلَعْتَ من الجزيرة فى هنات ... تقاضاهــا الطوائلُ والذحولُ
وجبن معاقل الأعــداء حتّى ... تناذَرت الركائبُ والخيولُ

وطبيعىّ أن ينسج الرجل على منوال الشعراء قبله فى وصف الغارات والحروب ، فالمرداسيون وقفوا للمعارك مرّات كما وقف الحمدانيون ، وللشاعر أن يركب فى قصائده مراكب الذين وصفوا المعارك ، فهو يختار الألفاظ والمعانى ، ويصطنع الصور نفسها ، لا عجزاً عن الابتكار ، وإنما هى طريق سلكها الشعر فى هذا الباب فدخلها الشاعر ، ويكفينا منه أنه يقدّس البطولة للبطولة ، وينظر إلى العرب من بنى قومه نظرة المعجب بشجاعتهم ومواقفهم فيقول فيهم :

مِن القوم الذين لهم أكفّ ... تناذرهــا فتنجابُ المحــولُ
كهولُهم إذا غَضِبُوا شَبَابٌ ... ومُرْدُهُم إذا حلموا كُهولُ

وهذه سنة الشعر العربى منذ الجاهلية ، وهذه معانيه وألفاظه ، نهض بها الشاعر فى القرن الخامس ، وقد كاد الشعر فى الشام يميل عن الفحولة ويبتعد عن الجزالة والأسر . فأصبح « الخفاجى » يمثل هذا اللون البطولى

فى بلاط المرداسيين ، وأضحى هدف الأنظار والشاعر المرصود ، وعرفت له الأسرة الحاكمة وفاءه وإخلاصه وشاعريته ، فكان الرجل المقرّب إليهم فلما أراد «محمود بن نصر بن صالح المرداسىّ» أن يظفر بالحكم وحده ، وأن تكون له «حلب» كلها دون عمه «ثمال بن صالح» ، ورأى أنّ الفاطميين أرسلوا فى عون «ثمال» وعملوا على إمداده بالمال والرجال ليكون حاكماً لحلب ، فكر فى طلب عون الروم يستنجدهم على المصريين ليغلب عمّه ويتولى الحكم . ولم يكن هذا ليضير المرداسيين فى عصرهم بشىء ، فقد أفسد السلطان نفوسَ الأمراء قبلهم ، وكانت بقية الحمدانيين حين تختصم فيما بينها تطلب العونَ من كلّ جانب فلا تبالى بما كان من الأعداء فى الأمس ، ولا يضيرها أن يصبح الأعداء حلفاء كما نقول اليوم ، وقد استعانت بقية الحمدانيين بعد موت سيف الدولة بالروم ، بعد أن كان هذا البطل يقف أمامهم ويصدّهم ويخذلهم ولا يرضى بالعون أو الحلف ، ولكنه قضى وانقضت معه ذكريات غالية وصفحات مجيدة .

وإذنْ فقد كان المرداسيون فى ذلك مثل بقية الحمدانيين يختلفون فيما بينهم على الحكم ، وتقع بينهم الحروب ، ويفيد منها الأعداء فيصبح البزنطيون حلفاء لجانب من العرب ضد جانب آخر ، وكانت تقع حروب أهلية بين الأخ وأخيه وبين العمّ وأبناء أخيه. وكان الأيوبيون فى جملتهم ، عدا صلاح الدين ، كهؤلاء المرداسيين والحمدانيين قبلهم يختلفون فيما بينهم ويستنجدون بالأعداء ، وتفسد الصلات كذلك بين أفراد الأسرة الواحدة وتنقطع روابط الرحم بسبب الحكم وفى سبيل المناصب الزائلة ، وكان ذلك يؤذى عقلاء العرب ، ولكن الحكام لا يأبهون للأمر ، مع أنه كاد يودى بالشعب جميعه كما وقع فى الأندلس بعد قرون ، ولكنّ الحاكم المستبدّ فى تلك الأيام لا ينظر إلى النتائج ولا يعتبر بالتاريخ .

ومهما يكن من أمر ، فقد فكر « محمود بن نصر » فى أن يستنجد بالرّوم ونظر حوله ، وأطال التفكير فى خاصّته ، فوقع نظره على شاعرنا الشاب « ابن سنان » وقرّ رأيه على إرساله إلى بلاد الرّوم فى هذه المهمة الشاقة ،

ووقف الشاب حائراً يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، لأنه كان يعرف ما للمهمة من خطر ، ويكره أن يقوم بمثل هذا ، ولكنه كان يحبّ هذا الأمير منذ سنين ، ويرسل فيه المديح ويكنّ له التقدير فما يستطيع أن يرفض له طلباً فى أيام محنته ، ولو كان الطلب شائناً . وسار على كره ، وخلّف وراءه زوجته ، وصحبه ، ووطنه ، وربوعاً أحبها وعيشاً ألفه ، وكان ذلك فى سنة ٤٥٣ هـ ، والشاعر فى الثلاثين من عمره . وقد ذكر المؤرخون هذه البعثة ، فأثبتها ابن العديم مؤرخ حلب ، وأوردها ابن القلانسى مؤرخ دمشق وقال هذا : « ندب أبو محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الشاعر للمسير من حلب إلى القسطنطينية رسولاً يستنجد لمحمود على عمه ثمال » ولم يذكر المؤرخون عن صَحْب هذا الرسول ورفاقه شيئاً ، وسكتوا عن كلّ ما يدور حول الرسالة ، وعن الترجمان ، وعن المسالك والدروب .

وكانت الرحلة آنذاك محفوفة بالمصاعب والأخطار ، لما يقع بين الروم والعرب من غزو وحرب ، امتد منذ قرن تقريباً ، كان التاريخ يتحدّث عنه فيصفه كالمدّ والجزر ، فطوراً كان السلم وطوراً كانت الحرب ، وكان حصاد ذلك ضحايا كثيرة وحرائق وقتلى وجرحى . وإذنْ فالمهمة ليست يسيرة ولا هينة ، ولكنّ الشاعر دخل فى هذه المخاطرة ، وأرسل يصفُ حالهُ خلالها فى أربع قصائد ، تتحدّث عن حنين الشاعر إلى وطنه ، يذكرُ الربوعَ والمجالسَ مع الأمراء والوزراء والأصحاب ، كأنها ما فارقت خياله أو كأنه ما ابتعدَ عنها ، فلا شيء يُنسيه هناك ما تركَ فى حلب ، وكأنه لم يستطع أن يفارق « جبل جوشن » وقد فصل بينه وبينه « ألف دار يرعى سرحها الذّئب » على حد تعبيره ، وأما زوجه فقال فيها :

يا برقُ طالعْ من ثنية « جوشن » حلباً ، وحيّ كريمة من أهلها
واسأله هل حملَ النّسيم تحيّةً منها فإنّ هبوبَه من رُسلها

ويبدو أن هذا الحنين كان شديداً وأنّ الفراق كان قاسياً، أصبح معهما الشاعر يحسّ الغربة ، ويشعر بالكآبة والحزن فيقول :

همٌّ واقتــارٌ وعمــرٌ ذاهبٌ وفراق أوطان وبعــد أحبَّة

فكأنّه فشلَ فى مهمته ، أو لقى رزاية به ، أو أحسّ بعداً عن القوم ، لاختلاف العادات واللغة والدّين والقومية فقال فى إحدى قصائده :

فى كلّ يوم غربةٌ وصبابةٌ عجبًا لجسدّ النائبات وهزلها
عيشٌ أزجيــه ويُسلمنّى إلى وعــد الأمانى الكاذبات ومَطلها

فما هى هذه الأمانى الكاذبة ، وماذا كان يريد من وراء رحلته ؟ وهل يتحدّثُ عن حياته كلها وظنّ أنه لن يعود ، وهو مع ذلك يهدّد أصحابه عاتباً منذراً فيكتب إليهم :

لو شئتُ أهربُ مرّةً مِنْ عندكم ما كنتُ أقصد غير قسطنطينة
فلأجلسنّ بهــا جلوس مُبَاينٍ لدياركم فى عــادةٍ وشريعةٍ
ولأكتُبَنَّ إذا نشطت إليــكم من « دَيْرِ أرمانُوس » بالرُّوميَّةِ

وكيف نصدق قوليه ؟ تارة يحسّ الكآبة فى الغربة والعزلة والتشاؤم ، وتارة يهدّد بأنّه يعيش فى الروم أبد الدّهر ويستبدل من عادات قومه ومن شريعتهم عادات الروم وشريعتهم ، فيسكن « دير رومانوس » ويتخذ الرومية لغة ، كما فعل صديقه « أبو العلاء صاعد النصرانى » حين دخل بين العمّ وابن أخيه ، فنظم شعراً فى أحدهما ، فلما استولى الآخر على الحكم هدّد الشاعر بالقتل ، بل همّ بقتله فهرب « صاعد » إلى الروم وصار بأنطاكية أسقفاً إلى أن مات ! إننا وقعنا فى الديوان على ما كان بين الشاعر وبين صديقه « أبى العلاء » ، وأنه رثاه حين مات ، فلم يخش فى ذلك لومة لائم .

إننا نعزو هذا كله إلى قلق الشاعر وحيرته وحاله فى الغربة ونظنّ مع الديوان أنه كان عابثاً غير جادّ فى أقواله ، فالديوان يقول عن هذه القصيدة : « وقال على سبيل المداعبة وكتب بها من القسطنطينية إلى بعض إخوانه » . وفى القصيدة أشياء تدلّ على مرارة الشاعر وبعده عن المنطق والعقل وحاله النفسية البشعة ، إذ يَتهم ويُتهم حتى ليظنّ أنّ إخوانه وصحبه انصرفوا عنه لتشيّعه فيقول :

أبلغْ أبا الحسنِ السّلامَ وقلْ له : هــذا الجفاء عداوةٌ للشيعةِ
فلأطــرقنّ بمــا صنعت مكابرًا وأبثّ ما لاقيتُ منكَ لنكبــةِ
ولأجلسنّك للقضيــةّ بَيْنَنَا فى يــوم عاشوراء « بالشرقيّة »

ولعلّ هذه الأقوال على هزلها أو جدها تكشفُ عما كان عليه القوم من نظر إلى المذاهب ، فأكثر الوجوه والحكام كانوا مع الشيعة ، يذهبون مع الفاطميين بمصر ، ويكرهون العباسيين لاتخاذهم السنة مذهباً . وكان شاعرنا واضحاً فى نصرة هذا المذهب ، يناضلُ فى سبيله ، ولعله كان مضطرًّا إلى قصد الروم لنجدة « محمود » وقيامه ضد الفاطميين ، وكان يفعل ذلك ضدّ هواه وميله ، فلما دخل « محمود » فى طاعة السلاجقة ببغداد ، دخل الشاعر فى ذلك ، وبارك لأميره سياسته ، وأصبح سياسيًّا بالمعنى الذى نفهمه اليوم ، وأضحى على دين مليكه كما كانوا يقولون .

ولن ننسى أنّ الشاعر لم يصنع أمراً خلال هذه البعثة فلم يخبرنا عن نصره وعن فوزه ، وإنّما أعلمتنا التواريخ أنّ أميره « محمود بن نصر » صالح عمه « ثمال » ، واقتسما البلادَ بينهما ، فسقطت بذلك سفارة الشاعر ، إنْ كانت تسمى « سفارة » .

وعاد الشاعر إلى سورية ، بعد شهور ، وانصرف إلى شعره ، وراح يغنى على كلّ فنن ويصدح فى كل روض ، ينتقل بين أصحابه وأصدقائه ، وفيهم الأمراء والحكام ، من بلد إلى بلد ، تسيل مدائحه بروداً من ثناء جميل ، لو وقفنا عندها لرأينا فيها جمالاً وبساطة وابتكاراً ، أحيا بها الشعر العباسىّ الجميل ووقف مع الشعر الحمدانىّ فى صعيد واحد . ولكننا نحب أن نقف عند لون خاص من شعره قلّد به « أبا العلاء المعرّى » ، وسار على منواله ، فطرق الحكمة والفلسفةَ فى تشاؤم وفى نُفرة من الناس ، فكان وحده تلميذ المعرى الوفى ، خلال هذا العصر ، بل خلال العصور العربية .

ذكر الديوانُ فى مواضع عدة أنه سار على طريقة « استغفر واستغفرى » مقلداً أبا العلاء ، وذكر كذلك أنه « قال على مذهب لزوم ما لا يلزم »

وسنعرض نماذجَ من هذا الشعر ، بعد أن عرضنا لحياته السياسية والاجتماعية ، قال يصف المجتمع :

عاذتْ بنو « حوَّاء » من إبليس فى الد نيـا وكم فيهم فنـون أبالسِ
درسوا العلوم ليملأوا بجـدالهـم فيهـا صدورَ مراتبٍ ومجالسِ
وتزهَّدوا حتّى أصابوا فُرصة فى أخـذ مال مساجدٍ وكنائسِ
إيـوانُ كسرى صارَ مرتع ثلَّة وديارُه باتتْ مُناخَ عرائسِ
و « الحـيرةُ » البيضاء بدّل أنسها قدرٌ أطاعتْه مـدائنُ فارس
يا عقلُ مالكَ فى اللّطائف منهجٌ فإذا عثرت فلالَعـًا للتّاعس

وهذه الآراء صدر مثلها عن المعرى ، فتقيَّل شاعرنا أثره ، ومشى على طريقته ، وألحّ على معانيه فنحا نحوه وقال :

نصحتُك فافعلْ كلَّ خير تُحسْنه وإنْ لم يكن فيه ثَنَاءٌ ولا أجرُ
فكنْ لبنى حوَّاء حربًا فإنّما وفاؤُهُمُ غَدْرٌ ووصلُهم هجرُ
فقدْ وعُظوا لو ينفع الوعظُ عندهم وهيهات ما صمّ الجنـادل والزجرُ

والمعرّى قال مثل هذا كله ، وابتعد عن الناس ، وهاجم البشر ، وهجا المجتمع ، ووصفه بما هو فيه ، وقال الخفاجىّ :

جهلتُم فما وجـهُ النهار بواضح لديكم ولا طَرف الدجى بكحيل
وغركم طُول البقـاء سفاهـةً كأنّكم لم تَسمعـوا برحيـلِ
إذا وقَفَ العانى عليكم كأنّما يمرُّ برسم فى الدّيار مَحيـلِ
فصادقُ وَعْد منكم مثلُ كاذب ومُبْرَم أمـرٍ منكُم كَسحيلِ
فإنْ نلتُمُ خِصْبَ الجُسوم نَضَارةً فربَّ كريمٍ كالهلال نَحيلِ

ولا ندرى سبب هذه النظرة إلى الحياة فى هذه السنّ ، إلا أن يكون إخفاق الرجل فى مطامعه ، وبعده عن المناصب العالية . والشعراء فى هذا العصر والذى قبله كانوا يطمحون إلى ولاية يلونها ومكانة يبلغونها ، وشاعرنا ما يزال يسعى إليها منذ صباه ، ويذكر بها ، ويطلبها وقد بلغ الثلاثين وأربى عليها ، وهو ينظر إلى تحقيق أمانيه فلا يرى إلا سراباً خادعا . فلما سنحت فرصةُ العمر ،

وتسلّم صديقه وأميره « محمود بن نصر » حكم حلب واستولى عليها سنة ٤٥٧ هـ ، أقبل إليه شاعرنا يُعطره بمدائح تَتْرى ، فيها تقدير للبطولة العربية وفيها إكبار لشجاعة الأمير ، وكلها رقيقة عذبة ، تختلف عما تعودت آذاننا سماعه من شعر المديح : فليس فيها إسراف ، ولا استجداء ، ولا نزول عند قدمى الممدوح ، بل نكاد نقول إنها شبيهة بالرسائل التى يبعثها الصّديق إلى الصّديق ، والحبيبُ إلى الحبيب ، تسير على الخطة التى رسمها الرجل لحياته — كما قلنا قبل قليل — فليس فيها تذلّل ولا ضراعة ، فقد نال « ابن سنان » لقب الأمير ، وكانت تلك عادة المرداسيّين ، وأصبحت عادة الأتراك فيما بعد ، والأمراء يعرفون له أنفته وكبرياءه ، ويعرفون له موقعه من العشيرة والقبيلة ، ويعترفون مع ذلك كله بجزالة شعره وشدّة أسره ، ولعلهم كانوا ينظرون إليه فى عصرهم كما كان البلاط الحمدانى ينظر إلى المتنبى ، لذلك كثر حُسادُه ، واضطر الرجل إلى أن يتناولهم بشعره فى رقة وفى كبرياء ، وإلى أن يفخر عليهم وأن يمتدح شعره .

ونحبّ أن نعرض لبعض هذا الشعر لنرى إلى أسلوبه وطريقته بعد أن اكتمل ونضج ، واحتل مكانه فى دولة الأدب فقد دخل فى المديح ووصف البطولة من أوسع الأبواب ، تكلل هامته أكاليلُ الفوز والتوفيق ، قال يصف حرب أميره للرّوم :

طلعتْ عليهم من نَداك سَحابَة ... تَروى البلادَ وما تبلُّ لى الثّرى
وسريت قبلَهم إلى إدراكها ... وبدَا الصّباحُ فما حمدتُ به السرى

ويقول فيه وفى صحبه :

تهزّ لواءَ النصر حولك عصبةٌ ... إذا طلبوا نالوا وإنْ عقدوا سدّوا
وخطّيّة سمر وبيض صوارم ... وضافية زغف وصافنة جُرْدُ
فحارتْ عيونُ الناظرين وأظلمَت ... وجوه رجال مثل أعراضها ربدُ

وهذا شعر جميل متين يضع صاحبه فى مصاف الشعراء الفحول ، ويرفعه إلى مستوى الإجادة والتبريز ، فى متانته وقوته وجزالته ، بل إنه شعر مطبوع صاف لا تنافر فى ألفاظه ولا تكلّف فى معانيه ، يشربُ من مديح القدماء

ويسير على منوالهم . وهو يفتتحه غالباً بنسيب يبلغ من الرقة مبلغاً جميلاً ويسيل عذوبة وحسناً ، فيقول فى هذا النسيب :

ما على أحسنكم لو أحسنا إنما نسألُ شيئاً هيِّنا
قد شجانا اليأسُ مِنْ بعدكم فالحقونا بأحاديثِ المنى
وعِدُوا بالوصل من طيفكمُ مقلة تعرفُ فيكم وسنَا

وينتقل فى براعة إلى ممدوحه فيقول :

لو سلمْنا من تباريح الهوى لذكرْنا جملةً من أمرِنا
وشكرنَا « لابن نصْر » منَّةً أنطقَتْ بالمدح فيه الألسُنا
مغرَمٌ بالجود ما يحمله نصبُ الفقر على حبِّ الغِنى
كلَّما عرض بالحمد له أكثر السوم وأغلى الثَّمنا

وهو لا يهدف فيه إلى طلب المال فيتابع بقوله :

ما تعاملنا بحمد الله فى سبب يوجب خُلفاً بيننا
غير شعر ربما أهديتُه لك إن صادفَ وقتاً مُمكنا
ليس فى الأعداء مَنْ يفْهَمُه فيقولوا : إنَّه ما أحْسَنا

وهذا شعر بسيط سهل ، يكاد يغنى غناء ، فيتقرب من شعر البحترىّ فى رقة قوافيه وبساطة ألفاظه ، فكأنه ينطلقُ فى ربوع الأندلس مع الماء الراقص فى « جنة العريف » أو فى ظلال « الحمراء » ، على عزف الناى وقرع الدّفوف ، لا يرسله صاحبه من أطراف حلب على مقربة من « بصرى الشام » وقبيل « ضمير » حيثُ ودّع المتنبى سروره وأميره . والشاعر كما قلنا يعرف لشعره هذا الأثر ، فينادى أميرَه بأن يدَع غيره من الشعراء ويطلب إليه أن يتعلَّق به وحده كما فعل أبو الطيب .

ولعلّ الأمير « محمود بن نصر » أطاع القوافى بعد جماح ، واستلذّ ها واستساغها فأمر بتولية الشاعر قلعة « عزَاز » وهى حصن فى شمالى حلب ، وأرسله إليها بتوصية من صديقه الوزير « أبى نصر بن النحاس » ، ولان العيشُ ،

وسهلت الحياة ، وضحكت الدنيا للشاعر ، وصفا له الجوّ ، فاستسلم للشعر ، وراح يُرْسله قلائدَ يُهديها إلى أميره ، فيقول :

وكيفَ يضيعُ جودُك فى كريم أعَدَّ لشكره هذَا الكَلاَما
قصائد إنْ ترنَّح سامعوها فإنى قد أبَحتُ بها المُداما
تزور صبابة وأحِنُّ شوقًا كلانا يدّعى فيكَ الغَراما
إذا زفّت إليك علمت أنى ملكتُ لكلّ جامحة زماما

ويقول فيه بعد ذلك فى قصيدة أخرى :

أتتك تجدّد عهد الثناء وتُظهر عن هائم ما أجنّ
وما كلّ من حسنت عنده أياديك جاء بشكر حَسَنْ
ومَن كان فيك حديثَ الهوى فإنى غُذيت به فى اللَّبَن
ومثلُك مَن جَمعت لى يدا هُ بينَ الثَّراء وبينَ الوَطَنْ

وفى هذا الشعر معان مبتكرة ، وموسيقى جميلة ، خلا بعض ألفاظ لينة يبدو قلقها فى أماكنها ، كأنها جاءت عفو الخاطر ، أو كأن الشاعر لا يعيد النظر فيها فلا ينقحها ولا يبدّلها ، وهى فى جملتها مديح صادق ينطلقُ من القلب لا من اللسان ، فالشاعر أحبّ الأمير منذ صباه وأرسل فيه مدائحه مبكراً كما رأينا .

وكاد الدهر يصفو للشاعر ، ويمتعه بطول العيش السهل اللين ، ليزيد من الشعر ويُبدع فيه ، ويسير قدماً نحو العبقرية والفحولة الكاملة ، فقد اجتمع له كلّ شىء فى سبيل الإجادة من ثقافة واسعة فى النقد ، ووقوف على مختار الشعر ؛ قلنا إنه يبدو جليًّا فى كتابه « سر الفصاحة » ، فقد كان الرجل أستاذاً فى الشعر وناقداً فيه ، وكان يُنتظر على يده شعرٌ يفوق الذى رأيناه لو امتدّ به الأجل ، ولكن الدهر بالمرصاد للنفوس الطامحة لا يكاد يرضى لها بالكمال ، ولا يغضى عن سيرها الصاعد ، ولذلك وقف حيال هذا الشاعر موقفه من غيره قبله ، فقلب له ظهر المجن ، وأفسد عليه عيشه . وذلك أن ممدوحه الأمير « محمود »

حاكم حلب قد فسد ، وغيره الدهرُ ، فانقلب إلى المال وراحَ يطلبه من كلّ ذى نعمة ، يصادر ويحبس ويقتل ، حتى إذا تحوّل إلى شاعرنا الأمير حاكم « قلعة عزاز » أراد أن يصادر أمواله وأن يملك ما عنده ، فادّعى أنه كان يخرج عليه ، وزيّن له الوشاةُ والُحساد سبيلَ العمل ، وسهلوا له المكيدة فأرسل فى طلبه إلى حلب ، ولكنه أبى ، ولنترك « لابن شاكر الكتبى » إتمام ما حدث ، فهو وحده الذى تحدث عنه ، وسكتت بقية المصادر ، فقال فى ترجمته :

« وكان محمود بن صالح صاحب حلب ولاه قلعة عزاز فاستبدّ بها وشقّ عصا الطاعة وكانت ولايته بواسطة أبى نصر محمد بن الحسن بن النحاس وزير محمود ابن صالح ، فأمره أن يكتب إليه كتاباً يستعطفه ويؤنسه ، وقال : لا يأمن إلا إليك ، ولا يثق إلا بك . فكتب إليه كتاباً ، فلما فرغ منه وكتب إنّ شاء الله تعالى شدّد النون من إنّ فلما قرأه الخفاجى خرج من عزاز قاصداً حلب ، فلما كان فى الطريق أعاد النظر فى الكتاب ، فلما رأى الشدّة على النون أمسك رأس فرسه ، وفكر فى نفسه ، وأنّ ابنَ النحاس لم يكتب هذا عبثاً ، فلاح له أنه أراد " إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك " فعاد إلى عزاز ، وكتب الجواب : " إنّا الخادم المعترف بإنعام . . . " وكسر الألف من إنا وشدّد النون المفتوحة ، فلما وقف أبو نصر على ذلك سرّ وعلم أنه قصد به " إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها " .

ثم أحضر محمود أبا نصر بن النحاس وقال : أنت أشرتَ علىّ بتولية الخفاجىّ ، وما أعرفه إلاّ منك ، ومتى لم يفرغ بالى منه قتلتك وألحقتُ بكَ جميعَ مَن بينك وبينه صلة وحرمة . فقال له : " مُرنى بأمر أمتثله " قال : " تمضى إليه وفى صحبتك ثلاثون فارساً فإذا قاربته عرّفه بحضورك فإنه يتلقاك خارج البلدة ويسألك النزول عنده والأكل معه ، فامتنع وقلْ له على إنى حلّفتك ألاّ تأكلَ زاده ولا تحضر مجلسه حتى يطيعك فى الحضور عندى . وطاولْه فى الحديث حتى يقاربَ الظهر . ثم أظهر أنك جعتَ وأخرج هذين الرغيفين فكلْ أنتَ هذا وأطعمه هذا ، فإذا استوفى أكله عجّل الحضورَ إلى فإنّ منيته فى ذلك الرغيف " .

ففعل ما أمر به ، ولما أكل الخفاجيّ الرغيف رجع أبو نصر إلى حلب ، ورجع الخفاجيّ إلى عزاز ، وعندما استقرّ بها وجد مغصاً شديداً ورعدة شديدة ، فقال : " قتلني أخي أبو نصر " !

ثم أمر بالركوب خلفه وردّه ، ففاتهم ، ووصل إلى حلب ، وصبح من الغد محموداً فجاءه من عزاز من أخبره أنّ الخفاجي قد مات .

وقد كانت وفاته في سنة ست وستين وأربعمائة ، وحُمل إلى حلب ودفن فيها » .

وقد نقلنا هذه الصفحة المثيرة لنشير إلى صورة العصر ، وما كان يحدث ، غير مؤمنين بالرواية وتفاصيلها ، فقد ورد مثلها عن غيره من الشعراء والكتاب . والمهمّ أن الشاعر مات في الثالثة والأربعين من العمر ، قضى أكثرها بين الأسى والفرح ، بين اليأس والأمل ، والفوز والإخفاق . فلما ضحكت له الأيام ، وكاد يجني ثمارَ طموحه وسعيه ، وينصرف إلى الشعر والأدب ، قتله جهل الأمراء وغدر الحكام الظالمين ، وطوى بذلك صفحة من صفحاتنا المشرقة ، وقضى على غرس جميل لو امتد سوقه وآتى أكله لكان خيراً وفيراً لأدبنا العربيّ . ولكن سوء الطالع رافقه في صباه وأقبل إليه في ذروة عزّه فقصفه ، وأودى به ، وظلّ ديوانه صورة لأغنية لم تكمل ولوحة لم تتمّ ، ولكننا استطعنا أن ننظر إلى الصورة واللوحة وأن نستمتع بهما كما أتاح لنا الدهر أن نستمتع ، رحمه الله رحمة واسعة .

ابن حيّوس *

يتصل نسب الشاعر بقبيلة « غنيّ بن أعصر » وهي من العرب العدنانية ، كانت منازلها في « نجد » وأطرافها خلال الجاهلية . فلما جاء الإسلام نزحت مع الفاتحين إلى العراق والجزيرة وديار الشام . وكان منها رجال تركوا في تاريخنا آثاراً كبيرة واحتلوا مراكز عالية . وجدّه الأقصى « الهيثم » سكن الجزيرة ، وكان من قوّاد « المعتصم » واشتهر بين الرؤساء الذين مدحهم البحتري بشعره . وأما جدّه الأدنى « حيّوس بن محمد » الذي ينتسب إليه الشاعر فقد كان من وجهاء دمشق وأعيانها ، له فيها دار فخمة في « زقاق عطّاف » داخل « باب الجابية » وكان حيّاً من أجمل الأحياء وأعرقها في هذه الحاضرة الأموية . وقد توارث الدار أبناء « حيّوس » .

وفي هذه الدار سكن « سلطان بن محمد » والد الشاعر ، وكان أميراً من أمراء دمشق ، وكان له مع ذلك نصيب من العلم ، فقد نقل « ابن عساكر » مؤرخ دمشق أنه روى الحديث ، ورُوي عنه الحديث . وكانت زوجه من أسرة عرفت بالتقوى والعكوف على العلم كذلك .

وفي هذا البيت العريق ولد « محمد أبو الفتيان » صباح السبت سلخ صفر سنة ٣٩٤ هـ والقرن الرابع يشرف على الاحتضار . ونشأ الفتى في أحضان الوجاهة والعلم ، فأتيح له ما لم يتح لغيره من حظّ بعيد ، وكان يستطيع أن يطمح إلى المناصب العالية ، والمراكز السامية ، وأن يبلغ بين قومه إلى موقع القيادة والرئاسة ، ولكنه كان مكفي المئونة في رغد من العيش فلم يتلفت إلى شيء من هذا ، ولم يكن من همّه أن ينافس وأن يسابق كما كان يفعل المحرومون أو كما يسعى العصاميّون ،

* أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس ٣٩٤ هـ — ٤٧٣ هـ .

فانصرف مع أخيه الأصغر إلى الفرائض والفقه ، كما انصرف أبوهما من قبل ، ورويا الحديث عن خالهما ، وتدارساه خلال الصبى ، فكانا يسيران على تقاليد الأسرة فى ذلك، بعيديْن عن الشعر أول الأمر لأن الشعر كان يزرى بالعلماء فى أغلب الظنّ .

ولكن الفتى تلفّت بعد هذه السنّ الصغيرة إلى اللغة والشعر فأخذ بالدواوين يقرؤها وكتب اللغة يدرسها ومصادر التاريخ الإسلامى يرجع إليها . ولا ندرى كيف أصابه هذا التحوّل ، وأى كتاب كان له أثر فى نفسه . ولعل أحد الزوار الشعراء ممن يفدون على والده أثار فى نفسه حبّ الشعر ودفعه إلى استماعه والعكوف عليه ، فنحن نجهل كل شىء عن هذه الفترة من صباه . ولكننا نعرف أنه رأى فى دار أبيه سنة ٤٠٦ هـ ، وقد بلغ الفتى الثانية عشرة من عمره ، قائداً كبيراً كان يمثل الفاطميين ، وهو « أنوشتكين الدزبرى » وكان هذا القائد حاكم دمشق من قبل القاهرة فأعجب به . وكانت دمشق تميل نحو حكام القاهرة ، وكانت حلب تميل إلى الاستقلال عنها ، منذ زمن غير قصير ، فكان الحمدانيّون أعداء الأخشيديّين وكان المرداسيون بعدهم أعداء الفاطميين ، وكانت حلب موضع هذا الطموح السياسى ، أو هذه المشادّة السياسية خلال سنين طويلة .

فلما رأى الفتى قائدَ الفاطميين فى دار أبيه ، ضيفاً مقيماً ، يصبح على مجلسه ويمسى على رؤيته ، تأثر أشدّ التأثر ، ومال إليه ، وظلّ سنوات كثيرة معه بعد ذلك يزجى إليه المديح والثناء ، ويخصّه بالإكبار والتقدير .

وفى سنة ٤١١ هـ ، وقعت فتنة سياسية فى دمشق ، وقام بعض الأمراء من سوريا بانقلاب خطير ضد الفاطميين ، فاجتمع « حسان بن المفرّج » أمير طيئ ، وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، وسنان بن عليان أمير بنى كلب ، وتحالفوا فيما بينهم على أن يكون لصالح من حلب إلى « عانة » ، ولحسان من « الرملة » إلى حدود مصر وأن تكون دمشق لسنان ، فاستولى صالح على حلب سنة ٤١٤ هـ ، واستولى حسان على الرملة سنة ٤١٥ هـ ، وحاصر سنان دمشق

سنة ٤١٥ هـ . وظلت الأمور فوضى والأحكام مختلّة فى هذا الشطر العزيز من الوطن العربى حتى كانت سنة ٤١٩ هـ .

وأرسل الظاهر خليفةُ الفاطميين قائده الدزبرىّ ثانية لحصار دمشق ، ومعه جيش كبير ، وكانت وقعة « الأقحوانة » سنة ٤٢٠ هـ ، وكان النصر لقائد الفاطميين ، ودخل الدزبرى دمشق ، وقتل صالح بن مرداس ، وانهزم حسان ابن المفرّج ، وعادت الأمور إلى مجراها .

وفى دمشق استمع « الدزبرىّ » إلى ذلك الفتى سنة ٤٢٠ هـ ، وقد أصبح فى الخامسة والعشرين ينشد بين يديه شعراً متيناً قوياً ، سجّله الديوان على أنه أول شعره ، ولكننا لا نصدّق نسخة الديوان ، فليس من العقل أن يبدأ الشاعر فى هذه السنّ شعراً ، فقد قال كثيراً قبل ذلك ، وإنما حذفه واستبعده حين جمع الديوان ، لأنه لا يرضى فحولته القوية . ومهما يكن من أمر فهذا الشعر هو أول ما عرف لابن حيّوس ، افتتح به سلسلة المدائح فى القائد ، وظل يسير بها خلال ثلاث عشرة سنة ، صحبه بشعره وسجل مفاخره وأعماله ، فكان بذلك شاعره الخاص ، وكان لإقامته فى دار أبيه هذا الأثر الذى دفعه إلى الإنشاد والمديح . وقد كنا نظنّ أنه يرتفع بطموحه إلى تقليده فى سياسته وفى إمارته وفى تعلقه بالسياسة والحكم . ولكننا وجدناه يأخذ بالشعر فحسب ، فيكتفى بأن يكون شاعر القائد ، وأن يظلّ بعد ذلك يتنقل من أمير إلى أمير ومن حاكم إلى حاكم ، فوقفت به همته عند ذلك . ولم يكن فى شىء مما طمح إليه غيره من كبار الشعراء ، فلم تنزع نفسه إلى ما نزعت إليه نفس المتنبى ، وهذا هو الذى جعله فى المنشدين وفى التابعين فحسب ، لا يعلو على شعراء المديح من الفقراء ، ولا يزيد على هؤلاء الواقفين على أبواب الملوك ، مع أنه أمير وابن أمير وكان فى الظنّ أن يزيد على هؤلاء بما كان يملك من جاه موروث وثروة متجمعة . وهذه هى الناحية التى قصرت به عن لحاق النسور ، فارتضى بالعيش بين جمهرة الشعراء ، وقد أنكر أبو فراس الحمدانى قبله أن يكون معدوداً فى الشعراء ، ولم يرض لنفسه هذا اللقب فى حال من الأحوال فقال :

وصناعتى ضرب السيوف وإننى متعرّض بالشّعــر للشعــراء

وقال كذلك :

نطقتُ بفضلى وامتدحتُ عشيرتى وما أنا مدّاح ولا أنا شاعرُ

وكذلك تكون الفوارق جسيمة بين أمير وأمير ، وشاعر وشاعر . . .

وظلّ الشاعر الأمير ابن حيّوس فى ركاب الدزبرىّ ، ينشده ويغنيه . فلما سار هذا القائد إلى حلب سار معه ، ومرّ بمدينة المعرّة ، وفيها شيخ الشعراء « أبو العلاء المعرّى » فقصد إليه ، ودخل عليه ، وجرى بينهما حديث فى الشعر والشعراء ، نقله المؤرخون ، ورووا أن أبا العلاء تناول شعر « عبد المحسن الصُّورى » بالنقد، ورماه بالقصور والتقصير، فردّ عليه ابن حيوس بأنه أشعر من المتنبى حبيب المعرى ، وزجره بألاّ يناظر الأمراء بعد ذلك . وهذه نفسية أمير فى الخامسة والثلاثين لا يرى للمتنبى كبير خطر ، ويحب أن يخفيه وأن يطاوله ، فيعارض سيد النقاد فى عصره ويرى لنفسه الحق فى تفضيل شاعر على شاعر ، فيطمح إلى سدّة النقد والفحولة فيه ، ويمضى فى سبيل الأدب مادحاً ومغنياً .

ودخل « الدزبرىّ » مدينة حلب سنة ٤٢٩ ، ودخلها معه الشاعر ابن حيّوس فراح يشيد بالوجهاء والقضاة والأمراء ، ويمدح نقيب الطالبيين ، وقاضى دمشق وناظر الأموال ؛ وكلّهم من حاشية « الدزبرىّ » ، وقصائده فيهم موضع الإحسان والتجويد ، لا تحيد عن قانون المديح ونظامه فى أسلوبها ومعانيها ، تتسم بالقوة والمتانة ، وجمال التعبير ، وهى شبيهة بغيرها من الشعر الذى يقوله المادحون ، ولكن شاعرنا الأمير يعيد ويكرر أنه لا يمدح ليستجدى ، لأنه من ذوى اليسار ! . .

وظلّ الشاعر يمدح « الدزبرى » فى حلب ودمشق حتّى مات هذا سنة ٤٣٣ هـ ، فصحبه بذلك ثلاث عشرة سنة قال فيه أربعين قصيدة من طوال الشعر ، تكاد تقوم وحدها كديوان خالص . وتولى الأمر بعده فى دمشق الأمير الحسن بن الحسين بن ناصر الدولة الحمدانى فانصرف إليه شاعرنا ، وتقرب

منه ومدحه ، ومدح كاتبه ، حتى كانت سنة ٤٤١ هـ ، فتوجه الشاعر إلى طبقة الوزراء ، وراح يمدح وزراء الفاطميين . وتعلق خاصة بوزير المستنصر وهو « اليازورى » وقد تولى الوزارة من سنة ٤٤٢ — ٤٥٠ هـ وهو من أعظم وزراء هذه الدولة وأوسعهم علماً وذكاء وسياسة وفهماً ، فرحل إليه غير مرّة ، وسافر إلى القاهرة ينشده فيها أو يرسل إليه من دمشق . وهذا الشعر فيما يرى ناشر الديوان الشاعر خليل مردم من أجود شعر ابن حيوس ، وقد قارب الخمسين من عمره واستوى على سوقه فى فنّ المديح ، فأصبح يعجب النقاد والدارسين والشعراء .

وفى منتصف هذا القرن اختلت أمور الدولة الفاطمية فى مصر ، ودخلها التفكك والانحلال ، وأصبحت الأحوال فوضى ، وغدا الوزير يمكث شهوراً معدودة بل أياماً معدودات ، وقد مكث بعضهم يوماً واحداً فحسب ، فكيف ينظم شاعر وكيف يمدح ، وهو يرى حال التقلب فى الحكم كذلك الذى وصل إليه العباسيون أيام سيطرة الأتراك فى بغداد ! لذلك سكت الشاعر عن إرسال شعره منذ سنة ٤٥٤ هـ ، وتلفت إلى حال دمشق فرآها على أسوأ ما يمكن أن تكون كذلك ، وقد اختلف إليها الانحلال والفساد ، فكان الولاة فيها كالوزراء فى مصر يُعزلون ويُدحرون ، والبلد تثور بالوالى فتخفضه وتطرده ، وتختار غيره فيرتفع ويحكم ، حتى تفاقم الأمر وطما السيل ، وكانت سنة ٤٦٠ هـ ، فثارت فتنة فى دمشق عمياء ، ضدّ بدر الجمالىّ والى دمشق من قبل الفاطميين ، فأحرقت قصره ، ونقضت بقاياه ، وامتد اللهب إلى الأحياء الأخرى ، فأصاب جوانب كثيرة واحترق جامع بنى أمية من غربيّه ، وسقطت سقوفه ، ولم يبق إلا جدرانه الأربعة ، ونهب الناس البلد ، وسادت الفوضى وكان ذلك إيذاناً بزوال الحكم الفاطمى فى الشام .

وطمع الأتراك السلاجقة فى حكم الشام ، فاستولى أتسز الخوارزمى من أمراء ملكشاه السلجوقى على القدس ، ثم قصد دمشق ، ونهض له أهل البلد فطال الحصار ، وجاع الناس ، وخربت البيوت ، ونهبت الأموال ، وأصاب شاعرنا الأمير ، ما أصاب غيره ، وذهب فى هذه الفتن جميع ما يملك ، مما ورثه

وبمّاجمعه ، فأصبح بعد ذلك اليسار والرغد، معدماً رقيق الحال يشكو ظلم الزمان ، وضاقت عليه دمشق وفكر فى الرحيل عنها ، وقد طال سكوته وامتد عشر سنوات كانت عليه أشدّ أيامه عسراً وسوءاً وضيقاً .

وفى يوم من أيام سنة ٤٦٤ هـ وقد بلغ الشاعر السبعين من العمر ، هجر بلده ومسقط رأسه ، والأسى يحزّ فى نفسه والألم يمضّه ، يفتش عن بلد وعن أمير وعن حام يحميه ، وقد أصبح فى هذه السنّ الكبيرة بغير مورد ومعين ، فتوّجه إلى ساحل الشام ، ودخل مدينة طرابلس الشام واتصل بالأمير « على ابن منقذ » وهو جد « أسامة » الشاعر البطل ، فأشار عليه بأن يسير إلى حلب وأن يقصد إلى أميرها « محمود بن نصر بن صالح المرداسى » فتردّد طويلاً لما يعرف من عداوته قديماً لهذا البيت ،فقد مدح الدزبرىّ ، وهو الذى غلب المرداسيين ؛ ومدح الفاطميين وهم أعداء هذه الأسرة . ولكنّ ابن منقذ أقنعه بالذهاب ، وأرسل معه ابنه « نصر على بن منقذ » ودخلا معاً مدينة حلب .

وهكذا تفعل الحاجة إلى المال ، والسعى وراء الرزق ، ويدخل الشاعر فى مديح جديد بهذه السنّ ، فينسى ما قال ، ويتعوّد من جديد أقوالاً جديدة ، فخرج الشعر على لسانه فى مديح عجيب ، يختلف إليه الأسى وتلفه المرارة ، فيقول فى « محمود بن نصر » حاكم حلب :

إلامَ أمنّى النفسَ ما لا تنالُه ... وأذكر عيشاً لم يَعُدْ مُذْ تَصرّما
وقد قالتِ السبعون للّهو والهوى : ... دعا لى أسيرى واذهبا حيثُ شئْتما

وقد ذكر النقاد أن أمير حلب استقبله استقبالاً جميلاً ، وأحسن وفادته ، واحتفى به ، وبنى له داراً فى حلب ، وأغدق عليه ، وأعطاه ألفَ دينار ذهبيّة لهذه القصيدة ، فقد كان يكبر فيه الشاعرية ، ويكرم فيه السنّ المتقدمة ، ويسعى إلى كسب الشاعر الفاطمىّ ، وذلك من حسن الدهاء والسياسة وبعد النظر . وقد لقى الشاعر بذلك بعض العزاء على ما خسر من مال وجاه ، وأصبح مقرّبا معزّزا ، ينشد الشعر قاعداً كما كان ينشده المتنبى ، ويعتز بأنه غدا شاعر البلاط المرداسى ، كما كان أبو الطيب شاعر البلاط الحمدانى . والمرداسيون

كانوا مع خليفة بغداد ضد الفاطميين ، ومع ذلك كان ابن حيّوس يقول :

فكل نوء بمصر جاد نى زمنـــًا فداء نوء سقانى الرّى فى « حلبا »

ونحن لا نلوم الشاعر لهذا التبدل ، فللزمان ظروف ، وللعيش أحوال ، ومن دخل فى الشعر السياسى يجب أن يوّطن نفسه لهذا الانقلاب ، يصبح مع لون ويمسى على لون ، ولذلك قالوا : ما دخلت السياسة أمراً إلا أفسدته ، وما اختلفت إلى عبقرية أدبية إلا أعملت فيها يد التلوّن والتقلب ، فأصابت من مقاتلها وأفسدت من صفائها ونقائها ، وجعلتها خادمة لأغراض زائلة ، وحوّلتها عن المثل العليا الخالدة .

لقد عاش الشاعر ابن حيوس مع الأسرة المرداسيّة ، يتنقل من أب إلى ابن ، كأنه فى الإرث المتداول ، يموت مليكه محمود بن نصر فيرثيه ، ويستقبل ابنه « نصر » ويُقتل « نصر » بدوره فيستقبل أخاه الأمير « سابق » ويقوم لذلك بشعر رسمىّ يعلو حيناً وينخفض حيناً آخر ، ولكنه على كل حال يفصح عن ثقافة واسعة فى معرفة اللغة والأدب والوقوف على التأريخ والفقه ، شأنه فى ذلك شأن شعره كله .

وقد لاحظ النقاد أن ابن حيّوس كان يُطيل فى شعره بدمشق ويطنب فى حلب فلا تنفد مادته ولا ينضب معينه ، ولا يحسّ قارئه بتراخى الشعر أو تعب الشاعر فالرجل كان يجعل قوافيه طوع هواه ، ويطبع شعره بما يريد الممدوح ، ويميل بمعانيه وأغراضه حيث يميل الممدوح فيرى الدنيا من خلال رضاه ، ويجد عنده الوحى والإلهام ، فيفصّل ثياب القصائد على الظروف والأشخاص ، كأنه شاعر محترف وقف نفسه لهذا المديح الرسمى ، يفضّل العجم على العرب حيناً ، ويؤثر التشيع على السنة أحياناً ، وهو فى ذلك شاعر صحفىّ حزبىّ ، وهو فى ذلك داعية يسخر قلمه ولسانه للدعاية العنصرية والسياسية والمذهبية ، يفعل كما تفعل الأقلام الحزبية اليوم فى أطراف العالم .

أما أسلوبه فى الشعر فهو أسلوب شاعر متين فحل طويل النفس ، واسع

المعرفة ، غنيّ القوافي ، يتكلف الصنعة اللفظية كما يتكلفها أبو تمام في كثير من شعره ، ويغوص على المعاني غوص القدماء ، ويخرج من ذلك وهو على قوته ومتانته ، لم يدركه الونى والتعب في فصاحة وجزالة أخذهما عن نشأته ونسبه ، كما قلنا .

والغريب أنه ظلّ ينشد الشعر حتى بلغ الثمانين ، بل إنّ أكثر شعره وأجوده ما قاله بعد أن بلغ السبعين تسيل قوافيه فتبلغ الثمانين والمئة ، وهو على مثل القوة التي افتتح بها قصيده لا يضعف ولا يلين . فقد تسلم حلب « مسلم بن قريش العقيلي » سنة ٤٧٣ هـ ، وعمر الشاعر تسع وسبعون سنة ، فتقدّم إليه بقصيدة مدحه بها ، فأجازه بألفي دينار وقرّبه ، وأقطعه « الموصل » لذلك . ولكن الشاعر قطع مرحلة شاقة في حياته ودخل في أطوار مختلفة من عناء وتعب ومشقة ، فتنقل بين دمشق والقاهرة وطرابلس الشام وحلب ، وتقلب على الأمراء والملوك والوزراء والقضاة ، ورأى دولاً تنشأ وأخرى تزول ، فتعب جسمه وهزل وأصبح في الثمانين يرتجف لهول ما رأى ويضيق بالهرم والشيخوخة فقضى في شعبان سنة ٤٧٣ هـ ولم يصل إلى ماله « بالموصل » ، وخلف أموالا كثيرة ، لم تجد وارثاً يرثها ، وأسرة تتسلمها . ودفن في حلب خارج « باب قنّسرين » على جانب الخندق ، وطوت الأعوام قبره ، وتبدلت الطرقات فضاعت معالمه ، ولكن الديوان أبقى على هذا الجهد البعيد في نسج القوافي ، وصنع الأعاريض ، ومعالجة الأغراض .

وقد وصل إلينا هذا الديوان في مجلدين طبعهما الشاعر الأديب خليل مردم طباعة جميلة ، وعُني بالشاعر عناية كبيرة . وليس في الديوان غزل كثير أو وصف للخمرة أو هجاء مقذع ، أو فخر بعيد أو حكمة عميقة ، فقد اتجه إلى المديح — كما رأينا — وكان في هذا المديح يبالغ ويسرف سعياً في رضا الممدوح لا في خدمة المثل الأعلى والأغراض القومية ، فقد كان أحياناً يستخف بهذه المثل العربية وهو من « عدنان » فيقول لممدوحه :

بنيتَ للعجم المجــدَ المبلغَهم مجداً بناه رسولُ اللّه للعرَب

لا ذنتْ بك العربُ العرباءُ واعتقلتْ من جود كفك حبلاً غيرَ منقضب

وكأنه لسان بلا قلب وكلام بلا عمق ، بعيد عن الدمع والأسى والألم ، حتى لكأنه لم يحبّ ولم يشق لنأى حبيب أو هجر عشيق ، ولكنه كان يصطنع الغزل التقليدى سلماً لقصائده وأغراضه وحلية لشعره فيقول :

وقفنا معاً أستنصرُ الدمعَ والأسى إذا ما انبرت تستنصر الطرفَ والقدّا

وهذا شعر بارد لا حرارة فيه ولا جوى ، لأن الشاعر لا يؤمن بالحسان ، فلم يدخل فى حبّ عميق ، ولا سرى وراء الجمال ، لأن له شاغلاً من المديح يشغله ، فهو يقول :

أما الحسان فما لهنّ عهـــودُ ولهنّ عنك وما ظلمنَ مَحيدُ
فاربعْ فما للبيض فيك لبانـــةٌ لسواك خـُوط البانة الأملودُ
وابغِ النباهةَ والثراءَ بعزمـــةٍ لم يثنهـــا لومٌ ولا تَفنْيـدُ

فهو ينصرف عن النساء وهواهنّ والمها وغزلهن إلى النباهة والثراء ، وما يكاد يخصّ النساء ببيتين أو ثلاثة حتى ينصرف عن الحبّ والهوى لأنه رأى أن الحب هزل ، وأن قلبه لم يُخلق للهزل ، وأنه رجل ، وللرجال أن يسعوا وراء الأمجاد والمفاخر ما عاشوا . لذلك غصّ ديوانه بهذه المفاخر والمحامد والغزوات ، فأصبح سجلاً للدول التى عاشت فى سورية ، ملأ صفحاته بأسماء الرجال وصفاتهم وأعمالهم . فكان للتاريخ معيناً ، وللسياسة ساعداً ، ومن هنا برزت فائدة الديوان ووضح مقام الرجل فى العصر ، وهذا سبب الحديث عنه . فقد صوّر بقايا الأمراء الحمدانيين لأيامه بأسلوب الأديب الشاعر حيناً فقال :

بقيتُم « بنى حمدان » ما بقى الورى لباغى ندىً يحيا وباغى ردىً يردى
فما كانت الأقمارُ من قبل خلقكم تـُخاف ولا زهر الكواكب تُستجدى
سيوفُكم تـــدمى بكل كريهـــة وأيديكُم فى كلّ مسألة تَندى
لطبقت الدنيـــا أحاديثُ مجدكم فما تركتْ فى الأرض غوراً ولا نَجْدا

وهذا كلام عام لا يحدّد مواقع هؤلاء الأمراء وأياديهم ، وهو يصف مليك الحمدانيين وأثره فى تلك الأيام بقصيدة غيرها فيقول :

وكانت « دمشقُ » تنبتُ الذمَّ برهـــة وأنتَ الذى صيرتَـها تُنبت الحمْدا

قطعتَ الأذى عنها وفضتَ مواهبـــاً وما عرفتْ ذا الجزر قدماً ولا المدّا

وسبب ذلك فيما نرى عطف المليك عليه إذ يقول معترفاً بأياديه :

أزرتُك حاجاتى فلم أنـــزل المنى بمن كذبتْ فيه ولم أعدم الرشدا
وأعطى قليـــلاً ثم أكدى زمانُنا فيَمَّمْتُ مَنْ أعطى كثيراً وما أكدى

ويتساءل القارئ ماذا يكون من قول الشاعر فى الحمدانيين وفى مليكهم لو حرمه مليكهم ، ووقف عن الشاعر جوائزه ؟ فالمسألة شخصية صرفة بين الشاعر والممدوح ، لا تلم بالوطن العربى ، ولا تتصل بنفعه ، ولا تمسّ مصلحته العامة ، فالشاعر ضيق أشد الضيق يكاد يصف صلاته فحسب ولا يصف شيئاً يصل القارئ الإنسانى به ، وهذا من أقل أنواع المديح نجاحاً فى كسب قراء الشعر العالى أو الإنسانى ، وهو أبعدها عن الخلود .

ولقد مدح كثير من الشعراء فسردوا فى كثير من أغراض المديح صفات ترفع الممدوح إلى مستوى إنسانى مثالى ينال عطف القارئ ، ويستحق تقديره فيشارك الشاعر فى ذلك ، ويربح الخلود . ومن هذا الباب أشعار البحترى وأبى تمام والمتنبى ، فقد اتخذ هؤلاء الشعراء مثلاً عُليا لممدوحيهم رفعوهم إليها ، ورسموهم على صورتها ، وأعجب الناس بالرمز والصورة ، كما أعجبوا بالثوب والأسلوب .

والذى يبقى من ديوان ابن حيّوس فى نظر النقّاد هو هذه الصياغة المتينة والصور المختلفة لأساليب المديح ، والمعانى والأخيلة التى اصطادها فى تصوير شخصياته . فليس من اليسير أن يقف شاعر لهذه الضخامة فى المفردات والقوافى ، على أسلوب جميل وتعابير رائعة ، رغم طول القصائد وتشابه موضوعات المديح . وهذا فضل كبير ويد طولى حاولنا أن نسجلهما لابن حيّوس فى صفحات يسيرة ، لنصور حال جانب من الشعر خلال القرن الخامس الهجرى فى دمشق وفى حلب ، على يد شاعر عجيب دخل فى الغنى منذ فجر حياته واختلف إليه العدم وهو فى أصيل عمره ، وعاد إليه الثراء قبيل مماته ، فكان لهذه الحياة التى رسمناها أثر كبير فى شعره وفى الأدب العربىّ خلال ذلك القرن .

أسامة بن منقذ *

يرقى نسب « بنى منقذ » إلى العرب القحطانية ، فهم من قبيلة « كنانة » وهى كثيرة العدد ، كانت تسكن قبيل الإسلام حول « مكة » فلما جاء الفتح انتقلت فى القبائل ، وتفرقت فى الممالك المفتوحة ، ونزلت فى الشام وغيرها . وكانت تحمل معها مفاخرها القديمة فى اعتزاز ، فقد كان منها شجعان وفرسان وعلماء ، فيهم ربيعة بن مكدم فارس العرب ، وأبو ذر الغفارى الثائر الكبير ، وفيهم أبو الأسود الدؤلى ، وظلت على سيرة الأجداد فى الإباء والعزّة والشهامة : وحافظ أبناؤها وفروعها على عادات العرب فى الفروسية والبطولة والنجدة ، وخطّ « بنو منقذ » للقبيلة صفحات فى تاريخ سورية تقف للفخار العربىّ القديم ، وتصل بين الماضى والحاضر .

واشتهر منهم رجال كبار ، كلّ منهم فارس شجاع أو شاعر أديب ، وذاع صيتهم خلال القرن الخامس ، وكانت مساكنهم بين حلب وحماة ، لهم بتلك الأراضى الأملاك الثمينة والدور النفيسة ، وكانوا ملوك هذه الأطراف يكرمهم ملوك الشام ويجلون أقدارهم ، وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم . وكان رأس هذه الأسرة لذلك القرن « مقلد بن نصر بن منقذ » قصده الشعراء ومدحوه ورثاه « ابن سنان الخفاجى » حين مات سنة ٤٥٠ هـ . وخلفه ابنه « على بن مقلد » وكان شجاعاً مقداماً ، قصده الشعراء كذلك ، ومدحه ابن الخياط وابن سنان ومات سنة ٤٧٥ .وخلفه بعده ابنه « مرشد بن علىّ » وكان كذلك فارساً شجاعاً ثابت الجنان ، صائم الدهر ، مغرما بالصيد ، حضر الوقائع ، فلم يعرف غير العبادة والجهاد . وكانت حاضرة الأسرة مدينة « شيزر » وهى على خمسة عشر ميلاً غربى « حماة » بالإقليم الشمالى ، وكان حصنها مشهوراً

* مؤيد الدولة أسامة ابن منقذ الكنانى ٤٨٨ هـ — ٥٨٤ .

فى التاريخ ، يطمع فيه الملوك والقوّاد ، وكان الروم قد أخذوه فى صدر هذا العصر ، ولكن « علىّ بن مقلد » استردّه منهم ، وبقى فى حوزتهم وكراً من وكور النسور ، يلجأ إليه أفراد الأسرة ويعتصمون به .

وفى هذا الحصن الجبار ، وفى يوم الأحد ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ ، رزق « مرشد بن علىّ » غلاماً سمّاه « أسامة » وكناه « أبا المظفر » ليكون خلفاً لأبيه فى بطولته وشجاعته . وصادف هذا العام حدثاً فى تاريخ المشرق والمغرب هو إعلان الحروب الصليبية ، فقد ألقى فيه البابا « أوربانيوس الثانى » خطابه المشهور فى الدعوة إلى احتلال الشرق العربىّ ، فكأنّ العام عرف ولادة الشر فى الغرب ، وبدء الهجوم على الشرق .

وما بلغ الغلام سنتين من عمره حتى وصلت جيوش الشر إلى الشام ، وصالت السيوف ، وسالت الدماء ، ووقع القتلى ، ودخل الإسلام فى محنة جديدة ، ووقف العرب وجهاً لوجه أمام الغرب ، يدافعون عن بيوتهم وحصونهم وبلادهم . وكان من الطبيعىّ أن ينشأ الغلام على ما نشأ عليه أجداده ، فقد رأينا أنهم شجعان فرسان ، وعرفنا أهمية الدفاع عن الحصن ، فانصرف الصبىّ إلى ركوب الخيل ، والصيد ، ودفعه أبوه إلى الفتوة ، ومرّنه على القتال ، فوقف أمام الأسود ، وشهد الكواسر ، وأردى من هذه وهذه حتى ألفت نفسه الدماء ، وسكن لبه إلى مواجهة الموت ، فعاش عمره يستهين بالمخاطر ويستخفّ بالرماح .

وكان الغلام إذا عاد من صيد الحيوان والرحلة فى الفلوات رأى فى بيت أبيه كبار الفرسان والأمراء والعلماء والأدباء ، وقد استقدم أبوه أئمة اللغة والنحو لتلقين الطفل علوم العربية وفنون الآداب ، فاستدعى له سيبويه زمانه أبا عبد الله الطليطلى إلى شيزر يعلمه اللغة والنحو ، وظلّ يدرس عليه عشر سنوات ، وذكر الصبىّ بعد ذلك فى مذكراته ما كان منه فقال :

« دخلتُ عليه يوماً لأقرأ عليه ، فوجدتُ بين يديه من كتب النحو كتاب سيبويه ، وكتاب الخصائص لابن جنى ، وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى ، وكتاب اللمع وكتاب الجمل ؛ فقلتُ : يا شيخ عبد الله ، قرأتَ هذه الكتب

كلها ؟ ! قال : قرأتها ؟ لا والله إلا كتبتها فى اللوح وحفظتها . تريد تدرى : خذ جزءا وافتحه ، واقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً . فأخذتُ جزءاً وفتحته ، وقرأت منه سطراً فقرأ الصفحة بأجمعها حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها . فرأيت منه أمراً عظيماً ، ما هو فى طاقة البشر » .

وهكذا نهل الصبىّ من منابع العلم والمعرفة حتى ثقف العربية ، وتعلم غريب القرآن ، وجوّد فى أساليب البلاغة ، وأتقن أبواب النحو ، حتى لقد حفظ من الشعر ما يُربى على عشرين ألف بيت من جيده وعيونه ، كما نقل إلينا الحافظ الذهبى .

فاشتهر فى أسرته وبلده ، وعُرف بالذكاء والنجابة ، وأخذه عمه « أبوالعساكر سلطان » حاكم شيزر بالرعاية والإكرام ، وعُنى به على أنه وارث له ، لأنه لم يكن له عقب آنذاك ، وأحبّ أن يكافئ أباه لأنه تنازل له عن حكم شيزر زهداً فى الدنيا ، فظلّ أسامة فى رعاية عمه وفى كنف أبيه ، يتصدر للقتال بين الفرسان ، ويحمى حمى « شيزر » إذا احتدم القتال .

فلما بلغ « أسامة » مبلغَ الرجال ، ووقع فى أعين القوم موقع الإكبار والصدارة دبّ الحسد فى قلب عمه ، ورأى من شجاعته فى مصارعة الأسود وقتال الأعداء وتدبير الأمور ما أخافه على ملكه ، فقد كان يعرف من مواقفه فى الصبا ما يحير ويدهش ، ولكنه ظنها نزوة المغامرة ، فإذا وقف على حاله تخوّف منه على نفسه . وشعر الشاب بهذا ، وأحست جدته لأبيه بذلك ، وعلم أفراد الأسرة بالموقف ، وعرف الرجل أنه فى حال لا يحسد عليها ، وأنه لن يركب لقتال ولن يتصدّر بين قومه .

وحدث أن سقطت « حماة » فى يد عماد الدين زنكى سنة ٥٢٤ هـ وكان مالكاً للموصل ، فعرف أسامة أن وجهة هذا البطل توحيد سورية ضد الصليبيين وأيقن أن « شيزر » وغيرها ستكون لعماد الدين ، فهاجر من بلده ، وسار إلى الموصل وانضم إلى عسكر عماد الدين يحارب تحت رايته ، وسنه ست وثلاثون سنة ، وأبدى من ضروب البطولة فى مواقع كثيرة بتكريت وبغداد ، وسار معه

نحو حلب فتملكها ، وحاصر معه دمشق . ولكنه علم أن الفرنج والروم تحالفوا على انتزاع شيزر من بنى منقذ ، فعاد إلى بلده يدافع عنها .

وفى شعبان سنة ٥٣٢ هـ ، وقفت جيوش هائلة حول شيزر ، فأبلى أسامة بلاء مجيداً ، ولكنه استنجد بعماد الدين فأسرع هذا وحط رحاله بين حماة وشيزر ، واستطاع بفضل دهائه أن يوقع بين الروم والفرنج ، فراح الروم يفاوضونه بعد حصار دام أربعة وعشرين يوماً . وعرف أهل البلد ما كان من « أسامة » وارتفع شأنه ، وردّدت شيزر أنباء بطولته ، فدبت الغيرة من جديد فى صدر عمه ، فأمره وأمر إخوته بالنزوح عنها ، متيقناً بأنه أصبح خطراً على ملكه ، وأنه لن يسلم معه إذا ما ظلّ مقيماً بشيزر .

وخرج أسامة وإخوته أبناء « مرشد » وتشتتوا فى البلاد ، وكانت كارثة عليهم فى ظاهر الأمر ، ولكن الله أراد أن ينقذ هؤلاء من زلزال فظيع حدث بعد عشرين عاماً ، سنة ٥٥٢ ، هلك فيه كلّ من فى القلعة ، ومات بنو منقذ جميعاً ، وسلم هؤلاء المطرودون ، وعاشوا وسلمت أولادهم . . .

وسافر « أسامة » بعيداً عن شيزر ، غريباً شريداً ، يفكر فى عمه وما صنع حيال أبيه وما كان من نكرانه للجميل ، وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ، لا يملك منصباً ، ولا يحكم إمارة ، ولا يرأس جيشاً ، فأثر فى نفسه ذلك أشد التأثير ، وعرف أن ذكاء المرء محسوب عليه ، وأن الناس لا يحبون لغيرهم أن يرقوا فى العلم أو فى الحرب ، ولا يريدون أن يجاورهم من يجوزهم أو يرتفع عنهم . وآمن بأن التنافس يصيب أقرب الناس ، ويظهر على أدنأ الوسائل ، وأن الإبعاد والقتل والسجن نصيب الجرىء الذكىّ والمغامر الشجاع إذا أحاطت به النفوس المريضة . لذلك فكر فى أمر شديد الخطر كان نقطة تحوّل فى حياته ، ذلك أن يعتمد على الدهاء بعد اليوم ، وأن يسير سيرة السياسيّين لعصره فى إعمال الدّس والتحريض ، فركب هذا المركب فى الشام ، وركبه بعد ذلك فى مصر ، وركبه أواخر عمره . وعرف عنه أنه يتآمر ويدخل فى الفتن والدسائس فلقى عنتاً فى حياته كلها بعد ذلك ، ولقى تشريداً وتنقلاً ، فما قرّ قراره ولا سكن لبه ، ولا هدأ باله ، وتحوّل إلى إنسان آخر بسبب هذه الحادثة الفظيعة ، فهجر أباه ، وهجر بلده ،

وترك موطنه ومسقط رأسه يناضل فى الأرض ويغامر فيها وراء المناصب الكبيرة . وكذلك تفسد الحياة نفوس الناس .

ودخل « أسامة » مدينة دمشق غريباً وحيداً سنة ٥٣٢ هـ ، وفى رأسه فكرة بعيدة ، وتقرّب إلى وزيرها « معين الدين أنر » فأصبح بعد قليل عوناً له وناصحاً ، فأشركه معه فى سياسة الملك ، ووقفا يدبران خطة يبعدان بها أطماع « عماد الدين » صاحب الموصل . ونسى « أسامة » أنه أعجب به لأنه يريد جمع المسلمين ضد الصليبيين ، ويسعى إلى ضمّ « دمشق » لتكون سورية موحدة جسداً واحداً . ونسى كذلك أنه وقف من قبل مع عماد الدين يطرق أسوار دمشق لفتحها . فوقف هذه المرة من داخل دمشق مع الوزير معين الدين ليدفعها عنه مهما كلف الأمر . بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فاتفق مع الوزير على أن يذهب بنفسه إلى الفرنج فيتفق معهم على مقاومة زنكى . ومضى « أسامة » فعلاً فى تدبير هذه الخطة المنكرة ، وسافر إلى ملك القدس الصليبى « فلك الخامس » فرحّب به الملك ، وقدّر له شجاعته ، وسمح له بزيارة الديار المحتلة من قبل الصليبيّين ، واجتمع إلى فرسانهم الداويّة والاسبتارية[1] ودرس عاداتهم وطباعهم عن كثب ، وكان معه « معين الدين » فطافا طبرية ، وعكا ، وبانياس ، وتمكنت بينه وبينهم صلات المودّة والألفة ، وانصرف أسامة إلى الصيد والقنص ، وذكر ذلك فى مذكراته ، وقصّ علينا ما وصل إليه من الصداقة فقال :

« كان فى عسكر الملك فلك بن فلك ، فارس محتشم أفرنجى ، قد وصل من بلادهم يحجّ ويعود ، فأنس بى ، وصار ملازمى ، يدعونى أخى ، وبيننا المودّة والمعاشرة . فلما عزم على التوّجه فى البحر إلى بلاده قال لى : يا أخى أنا سائر إلى بلادى ، وأريدك تنفذ معى ابنك — وكان ابنى معى وهو ابن أربع عشرة سنة — إلى بلادى يبصر الفرسان ، ويتعلّم العقل والفروسية » .

ولكن أسامة أبى عليه ذلك ، وعاد إلى دمشق وبيده المحالفة ، وسارت إثرها حملة من الفرنج والدمشقيين ، ومشى المسلمون والفرنجة معاً لقتال زنكى ،

---

(١) كان الداوية والاسبتارية فرقتين دينيتين ثم أصبحتا ضد الإسلام .

فانصرف عماد الدين زنكى عن حصار عاصمة الأمويين حين رأى ذلك ، وفرح الدمشقيون لذهابه ، واشتهر بينهم « أسامة » بدهائه ، وكرّموه لحسن سياسته وتدبيره ، كما اشتهر بين الإفرنج بصداقته وحسن سياسته . وعاش على وفاق فى دمشق مع الوزير « معين الدين » يغبنه ويساعده حتى جدّت أمور غيرت الوزير عليه ، فاستشعر الوزير الخوف منه على نفسه ، كما خاف عمه من قبل ، فأبعده وقرّب غيره « طمان الياروقى » من أهل دمشق ومن بنى جلدته — كما يقول المؤرخون — وتوّجه إلى مصر ، وهو يجهل سبب التغير ، ويعجب للموقف أشدّ العجب ، ويذكر ما كان من مودّة دامت ثمانى سنوات فحسب .

ووصل « أسامة » إلى « القاهرة » فى ٢ جمادى الثانية سنة ٥٣٩ هـ ، وسنّه إحدى وخمسون سنة ، ومعه والدته وزوجه وأخوه محمد ، وعدد كبير من مماليكه ، — وكان أبوه قد مات بشيزر منذ ثمانى سنوات سنة ٥٣١ هـ — . ولا شك فى أن شهرة الرجل سبقته إلى مصر ، فأكرمه الخليفة « الحافظ لدين الله » الفاطمىّ ، وأنزله بدار الملك ، وأقطعه إقطاعاً يعيش منه على رغد وسعة . ومات الحافظ ، وخلفه الظافر ، وقامت الفتن بين الوزراء ، وساءت الحال بين الحكام وفسدت الأحوال الاقتصادية ، وانتشرت الدسائس فى البلاط الفاطمىّ ، وكان لأسامة نصيب كبير فيها ، حتى اتهم بأنه حرّض على قتل الظافر ، وكان هذا حدث السنّ مشتغلاً باللهو والجوارى والغناء ، واتّهم كذلك بقتل الوزير ابن السلار . فغضب المصريون وجدوا على « أسامة » وغمهم ما كان منه ، وأرادوا به الشر ، فخرج من مصر مغاضباً بعد أن أقام فيها عشر سنوات كانت قلقة حائرة ، لم يسترح خلالها كما كان يظنّ ، وإنما خلف بعده شعوراً بالخوف منه ، فقد أراد المصريون أن يحتفظوا بأسرته وأهله رهينة ، لئلا يؤلب «نور الدين» على المصريين ، وقاسى فى طريق عودته إلى دمشق أهوالاً وصفها ، فذكر كيف هجم عليه الصليبيون ، وقاتلهم وأفلت منهم بأعجوبة خارقة .

وعاد « أسامة » إلى دمشق ثانية ، سنة ٥٤٩ ، وهو فى الحادية والستين من

عمره بعد أن تغيرت الأمور فيها ، ومات صديقه القديم معين الدين أنر ، وحلّ محله أيوب والد صلاح الدين . واستولى « نور الدين » ابن عماد الدين على دمشق فى هذه السنة ، فانتقل الحكم إلى يد قوية عادلة ، وملك عظيم ، جمع ملك الشام كله تحت رايته وغدت دمشق منارة وجامعة يقصد إليها العلماء من كلّ صوب . ونسى نور الدين من غير شك ما كان من موقف أسامة ضد أبيه عماد الدين ، فقد كان يحتفل بالعلماء ويقدّم الفضلاء ، ويحترم الأبطال ، فأكرم وفادة أسامة ، وقرّبه ، وعوّض عليه ما فقد خلال مغامرته الأخيرة ، فقد ذكر أسامة أنه أضاع ماله وقدره ثلاثون ألف دينار ، وكتبه وهى تبلغ أربعة آلاف مجلد . وكان فى بلاط نور الدين شخصيات كبيرة أفاد من صحبتها ، وكان فيها شباب طامحون أمثال « صلاح الدين الأيوبى » فاتصلت بينه وبينهم أواصر الصداقة . واتصل الودّ بين نور الدين وبينه . فلما عرض ابن رزّيك على أسامة ولاية « أسوان » بمصر استشار نور الدين فنصحه بأن لا يعود إلى البلاط الفاطمىّ ، فهناك الدسائس بين الوزراء والفتن ، وكأنه يشير من طرف خفىّ إلى الرجل بأن يبتعد عن هذه الأمور التى شاعت عنه وأفسدت عليه عيشه فى مصر .

وفى سنة ٥٥٢ هـ بلغت شاعرنا أنباء الزلزال الذى وقع فى شيزر فراح ضحيته كل بنى منقذ ، وتهدّم الحصن ، فحزن الرجل حزناً شديداً ، وعاد بالذاكرة إلى أيام صباه وشبابه ، وأسف لموت أسرته وأقاربه وبكاهم بشعر رقيق قال فيه :

لم يترك الدّهر لى من بعـــد فُرقتهم ... قلبًا أجشّمـُه صبراً وسلوانا
فلـــو رأونى لقالـــوا ماتَ أسعدُنا ... وعاش للهـَمّ والأحـــزان أشقانا

ثم قال :

بنو أبى وبنو عمى دمى دمهم ... وإنْ أرونى مناواة وشنآنا
يطيّب النفسَ عنهم أنهم رحلوا ... وخلّفونى على الآثار عجلانا

وقد أصاب هذا الزلزال حماة وقلعتها ، وحلب ، وأفامية ، وجزع له أهل دمشق وفزعوا إلى الصحارى يبيتون فيها .

وفى سنة ٥٥٤ هـ أثقل المرض نور الدين ، وخاف الناس عليه السوء ، وتأثّر أسامة وكان فى السابعة والستين ، فذكر الموت وفزع إلى الله تعالى ، واعتزم أن يحجّ إلى بيت الله زلفى وقربى ، وخرج من دمشق إلى حلب ، فزار مساجدها وسار إلى الموصل ، ومنها ولّى وجهه نحو الحجاز ، وبذلك اتخذ طريق الشمال لئلا يمر بمسالك الصليبيين ، فأدى فريضةَ الحج ، وعاد إلى دمشق ، وقد مال إلى الورع والتقى ، وزهد فى السلاطين والحكام . فلما أصبح فى الحادية والسبعين من عمره فكر فى عزلة بعيدة عن دمشق وعن أخبار الملك والحكم ، فقد سئم حياة القصور والعواصم والبلاطات ، وأراد أن يهدأ وأن يخلو إلى نفسه ، فيقرأ ويدرس بعد أن شغل معظم وقته بأمور الناس ، وما يتصل بسياسة الأمراء والوزراء ، فما نفعه وقوفه على المؤامرات والدسائس وما أفاده قرب الملوك والسلاطين ، فالنفوس الصغيرة تكون فى أجساد الملوك والأمراء كما تكون فى أجساد العامة والسوقة .

وسار عن دمشق سنة ٥٥٩ هـ ، بعد أن أقام فيها عشر سنوات ، كما أقام بمصر سواء بسواء ، وتوجه إلى « خلاط » عاصمة أرمينية ، وكان يعرف إقليم ديار بكر[1] بجباله المنيعة وحصونه الشاهقة ، ويعرف أن « حصن كيفا » من أعجب حصون الدنيا ، يطلّ على دجلة بين آمد وبين جزيرة ابن عمر ، فآثر أن يكون ملجأه الأخير يقضى فيه آخر مراحل عيشه ، فدخله ، وكان أمير الحصن الأمير فخر الدين ، فرحّب به ، وفرح بأن يضمّ إلى بلاطه رجلاً عظيما عرف البلاط الفاطمى ، والبلاط النُّورى ، ووقف على أمور الصليبيّين ، وفهم أحوال المسلمين ، وشهد عن كثب سياسة الأمم والشعوب والدول ، فأكرمه وأحسن وفادته وهيأ له الجو الذى كان يريد .

فانصرف أسامة إلى البحث والدرس والقراءة والمراجعة ، واستعان بالخزائن فى ديار بكر وخاصة بمدينة « آمد » وفيها خزانة غنية قال أبو شامة إنها تحتوى

(١) فى الفصل الذى عقدناه للوزير المغربى رأينا أنه بعد أن خاض فى السياسة والفتن ذهب إلى ديار بكر كذلك وانزوى بعيداً ليكتب ويؤلف – انظر صفحة ٦١ السابقة

على ألف ألف وأربعين ألف كتاب ، فاستسلم العالمُ الباحث ، والمؤرخ الأديب إلى هذه الكتب تحدّثه ويحدّثها ، وهو خير من يفهم عنها ، فقد علمنا من قبلُ أن أساتيذه فى اللغة والأدب كانوا أعلام العربية وأساطينها ، وعرفنا أنه رحل إلى مصر وقراها شمالاً وجنوباً ، ووقف على أحوال الأمم والشعوب . فكان من ذلك زاد عظيم لكاتب أديب يريد أن يؤلف وأن يصنف ، وكان منه كذلك زاد كبير للخزانة العربية ، فقد خلّف فيما بعد مؤلفات كبيرة خطها حوالى التسعين من عمره تشهد له بطول الباع وسعة الفكر وقوة العربية ، وجموح الخيال ندر أن تجتمع فى كاتب لذلك الزمان .

وراح يكتب مذكراته الشخصية ، ويرسم ما كان منه منذ الصبا حتى هذه الشيخوخة الواعية العميقة المتنبهة ، فلم يفته لون من الألوان ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة . وقد أصبحت هذه المذكرات التى خطها صورة حياته اليومية ، وصورة للمعارك الصليبية ، بل تاريخاً للقرن السادس الهجرىّ ، شهد ولادته وظل يصاحب سنيه حتى شاخ القرن ومال إلى الزوال . وقد جعل عنوان مذكراته هذه « الاعتبار » فدلّ على أنه كتبها عبرة لغيره ، ودرساً للأجيال ينتفعون بها فى دراسة حياة نشيطة دخلت ميادين العيش كلها من فروسية وقتال ، وصيد ونضال ، وعلم وأدب ، وشعر وتاريخ ، وسياسة وملك ، عرفت ما لم يتح لغيرها أن يعرف وارتفعت فعاشرت الملوك والسلاطين ، ووقفت على فروع المعرفة كلها . وقد كتبها بلغة حزينة ، يلفها الزهد والورع ، وتسيطر عليها الشيخوخة والوهن ، وتنبع فى كل صفحة من صفحاتها سطور التقوى والاتكال على الله ، والإيمان بالقدر ، والاستسلام لله ، فقد خاض الرجل غمار الحياة وهجم على المخاطر ، وسعى إلى الموت ، ولكنه لم يلق حتفه وهو يصارع الأسود ويقتلُ الحيات ، ويقاتل الصليبيين ، ويحارب الحلبيين ، ويسعى بين المصريين ويموت الناس على مقربة منه ، ويقضى الملوك بين سمعه وبصره ، ويصرع الأمراء والوزراء أمامه ، ويبقى هو فى هذه المعركة الكبيرة كأنه فى جفن الردى وهو نائم ، أو كأنه أمام شاشة تعرض عليه مشاهدها وهو ليس منها فى شىء .

وقد ظلّ الرجل يكتب هذه المذكرات ويسجل وقائع حياته بقلم مرتعش ويد مرتجفة ، حتى أواخر أيامه ، فلم يتم كتابه « الاعتبار » إلا قبيل وفاته .

وكتب أسامة بعد التسعين كذلك كتاب « البديع » جمع فيه ما تفرق فى كتب العلماء المتقدمين المصنفة فى نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ، وقد وقع إليه كتاب « البديع » لابن المعتز وكتب النقد قبله ، فلخص آراءها وناقشها ، وكان حجة فى فهم الشعر ، وهو شاعر فحل كما سنرى . وكتب مؤلفاً آخر جعل عنوانه « حقوق النساء » ، انتصر لهن وأشاد بهن .

والذين كتبوا فى ترجمة الرجل شهدوا بأنه جمع ديوان شعره أثناء مقامه بديار بكر خلال هذه العزلة من حياته ، ورتبه فيما رأوا وفاق الأغراض الشعرية على أبواب : باب للغزل وآخر للشكوى وللوصف وغيره ، وكان الرجل بعيداً عن الإعجاب بشعره ، فهو لم يفرغ للشعر خالصاً ، ولم يفرغ للنقد والأدب والتاريخ ، وإنما جعل حياته موزّعة على هذا كله إلى جانب مشاغله السياسية ، ومشاكل عيشه ، وحروبه وأسفاره ، فكان شعره جانباً واحداً من جوانب حياته لو جمع إلى غيره لأتمّ حلقة جميلة . ولكنه وحده لا يجعله شاعر العصر ولا يرفعه إلى إمارة الشعر ، وهو لم يحترف الشعر ولم يعمل له خاصة ، وإنما جعله مداداً يسجل به وقائع عيشه وما صادف خلال حياته ، شبيه بكتابه « الاعتبار » فكأنه قسم مذكراته على النثر والشعر ، فخطها هنا وهناك ، ومن مجموعهما يتكوّن سفر عمره ، حدثاً بعد حدث ، ومرحلة بعد مرحلة ، فهو أنفع للتاريخ منه للشعر نفسه . ولا يعنى هذا أن شعره منخفضٌ عن الفحولة والقوة والمتانة ، وإنما جاء شعره متقناً متيناً جزلاً ، لكنه لا يناسب فى كثير منه طموحَ الرجل ومكانته ، وهو نفسه عرف ذلك فاعتذر عن بعضه متواضعاً بقوله :

كلما ردّدتُ فى شعرى النظرْ	بانَ ضعفُ العيّ فيه وظَهرْ
ليس يُرضينى ولا يمكننى	جحدُ ماقدْ شاعَ منه واشتَهرْ
فأجيل الطرف فى تَقْليلــه	فإذا قَلّ اختصرتُ المُختَصَر

وبه فقــر إلى ذى كــرم إنْ رأى ما فيه مِن عَيبٍ ستَر

والعجيب أن هذه الأبيات نفسها لا تمثل الشعرَ العالى ، وإنما تمثل شعرَ العلماء ، أو شعر المؤرخين ، فى عبارة بسيطة لا تلفها الشاعرية فى أسلوب أو فى معنى ، وإنما هى أقرب إلى النظم ، ولعله قالها فى ظرف غير موات للشعر والشاعرية ، بل لعله يقلد تواضع العلماء .

ومن الواضح أن أسامة تأثر فى مجمل شعره بالأدب القديم فنظر فى الشعراء الفحول ، وكأنه أحبّ أن يقف لهم وأن يعارضهم أو يضمّن من أقوالهم ، فكان فى كثير من الأحيان صورة لأكثر من شاعر فى أبيات القصيدة الواحدة . تجد فيه روح المتنبي وأبى فراس وغيرهما . وقد جعله سجلّ حياته ومذكرات أيامه كما قلنا ، فصوّر فيه ما لقى من غربة وهجر ، ومن سفر وارتحال ، ومعارك وقتال ، عبر عنها غالباً ببساطة النثر وجمع على ألفاظها الموسيقا فكانت منظومة فهو حين يصوّر حياته بمصر يقول :

خمسون من عمــرى مضت لم أتعظ فيهــا كأنى كنتُ عنها غائبــا
وأتتْ علىّ بمصر عشرٌ بعــدهــا كانتْ عظات كلُّهــا وتجاربا
شاهدتُ من لعب الزمان بأهلــه وتقلّب الدنيــا الرقوب[1] عجائبا

وهذا تفسير قولنا إنه نظم حياته شعراً ، ووصف عيشه نظماً فى كلمات لا تحلـّق غالباً إلى خيال جامح ، وكان ذلك صورة لأكثر الشّعر فى عصره طرق الرجل فى ديوانه مواضيع شتّى لم يختلف فيها عن سابقيه ، فأحبّ كما أحبوا وشَقِىَ فى حبه وشكا من الهجر ، وتأفّف من غدر الناس وجحود الأيام ، ووصف على ذلك جلده وصبره ، ووقوفه فى وجه الزمان متحدّياً ، لا يبالى أكان فى العشرين من سنيه أم فى الثمانين من أيامه .

ولنستمع إليه فى رقيق شعره ، يتغزل فيقول :

أشتاقُه وهو السّواد لناظــرى من لى بحسن الصبر حين يغيبُ
أحببتُ فيــه اللّائمين لأنّه يحلو بسمعى ذكرُه ويطيبُ

(١) الرقوب : التى لا يعيش لها ولد

ومنحتُه كلَّ الهوى دون الورى طُرًّا ومالى من هواه نَصيبُ
ومن العجائب فعله بى فى الهوى ما يفعل الأعداء وهو حبيبُ

وفى شعره مما يتغنى به غناء من غير تلحين قوله :

ما يريد الشوق من قلب مُعنى ذكَرَ الألاّفَ والوصلَ فحنّا
حسبُه من شوقه ما عنده وكفاه من هواه ما أجنا
كلّما شاهدَ شملاً جامعًا طار وجداً وهفا شوقًا وأنا
فرثى مِنْ رحمة عاذلُه ورأى الحاسدُ فيه ماتمنّى
يا زمانَ الوصْلِ سقيًا لك مِن زمن لو كان قرب الدار عنا
قلْ لأحباب نأتْ دارُهم وعلى قُربهم أقرعُ سنّا :
ساءَ ظنّى باصطبارى بعدَكُم ولقد كنتُ بكم أحسِنُ ظنّا

ولعل هذا الشعر قاله فى شبابه وهو يدخل فى أبواب الحب ويخفق قلبه للجمال ، وتضحك عينه للفتنة ، فيبكى لسانه بالشوق واللوعة والألم . وللرجل فى الفخر أبيات جميلة يحقّ له أن ينشدها لما كان منه بين قومه وغير قومه ، فهو يقول :

إنْ يحسُدُوا فى السّلم منْ زلّتى من العزّ المُنيفِ
فبما أهينُ النفسَ فى يوم الوغى يومَ الصُّفُوفِ
فلطالما أقدمتُ إقْدامَ الحُتوفِ على الحُتوفِ
بعزيمة أمضى على حدّ السُّيوفِ من السُّيوفِ

وله فى ذلك أبياتٌ صادقة لم تكذّبها وقائعُ حياته ، يقولُ فيها :

أمشى الهُوَيْنا والخَطْبُ فى طلبى يُوضع طَوْرًا وتارة عنقا
أحْنُو ضُلوعى فى كل حادثة علىّ فؤاد لا يعْرِف القَلَقا
لا يزْدَهيه خوفُ الحِمام ولا عهدتُه فى مُلمّة خفَقا

وقد وفق الرجلُ فى وصف المعارك والحروب ، وانتصر فى الفخر بنفسه ، فقد كان قائداً فارساً وبطلاً مغواراً ، يروى ما يرى ويرسم ما يقع له ، فينتهى

إلى شعر جميل يلزّ بشعر الفحول القدماء ، ويذكر بأشعارهم فى الغزوات ، فهو يقول :

أبى اللّه إلاّ أن يكون لنا الأمرُ   لتحيا بنا الدّنيا ويفتخر العصرُ
وتخدمنا الأيام فيما نرومه   وينقاد طوعًا فى أزمّتنا الدهرُ
وتخضعُ أعناقُ الملوك لعزّنا   ويُرهبها منا على بعدنا الذكرُ
بحيثُ حللنا الأمنُ من كلّ حادث   وفى سائر الآفاق من بأسنا ذُعر
دماءُ العدا أشهى من الرّاح عندنا   ووقعُ المَواضى فيهم الشّفْعُ والوترُ
صوارمنا حمرُ المَضَارب مِنْ دم   قوائمهُا من جُودنا نَضرة خضرُ
نَسير إلى الأعداء والطّيْر فوقَنا   لها القُوت من أعدائنا ولنا النصرُ
فبأسٌ يذوبُ الصّخر من حرّ ناره   ولطفٌ له بالماء ينبجس الصّخر

وذلك لأنه يشرب من معانى القدماء وينهل من أساليبهم ، وينهض بالمهمة فيستوى مع كثير منهم على صعيد الإجادة فى تراكيبه ، والمتانة فى تعابيره والموسيقا فى شعره ، فهو قريب من الفخر العربى الذى دار على الألسنة خلال القرون الماضية ، وهو حين يصل إلى وصف المعركة نفسها يبلغ إلى الابتكار والتجديد أحياناً فيقول فى القصيدة نفسها عن الفرنج :

وخَلّى لنا فرسانه وحماته   فشطرٌ له قتلٌ وشطرٌ له أسرُ
وما تَنثنى عنه أعنّةُ خيلنا   ولو طارَ فى أفق السّماء به النّسْرُ
إلى أن تزورَ « الجوسلين » مساهمًا   له فى دياج ماالليلتها فجرُ
ونرتجعَ القدس المطهر منهم   وتبلى بإذن اللّه فى « الصخرة» الذكر
إذا استغلقت شُمُّ الحصون فعندنا   مفاتحهُا بيضٌ مضاربهُا حُمْرُ
وإنْ بلدٌ عزَّ الملوكَ مرامُه   ورمناه ذلّ الصّعْبُ واستسهل الوعر
وأضحى عليه للسهام وللظّبى   ووقع المذاكى الرعد والبرق والقطر

وهذا شعر أمير فارس خاض المعارك وخرج منها فى ظفر وفى نصر يتيه بما صنع ويزهى على الأعداء ، فيصف أثره فى المعركة ، لأنه كان سيفاً من السيوف التى ناضلت فى سبيل الحمى ودرعاً من الدّروع التى تلقت السهام ،

وسوراً من الأسوار ضدّ المستعمرين من الفرنج . ولا شك فى أن شعر أسامة متين جزل فخم ، شريف فى معانيه يصوّر البطولةَ العربيةَ فى قلب المعركة ضد الغرب ، ومن هنا يعلو الديوان ويسمو الموضوع ويكتب لشعره الخلود .

وقد أحسن أسامة صنعاً فى كتابة مذكراته وفى جمع ديوانه ، خلال هذه الفترة الهادئة من حياته ، فقد كان يحسّ أن حياته السياسية قد انتهت ، وأن دوره فى البلاطات قد مضى إلى غير عودة ، فأراد أن يسطر ما كان منه فى نثر وفى شعر . وبينما هو فى هذه العزلة جاءته الأنباء بانتصار صلاح الدين الأيوبى فى مصر ، فراح يكتب إليه ، ويدعو له بالنصر على الفرنجة وتوحيد العرب ، ويتمنى الذهاب إليه . وتنشّط ثانية إلى تلك الميادين ، وخاصة بعد أن أتاه نبأ وفاة « نور الدين محمود » .

فلما علم بمسير صلاح الدين الأيوبى إلى دمشق سنة ٥٧٠ واستيلائه عليها أظهر الرغبة ملحاً فى لقائه ، فأرسل إليه صلاح الدين يدعوه ويرّحب به فى مملكته .

وعاد « أسامة » إلى دمشق ثالثة ، فى هذه السنة ، وقد بلغ الثانية والثمانين من العمر ، ولقى البرّ والتقريب والحفاوة ، فقد كان يعرف صلاح الدين منذ عهد بعيد ، وكان يرى له مستقبلاً كريماً ، فأعطاه السلطان داراً ومالاً ، وملكه من أعمال المعرّة ضيعة . وراح يدعوه ويجلس إليه ويستمع إلى شعره ، ويبدى اعجابه به ويحفظ منه، وأسامة يبادله اكباراً بإكبار ،ويقول فيه الشعر والنثر ، معترفاً بأياديه ، فكتب فى « الاعتبار » يقول واصفاً ذلك :

« فعطاياه تصرّفنى وأنا راقد ، وتسرى إلىّ وأنا محتسب قاعد ، فأنا من أنعامه كل يوم فى مزيد ، وإكرام كتكرمة الأهل وأنا أقل العبيد » .

وقال فيه شعراً كثيراً أثبته فى ديوانه ، وسجّله فى كتبــه التى ألفها مثل « كتاب العصا » « ولباب الآداب » ، « والمنازل والديار » ، وكلها شاهدة بهذا الوفاء ، تدعو للسلطان بالنصر والظفر وطول البقاء . ولكن الحسّاد دخلوا

بين السلطان وأسامة فأوقعوا بينهما وحصلت جفوة بعد أن كانا يجتمعان على سماع الشعر ولعب الشطرنج . ويقول بعض المؤرخين إن ذلك كان بسبب تشيع أسامة ، فقد وقف صلاح الدين على ما كان يبطنه الرجل من مذهبه ، وهو الذى حارب الشيعة فى مصر ، وحولها إلى سنة ، فانقطعت المودة لذلك .

وفى هذه الفترة الدقيقة من حياة أسامة ، وقد أعجزته الشيخوخة ، وقعدت به السن ، واجتمع عليه بعدُ الناس عنه ، وانصرافُ السلطان عن مودته ، وثقلت العزلةُ عليه فأصبح خلواً من الإخوان ومن ود السلطان ، فقال يصف حاله اليائسة :

« فلما توقلتُ ذروةَ التسعين ، وأبلانى مرُّ الأيام والسنين ، صرتُ كالجواد العلاف لا الجواد المتلاف ، ولصقتُ من الضعف بالأرض ، ودخل من الكبر بعضى فى بعض ، حتى أنكرتُ نفسى ، وتحسرتُ على أمسى ، وقلتُ فى وصف حالى :

ضعفتْ قواى وخاننى الثقتان من بصرى وسمعى حين شارفتُ المدى
فإذا نهضتُ حسبتُ أنى حاملٌ جبلاً وأمشى إنْ مشيتُ مقيَّدا »

وظل الشاعر البطل والأمير الفارس ينتظر غروب شمسه ، ويترقب أن يحين حينه وحيداً فى دمشق التى دوّى فيها ذكرُه ، وصال فيها سيفه ، وتردد شعره ونثره ، حتى كان يوم ٢٣ رمضان سنة ٥٨٤ ، فاحتمله ملاك الموت من هذه الدنيا وفصل من الفانية إلى الدار الخالدة ، وهو فى السادسة والتسعين من العمر ، ودُفن فى سفح جبل « قاسيون » بدمشق ، ومحا مرورُ الأعوام قبره ، وأضاع معالمه ، ولكنه لم يقو على محو ذكره الخالد فى بطولته وأدبه ومؤلفاته .

ابن الساعاتى *

كان العالم العربى أيام « نور الدين الشّهيد » ينظر إلى دمشق نظرة الإكبار والحب ، فقد أعادت أيامها النضرة فى عهد هذا البطل المجاهد والملك الصالح . ووقفت للفرنجة المُغيرين تصدّ الزحفَ تلو الزحف وتُغير على إقطاعات الغرب فى نواحى الشام فتُذيق الغربيين مر النضال والقتال ، وكان العلماء والأدباء والصنّاع يفدون إلى هذه الحاضرة العظيمة فيجدون فى فيئها الظلّ الظليل ، والإكرام والإنعام . فانتعشتْ فى رحابها الآداب والعلوم والصناعات ، وكاد « نور الدين محمود » يجعل من دمشق حاضرة العالم الإسلامى كله بجهاده وإخلاصه وأخلاقه النادرة .

وقد وفد فى جملة القادمين إلى دمشق رجلٌ من خراسان هو « علىّ بن رستم بن هردوز » ، وكان عارفاً بصناعة الساعات وعلم النجوم ، فتقدّم إلى نور الدين بعمل الساعات التى كانت عند باب « الجامع الأموى » بدمشق ، وأتقنَ عمله فوقع من نفس المليك موقعاً حسناً ، فأغدق عليه وأفاض فى الإنعام والإكرام ، وفرح الرجلُ بما كسب من ثقة ومن مقام . وطاب له العيش فى دمشق وسرّ بجمالها وموقعها ، وأعجب بأهلها وجوّها ؛ فاتخذها سكنا له ، وأقام فيها ، وكان له ولدان ، انصرف أحدهما وهو فخر الدين رضوان إلى علم أبيه ، فأتقن الفلكَ والنجومَ ، وأقبل إلى الطبّ ، فاشتهر اسمُه وذاع صيته ، وقربه الملوك ، حتى أصبح وزيراً لابن الملك العادل ، ثم وزيراً للملك المعظم .

وانصرف ثانيهما وهو « بهاء الدين علىّ » ، إلى مزاولة الأدب ودراسة الشعر والنثر ، وعكف على الدواوين القديمة ، يعبّ من مناهلها ويرتوى من ينابيعها ، حتى شغف حبّاً بالقريض ، وراح ينظم الشعرَ الجيدَ حتى غدا شاعراً مشهوراً ؛ وكانت دمشقُ تعجّ بالشعراء والأدباء على أساليب القدماء فى تكلف وفى صنعة ،

* أبو الحسن بهاء الدين على بن محمد بن رستم الساعاتى ٥٥٣ هـ — ٦٠٤ هـ .

يتنافسون ويتحاسدون ، ويتقربون بشعرهم من الأمراء والوزراء والملوك ، فينال بعضهم حظوة كبيرة ينعم بها إلى آخر حياته ، ويحرم بعضهم هذه الحظوة فيعيش في نكد وفي حرقة ، يشكو دهره وأيامه وحظه ؛ حتى يملّ العيش ويدركه اليأس إلى أن يقضي . ويبدو أن الشاب « بهاء الدين عليّ » قد انصرف إلى اللهو والشراب والسماع ، والمجون ، في صباه ، فطاف مرابعَ دمشق الفاتنة ، وغنّى أنهارها وأزهارها ، وأشجارها وبساتينها ، فلم يقع من نفس « نور الدين » موقعاً حسنا كما وقع أخوه ، وذلك لأنه عاج إلى الغزل والنسب ، فوقف خياله عليهما .

ولم يتلفت في كثير من شعره إلى الأمجاد الدائرة حوله ، فلم يصف معاركَ الفرنجة في ربوع الشام ، ولم ينهض إلى حماسة الأمة المناضلة ، فيرسم موقف الغرب المستعمر الهاجم . وهو بذلك عاش لنفسه ولفنه ، كأنه في منأى عن ظروف شعبه وقضايا وطنه ، فلم يشق طريقه إلى تصوير الملك والسياسة ، وتمجيد نور الدين وقتال الصليبيين ، وكأنه بذلك أغفل ناحية هامة من الشعر كانت كلّ همّ الوزراء والأمراء والرؤساء فانصرفوا عنه . وأصبح يقول الشعر صورة لحاجاته الشخصية ، شاكياً حاله ، باكياً زمانه ، يتظلم من انصراف الناس عن شعره ، ويتباهى بمقدار أدبه ويرمي حساده ومنافسيه وأعداءه بشرر من القوافي ، ظل يرسله طويلاً . وهو مع ذلك لا يرى دواء لحاله إلا الشراب فيقول :

عجبًا تخافُ الفقر أو ترجو الغنى ... ويداك تأخــذُ ما تشاءُ وتترُكُ
فاهجــرْ معاتبــة الليالي واصلاً ... دمَ كرمة في عرس لهــو يسفك

وليس من العجيب أن يشكو الفقرَ أو يرجو الغنى ، ولكن العجب العجاب أن يظل أليفَ الشراب صديقَ المدام ، خدنَ الأحباب والخلاّن يغشى مجالسَ اللهو والطرب ، ذاهباً مع الشباب مذاهبَ الشباب ، لا يتلفت إلى فروسية أو شجاعة أو بطولة كأنه لم يخلق لمثل هذه . وزمانه وبلده ووطنه مرتع الخيول ومرقص الفرسان ، يعود المحاربون إلى دمشق وعلى ثيابهم دماءُ الفرنجة ، ويخرجون من أبواب دمشق وفي قلوبهم مشاعر الانتقام وعواطفُ العزّة والإباء ، ودوافعُ الحرب والضرب . لا يكاد يسمع عن هذه الأنباء نبأ يستفزّه أو خبراً يستثيره ،

فقد صرّف السمعَ للغناء، فى كل فجّ ودرب وانصرف إلى غناء السواقى والأنهار ، والبلابل والقيان، والقوافى والأشعار . وانصرف إلى هذه الأنباء القاتلة التى ترده عن منافسيه وأعدائه فيتقدم إلى الأمراء والوزراء بقصائده فى مدح معروف وقوالب متداولة ، يرجو النوال والعطاء ، ويذكر المبغضين والأعداء ، فيمدح المعزّ فى دمشق سنة ٥٧٩ وقد بلغ السادسة والعشرين من عمره فيقول :

نقل العدى ما لم أكن من أهله ... فاعجبْ لقلبي ما أشد وأصْبَرَا

واغضبْ لجودك أن يَبيت منكّداً ... وصفاء ودّك أن يظلّ مكدّرا

وكفى جهولاً أن يلومك فى ندّى ... من ذا يصدُّ البحرَ عن أن يزخرا

وما يزال فى هذه السنّ يمدح لينال ، ويشكر ليأخذ فلا يجد بدّاً من الرجاء والاستعطاف وبذل النفس ، ولا يعود من ذلك إلا بالخيبة والخذلان فيصوّر فى شعره موقفه من ذلك . فقد مدح القاضى الشهرزورى رسولَ صلاح الدين بقصيدة يصفُ فيها ذلك ويقول :

أرى معشرًا ألْفوا أياديكَ مشرعًا ... وقولهم كالظل والظلُّ زائلُ

فعندهم منك الفواضلُ واللهى ... وعندك مِنْ نَظمى النهى والفضائل

وهذا القول شبيهٌ بقول المتنبي حين وقف له الحساد والأعداء ، فنهض أمام « سيف الدولة » ليقول له إن الشعر الذى يُنْشَد فى مدحك ظلٌّ لشعرى، وترديدٌ لقولى ، ولكن المتنبي كان يعود بالمال والإقطاع ، « وابنُ الساعاتى » كان يرجع غالباً بالحسرة والخسران ، فما تقبضُ يداه إلا الشكرَ وجود اللسان . وقد كان يثنى أجزَل الثناء على من يعطيه ويرى فى كرمه يداً سخيّة أخرجته من سجن الخمول فيقولُ لأحد الوجهاء وقد أعطاه :

يا شارىَ الشِّعر بالسِّعْر الثمين ندًى ... لولاك ما كانَ للأشْعار أسْعارُ

ظَهرَتُ باسمك مِن سِجْن الخُمول وقد ... مَضى لى تحتَ فِعْل الدّهْر إضْمارُ

ولعل ابنَ الساعاتى الشاعر مل هذا الخمولَ وكره هذا الإهمال فقد طال عليه الليل ، وثقل عليه النسيان ، ونظر حوله فى دواوين الشعر التى شربها صبيًّا

وألفها شابًّا ، فما نفع شرابُها ولا درّ حلابها ، ووقف عند النوابغ الأعلام وقد حببوا الهجرة لمن تضيق به الأرضُ وزينوا الاغترابَ لمن يظلمه الربع ، ووضعوا الشمسَ برهاناً حين تغيب وتعود ؛ فيشتاقها الناس ، وتطلع إلى المتنبى وقد اتخذه إماماً فرأى أنه هجرَ حلبَ وقصد إلى مصر لعله يجدُ فيها الخيرَ والنعمى ، ففكر شاعرنا فى الهرب من الشام وقد بلغ الثلاثين من العمر .

وكانت أرض الكنانة مراد العلماء والأدباء ، ومقصد البلغاء والشعراء ، أصبح يحكمها « صلاح الدين الأيوبى » كما يحكم الشام ، فهما تاجا ملكه وجناحا عرشه وميمنة جيشه وميسرته ، فلا عليه أن يؤمها وأن يلوذ بأكنافها . فلما قصد إليها وجد عندها الخير كل الخير ، فطربتْ لشعره طربَ الأرض الظمأى بالماء ، واهتزتْ لقوله ، فهى تحب الغناء أىّ غناء . وكانت تكرم الأدب والشعر ، وتلقى الأديبَ فى أطيب لقاء ، فطاب فيها مقامُ ابن الساعاتى ، وراح يغنى ويغنى حتى ملأ أروقة البيوت العامرة بشدوه وشعره . ورأى سكان النيل فى شعره صورةً للشعر العباسىّ القديم ، فحولةَ لفظ وقوةَ بيان وبُعدَ خيال . ولطفَ تصوير وإبداعَ فنّ . وسمعوا لقصائده الطويلة يقلد فيها أوائلَ الشعر ، ويفتتحها بالنسيب ويعمرها بالحنان والشوق ، ويزينها بألوان البديع الموثق ، وكان للبديع فى ذلك العصر دولة وصولة .

وكأن ابن الساعاتى طرب للآذان السامعة والأيدى المصفقة فزاد فى إنشاده ، وغلا فى تصويره حتى وصفَ كلَّ شيء رآه ، فتلفت إلى « الهرم » ، والنيل ، والسماء والصحراء ، والنجوم ، ورسم ألواحاً بارعة قدمها إلى إخوانه فراجت كل رواج ، وأعجب بها الوجهاء والأدباء ، فقال يصف حال النيل فى زيادته ونقصانه :

متنقلٌ مثل الهلال فدهـــره	أبدا يزيد كما يزيد ويرجـــعُ
يُلقِى الثرى فى العـــام وهو مسلم	حتى إذا ما ملّ عادَ يودّعُ
وكأنما هو والنجوم مواثلٌ	فيه ونور البدر إذ يتشعشـــع
بيضٌ تسلّ على متون سوابغ	خضر بأمثال العقود ترصّعُ

وهذا شعر لطيف يبعث على الإعجاب ،رسمه الشاعر رسماً موفقاً فكان من أجمل ما يغنى فى النيل لعصره . ومثله قوله فى الإسكندرية وقد سكنها وأعجب بمنارتها ، وبحرها ، والسفن تمخر فيها .

ولا شك فى أن سكان النيل كانوا يتغنّون بشعره فى الحبّ ويردّدونه فى مجالسهم ، وخاصة قوله :

يا زمانًا بالخيف كان وكُنّا عنفَ الشوقُ بالمحبّ المُعَنَّى
أين « لبنى » أختُ الشباب وما لـ ـذَّة مَن فارقَ الشبابَ «ولبنى»
أتمنّى تلكَ الليـالى المنيرا تِ وجهدُ المحبّ أن يتمنّى

وهذا الشعر الجميل درّ على الرجل أخلافَ الرزق والشهرة فبات فى أرض الكنانة يمرح فى أثواب الغنى ، ويتيه بحاضره وجميل عيشه ، ويوازن بين أمسه ويومه فيصيح :

لا تعجبنَّ لطالب بلـغ المنى كهلاً وأخفقَ فى الشّباب المُقبلِ
فالخمـر تَحكم فى العقـول مُسِنة وتُداسُ أول عَصْرِها بالأرجل

وهذه صورة بارعة جر إليها خياله المطمئن وعيشه الرغد فاخترع مثالاً لأيامه الأولى ليكفر عن ذله وحاجته فى دمشق موطن شبابه ، وجعل الخمر وسيلة إلى ذلك فرأى أنها تهان فى أول أمرها إذ تُداسُ بالأرجل حين العصر فإذا عتقت طابتْ وأسكرتْ وأطربتْ ، وكذلك ابن الساعاتى كان يداس بالإهمال والنسيان ، فلما بلغ الكهولة أطرب وأسكر ، فراح يتيه بمفاخره ويتغنى بأمجاد آبائه ، وهم من الفرس كما تغنى « مهيار » فقال ابن الساعاتى :

وإنّا لمن قَوم مواقعُ جُودهـم مواقعُ جود الغيث فى البلدِ القَفْر
أباحـوا مِن الأحْياء كلّ ممنّع وطلّوا من الأعداء حتّى دمَ العفر
وأبكـوا عيونَ المال ذلاً فللأسى وللسقم راحتْ فى ملابسها الصّفر
تحدّث عن شهبِ السنين ظباتُهم ونيرانهـم عنهم بألسـنة حُمْرِ

وغدا الرجل يفخر بشعره ويتباهى بقوله ، ويرى نفسه فوق الشعراء من قدماء ومعاصرين ، حتى لكأنه بلغ العيوق فى معانيه ومبانيه ، وحتى لكأن

الشعراء يسرقون من أقواله ، فكأنه متنبئ العصر وشاعر الدهر ، فيقول :

لا تحفلنَّ بنظمِ قـوم أصلُه   نظمي فلجُّ البَحر غيرُ السَّاحلِ
طلبوا ففاتَهم الذى أنَا قائلٌ   كالنَّجم يبعد عن مَدى المُتَطاول
فهم البُغَاثُ متى سَمَوْا المُنيفةَ   بَسَقَتْ مُنوا من مَنْطقِي بأجَادل

وهو يرى أن « لبيداً » الشاعر عبدٌ من عبيد شعره لو عاد إلى زمانه ونظم فى أوانه ، وأن عبيد بن الأبرص من خدّام شعره ، وأن مسلم بن الوليد تقادَم به الميلاد ، ولو عاصره لأغفله بشعره ، فيقول لممدوحه :

ولستُ أمير النظم والنثر إنْ جَرَتْ   إلى غيرك الوجنـاءُ أو وصل الحبلُ
كفاهـا جلالاً أنَّ فكرى وَليهـا   وأنكَ يا نجلَ الملوك لها بَعْلُ
فما كان مِثلى « ابنُ الوليد » وإنمـا   تقادَم ميلادٌ ولا مثلك « الفَضْلُ »

فهو أشعر من صريع الغوانى كما أن ممدوحه أكبر من « الفضل بن سهل » قدراً ، وبذلك أحسّ الشاعر بأنه بلغ منزلته العالية وأنه انتقمَ من الدّهر الذى أغفله ، وأن العبقرية لابد أن تظهر وأن تؤتى أكلها ، ولكنه لا ينسى أن الفضل فى ذلك كله لأسرته وأبيه ولبلده دمشق ، فهو ما يفتأ يردّد محاسنها ، ويحنّ إلى أهلها ، فتعيش فى أخيلته دورُها وأشجارُها ونساؤُها فينطلق مغنياً بها :

دارٌ هى الجنَّة خابَ عاذلٌ   فى حُورها العِينُ وفى ولدانِها
من كلّ هيفاء ثنت رداءهـا   على قَضيب البان من غيرانها
كأنمـا جمانُها من ثغرهـا   أو ثغرُها نُظِّمَ من جُمانها
كأنمـا مياهُهـا قواضِبٌ   جَرَّدها الصَّيْقَلُ من أجفَانِها

وهذا وفاءٌ لشبابه الحيران الفاشل ، وحنين لصباه المتقلب ، ما يقف له وفاء وحنين ، نراه فى شعره كلما طرب ، فيعود بنا إلى ثلج دمشق وأمطار الشام وسفوحها ، فيقول :

لله يومُكَ إذْ تبلَّج وجهُه   والشَّمْسُ مغضبة فليست تنظرُ
تبكى وتبسم مـزنُه وبروقُه   والسحْب تُطْوى تارة وتنشَّرُ

والثلجُ يبكي ذائباً كافـورُه والأرضُ يكفر مسكهَا والعنبرُ
في الجوّ تحسبه جراداً طائراً فإذا تدانى خلتَ ورداً ينْثَرُ

ولعل الشوق وذكرى الأيام الخوالي والحنين الملحّ هي التي رفعت الشاعر ابن الساعاتي إلى ذرى الألم فأبدع الصورَ الفنية في رسم دمشق ومصر ، وجعلت منه شاعراً كبيراً في عصر الاضطراب ، لا يكاد يُدانيه في شعره شاعر معاصر ، فقد ردّ الشعر إلى رحاب العباسيين وأعاد إليه ثوبَ البهجة والقوة والمتانة ، وكساه أبراد الخيال ، وجمح به إلى صور لم تقع لكثيرين من الفحول قبله ، نردّدها اليومَ بين الإعجاب والإكبار ، ونذكر لصاحبها فضلَ صبره ونضاله في سبيل فنه . فقد دافع وكافح حتى انتصر ، وكان انتصارُه عظيماً في حلبة الأدب ، على ديوان ضخم لا يقلّ في أبياته عدداً على ما خلّف المتنبي وابنُ حيوس ، ولا ينخفض في شاعريته ، لما خلّف من روائع الألواح في وصف الطبيعة ، وفي رثاء أولاده الثلاثة ، فقد نكبه الدهر بهم في مصر ، وجاءه موتُ أبيه فبكاه أحر بكاء . وكان في أرض الكنانة لسانَ مدح لدمشق وإكبار لجمالها وإعجاب بفتنتها ودفاع عن أهلها ، حتى هجا ابنَ سناء الملك حين سمعه يشتمُ دمشق . وشاء الله أن يَقضى في ربوع « النيل » عشرين عاماً كانت من خير الأعوام عليه ، خلدته ورفعته وحضنت شعرَه فانتقمت من الزمان الذي رفع أخاه وزيراً لا يكاد يعرفُه الزمان المعاصر وجعلته بين الأعلام المرموقين حتى قضى في تربتها سنة ٦٠٤ هـ ، على إحدى وخمسين سنة عاشها بين جزر ومدّ ، كما يعيش العباقرة جميعاً ، وأصبح اسمُه « ابن الساعاتي » في مسمع الدّهر لا يبليه كر الغداة ومر العشيّ .

ابن جبير

تضاءل مفهوم الأدب عند الناس حتى اقتصر على ما نسمع من قصيد الشعر ورسائل النثر ، فانصرفت الأذهان إلى صورة غريبة للأديب أشبه بالصور الابتدائية لهذا التعريف . وأصبح اسمُ الأدب ضعيفاً فى الأسماع ، هزيلاً فى النفوس حتى لقد تصوّر كثير أن الأديب هو رجل الخيال والوهم لا يقع مع الحقيقة ولا يتصل بالصّدق ، لذلك ضعفت دولة الأدب فى نفوس الشباب والحاكين . والشباب لو عرفوا الأدبَ حقّ معرفته لذكروا أن آفاقه أشد سعة من كلّ فنّ ، فهو يلمّ بكل ضروب القول البديع وجميع مناحي الحياة الذكية ، وهو من السعة بحيث لا يقف له فنّ من الفنون . إنه يمثلُ الحياةَ بكلّ ما تشتمل عليه الحياة فى مفهومها الواسع . وفى الحياة زمان ومكان ، وفى الحياة اجتماع وسياسة ، وفى الحياة سفر ورحلة . ونحن اليوم فى سبيل الحديث عن نوع واحد من أنواع الأدب قلما عرض له النقاد وهو أدب الرحلة .

فالرّحالون العرب خلّفوا حديثَ الرحلة وصوَر السفر مما يُمتع السمع ويخلب اللبّ ، ويُغذّى العقلَ ، ويتلمس السبيل إلى أرقى أنواع الثقافة . وقد عُنى العرب والمستعربون من الأقطار الإسلامية بالرحلة عناية قل أن حفل بمثلها الغربيون فى العصور المبكرة للحضارة الإنسانية .

ذلك لأن الرحلة كانت أحياناً فى سبيل الدّين والدنيا ، فعلى المسلم أن يؤدى فريضة الحج ، وهو حين يؤديها يفتقر إلى معرفة الطرق والأماكن التى يمرّ بها أو يقف عندها . وكانت الرحلة أحيانا أخرى فى سبيل العلم كذلك لا يقصر فى سبيلها الشادون ولا تقف دون هممهم الأمصار والربوع النائية سواء فى نظرهم الهند أو السند أو بغداد أو طهران ، أو القاهرة أو مكة . وفى التاريخ العربى أخبار كثيرة لهؤلاء الذين كانوا يرحلون من الأندلس فيعبرون أفريقية

* أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى ٥٤٠ هـ – ٦١٤ هـ .

حتى يبلغوا الشام وبغداد ومكة ويعودون من رحلتهم وهم قد زاروا أصقاعاً واسعة وبقاعاً شاسعة واستفادوا خلالها علماً عظيماً بالممالك والمسالك .

وكانت الدولة الحاكمة نفسها تحتاج إلى الرحلة وعلم الرحلة فى جباية الخراج وإحصاء الضرائب — كما نقول اليوم — فكانت ترسل البعوث فى هذا السبيل ، وتوفد الرجال لهذا السبب ، وكان من وراء ذلك كتب قيمة فى الطرق والمسالك والدول والممالك مما أغنى المكتبة العربية غنى لا مثيل له فى المكتبات الأخرى منذ فجر التاريخ الإسلامى .

ولعلنا حين نذكر أبا زيد البلخى ، والأصطخرى ، وابن حوقل ، والمقدسى ، وابن خرداذبة ، وقدامة بن جعفر ، واليعقوبى ، وابن الفقيه ، وابن رستة ، وابن الحائك ، وابن فضلان ، وكل منهم صور الدنيا على عهده بما يدخل بعضه فى باب الجغرافيا كما فهمها اليونان الأقدمون وعلى رأسهم « بطليموس » ، نفهم أية ذخيرة نملك فى هذا الباب .

وكان هؤلاء الرحالون الجغرافيون يقدرون المسافات والأطوال بأيام السير ويصفون البلاد كما يرونها أو كما يسمعون عنها مما ينقل إليهم على الألسنة والأفواه . ويسجلون خلال ذلك وصفهم الممتع الأدبى ، فشاركوا بذلك منذ فجر الدولة مشاركة عظيمة فى علم الجغرافيا وأضافوا إلى أدبنا لوحات زاخرة بالفن والشعر والعجائب والغرائب. فتجمع لدينا عن مختلف الممالك شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً صفحات جميلة من أطرب النثر وأعجب الأدب . وقد عكف الغربيون على ترجمة هذه الصفحات واستفادوا منها ، وأعجبوا بها إعجاباً لا يقف عند حد ، ونبهوا على أهميتها ، فأصبحت باللاتينية والإنكليزية والألمانية والإفرنسية ، فى مستوى الآداب العالمية . ونحن فى غفلة عنها اليوم لا نكاد نملك نصوصها ، ولا نكاد نرجع إلى صفحاتها ، بل لا نكاد نعرف ما فيها من أدب رفيع وثقافة عالية . والغريب أن الرحالين العرب لم يقتصروا على الرحلة إلى الشرق وإنما زاروا الغرب ووصفوه فكتبوا عن إنكلترة وفرنسا والبرتغال وأسبانيا وإيطالية وصقلية وعن شبه الجزيرة الإسكاندينافية ، زاروا منها ربوعاً واسعة بأنفسهم ، وسمعوا عن ربوع

أخرى ممن زارها ، فخلّفوا لنا الأدب الذى نسميه اليوم « أدب الرحلة » .

وقد عظم أدب الرحلة ، واشتد ساعده فى القرن السادس للهجرة (الثانى عشر للميلاد) بفضل الإدريسى وابن جبير والهروىّ ، إذ خلفوا لنا أدباً رائعاً أفاد منه التاريخ فائدة عظيمة . ومن أعظم هؤلاء الرحالة أثرا فى أدب الرحلة هو « ابن جبير » ، الذى نعرض له فى هذه الصفحات لنرسم خطوطاً من حياته وسطوراً من رحلته .

دخل جدّه الأعلى « عبد السلام بن جبير » الأندلس سنة ١٢٣ هـ وهو من كنانة بن مدركة ، وسكن أحفادُه بعده بالأندلس وتفرّقوا فى مدنها ، فسكن أبو جعفر أحمد بن جبير « بلنسية » وهى إحدى العواصم العربية الكبيرة فى تلك البلاد تقع على أربعة كيلومترات من البحر ، فى شرقى الأندلس ، يخطها نهر « وادى الأبيار » — وهو كبير تمخره السفن — وتملأ جنباتها الرياضُ والجنائن ، ففى كل بقعة سحر وجمال . وثمارُها وفواكهها تنتشر فى كلّ حديقة ، وهى منذ خيم الإسلام بعقوتها دارُ علم وتفكير ، ومعقل عروبة وموطن بحث ودراسة .

وفى هذه المدينة الجميلة ولد لأبى جعفر غلام سمّاه «محمداً» وكناه « أبا الحسن» ، ليلة السبت لعشر خلون من ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ ، وترعرع الصبىّ فأخذ عن أبيه ، وكان أبوه من كتّاب البلد ، فنشأ على طريقته فى الأدب والعلم والفقه ، ثم تنقل الصبى فى مدن الأندلس والمغرب ، فروى عن ابن أبى العيش وابن الأصيلى وأخذَ العربيةَ عن الحجّاج بن يسعون فى مدينة « سبتة » وعُنى بالأدب ، فدخل فى صناعة النثر وفى نظم القريض ، ونال بهما دنيا عريضة ومالاً كثيراً ، ولكنه رفض ذلك وزهد فيه ، كما قال المؤرخون . وقد انتقل أبوه إلى « شاطبة » فأصبح من كتابها ورؤسائها والمقدّمين فيها .

وانتقل « محمد بن جبير » إلى غرناطة وسكن فيها ، وهى مدينة ساحرة جميلة بوديانها وبيوتها وهضبتها العظيمة ، وقصورها السامقة ، وأبراجها العالية ، ولبث فى هذه المدينة يكتبُ ويدرسُ ، حتى دخلَ فى خدمة صاحب « غرناطة »

أبى سعيد بن عبد المؤمن. ورحل عنه لحادثة غريبة يسوقها « المقّرىّ » صاحبُ « نفح الطيب » خلاصتها أن صاحب غرناطة استدعاه ليكتب عنه كتاباً وهو على شرابه ، فمدّ إليه يده بكأس فأظهر ابنُ جبير الانقباضَ وقال : يا سيدى ما شربتها قطّ ، فقال : والله لتشربنّ منها سبعاً ، فلما رأى العزيمةَ شرب سبعَ أكؤس ، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصبها فى حجره ، فحملها إلى منزله ، وأضمر أن يجعل كفارة شُربه الحجّ بتلك الدنانير . ثم رغب إلى السيد ، وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يحج فى تلك السنة ، فأسعفه وباع ملكاً له تزوّد به .

ونحن لا ندرى مبلغَ الصدق فى هذه الرواية ؛ فهى سبيل على كل حال للتوطئة إلى سفر الرجل وعزمه على الرحيل عن بلاده إلى المشرق ، وقد رحل كثير قبله ورحل كثير بعده ، و « نفح الطيب » يغصّ بأسماء الذين رحلوا إلى الحج وعادوا ، ولكنْ أكثرهم لم يخلف أدباً كابن جبير . وسواء أصدقت الرواية أم كانت مخترعة ، فهى تدل على زهد الرجل وتدينه ورصانته ومكانته فى قومه وموضعه من السلطان ، وهو فى هذه السن .

وفصل ابن جبير عن « غرناطة » أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوّال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره ، وسافر معه أبو جعفر بن حسان وكان من رجال الطب والعلم والأدب . وعبر الرجلان البحر إلى « سبتة » بالشاطئ المغربى ، ووجدا عنده سفينة من سفن مدينة « جنوة » تريد الإقلاع إلى « الإسكندرية » ، فركبا فيها يوم الخميس ٢٩ شوال ، وأقلعت السفينة من الثغر المراكشى قبالة « جبل طارق » ، وسارت إلى شاطئ الأندلس ثم اتجهت إلى جزر « الباليار » وكان الفصل فى الخريف شديد الأنواء ، فتمايلت السفينة ، وعبث بها الموج ، وحلّ بالركاب الفزع ، ولكنّ الله سلم فبلغت جزيرة « سارديني » فنزل بها المسافرون وجددوا الحطب والزادَ والماء ، وأقلعت بعد ذلك إلى جزيرة « صقلية » وكانت عواصف شديدة كذلك وأهوال عظيمة ، وصفها ابن جبير ، فقد كان يسجل يوماً فيوماً ما يقع له خلال السفر

وما يشاهده أثناء ذلك على عادة أرق الكتاب والمؤلفين .

وفارقت السفينة « صقلية » فبلغت ثغر الإسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة ، فاستغرقت الرحلة من « سبتة » . إلى الثغر المصرى شهراً كاملاً ، رسمه ابن جبير رسماً ممتعاً من أجمل ما خلف أدب الرحلة فى وصف ما يحلّ بالمسافر من جزع وفرح ولذة وانقباض .

وحين نزل المسافرون إلى الإسكندرية ، وصف ابن جبير ما كان من عمل السلطات المصرية فى تفتيش الركاب قبل ثمانية قرون قال :

« فمن أول ما شاهدناه فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كانوا فيه من المسلمين واحداً واحداً . وكُتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم . وسُئل كلّ منهم عما لديه من سلع أو ناضّ[1] ليؤدّى زكاة ذلك كله ، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل . وكان أكثرهم متشخّصين لأداء الفريضة ، لم يستصحبوا سوى الزاد لطريقهم ، فلزّموا أداء زكاة ذلك ، دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا .

« واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب ، فطيف به مرقّبا على السلطان أولاً ، ثم على القاضى ، ثم على الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان . وفى كلّ يُستفهم ، ثم يقيد قوله ، فيخلى سبيله » .

وفى هذا الكلام جمال فى الأسلوب ودقة فى التعبير ، يصف الإجراءات الرسمية — كما نقول اليوم — فى إحصاء المال الذى يحمله المسافر والسؤال عن أحوال الركاب من النواحى المختلفة ، كما تصنع الجمارك الأمريكية اليوم ، بل كما يصنع موظفو الإسكندرية لأيامنا ، لم يتبدّل الحال ولم تتغير الطريقة . والسلطان صلاح الدين الأيوبى كان حاكماً لمصر ، يقظاً أشد اليقظة ، يتبع أدق الطرق فى التفتيش والسؤال ، فهو فى حرب صليبية طاحنة ، هجم فيها الغرب على الشرق ، فأصبح أمر الحياة معلقاً بأقلّ الأخطاء ، يودى بحياة شعب

---

(١) نقد .

وقوة جيش ، وكان ذلك لفرط ذكائه وعمق تجربته . ولم تكن سلطات صلاح الدين تعبأ بجنسية المسافر ومذهبه ، فقد كانت حريصة أشدّ الحرص ، وربما جاء من المغرب من يتجسس فى زىّ عربىّ ، لذلك اشتكى ابن جبير من هذه القسوة وهذه الشدّة ، وعجب أشد العجب لمرور المسافر على السلطان والقاضى والديوان والحاشية ، يقيدون فى سجلاتهم حال المسافر وما على المركب ، ويلاحظ كل منهم جانب السياسة أو جانب المال أو جانب الوضع الاجتماعى والدينى .

ويمضى ابنُ جبير فى وصف ما وقع للمسافرين من تفتيش الحقائب والأزودة « فقد أنزل كلّ منهم أسبابه وزاده وحمله إلى ديوان مخصص لذلك ، وأدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها . ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام . ثم أطلقوا بعد موقف من الذلّ والخزى عظيم . . . وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الأكبر المعروف بصلاح الدين ، ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك . . . »

وينزل ابنُ جبير ورفيقه إلى الإسكندرية ، ويطوفان فيها ، فيصف رحالتنا آثارها ويذكر بعضَ أخبارها ، ويستعرض المدارسَ والمساجد والمنارات ، ويصف مشاهداته بنفسه ، ويقول بعد ذلك :

« ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كلّ يوم بالغاً ما بلغوا ، ونصّب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله ، فقد ينتهى فى اليوم إلى ألفىْ خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة » .

وعرض ابنُ جبير لوصف الحالة العامة خلال حكم صلاح الدين فرأى أن أهل البلد فى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال لا يلزمهم وظيف البتة . وهى ملاحظة دقيقة تدلّ على عمق فى الفهم واتصال بالحياة الاجتماعية واهتمام بالشعب ، وسؤال عن أحواله . ورحل ابنُ جبير إلى القاهرة فوصف الآثار فيها والمشاهدَ

المباركة ، ودخل المساجد ورسم الورعَ والتقى والزهدَ ، ورسم مشاهد أهل البيت ، والأئمة العلماء الزهاد . كما عرض للمدارس والمستشفيات والأبنية والجزر والخلجان ، وحال النيل والقناطر حوله ، وصعد في النيل إلى « قوص » ووصف المعابدَ ، وطاف في مدن الإقليم ، وذكر الأيام والأشهر لارتحاله وسفره وعودته ، وأثبتَ حال الأنواء والطقس ، والشمس والقمر ، وسجّل الأشهر العربية والغربية معاً .

وغادر ابنُ جبير مصر ، قاصداً إلى الحج ، فركب البحرَ ، ووصف منه ما لم يصف قبله واصف في مثل جماله وأسلوبه دقة وصدقاً ، فقد استغرق سفر البحر ثمانية أيام وصف الأهوال التي عاناها من ضعف عدّة المركب واختلالها قال : « فكنا فيها نموت مراراً ونحيا مراراً ، والحمد لله على ما منّ به » حتى نزل جدّة بدار « القائد عليّ » وهو صاحبها من قبل أمير مكة وذلك أواخر شهر يولية .

وأعظم ما في هذه الرحلة وصف ابن جبير لديار الحج ومناسكه ، فقد أوغل في التفصيل الجميل ورسم كلّ ما رأى ، فهو يعرف أنه لهذا جاء ، وأن أهله بالمغرب يتشوّقون إلى معرفة الديار ورسمها ، ويتوقون إلى زيارتها ، وتقصر أيدي الكثيرين منهم عن بلوغها ، فكان من صفحاته في الحديث عنها تاريخ مفصّل لأيامه في حال البلاد والأماكن والآثار والطرق ، والشعب وحياته الاجتماعية ، والأمراء وصلاح الدين الأيوبي ، والعلماء ومجالسهم ، والدروس وموضوعاتها ، وقد رسم مجلساً للوعظ عقده صدر الدين الأصبهاني رئيس الشافعية . ووصف ما كان منه في المجلس فقال :

« شاهدنا مجلسه فرأينا رجلاً يذوب طلاقة وبشراً ، ويخفّ للزائر كرامة وبرّا ، على عظم حرمته وفخامة بنيته ، وهو قد أعطى البسطتين علماً وجسماً استجزناه فأجازنا نثراً ونظماً ، وهو أعظم من شاهدنا بهذه الجهات » .

وغادر ابن جبير المدينة المكرّمة إلى « العراق » ضحوة يوم السبت الثامن من المحرّم ، والحادي والعشرين من شهر أبريل ، وذلك لأنه أقسم لا يركب البحر الأحمر الملعون ثانية لشدّة ما لاقى من أهوال ومصائب ، فآثر أن يعود

عن طريق العراق فالشام . ووصل « بغداد » ووصف أحياءها ومساجدها وأسواقها وحماماتها ومدارسها ومستشفياتها ، وهاله من أهلها شدةُ الرياء والعجب والكبرياء وقسا بذلك عليهم قسوة لا تبررها إلا ظروفه الخاصة ، وشدة تعبه . وزار سرّ من رأى ، وتكريت والموصل ، وانتقل منها إلى أرض الجزيرة الشامية ، فدخل مدينة « رأس العين » فى الشمال من سورية ، فقال فيها :

« وذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيوناً ، وأجراها ماء معيناً ، فتقسمت مذائب ، وانسابت جداول تنبسط فى مروج خضر فكأنها سبائك اللجين ممدودة فى بساط الزبرجد ، تحفّ بها أشجار وبساتين قد انتظمت حافتيها إلى آخر انتهائها » .

وسار بعد ذلك إلى « حرّان » فذمّ هواءَها وأرجاءها وقال : إنها عدمت رونق الحضارة وتعرّت أعطافها من ملابس النضارة ، ولكنه امتدح أهلها ، فهم محبون للغرباء مؤثرون للفقراء : « وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام على هذه السبيل من حبّ الغرباء وإكرام الفقراء ، وأهل قراها كذلك ، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زاداً ولهم فى ذلك مقاصد فى الكرم مأثورة » .

ودخل المسافر « بزاعة » بمحافظة حلب وهى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى ، وبلغ بعد ذلك مدينة حلب فقال : « بلدة قدرها خطير وذكرها فى كلّ زمان يطير ، خطّابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير » . ووصف القلعة وصفاً مسهباً ، ورسم الأماكن منها مفصّلاً . ثم غادر حلب إلى « المعرة » ، ومنها إلى « حماة » و « حمص » ودخل مدينة دمشق فقال :

« جنة المشرق ومطلع حسنه المونق المشرق ، وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين . وتزينت فى منصتها أجملَ تزيين . وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيحَ وأمه — صلى الله عليهما — منها إلى ربوة ذات قرار ومعين ، ظلّ ظليل وماء سلسبيل ،

تنساب مذائبه انسيابَ الأراقم بكلّ سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم هلموا إلى معرّس للحسن ومقيل ، قد سئمت أرضها كثرةَ الماء حتى اشتاقت إلى الظماء ، فتكاد تناديك بها الصمّ الصلاب ، اركض برجلك هذا مغتسلٌ بارد وشراب ، قد أحدقت البساتينُ بها إحداقَ الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتنافَ الكمامة للزهر . وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتدادَ البصر ، فكلّ موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرتها اليانعة قيد النظر ، ولله صدق القائلين عنها إنْ كانت الجنةُ فى الأرض فدمشق لا شك فيها ، وإنْ كانت فى السماء فهى بحيث تسامتها وتحاذيها » .

وهذا رسمٌ بديعٌ يزّينه السجع والإشارةُ اللطيفة والاقتباس الجميل وهو إنشاء ذلك العصر فى الأندلس وغير الأندلس . وابن جبير لا ينسى موطنه الجميل وأهله الذين خلفهم هناك ، فيوازن دائماً بين طباع أهل المشرق وأهل المغرب ، فيقول :

« فمن شاء الفلاح من نشء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرّب فى طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها ، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويف ، فذلك من لا يتوّجه هذا الخطاب عليه ، وإنما المخاطب كلّ ذى همّة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده فى وطنه من الطلب العلمى . فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فأدخل أيها المجتهدُ بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد وأن تقرع سنّ الندم على زمن التضييع ، والله يوفق ويرشد لا إله سواه » .

وهكذا يُعجب ابنُ جبير بهذه الربوع الجميلة ، ويفضّلها على بلاده فى القرن السادس ، ويصفها وصفَ مخلص فى حبه ، فينصح لأبناء المغرب أن يردوا مناهلَ المشرق وأن يعبوا منه وينهلوا ، فتكون الوحدة العربية الكبرى ، وينهض العرب بجملتهم ، ويحلق النسر الجبار بجناحيه من مشرق ومغرب ، ويعود إلى السماء العالية من حضارته ، ويحتلّ مكانه فى العلم والأدب والثقافة . ولعل

من أسباب الإعجاب الذى أبداه ابنُ جبير نظام الحكم وقوة السلطان ، بفضل صلاح الدين الأيوبى الذى كان يضع أسس الوحدة للعرب منذ ذلك الحين ، ويقف للاستعمار وقفة الأسد المناضل ، معتمداً على الشعب ، سائراً به نحو الحضارة والكمال ، فهو يردّد فيه حسنَ الذكر والأحدوثة فيقول :

« وقد تقدّم الذكرُ أيضاً فى غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب وماله من المآثر المأثورة فى الدنيا والدين ، ومثابرته على جهاد أعداء الله . . . فهو لا يأوى لراحة ولا يخلد إلى دعة ، ولا يزال سرجه مجلسه » .

وترك ابن جبير دمشق إلى « عكّا » فقال : « ليلة الأحد التاسع من شهر شتنبر العجمى ونحن بدمشق حرسها الله على قدم الرحلة إلى عكة فتحها الله ، والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى وفى مراكبهم المعدّة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصليبيّة » ووصل إلى عكا فى الثامن عشر من سبتمبر وقال : « فنزلنا فى بيت اكتريناه من نصرانية بإزاء البحر ، وسألنا الله حسنَ الخلاص وتيسير السلامة » .

ومعروف أن عكا كانت بيد الصليبيّين فقال فيها : « سككها وشوارعها تغصّ بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الأقدام ، تستعر كفراً وطغياناً ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجساً وعذرة ، انتزعها الإفرنج من أيدى المسلمين فى العشر الأول من المائة السادسة ، فبكى لها الإسلام ملء جفونه ، وكانت أحد شجونه » وكأنه يصف عكا الآن بأيدى اليهود فى القرن العشرين .

وركب الرجلُ فى أوائل شهر أكتوبر سنة ٥٨٠ (١١٨٤) م المركب المنتظر بمرسى عكا ، وفى الثامن عشر منه أقلع المركب وسار يتهادى فى انتظار الريح ، يرفع شراعاً ويُنزل شراعاً ، واستغرقت الرحلة إلى « مسينا » حوالى الشهرين ، دخل المسافرون فيها أخطاراً وأهوالاً ، وصف ابن جبير خلالها ما وقع من رعب وفزع ، وصوّر البحرَ تصوير كاتب كبير ، وذكر آلات الملاحة وتسيير المراكب وصفاً بليغاً بديعاً ، فكان كراكب العود فى خضمّ الزعازع يعيش بين

الأمل واليأس وبين القنوط والرجاء .

وأقلع الرحالة من « صقلية » على ظهر « مركب جنوى » حمله إلى قرطاجنة فمرسية ثم « لورقة » وذلك فى منتصف المحرم من سنة ٥٨١ ، فاستغرقت هذه الرحلة سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً ، رسمها يوماً بعد يوم فى كتابه : « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » وعرف بعد ذلك برحلة ابن جبير اختصاراً فى الاسم والعنوان ، نقلنا منه هذه المقاطع التى تتصل بأكبر المواضع ، وعرفنا منها أسلوبه فى الإنشاء وطريقته فى الوصف ، ولم نوغل فى التفاصيل الكثيرة وهى هامة كذلك فيما بين المسلمين والصليبيين مما رآه وتحدّث عنه . وإنما أردنا أن نشير إلى فضل الرجل فى أدب الرحلة ، وأن نشيد بيده فى الأدب العالمى ، فقد استطاع فى القرن الثانى عشر للميلاد أن يقول ما لم يقله كاتب قبله ، وبذلك خطّ الطريق وكان علماً فى هذا الأدب ، خالداً على الزمان ، تبعه من بعده ، فقلّده ابن بطوطة ، ونقل عنه .

ورحل ابنُ جبير ثانية إلى الشرق بعد أربع سنوات سنة ٥٨٥ هـ وقد جاوز الخامسة والأربعين ، حين عرف بأن صلاح الدين استولى على بيت المقدس سنة٥٨٣هـ، ولما عاد من هذه الرحلة سكن بغرناطة ثم مالقة، ثم سبتة ثم فاس، منقطعاً إلى إسماع الحديث والتصوّف وتروية ما عنده ، خلال عشرين سنة أو تزيد .

وخلال هذه الفترة ، ماتت زوجته « عاتكة أم المجد بنت الوزير أبى جعفر الوقّشى » بمدينة « سبتة » وكان كلفه بها جماً فعظم وجده عليها ، وأنشد فيها من الأشعار ما ملأ جزءاً سمّاه « نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح » وهو فيما يذكر المؤرخون جملة مراث فى زوجه ، وقد كان ذلك نادراً لعصره ، فاستنّ فى الآداب سنة خاصة فى الرثاء ، سار عليها المعاصرون فى أيامنا . ولو وقع لنا هذا الديوان الصغير لوازنا بين شعره وشعر الخنساء فى الرثاء ، أو شعر الرجال لعصرنا فى أزواجهم . ومهما يكن من أمر فقد اشتدّ جزع الرجل وحزنه ، فشدّ

الرّحال إلى الشرق لينسى ويتعزّى وكانت رحلته إلى مكة ثم القدس ثم الإسكندرية وفيها وافته منيته وهو فى الرابعة والسبعين من العمر ، يوم الأربعاء ٢٧ شعبان سنة ٦١٤ هـ ، بعد أن خلّف فى أدبنا العربىّ هذه الرحلة الخالدة .

ولابن جبير شعر قريب من الجودة لا يرتفع إلى مستوى نثره وكلماته المشهورة وصل إلينا منه قليل لا ينفع فى حكم ولا يقنع فى موازنة ، فلعل الزمان يكشف عن ديوانه . وعند ذاك يشتهر شعره كما اشتهرت رحلته ويستوى الشاعر والناثر فى هذا الأديب العبقرى .

ابن عبد الهادى *

فى منتصف القرن السادس للهجرة ، أى منذ ثمانية قرون ، كان العدوّ الأوربى يُطبق على سورية ، فيهدّد فلسطين ودمشق ، ويهدف إلى جعل هذه الربوع مستعمرة أبديّة للغرب ، تحت ستار غريب ، وعنوان عجيب ، يعرفه الناس جميعاً ، ويذكرونه جميعاً .

فى هذا العهد كانت سورية تئنّ من سوء الحال ، وقلة المال ، وبلبلة الحاكم ، تبيتُ على خوف وتستيقظ على خوف . وبينا كان العدو على الأبواب ، كان الحاكم غارقاً فى لذته ، سابحاً فى رفاهيته ، لا يبالى بالخطر الداهم القريب ولا يفكر فى المستقبل القاتم الرهيب .

وكانت الأنباء تترى عن سقوط الولايات والأراضى بيد العدو قرية إثر قرية ومدينة إثر مدينة ، وحاكم دمشق على خصام مرير واختلاف مُشين مع حاكم حلب . وكان هذا على عزّة ، وفتوة ، وشهامة ، وقوة ، يرى فيه المخلصون الغازىَ المدافع ، والمقاتلَ المناضل .

وعرف حاكم حلب أن الشعب الدمشقى ، يتلهف إلى سماع الأخبار عن حلب . وعن حاكمها . وأن الأمة قد ملت التّهاون بالحقوق، والتعاقد مع الأجنبى والتآمر على الوطن . وما هى إلا أيام حتّى كان أمير حلب يدخل دمشق فينقذ أهلها ، ويبعث الأمن والسلام فى ربوعها ، ويطردُ الحاكم الغاشمَ الخائنَ . فيفتح له أهل دمشق بيوتهم وصدورهم ويرون فيه المنقذ البطل ، والوطنى المخلص . ويستتب معه الهناء ويعود به الرخاء ، ويصبح اسم الأمير السلطان «نور الدين الشهيد» على كل شفة ولسان . ويصبح العام ٥٤٩ للهجرة عام بركة وخير وفاتحة عهد جديد .

---

* أبو المحاسن يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادى الصالحى ٨٤٠ هـ — ٩٠٩ هـ .

وبذلك أصبحت دمشق معقلاً للوطنية ، وملاذاً للاجئين من أقطار سورية والهاربين من وجه الجيوش المحاربة . فأقبل إليها من « فلسطين » الجريحة المهاجرون اللاجئون أفواجاً أفواجاً ، يتوطنون الحاضرة . فلما غصت بهم المدينة اختاروا مكاناً رحباً خارجها ، عند سفح « قاسيون » وعلى أطراف « يزيد » فكانت هذه المدينة الجديدة ، التي ندعوها اليوم « بالصالحية » .

ما أعجب التاريخ ، إنه يعيد نفسه . ولكأننا ونحن نستعرض غزوَ « فلسطين » في القرن السادس للهجرة وتكالبَ المستعمر على أرضها واستماتته في استعبادها نرى صورة لحاضرنا القريب ، وقد اقتلعت من أراضينا أجزاء عزيزة ، ومقاطعات غالية .

ولعلّنا نرى في هجرة أبناء سورية الجنوبية من « فلسطين » خلال القرن السادس إلى الشام ، صورة لسنين خلت ، حين داهم شُذاذ الآفاق سكان الأراضي المقدّسة ، فلجأ إلينا المهاجرون العرب من كلّ فج ، وأقبلوا إلينا من كلّ صَوب ، يرون عندنا الكنفَ والملاذ . . . فماذا عسى أن يخلدوا في تاريخنا الحديث من أثر لهذه الهجرة ؟ وماذا يكتب المؤرخ بعد سنين عن هذه الرحلة والغزوة ؟ وكيف يُقارن بين الأجداد والأحفاد إذا قرئت الصفحات ، وتكلم التاريخ ؟ ! . وإنني أحب أن أعرض لهذه الصفحات فأتحدث عن ماضينا وأستعيد من خلاله صورة حية للاجئين القدامى ، وقد بنوا مدينة جديدة هي « الصالحية » ، وعمروا أحياء جديدة ، وأسسوا مدارس وجوامع ومكاتب ، ومتنزهات وخلدوا كتباً وآثاراً ، لعلّ في الحديث عبرة لمن يعتبر . .

وإنّ قصّة هذه المدينة عجيبة في أمرها ، تفصح عن جهد الأجداد وسعيهم وجدّهم . فقد كانت هذه الفئة القليلة تعمل من غير توان وتشتغلُ من غير تراخ ، متدرّعة بالصبر ، متسلّحة بالإيمان والتدين ، وقيل سميتْ مدينتهم « مدينة الصّالحين » لصلاحهم وتقواهم ، فنافست مدينةَ دمشق نفسها . وأصبحتْ فيها البيوتُ والمدارسُ والأسواق والبساتينُ والجداولُ والبرك ، والبحيرات والأزهار ، والفواكه والثمرات .

وقد وصفها المؤرخون لعهدها ، فأطروْا جمالها وأطنبوا بذكرها . وقال عنها الرحالة ابنُ بطوطة : « إنها مدينةٌ عظيمة » . وكتبَ عنها القلقشندى فى « صبح الأعشى » ، فقرنها إلى مدينة دمشق وقال : « ولكلٍّ من مدينة دمشق والصالحية البساتين الأنيقة بتسلسل جداولها ، وتغنى دوحاتها » .

وأثر هؤلاء الفلسطينيّين خالدٌ على الدهر ، أبدىٌّ على الزمان فقد دخلوها لاجئين فقراء ، وأصبحوا فيها بعد قليل من الزّمن علماء البلاد ومؤرخى الأمة ، قامت على أيديهم دوُر الحديث وعلومه ، وعمرت المكتبات ، وانتشرت المؤلفات ، وتوسعت الحلقات واستوى فى العلم بينهم الذكورُ والإناث . فكانت المرأة سبّاقة فى الدرس ، حافظةً فى الحديث ، راويةً للتاريخ ، سرى اسمُها فى المؤلفات سريانَ أسماء الرجال والحفاظ . وخلفت لنا الأجيال كتباً لا تزال محفوظة وعليها أسماء هاته النساء ، تشهد أنهن سمعن الكتابَ ورويته وتداولنه ، ولقبن بألقاب علمية جليلة لذلك العصر . فقد قيل فيهن : ستّ الناس ، وستّ العرب ، والشيخة الحافظة ، والشيخة الصالحة ، إلى غير ذلك من ألقاب كان الرجل يتخذها لنفسه وينفرد بها .

وهؤلاء المهاجرون أنفسهم ألفوا تاريخَ رحلتهم إلى دمشق ، وهم الذين خلفوا لنا ما نستطيع أن نستدلّ به على نشاطهم العلمى وتآليفهم النافعة فكتبوا الكتبَ الكثيرة فى الحديث والفقه ، والتاريخ ، وسجلوا لنا تاريخ مدينتهم « الصالحية » وتطور إنشائها وعمران مدارسها وتكاياها ، وجوامعها ومكتباتها ، فى كتب كثيرة ، تناولت بعضها يدُ الضياع وبقى بعضها الآخر ينتظر جدّ أبناء دمشق فى نشر ما خلفه هؤلاء العلماء من صفحات لامعة لمدينتهم الجديدة ، التى تعدّ من أجمل أقسام دمشق الكبرى . بل تعد بحق مظهرَ دمشق العمرانى .

وحين نرجع إلى هذه الصفحات اللامعة التى ألفها هؤلاء المهاجرونْ وأبناؤهم وأحفادهم نؤمن بأنّ القوم ما ونوا ولا فترت هممهم عن العمل لوطنهم الكبير وحاضرتهم الجديدة ، فلم يضرهم الفقر والعوز والرّحلة والهجرة ، وإنما تلفتوا إلى السعى والجدّ فرفعوا أعلام المعرفة والعلم والذكاء على أبراج هذه المدينة الجديدة ،

وعمروا مساجدها بالخير والبركة والنفع ، فتعالت من مآذنها صيحات التكبير والإيمان .

وأحسن هذه الصفحات فى « تاريخ الصالحية» خلفها مؤرخ عالم كبير هو يوسف بن عبد الهادى (٨٤٠ — ٩٠٩ هـ) حفظ بها تاريخ أجداده ومآثرهم منذ القرن السادس للهجرة حتّى صدر القرن العاشر . وشارك فى العلوم المختلفة فذاع صيته ، ودوت شهرته فى أيامه ، ولكنها خفتت لأيامنا ، فأصبح الجيل الجديد لعصرنا يجهل كل شىء عن حياة الرجل ، وما صنع لوطنه وللعلم ، ولهذا أحببنا أن نشير إلى خطوط عريضة من هذه الحياة تعريفاً به وبكتابه عن « الصالحية » .

إن أسرة الرجل عربية خالصة ، انتقلت مع الفتوح إلى هذه البلاد فاتخذت فلسطين وطناً ، وانتقلت بعد ذلك إلى دمشق ، وفى هذه المدينة نشأ الفتى وترعرع . فأخذ العلم والثقافة عن شيوخ أجلة وعلماء أفذاذ كانوا يملئون رحابها ومنابرها ، وتتبع فى سبيل ذلك أجداده ، فقد كانوا قضاة الشرع وحماة اللغة وأساتيذ التاريخ . فأبوه قاض مشهور ، وجدّه حافظ معروف . فلا غرابة فى أن يقلدهم وفى أن يأخذ عن الشيوخ ويرتوى من مناهل العلم ، ولم تكن قاصرة على الرجال فى دمشق ، وإنما كانت النساء عالمات مدرسات ، كما قلنا قبل قليل ، فأخذ عن الرجال والنساء ، وذكر أسماء هؤلاء وأولئك على صدور كتبه وسماعاته ، نستطيع أن نرجع إليها فنرى مبلغ ما وصلت إليه دمشق فى عصر الاضطراب ، وقد خيم على العالم العربىّ سحاب كثيف كاد يحجب وجه العربية والعروبة .

فلما اكتمل علم الشاب ، ونضج ذهنه عكف على التأليف والتعليم والكتابة منصرفاً إلى الآخرة ، راغباً عن الدنيا ، زاهداً فيها ، لا يلتفت إلى سلطان ، ولا يخشى صاحب سطوة ، عفيف النفس ، غنياً عن الناس ، يعيش بمال بكفيه ورثه فى « الغوطة » وغير الغوطة . وظلّ طوال عمره يدرّس ويعظ ، ويخدم العلم ، فالتفّ حوله جمهرة من أهل الشام يأخذون عنه ، وأفاد منه أولاده

ونساؤه وأقاربه ، وروى عنه الحديث أناس كثيرون ، واكتظت « المدرسة العمرية » التى كان يدرس فيها بالطلاب والمعجبين .

وكانت لهذا العالم خزانة كتب نادرة غنية ، عمرها بما اقتناه وانتقاه من جليل المصادر وعظيم المباحث ؛ وكان كلفاً بالجيد من النسخ والجميل من الخطوط والنفيس من الآثار ؛ فانتظمت له قائمة من الكتب لم تقع لغيره فى عصره ، وقد وقفها على « المدرسة العمرية » بالصالحية ، وترك لها كتاب وقف يحوى فهرست الكتب ما يزال إلى اليوم فى المكتبة الظاهرية يشير إلى ما كان عنده من خطوط ، بعضها بخطّ الحافظ الذهبىّ ، وابن قيم الجوزية ، وابن الجوزى ، وابن حجر ، وابن رجب .

وقد أفاد هذا الرجل من خزانته ، وسطر آثاراً عجيبة وكتباً كثيرة فى ضروب شتى من المعرفة والثقافة ، تكاد تجمع كلّ المناحى فى الحديث والفقه والنحو والصرف والتصوّف والتفسير والمعانى والبيان ، حتى لقد قيل إنه صنف ما يزيد على أربعمائة كتاب سلخ فيها عمره كله ، فقضى على سبعين سنة ، سنة ٩٠٩ ، ودفن بسفح « قاسيون » بدمشق .

وقد حاول بعض النقاد المعاصرين أن يوازنوا بينه وبين جلال الدين السيوطى (٨٤٩ — ٩١١) وهو معاصر له ، لما كان بينهما من شبه فى كثرة التأليف وتنويعه ، فنحن نعرف أن السيوطى ألف فى أكثر فنون عصره ، وبرع فى جملتها وكذلك كان يوسف بن عبد الهادى ، ولذلك يعدّ الرجل عند أهل الشام فى مقام السيوطى عند أهل مصر للقرن التاسع للهجرة .

ولو أتيح لابن عبد الهادى من الباحثين والمحققين من يعمل لتآليفه ونشرها كما أتيح للسيوطى لاشتهر فى العلماء ، وعدّ فى الدرجة الأولى من حيثُ الإنتاج والخصب والعمق ، وكتبه الباقية فى « الظاهرية » بدمشق وحدها ما يقرب من خمسين كتاباً . فكأنه خلف للعرب معلمة حيّة فى الثقافة والمعرفة .

وكما أن السيوطى خلف كتباً فى التاريخ ، فقد خلف ابن الهادى كتباً فى التاريخ ، ومن أهمها كتبه عن تاريخ دمشق وحماماتها وخاناتها وجوامعها

ومساجدها ، وأقربها إلى حديثنا اليوم كتابه « تاريخ الصالحية » وقد لخصه « ابن كنان » فى القرن الثانى عشر للهجرة . وقلده فى التاريخ للصالحية كذلك محمد بن طولون الصّالحى المتوفى سنة ٩٥٣ للهجرة ، وطُبع الكتابان ، ورأينا فيهما جلال هذه الضاحية المشرقة الّتى ساعدت على سعة دمشق ، وأضافت إلى نشاطها نشاطاً فى الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية . فهما كتابان هامان حافلان بألوان التاريخ والمعرفة ، جديران بالنظر والدّراسة .

وفى الكتابين وصف لأرض المقدس ، وطغيان الفرنجة فيه ، وسيطرتهم على قراه . وفيهما تفصيل دقيق لهذه القافلة الأولى من اللاجئين حين هاجرت لئلا تتحمل جورَ العدّو واضطهاده ، فاجتازت الطريقَ الطويلة ، الوعرة ، المخوفة فى ثمانية أيام بلياليها . تبيت تحت الشجر وبين القبور . تمشى فى الليل وتقيم فى النهار ، وتتحاشى جيشَ الفرنجة المنتشر على طول « نهر الشريعة » ، وتتجنب اللصوص وقطاع الطريق ، وتصطدم حيناً بالمخاوف ، وتنجو حيناً ؛ حتّى بلغت دمشق . فلما جاء الشتاء ، صرح أحد اللاجئين بقوله : « وكان رجل يسمى بأبى القاسم الصّورى ، وكان يجىء إلى عندنا ، ويصفنا للناس ، ويحصل لنا أشياء منها ، أننا لما قدمنا ومعنا صغار واحتجنا إلى كسوة الشتاء حصّل لنا جباباً وثياباً » . وقد أسعفهم السلطان نور الدين الشهيدُ نفسه ، فسلمهم وقفاً ومسجداً . ولما ضاق بهم المكان بنوا بأنفسهم ديراً خلال سنتين ، وانتقلوا إليه . وزرعوا أرض الجبل ، وبَنوا حين تكاثروا حول الدير البيوت ، فاتسع العمران ، وشاع البناء ولم يكن قبل حلولهم بالجبل إلا ديرٌ واحد للحنابلة وبناية واحدة . . . وقد وصف « ابن عبد الهادى » هذه المدينة فقال : « وصارت الصالحية مدينة ، وصار بها عدّة جوامع ، وأكثر من خمسمائة مسجد ونحو مائة مدرسة وأكثر من عشرة مآذن، وأكثر من عشرة خانات وأكثر من عشرين حماما ، وعدّة أسواق ، وكلّ ذلك فى مدّة يسيرة » .

وقد خرب — وأسفاه — أكثر ما بنى القوم بتعاقب الزّمن ، وفتور الهمم

فتهدّمت دور كانت عامرة ، وسقطت مساجد كانت قائمة ، ولا نستطيع أن نتبين اليوم أثر هؤلاء العاملين المجدّين بكامله كما كان لعهدهم .

واختلف المؤرخون فى تعليل اختيار « قاسيون » مكاناً لمدينة هؤلاء الصالحين فبعضهم يرى الجمال والفسحة والإشراق دوافع إلى الاختيار وبعضهم يرى أن آثار الأنبياء والأولياء والمدافن الكريمة هى التى حدتْ بالقوم إلى اختيار « قاسيون » وسفحه موطناً جديداً بعد « بيت المقدس » .

ولعلّ المؤرخين جميعاً أصابوا فيما ذهبوا إليه ؛ فالجبل عظيم جميل ، ومتنزه فاتن ، وصفه الشعراء وأشادوا بمفاتنه ، ودواوينهم القديمة ملأى بهذا الشعر وهذا الوصف .

وأما آثار الجبل فما يزال بعضها إلى اليوم ، ينتظر من يعنى به ويصفه والأحاديث المكتوبة ، والأسناد المتناقلة تملأ تاريخ ابن عساكر وغيره من مؤرخى الشام .

فإذا جمعنا إلى جمال الجبل وقدسيته فتنة « نهر يزيد » فهمنا سبب اختيار هذا الموقع مدينة جديدة ، وعرفنا سبب نجاحها وعمرانها ، وازدياد هذا العمران ، واطراد هذا النجاح .

وأحب أن يلتفت شبابُ اليوم إلى ما فى الجبل من آثار ، وما يشعّ عنه من جمال فقد أسهب القدامى فى وصف مغايره ورباه وما يكتنفه من بساتين وجنائن .

قال أحد المؤرخين : « إن الصالحية عروس العرائس ، وشتان بين العذراء وبين العرائس . فهى تسمى فراديس العلا . وهى على الدوام مياه دافقة ، وأشجارها بنسمات هبوبها الندىّ خافقة . وهى الجنة التى تقصر عن إدراكها الغايات ، وتعجز عن مزايا مدائحها ذوو الألسن واليراعات » .

« وفى الصالحية الحمامات والآبار ، والأسواق والخانات ، والمجازر والمسالخ ، والقصور والجواشن ، وكان لكلّ محلة من المحلات رئيس يحرسها بالليل يقال لهم الآن العسس ، يسهرون طوال الليل ، كلّ ليلة خوفاً من مؤذ أو عدو » .

« وكان فيها كثير من العلماء الأجلاء المنفردين عن غيرهم والقضاة نحو المائة . وبها محكمة أدرك بعضهم فيها نحو ثلاثين قاضياً من المذاهب الأربعة . وبها الرياض ، والجنائن ، والبيوت الأنيقة » .

وكان فى « الصالحية » قاعات وجنائن فيها مقاعد للتنزهة على عادة الغربيين اليوم . وكان فيها كذلك أماكن للقهوة ، مما نسميه المقاصف . وكان إلى جانب ذلك كله ، مدارس فيها خزائن للكتب عامرة ، وقفت للطلبة الدارسين والعلماء المراجعين وقد وقف بعض هذه الكتب نساء عالمات مؤلفات ووقف بعضها رجال علماء مخلصون .

وقال ابن عبد الهادى : « كان بالمدرسة الضيائية كتب الدنيا والأجزاء الحديثة حتى يقال إنه كان فيها خط الأئمة الأربعة ويقال إنه كان فيها التوراة والإنجيل » .

كلّ ذلك ، عبث به الزمان وتناوبته يد الجهل ، فضاع منه كثير ، وتفرّق منه كثير ، وقام بجمع بعضه المرحوم الأستاذ الشيخ طاهر الجزائرى فى قبة الملك الظاهر ، فكانت الخزانة الثمينة التى نفخر اليوم بمخطوطاتها ، وهى فى أكثرها من مخلفات مدارس الصالحية .

ووصف لنا المؤرخون الدّروس والحلقات ، فذكروا لنا أنه كان يحضرها الرجال ، وتحضرها النساء من وراء ستار . وذكر أحدهم أن واقفة إحدى المدارس كانت تحضر الدّروس وترخى لها الستائر ، وكانت أختها وهى ستّ الشام لها مدرسة للشافعية . ولها أخت أخرى بنت مدرسة للحنفية .

فانظروا — رعاكم الله — إلى ما كان عليه الرجال والنساء آنذاك وارجعوا إلى هذه التواريخ فإنكم واجدون فيها وصفاً دقيقاً لهذه الحلقات وهذه الدروس . فإذا قرأتم ذلك استطعتم أن تروا أية حركة علمية بعثها هؤلاء اللاجئون إلى دمشق فى القرن السادس ، وأى مجد علمى خلفه هؤلاء الإخوان أبناء سورية الجنوبية .

المعاصرون

ناصيف اليازجي

كلما أمعنتُ فى دراسة الأدب العربى أتعرّف إلى أعلامه وصفحاته لاحت لعينىّ معجزة العرب ، وقوتهم وخلودهم . فهم فى كل أدوار عيشهم ينهضون للجلى ويخرجون من المآزق ويظهرون على الأحداث والكوارث والفواجع . وما أصيبتْ أمةٌ فى التاريخ الحديث بما أصيبت به الأمة العربية ، فقد وقفت لها النكبات فى كل سبيل ، وترصّدتها الأطماع من كلّ جانب ، وخاصّة منذ القرن السادس عشر حين بسط الأتراك ظلهم على العرب ، وضموهم تحت جناح ثقيل من حضارة ناقصة ولغة زائفة وسياسة ملتوية ، ظلوا قروناً ثلاثة يعانون من أمرها ما يعانون ، حتى سكنت اللغة إلى همود ، ووقف الشعر إلى جمود ، وظنّ المخلصون أن الحضارة العربية قد ذهبت إلى غير رجعة ، وتخلفت إلى غير عودة ، وبلغ اليأس مبلغاً كبيراً .

فلما كان القرن التاسع عشر للميلاد ، ظهرت هذه المعجزة فى الشعر والنثر ، من غير مقدّمات أو أسباب كبيرة ، فنهض فى بلاد الشام من يقرض الشعر ويرسل النثر على أساليب عجيبة تدهش المتتبعين فإذا بالشعر يتقمّص ثياب القدماء أول الأمر ويذهب مذاهبهم ، وإذا بالنثر يحذو حذو البلغاء على كلفة وصنعة . فلما تقدم القرن التاسع عشر ، تجلت المعجزة ، فعاد الشعر كأنه فى العصور الزاهية العربية ، وانطلق المارد العربى يحلق من جديد فى سماوات الأدب يعيد إليه زهوه ، ويرد إليه اعتباره ، ويكسوه ثوباً جديداً ، وإذا بالقرن التاسع عشر يمهّد لهذا النور الذى شاع فى عصرنا ، ورفعنا إلى القمم لنسعى من جديد فى لحاق الأمم ، ثم فى محاولة سبقها ، لنستعيد مكانتنا فى دنيا الأدب العالمى .

والفضل فى هذه المعجزة يعود إلى هؤلاء الأفذاذ الذين حملوا على أكتافهم

---

* ناصيف بن عبد الله بن جنبلاط اليازجى ١٨٠٠ م — ١٨٧١ م

سرير الرفعة وعرش الأدب فنبتوا كما تنبت العمالقة فجأة ، وخطّوا فى سمائنا خطوطاً من نور ، لم يبحث فيها معاصرونا بحوثاً واسعة ، ولم يرسلوا فيها مقالات تعترف بجميلهم ، فلا أقل من أن نقف صفحات عليهم نزجى إليهم ثناء جيلنا وعرفاننا بالجميل .

هؤلاء الأفذاذ كنا إلى عهد قريب نردّ نسبتهم جميعاً إلى وطننا الشقيق لبنان ، فنقف ذاهلين لأثر هذا البلد الجميل فى أدبنا ، ونعزوه إلى الإرساليات الأجنبية وإلى الطوائف الغربية التى وفدت إليه ، فنردّد على الأسماع ذكر اليازجيّين وآل الحدّاد ، ونرمى ببصرنا إلى الجبل الأشم فى لبنان وإلى البحر المتوسط ونرنو إليه فى تجلّة وإكبار . ولسنا هنا لنقلل من هذه التجلة وهذا الإكبار فقد حضن الجبل هؤلاء الأفذاذ ورعى عبقريتهم ، ولكنّ الإنصافَ والتاريخ والوفاء تقتضينا كلها أن نعود القهقرى إلى القرن الخامس عشر ، وأن نرجع إلى أطراف دمشق وحمص من مدننا الشامخة ، فقد شاركت فى تنشئة كثير منهم ورعايتهم .

فى هذا القرن ، وفى قرى حوران كانت أسرة هؤلاء العباقرة تعيش كما يعيش جيرانها ، فلما تنبه أفرادها هاجر منهم من هاجر إلى مدينة « حمص » ، وراحوا يكتبون لولاتها وينشئون الرسائل لحكامها ، فأطلق عليهم اسم الكاتب ، وهو بالتركية « اليازجى » ، وعرفوا بهذا اللقب فانطلق من فروعهم أفراد سكنوا دمشق ، وآخرون سكنوا قرية « مرمريتا » قرب حصن الأكراد ، ونشأت أسرهم فى هذه الربوع وتكاثرت ، وما تزال إلى يومنا هذا .

وفى أواخر القرن السابع عشر ، هجر أفراد من هذه الأسرة الكبيرة إلى غربىّ لبنان ، وعلى رأسهم « سعد اليازجى » ، فأصبح كاتباً للأمير أحمد المعنى آخر حاكم للبنان من المعنيّين ، ونال حظوة عنده ، فلقّبه « بالشيخ » لوجاهته وعلمه ، وأصبح هذا اللقب يدور مع أفذاذ الأسرة إلى جانب اليازجى ، علمين للمعرفة والوجاهة خلال القرن الثامن عشر ، فكتب هؤلاء للأمراء الأرسلانيّين والشهابيين ، وكأنهم كانوا يمسكون بتلابيب الأدب والشهرة أباً عن جدّ ، وخلفاً عن سلف لا ينقطع العقب ولا تخبو الشعلة حتى كان آخر هذا القرن فانتقل

عبد الله اليازجى إلى الأمير حيدر الشهابى فى قرية « كفرشيما » يكتب له ، ويرتفع فى الحظوة ويرقى فى الشهرة ، حتى قرَّ قراره فى هذه القرية ، ونشأت فيها أسرته ، وتعاقب فيها أحفاده ، فحظيت الجدران والبيوت بالذكر والسمعة على مدى السنين ، تحجّ إليها آيات الشكر وعرفان الجميل فقد أعقب عبد الله بثلاثة أولاد ، بلغ اثنان منهما مبلغ العبقرية والنبوغ فى هذا العصر ، وتمسك الخلف بالشهرة فكانوا جميعاً قلادة العصر فى الشعر والنثر ، ونهضوا بآدابنا نهضة تعرّف لهم بهذه الوثبة المدهشة .

ولن نتحدّث هنا عن أفراد الأسرة وما أسدوا من يد ، ولكننا نقف عند سيد من ساداتهم هو الشيخ « ناصيف اليازجى » ، فقد قفز الشعر على يديه من حضيض الخيال ومهلهل النسيج إلى مرابع الفحولة والقوة فكان أحد الصانعين لهذه المعجزة الأدبية التى نرتع فى بحبوحتها اليوم كما قلنا .

وُلد الشيخ ناصيف « بكفر شيما » فى اليوم الذى ولد فيه القرن التاسع عشر فكان شارة لموت قرن وولادة قرن ، وكان دلالة على تبدّل الحال ، وابتسام الآمال ، فنشأ على أيدى الرهبان فى قراءة العربية ، ووهبه الله حافظةً ذكية ، وذاكرة قوية ، فالتهم ما حوله من كتب ، وأعمل فيها الذكاء والفهم والوعى ، فكان منه الإبداع والاختراع ، واستطاع أن يكون معلمَ جيل ومنارة عصر ، وكأنه أمسك بسياط السحر ، أو بالقدرة على الابتكار ، فذاع صيته ، وجاوز القرية إلى أسماع الأمير بشير الشهابى الكبير ، حاكم لبنان ، فاستقدمه وجعله من كتّاب ديوانه ، ولمّا يبلغ الشيخ الثلاثين من عمره . فلما زار « لامارتين » أرضَ لبنان وقدم إلى الأمير الشهابى اجتمع إلى الشيخ ناصيف فى « بتدين » وأعجب به ، وكتب عنه فى رحلته إلى الشرق ، ونوّه بعقله وذكائه وتوسمَ الخير للشرق على يديه .

وراح اليازجى الشاب ينظم فى الأمير شعراً كثيراً ، تلقفته الأيدى وأحبته الأسماع ، وأذاعت شهرته وصيته . فلما خرج إبراهيم باشا من سوريا وتبعه الأمير بشير إلى مالطة ، ثم الآستانة حيث قضى آخر أيامه ، انحدر الشيخ ناصيف

إلى بيروت . وفى هذه المدينة عرف به الأجانب ، والتفّوا حوله يفيدون من معرفته المدهشة للعربية ، ومن ثقافته الواسعة فى النحو والبيان ؛ فتتلمذوا عليه ، وجعله الأميركان أستاذاً فى مدرستهم التى تحولت فيما بعد إلى الجامعة الأميريكية ، ثم استقدمه « البستانى » إلى مدرسته الوطنية ، فالمدرسة البطريركية ، وتعلم على يديه كبارُ الجيل من علماء وأدباء . فكان رسول النهضة هناك .

وأفاد منه العلماء الأجانب فعهدوا إليه بترجمة « الكتاب المقدّس » ، ثم طلبوا إليه أن يصنف لهم ، فاتصل به المستشرقون فى كل صقع ، وبلغت شهرته خارج سورية كما دوّت فى داخلها . وانصرف الرجل إلى وضع كتب جليلة يعلّم بها الجيل فى النحو والصرف والبيان ، على أساليب العصر ، فصنع كما صنع القدماء لأجيالهم ، وخرج على الناس بشروح ومتون تعدُّ من أثمن ما ترك علماؤنا تقريباً للأفهام وبعداً عن الأوهام والإبهام .

وطفقَ الرجلُ يكتبُ مقامات كمقامات القدماء ، تفنن فيها حتى لحقهم وسبقهم ، فالتف حوله الطلاب والمتقفون ينهلون من كتبه المبسطة الواعية ومن أسلوبه فى العرض والشرح ما نفع به الجيل ، ودفعه إلى حبّ العربية وتعشق لغتها . فكان أكبر داعية لجيله ، وأحسن خادم للثقافة العربية ، بعد أن صرفَ عنها الشباب ، وقعد عنها الشيوخ ، ويئس منها الناس .

والشيخ ناصيف يعدّ دائرة معارف فى العربية ألف فى فنونها جميعاً ، وكتب فى ألوانها على طريقة حديثة ، فيها بساطة المبنى ووضوح العبارة والبعد عن التعقيد ، فهو يحب كسب القلوب وجلب الأفهام ، ويعبر عن طريقته بقوله : « إذا عمدتُ إلى تأليف كتاب أو نظم قصيدة شخصتُ نفسى مكان من يدفعنى إليه فتكلمتُ حسب مفهومه » . وفرق بين من يكتب لنفسه ومن يكتب للناس ، وبين من يعمل لإظهار علمه ومن يعمل لإعلام الناس ، فهو فى هذا ذكىّ القلب ، عظيم الفهم ، عميق فى التربية النفسية وفى تعليم العربية . ومؤلفاته لا تكاد تحصى ؛ منها ما طبع ، ومنها ما ظلّ مخطوطاً ، ولكنها جميعاً تلمّ بالعربية فى قوّة ، وبالدّقة فى وعى ، فهى رسالة جيل لا رسالة فرد ، وجهد جماعة

لا جهد رجل واحد .

وأما شعره فهو قطب الدائرة وموضع المعجزة . قفز به من شعر عادى كان لزمان لا تسيغه أذن ولا يهتزّ له قلب ، كان على لسان « نقولا الترك » « وبطرس كرامة » ، لا يشبه الشعر إلا فى الوزن والقافية . فلما نظم فيه الشيخ ناصيف رفعه إلى مستوى الشعر العالى فقد عشق الرجل المتنبي وكلف به . وشرحه ، وانتقده ، وأخذ عليه مآخذ لم يفطن لها الأقدمون ، وأطال صحبته وصحبة الفحول فخرج بالشعر إلى موطن القوة والرفعة . وكان مدرسة تتلمذ عليها كثيرون من الشعراء بعده فارتفعوا بالشعر العربى إلى مصاف الشعر العباسى الجميل فالشعر الرائق البديع .

وقد بدأ الشيخُ بالشعر العامىّ فى صدر شبابه ، ثم انتقل إلى الشعر الفصيح ، فتغزل على طريقة القدماء وبرقت فيه مباسم عنترة والجاهليّين والعذريّين ، ثم مدح وافتخر ، فوقف يقول فى الأمير بشير الشهابى :

آلت عليك المعالى لا تفارقُها قبل القضاوعلى وجه القضا نَفَرُ
وأقسم السعدُ لا يلقاك راجلُه إلاّ وفى رأسه من مشيه أثرُ
وما أخذتَ بسيف الدهر مغتنماً لكنّ ربّك فى هذا له وطــرُ

ويقولُ فيه فيفتتح بالغزل :

حجبَتْ إلى قلبى العيونُ فإنّه بيتٌ ولكن لا أقول عتيــقُ
يا ربّة الحسن العزيز لك الحشا مصرٌ ، غلى ، فسطا عليه حريقُ
دمعى حديثٌ لا يزالُ مسلسلاً أبداً وقلبى بالغرام خـَايــقُ

فإذا بكى صديقاً له رثاه بقوله :

قد صغّر الدهرُ عندى كلّ ذى خطر حتى استوى كلُّ مرحوم ومحسودِ
إذا فُجعت بمفقود صبرتُ لــه أنى سأترك مفجوعــاً بمفقــودِ
يا من له منه أهلٌ لا جزعتَ عــلى أهل وهل لك ركن غــير مهدود
لسنــا نعزيك إجلالاً وتكــرمة فأنت أدرى ببرهــان وتقليــد
« لــكل داء دواء يستطب بــه » وليس للحزن إلا صبر مجهود

وهذا الشعر يشير إلى الذى قلناه من أنه يلحق بالفحول فى مبناه فيرقى إلى عصور العباسيين والأمويين فى بساطته ورقته وفى بعده عن التكلف والصنعة والإغراب . فإذا وزن بالشعر الذى كان قبله على ألسنة القرن الثامن عشر ظهر البون الشاسع ، وفهم الناس أثر اليازجى ويده على أدبنا ، حين نقلنا من الانحطاط والركاكة والغثاثة إلى شعر جميل رقيق ، مهِّدَ للشعر الجليل الذى انطلق آخر القرن التاسع عشر فى مصر وسورية ، وكان سبيلاً إلى الشعر فى القرن العشرين على يد شوقى وصبرى وحافظ ، الذين مكّنوا للشعر الجزل الفصيح والتراكيب الفخمة ، والمعانى الجميلة . فإذا سقط هؤلاء فى بعض ، فقد نهضوا بعامة الشعر إلى مرابع جديدة ستكون سبيلنا إلى الشعر الإنسانى العالمى على يد شعرائنا الشباب ، فنحن نرى أن نوافذ الغرب ترسل إلينا الأنوار لتختلط بالأشعة العربية ، فيكون فى الأفق قوس جميل زاهى الألوان مختلف الأصباغ يدفعنا إلى الزهو والإكبار .

والمهمّ أن ناصيف اليازجى لم يلتفت إلى الشعر كل أيامه ، فانصرف عنه إلى كتب كثيرة ، ولو كان الشعر كلَّ همه لكان منه غير الذى رأينا ، ولكن الحياة والثقافة والزمان طلبت إليه أن يسلك فى كل سبيل ، فتفرعت قواه وتوزع نشاطه . وكان له من بيته شغل أى شغل فقد رزق الشيخ ناصيف إثنى عشر ولداً ، ستة ذكور وست أناث ، ورزق الأصهار . وكان لكل منهم تاريخ وشهرة ، ويكفى أن نذكر من هؤلاء الشيخ إبراهيم اليازجى ، وما كان منه خلال حياة حافلة باللغة والأدب والشعر ، وجهاد فى سورية ومصر فى الصحافة والخطابة والتأليف . لنعرف أية يد كان للرجل فى آثاره المكتوبة ، وفى أنجاله الذين خلّف . فقد ترك للعربية تراثاً ضخماً وسلالة عظيمة ، تشهد لحوران باليد العظيمة ، وتعترف لسورية بالغار الذى كلل هامة الأقطار العربية ، وبالقلادة التى طوقت جيدَ الشعر العربى والنثر العربى ، والتآليف الممتعة فى كلّ لون ؛ وتبارك اليازجيين فى أحفادهم ذكرى لأولئك الأجداد الذين خطوا فى سفر الدهر مكرمات لا تنسى وصفحات لا تمحى .

إبراهيم اليـازجي *

هذه الأرض العربية الطيبة التى تمتد فسيحة أمام أعيننا ، بجبالها ووديانها ، بأنهارها وأشجارها ، نعتزّ بها لأنها وطن ، ولأنها إرث ، ونحن لم نعكف بعدُ على ترابها نتلمسُ أسراره ، ولم نقف عند أطلاله نسائلها عن الركب الذى خلا بعد الركب ، كما وقف القدماء ؛ ولم نعدّد بيوتها التى عفا عليها الريح وجرفتها الأمطار ، ولو فعلنا لسطرنا للأجيال ملحمة العرب الخالدة التى صنعوها بأعينهم ، وجباوها بدمائهم فأفاضوا عليها من أنوار عقولهم وسكبوا عليها من عرق جهدهم وجدّهم ، فلوّنوا صفحاتها بألوان الخلود ، وصبغوا سطورها بأصباغ المجد والمفاخر .

ومن الخير لجيلنا أن يجد من يتحدّث عن أمسه ليصله بيومه وليرسم له سبيل الغدّ ، لعلّ الجيل الصاعد يحمل إلينا أمجاداً يقبسها من ماضيه ، فنتيه بما يصنع فخراً وإعجاباً . والأمس القريب الذى صنع اليوم كان من هذا التراب الجميل ومن هذه الأرض العربية الطيبة ، فى كلّ بقعة من بقاعها مجد أدبى وفى كل ذرة من ذراتها مفخرة شعرية ومن نتاجها كان هذا الحاضر . وما أحبّ أن أذهب فى التقديم مذاهب بعيدة ، فالجيل يعجب بالشعر الذى قام منذ سنين على أيدى شوقى وحافظ وصبرى ومطران ، ويعجب بالأدب الذى سال على قلم العقاد والرافعى والبشرى وطه حسين ، ولعله يتساءل عن الجيل الذى سبق هؤلاء ، ومهد لأدبنا الجديد ، كما تساءلتُ غير مرّة ، وكما تساءل غيرى ممن يتحدثون . فالتراب لو نطق لأجاب إنّ الأدب انطلق

* ابراهيم بن ناصيف بن عبد الله اليازجى ١٨٤٧ م — ١٩٠٦ م .

من هذه الربوع الشامية ، من أرض حوران ومن أطراف دمشق ، فكان جيلا عَمر لبنان وساقَ الخير الذى ننعم به .

إنه الخير الذى كان على أيدى الأدباء منذ انتصف القرن التاسع عشر ، فقد كان النسلُ الطيب من أبناء اليازجى خلفاً لسلف جميل ، كان ناصيف اليازجى جيلا وحده – كما رأينا – وكان ولده إبراهيم اليازجى أمة وحده ، وقد قلنا إن أجداده نزحوا من حوران وحمص ودخلوا لبنان ، فسكنوا « كفرشيما » ثم انتهى بهم المطاف إلى بيروت . وفى بيروت ولد إبراهيم سنة ١٨٤٧ ، قبل أن ينتصف القرن التاسع عشر ، فترعرع فى بيت أبيه على حفيف الورق وصرير القلم ، وغناء الشعر وتقليب الكتب . ورأت عيناه الصغيرتان جسداً ينحنى ليله ونهاره على الكتابة والقراءة ، هو جسد أبيه الشيخ ناصيف . ورأى فى بيت أبيه عمائمَ كبيرة ولحىً طويلة ، وأبصر النور يغمر عيونها ، والصّمت يسود المكان ، ولسانُ أبيه وحده يتكلم ، فيسمع القوم وينصتون ، لأن ناصيف كان إماماً وكان السامعون يختلسون من حديثه أجمل ما يكون الحديث ، عن لغة جميلة أراد الأتراك قتلها فماتوا وبقيت ، وأراد المغيرون دفنها ، فارتدّوا وعاشت .

وفى هذا البيت الجميل كان الفتى يتمتم منذ صباه بالشعر ويرتّل القرآن ، ويحفظ الفقهَ الحنفىّ على شيخه المسلم الأستاذ مُحيي الدين اليافى ، فينعم بما ينعم به الأزهريون فى مصر وحدهم ، ويشركهم فى الخير . فإذا درج وشب تعلق باللغات الأجنبية فدرس الإنكليزية والفرنسية ، وتعلم اللغات القديمة ، فأخذ بالسريانية والعبرانية فزاد فى الخير وسبق الأزهريين ، وتسلق إلى ذرى ما كان مثله يزحف إليها . وتفتحت له نوافذ واسعة على الفنّ فعشقَ الرسمَ والنحت والتصوير ، وكاد يكون مصوراً رساماً فحسب ، ولكن الأزميل الذى كان ينحت به والقلم الذى يصوّر بأطرافه جمح به إلى الأدب كذلك ، فجمع الفن من أطرافه ، وبلغ إلى ثروة فى الشعر والتصوير كانت طليعة النهضة الأدبية فى عصره وعصرنا . فراح يقرض الشعر منذ شبابه على قريحة

فياضة ، وأسلوب سلس سهل ، ومواضيع عظيمة ، فى حبّ العرب والعربية ، وفى الوطنية والقومية ، حتّى لان له الشعر وخضعت له القوافى ، فذاع صيته ودوت شهرته .

وانصرف القوم إلى إكباره والاستماع إليه ، فكان يلقى فيهم الخطبَ الجميلةَ ، ويحرّر المقالاتَ المترسلةَ ، على بيان عذب فكان فى النثر كما كان فى الشعر قوياً هدّاراً ، يجمع بين المتانة والبلاغة والسهولة ، كأنه فى صدر القرون البليغة العربية ، صفاء ونقاء وبعداً عن الركاكة وتعلقاً بالطبع حتّى ليكاد يلحق بالفحول من القدماء على بعد الزمان وتراكم الظلام ، وكرّ العصور الظالمة وفقر الميادين وإقفار المنابر والصحف .

كان إبراهيم اليازجي يفكر فى هدوء ، فيختار أجملَ الثياب لأفكاره كما كان يختارُ أجملَ الملابس لزيه ، فقد كان متفنناً حقاً ، ومصوّراً مدهشاً ورساماً بارعاً . ومنذ مطلع شبابه طبع نفسه على الحذر فى اختيار مفرداته ، ينتقيها حلوة جميلة لا شائبة تشوبها ، يستقيها من معاجم العرب الصافية الأصيلة ، فلا يقع فى عجمة ولا يسقط فى تركيب بعيد عن العربية العريقة . فعرف بشدّة حذره ، وعظيم انتقاده لكتّاب زمانه ، ممن تورطوا فى الألفاظ والتراكيب التى لا تمتّ إلى العربية بنسب ، حتّى دعاه معاصروه بإمام الإنشاء وحجة اللغة .

وقد أقبل إليه رجال العصر يولونه مناصبَ المعرفة والثقافة ، فراح يدرّس فى المدرسة البطريركية ببيروت خلفاً لأبيه ، وتخرّج على يديه فوجٌ من الأدباء حملوا رايةَ المعرفة بعده ، وشكروا له يده ، فكان منه فتح أى فتح . وطفق يحرّر جريدةَ « النجاح » ، ثم ينشئ مجلة لنفسه هى مجلة « الطبيب » حوَتْ أجملَ المقالات الأدبية واللغوية ، فكانت طليعة المجلات فى لبنان ومن أقواها مكانة ونفعاً .

ورأى أن حروف الطباعة العربية كانت بعيدة عن الجمال ، فرسم حروفاً جديدة بخطه الجميل ، وهو المتفنّن المبدع كما قلنا ، بهرت أهل زمانه ،

وسبكها عند خليل سركيس فى بيروت ، فاشتهرت ، واستعملها أهل سورية ولبنان ومصر ، وعرفت بحرف سركيس وما تزال إلى يومنا هذا زاهية بديعة ، تسرّ العيون وتفرح النظر ، فخدم بذلك اللغة العربية وكتابتها خدمة لا تنسى أبد الدهر .

ثم عنّ لإبراهيم أن يصنع رزنامة عربية كما يصنع الغرب فرسمها بقلمه كذلك ، ولم تكن معروفة قبله . فكان أول من زيّن جدران المكاتب بأرقام الأيام والشهور ، وجمّل البيوت بخطه ، فما تزال شاهدة على ذكائه وابتكاره وجمال فنه ، تذكر له بالخير والحمد والثناء .

وتدفقتْ نفسه الشابة بفيض من الشعر الوطنى ، حين مخاض الثورة العربية سنة ١٨٨٣ ، وكان الناس يهمسون بالحرية همساً ، فإذا به يصيح وهو يزحف نحو الأربعين صيحةً تدوّى بها أركان البلاد العربية ويقول :

تنبّهوا واستفيقوا أيّها العربُ ... فقد طمى الخطْبُ حتى غاصت الركبُ
فيم التعللُ بالآمال تخدعكُم ... وأنتمُ بين راحات القنا سلَبُ
الله أكبر ما هذا المنام فقد ... شكاكم المهد واشتاقتكم الترب
كم تُظلمون ولستم تشتكون وكم ... تُستغضبون فلا يبدو لكم غضبُ
ألفتمُ الهون حتى صار عندكم ... طبعاً وبعض طباع المرء مكتسبُ
وفارقتكم لطول الذلّ نخوتُكم ... فليس يؤلمكم خسفٌ ولا عطبُ

والقصيدة طويلة عامرة ، كلها على هذا النمط المثير فى عصر عبد الحميد ، والركب ترتجف من الفزع ، والجواسيس على الرءوس ، والرقابة عند كل حرف ، والجهل ركب القلوب ، وعمّ العقول وعصّب الأبصار ، فهو أبو الثورة العربية فى ذلك العصر قبل أن يشرق نور القرن العشرين ، منذ ثمانين عاماً . ومع هذا يسكت أدباؤنا عن ترديد قوله والاعتراف بجميله ، والعودة إليه كلما ثارت ثائرة ، أو قامت فينا هزّة ، فإنه جديد لكل يوم ببلاغته ونصاعته وجمال قوافيه ؛ يصلح ليومنا كما كان يصلح لعصره ، بل إنه سابقٌ لعصره . وليس من عجب فى ذلك فالنوابغ يسبقون أزمانهم ولا تعرف أقدارهم إلاّ بعد أن

يطويهم التراب ، فيرجع الناس عن ظلمهم لهم ويذكرونهم بخير إذا ما استطاعوا أن يتلمسّوا سبل الخير .

وأظنّ أن شعره فى ذلك الزمان يستطيع أن يردّده العرب فى أقطارهم المستعمرة ، وأن يترنموا به نشيداً لا تقف له حناجر كثير من شعرائنا المجدّدين الملتزمين اليوم . فأبياته خالدة لكل زمان حين يقول عن المستعمرين الأتراك :

أعناقكم لَهُمُ رقٌّ وما لكم ... بين الدّمى والطلا والنرد منتهبُ
باتتْ سمانٌ نعاج بينَ أذرعكم ... وباتَ غيركم للدّر يحتلبُ
فصاحبُ الأرض منكم ضمن ضَيعته ... مستخدمٌ وربيبُ الدّار مغتربُ
وما دماؤكم أغلى إذا سُفِكت ... من ماء وجه لهم فى الفحش ينسكبُ
بالله يا قومَنا هُبّوا لشأنكم ... فكم تناديكم الأشعار والخطب

وذلك لأنه يصف كل استعمار يصيب العرب على الأيام وكأنه يرسم اليوم حال عُمان والجزائر وغيرهما من بلاد نكبت بالمستعمر الأجنبي .

وفى السنة نفسها صاح إبراهيم اليازجى ينبّه قومه العرب ، ويثيرهم للخلاص والاستقلال فتدفقت على لسانه قصيدة أخرى مشهورة تدعو العربىّ إلى ترك الترف والمشارب والملابس والالتفات إلى بؤس إخوانه والعمل لاستقلالهم ، فقد صوّح مجدهم وخربت قصورهم فيقول :

أو لستمُ العرب الكرا ... مَ ومن هم الشمّ المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم ... ناراً تروع كل قابس
وعليهم اتحدوا فكلكم ... لكلكم مجانس

وهذا الأسلوب جميل صادق يطلقه شاعرنا منذ ثمانين عاماً ، فيدعو إلى وحدة العرب وجمع الصفّ ولمّ الشمل ويعبّر عن كل جنان ، ويتحدّث عن كل لسان ، وهذا هو الخلود فى الشعر .

وعلى الرغم من شاعرية الرجل وبلوغه من القريض أقصى مراميه ، هجر الشعر فى كهولته وانصرف إلى النثر فكانت منه بدائع فى الترسل الجميل

والأسلوب الفصيح ، فقد كان شاعراً فى نثره محلقاً فى رسائله ، طرق فيها ألواناً من البيان ما تكاد تخطر ببال معاصريه كتبها إلى أدباء عصره وخلانه وأخدانه ، يلم بعضها بالسجع ويبتعد بعضها عن التكلف ، وكلها صورة للنثر فى أرفع نماذجه تكاد تلحق بأساليب القدماء الفحول كذلك .

وانصرف بعد هذا كله إلى خدمة اللغة فى عصر كانت العربية فيه موضع الهجوم ومحل التهديم كالوطن العربى نفسه ، بل إنها كانت الثغرة التى ينفذ منها المستعمرون ، فعكف عليها وأنشأ لها مجلة دامت سنوات ، أصدرها فى مصر . فقد رأى أن أرض الكنانة كانت مفتوحة لكل حر ، وأنها واسعة الضيافة ترتع فيها أقلام أهله من سورية ولبنان فتحمل إليها ، وحلها وراجت فيها مجلته (الضياء) تدور موضوعاتها حول أخطاء الصحف اللغوية ، وحول التعريب وأغلاط العرب القدماء واللغة السامية واللغة الفصحى ، ونقد لسان العرب وأغلاط المولدين وذكر ما وقع هو فيه من غلط وما وقع فيه أبوه قبله .

وهذا لا يدل بحال على تنكره لأبيه ، فقد كان إبراهيم صورة مجسمة للوفاء والإخلاص إذ انصرف إلى آثار أبيه يكملها ويصححها وينشرها ولكن باسم أبيه لا باسمه هو ، فأكمل شرح والده لديوان أبى الطيب المتنبى وأخرجه فى الناس ، وغدت تعليقاته وتعليقات أبيه ، خير ما خرج فى العصور الأخيرة عن شاعر العرب الأكبر . وبقى وحده فى الميدان الأدبى مرجعاً للمثقفين من الأدباء عن شعر المتنبى . وقد سير ذكر والده بما نشر من كتبه فى النحو وغير النحو فأصبحت مراد الطـــلاب تطبع وتطبع فتغنى المعاصرين عن كتب القدماء فى هذا الباب .

وبذلك كان إبراهيم اليازجى خير خلف لخير سلف كما كان القدماء يقولون .

جرجي زيدان *

كانت السيدة حبوس والدة « الأمير مصطفى أرسلان » تحكم « عين عنوب » وما يليها فى لبنان أوائل القرن الماضى ، وكان « زيدان مطر » وكيلا على أملاكها وأشغالها . فلما حمل إبراهيم باشا على سورية وأراد الاستيلاء على جبل لبنان خافته هذه السيدة وعزمت على الفرار من وجهه ، وطلبت إلى وكيلها « زيدان » أن يصحبها ، فاعتذر بما كان يراه من نصر المصريين وأبى أن يلحق بها فوجدت عليه . ومضت الأيام وضعف أمر إبراهيم باشا فعادت السيدة إلى أملاكها فى هذه القرية ، وحقدت على « زيدان » وصادرت أملاكه وأمواله ، فشق عليه ذلك وأثر فيه ، فمات ، وترك امرأة وأنثيين وصبيين أكبرهما « حبيب » والد جرجي زيدان — كما كتب جرجي فى مذكراته —[1]

ولا يعرف الحفيد من أمر جده « زيدان » إلا ما دوّنه ، ولا يعرف من أمر أبيه « حبيب » إلا أنه بارح بيت أبيه مع أفراد الأسرة ، وهو طفل لا يفقه شيئاً ، وربى فى بيروت أمياً فقيراً ، وشغل بإعالة الأسرة ، فلم يهتم بالبحث عن أصل أرومتها وتاريخها . ويذهب الحفيد أبعد من هذا فيقول : « ويغلب على ظنى أن أصل عائلتنا من حوران مثل أكثر عائلات الطائفة الأرثوذكسية فى الشوف ، وقد هاجرت موطنها الأصلى على أثر الضنك والفقر والاضطهاد مما كان يلاقيه عرب تلك البلاد . والغالب فى اعتقادى أن أكثر أهل جنوبى لبنان الروم من عرب حوران ولعلهم من الغساسنة » . وحوران كانت فى

---

* جرجي بن حبيب زيدان ١٨٦١ — ١٩١٤ .

(١) جاء بعض هذه المذكرات عن الفقيد المؤرخ فى كتاب طبع بمصر عنوانه (مختارات جرجي زيدان) سنة ١٩١٩ .

الماضى السحيق مخزناً للحبوب فى هذه المنطقة ، ولكنّ القحط أصابها ، فتشرّد أهلها تحت كل كوكب ، وأصاب لبنان منها أسر كثيرة نبت فيها أعلام عباقرة رفعوا لواء الأدب والمعرفة ، وفيهم ناصيف اليازجى وأهله . فأسرة زيدان سورية الأصل من هذه الأرض الطيبة التى تلف دمشق وتغذّيها بالخير والبركة .

والمهم أن « حبيب زيدان » وفد على بيروت مع أسرته ، وانصرف لتحصيل الرزق ، فعمل أجيراً فى مطعم صغير فى « ساحة البرج » وهى اليوم « ساحة الشهداء » أكبر ميدان من ميادين العاصمة اللبنانية ، وكان الرجل يخرج إلى مطعمه مع الفجر ويعود فى منتصف الليل ، وزوجه كانت تعمل فى بيتها من غير كلل أو ونى . وفى هذه الأسرة ولد « جرجى زيدان » ببيروت ، فى ١٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٦١ ، وتفتّحت عيناه على عيش بسيط ، وأبوين يعملان ، فآمن بالنشاط واعترف فيما بعد أن البيئة النشيطة تبعث الجدّ وتغذى العصامية فى الفتى العصامى ، وقد دفع الأب الأمىّ ابنه « جرجى » إلى التعلم حين شعر بالحاجة إلى كاتب يدوّن له حساب مطعمه بعد أن آل إليه أمر المطعم . وأرسل الولد وهو فى الخامسة من عمره إلى مدرسة حرّة يديرها قسيس ، وكانت فى قبو متواضع ، يجلس التلاميذ فيه على الحصير ، ويتعلمون الكتابة والقراءة ، ويبدو أن الطفل لم يفد خلال سنتين من معلمه إلاّ قراءة بسيطة ، فنقله إلى مدرسة ابتدائية تعلم فيها مبادئ الحساب والنحو والصرف واللغة الفرنسية ، ولبث فيها سنتين كذلك ، وانتقل بعدها إلى مدرسة أخرى عامين كاملين ، وتقول المذكّرات إن الأحوال قضت عليه « بترك المدرسة صغيراً ومساعدة والده فى أشغاله ، وهو لمّا يبلغ الثانية عشرة من عمره » .

وظلّ على هذه الحال سبع سنين ، كان الخصام حوله يشتدّ بين أبيه وأمه ، فأمه تخاف أن يضيع مستقبله فى المطعم ، وتريد أن يتعلم وأن يتثقف ، وأبوه يخاف عليه تيار التفرنج الذى سرى إلى المتعلمين ، ويحب أن يحافظ ابنه على العادات الشرقية . ورضيت أمه بالحال على مضض ، حتى دفعه أبوه إلى صناعة الأحذية ، فلبث فيها عامين عاد بعدهما إلى المطعم لشدة ما لقى من

عنت الجلوس وإرهاق الجسم وإتعاب العينين .

كل هذا ، والطفل ساكت يطيع ما يريد له أبواه ، ولكنّ نفسه كانت تنزع إلى كلّ جديد ، وتتوق إلى كلّ مجهول . وكانت بيروت آنذاك تعج بالمدارس الأجنبية وقد أنشئت إثر حوادث سنة ١٨٦٠ ، على أيدى إرساليات مختلفة ، فانتشرت طبقة متعلمة وسرت اللغات الأجنبية فى الأسماع ، وصبا « جرجى زيدان » إليها ، وأصبح ينظر فى كثير من الأسى والرغبة إلى أن يشدو شيئاً من العلوم واللغات . وكان يختلف إلى المطعم معلمون ومدرسون يأكلون ويتحدّثون عن طلابهم وثقافتهم ولغاتهم . وكان فيهم المعلم « مسعود الطويل » ، وكان يتحدّث عن مدرسة افتتحها يعلم فيها اللغة الإنكليزية . فاتفق جرجى زيدان مع هذا المعلم على تعليمه الإنكليزية لقاء ما يتناوله فى مطعم أبيه ، وظلّ على ذلك شهوراً عدة ، وسنه لا تزيد على خمس عشرة سنة ، وواصل دراستها فى جدّ وسعى حتى أتقنها . وقامت فى نفسه فكرة التأليف فانصرف إلى صنع معجم إنكليزى عربى ، ولكن حسابات المطعم كانت تسدّ عليه سبيل العمل للمعجم ، غير أن هواه لتحصيل العربية والإنكليزية لم يفتر أبداً ، فأقبل على قراءة ما يقع تحت يده وهو قليل ، حتى كان يوم من الأيام وقع فيه على « مجمع البحرين » لناصيف اليازجى ، فاشتراه بكل ما جمع من نقود حتى ذلك اليوم وهو تسعة قروش ، وغدا أسعد الناس بالحصول عليه .

وهكذا اشتدّ غرام الفتى بالعلم ، وقوى نهمه إلى المعرفة ، وأصبح يلتهم كل كتاب يقع عليه ، ويقرأ كل مجلّة تصل إليه ، فوقع على بحوث الفلك والطبيعة ونهل منها وشغف بها ، كما وقع على كتب فى الرياضيات والجغرافية والتاريخ ، فأصبح يفكر فى أمر واحد وهو الخروج من مطعم أبيه إلى حلقات الدرس ، والانصراف إلى العلم ، وقد كان مطعم أبيه حافزاً كبيراً إلى تحقيق هذه الرغبة ، وذلك أنه كان يفد إليه علماء بيروت وأدباؤها فى جملة الوافدين ، فيلقى الشيخ إبراهيم اليازجى والمعلم عبد الله البستانى وغيرهما ، ينظر إليهم الشاب نظرة الإكبار والتقديس ، ويطمح إلى مثل مراكزهم فى المجتمع ، ويطمع

فى مثل ثقافتهم وعلمهم ، فتثور نفسه ويصمم على هجر المطعم إلى وظيفة أخرى . وذلك ما دعاه إلى أن يتعلم « مسك الدفاتر » على معلم فى بيروت خلال شهرين ، حتى إذا أتقنه دخل فى أحد مخازن التجارة ، ولكنه لم يصب فيه ما كان يرغب ، فعاد إلى المطعم .

وفى المطعم كان الشاب يلقى طلاب الطب بالجامعة الأمريكية ، ويسمع منهم ويسمعون منه ، ويدلون بآرائهم ويدلى بمعلوماته ، فتطيب الصحبة ، ويمتزج بهم ، ويحضر الاحتفالات بالجامعة وكان اسمها « المدرسة الكلية » ويتمنى أن يكون فيها طالباً ، ولكن يده ما زالت قصيرة عن بلوغ الأمنية ، وعقله ما يزال يطمح فى الوصول ؛ فقد عرف من سير الرجال التى قرأها أنه لابد واصل ما دام يتابع العمل . وعزم على أن يدرس خلال الصيف ، وأن يدخل امتحان الكلية ، وليس الامتحان باليسير أو السهل ، وإنما يشمل علوماً شتى وفنوناً عديدة فيها الهندسة والحساب والجبر والطبيعة والإنكليزية والعربية ، وانقضى الصيف ودخل الامتحان ، وإذا به ينجح نجاحاً باهراً أذهل أقرب الناس إليه .

ودخل الكلية وأصبح فى طلابها الرسميين سنة ١٨٨١ وهو فى العشرين من عمره كأنه لم يضع أيامه وساعاته فى مطعم أو حرفة أو متجر ، وسلك مع زملائه فانتقل من برج إلى برج ، وأسلمه الجد إلى السنة الثانية فى الكلية ، وفى هذه السنة وقعت حادثة الحرية الفكرية فى الكلية ، ووقف جرجى زيدان فى الصفوف الأولى ، منها متحمساً ، فأخرج منها فيمن أخرج ، ووقف الشاب حزيناً لمستقبله الذى بدأ يبنيه ولم يتمه ، واستقرض من صديق له ستة جنيهات تبلغه إلى مصر ، ليكمل فيها دراسة الطب بالقصر العينى .

وركب البحر ودخل الإسكندرية وسنه لا تزيد على اثنتين وعشرين سنة ، سنة ١٨٨٣ وكان ذلك عقيب الثورة العرابية ، فرأى الثغر الجميل قد شوهته مدافع الاستعمار ودمرت جوانبه ، فارتاع لهول الحرب والقتال ، وكان لذلك أثر فى كتابه بعد ذلك عن « تاريخ مصر الحديث » ، لبث فى نفسه وارتسم

على صور حية فى ذهنه حتى أفرغه فى هذا الكتاب .

وسافر إلى القاهرة بعد ذلك ، فتجمعت فى ذهنه صور التاريخ المصرى ، وحدثته الأحجار والتماثيل عن روعة الماضين ، وكانت مزروعة فى كل مكان ، قائمة فى كل زاوية ، فأحدثت فى نفسه حدثاً لم يكتمه فيما بعد ، وإنما أفضى به إلى أوراق وأوراق حبرها ودبجها ، فأصبح مؤرخاً كاتباً ووصافاً قصصياً . وكان المفروض أن يتابع الطب وأن يتحسس المرض فى الأجسام ويعرف دقات القلوب ، ولكنه انقلب إلى طبيب اجتماعي فى مقالاته ، ووصف دقات القلوب فى الأدباء والعظماء على صفحات التاريخ والأدب . وصادف ذلك هوى من نفسه غلبه على الطب ، والطب يحتاج إلى سنين عديدة ومال متجمع ، ولم يكن جرجي يقدر على ذلك ولا يستطيعه .

وهكذا انصرف الشاب إلى تحرير جريدة « الزمان » وكانت الجريدة اليومية الوحيدة بالقاهرة ، فتولى تحريرها سنة أو تزيد ، ففعل كما فعل غيره بعده من السوريين ممن دخل القطر لاجئاً أو ساعياً فى الرزق .

وفى سنة ١٨٨٤ كانت الحملة النيلية إلى السودان لإنقاذ « غوردون » فسار برفقتها مترجماً فى قلم المخابرات لمعرفته باللغات الأجنبية ، وقضى عشرة أشهر رأى خلالها ما لم يتح لمثله فى سنه ، قتلى وجرحى بالمئات ، وسمع المدافع والقنابل ، وعاش فى جو غريب مرعب ، وعاد بعدها مثقلا بصور الحرب والمعارك ، تملأ نفسه الأحزان للكوارث التى رأى والفواجع التى شهد ، وتأثرت روحه بالآلام ومشاهدة الحرائق ، وخرج من المغامرة سالماً يحمل ثلاثة أوسمة لشجاعته وجهوده .

وعاد بعدها إلى بيروت سنة ١٨٨٥ يتابع دراسة اللغات الشرقية ، فدرس العبرانية والسريانية وأخواتهما ودخل فى ميدان جديد ، وألف كتابه « الفلسفة اللغوية » وهو ثمرة الرغبة التى كانت تعتلج فى نفسه صغيراً ، أطلقها إلى الوجود على متن أول كتاب ، أملاً بأن يعد فى أولئك العلماء واللغويين الذين كانوا يملأون

مطعم أبيه ، ويعمرون صدره بالاعتزاز وقلبه بالعلم والتأليف . وانتخبه المجمع العلمي الشرقي عضواً عاملاً فيه وهو في الرابعة والعشرين ، وكأنّ الشاب شق طريقه إلى مستقبله . وقرّ في نفسه أنه أصبح أمراً مذكوراً ، وأنه يستطيع أن يكون بعد ذلك عالماً معروفاً أو كاتباً مشهوراً .

وفي صيف سنة ١٨٨٦ ، رحل الشاب إلى لندن ، ودخل المتحفة البريطانية ، وفيها آلاف المخطوطات الشرقية والعربية ، فجاورها وصحبها ، وتعرف إلى أمهات الكتب العربية وأصبح يستطيع أن يقلّب النظر وحده فيما يجهله أكثر المؤلفين من العرب ، وغدا يرجع إلى مصادر لا يعرفها مؤرخو الأدب في عصره ، وهنا تنبه خياله وعزمه إلى تأليف في « تاريخ آداب اللغة العربية » يذكر فيه المصادر والمخطوطات ، فانفرد بعد ذلك به وحده وما يزال إلى الساعة جديداً على الرغم من مرور سبعين عاماً على هذه الزيارة الخاطفة .

والغريب أن أقرانه من المؤرخين كانوا يعيشون على مقربة من « باب الخلق » ويطوفون حول هذه الدّار مرات في سبيلهم إلى دوائرهم أو مكاتبهم أو بيوتهم ، فلا يجدون سبباً لدخول « دار الكتب المصرية » ولو وجدوا السبب لقرءوا كتاباً أو بعض كتاب ، ثم عادوا لا يلوون على شيء ، وربما سكن بعضهم الدار وعاش بين جدرانها وعلى مقربة من مخطوطاتها النفيسة ، ولكنها لا تدفعه إلى أمر ولا تبعثه على تأليف في شأنها أو في وصفها وإحصاء ما يجب منها لتأريخ الأدب . ولكن « جرجي » أحس ذلك ورغب فيه ، وجعله موضع التنفيذ بعد سنين ، فكان وحده مؤرخ الأدب العربي على غرار المستشرقين وكبار العلماء ، كما نرى بعد قليل .

وانقضى الصّيف وعاد الشاب مع الشتاء إلى القاهرة ، فطلبت إليه مجلة « المقتطف » أن يتولى إدارة أشغالها ، ففعل . وظلّ حتى أوائل سنة ١٨٨٨ ، وبذلك أصبح مديراً لأرقى المجلات العلمية والفكرية في الشرق العربي . ولكنّ هذا العمل كان يستبدّ بوقته كله ، فلا يتيح له أن ينصرف إلى التأليف ، والتأليف غاية من غاياته وهدف جليل من أهدافه فكر فيه وطمع به منذ

صباه كما قلنا ، فاستقال من المجلة وانصرف إلى الكتابة . وأخرج كتابه « تاريخ مصر الحديث » وما يزال إلى اليوم مرجعاً من المراجع الطيبة فى هذا الباب ، ثم ألف « تاريخ الماسونية العام » وألف بعده « التاريخ العام » . وهذه المؤلفات تدل على ما ذكرناه قبل قليل من أثر مصر فيه ، ومن فضل الآثار والأحجار المزروعة فى كل سبيل .

وفى أواخر سنة ١٨٨٩ انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الأرثوذكس بمصر ليتولى إدارة التدريس العربى فيها فتولاها سنتين ، كانتا خيراً وبركة على مؤرخ الأدب العربى ، درّس فيهما الأعلام وفنون الأدب ، وعرض لأمهات الكتب فيما نرى فتبلورت فكرة الكتاب وأصبح يهمّ به ، ولكنه لم يخرجه ، وإنما أصدر رواية « المملوك الشارد » وهي أولى رواياته التاريخية ، فراجت رواجاً عظيماً وطبعت عدّة مرات ، ونبهت إلى مقام الشاب وموضعه من الرواية التاريخية وهو دون الثلاثين .

وظلّ الشاب يفكر فى مشروع خطير يقوم به لخدمة الثقافة العربية ، والأدب والتاريخ وذلك المشروع هو الصحافة الأدبية ، فاستقدم بعض الأدوات المطبعية . وعاف التدريس . وفى أواخر سنة ١٨٩٢ أصدر مجلة « الهلال » فى شهر سبتمبر ، فكان صدورها حدثاً هاماً فى تاريخ النشر والمقالة والدراسة بالعالم العربى . وقد أعلن أنه جعلها لكتابة ما يعنّ له وما كان يغلى فى صدره من آراء وأفكار ، إلى جانب ما يخطر ببال قرائه . ووسمها « بالهلال » تبركاً بالهلال العثمانى الرفيع الشأن — على حد تعبيره — ولأنها ستصدر مع هلال كل شهر حتى تصبح بدراً كاملا . وهكذا بلغ الرجل إلى تحقيق غاية من غاياته وأمل من آماله ، وأثبت أنه صابر جاد ، وأنه عصامىّ نابغة ، فاستطاع أن يملك بعيد الثلاثين من عمره راية القيادة فى جحفل المؤلفين والكتاب ليسير بصفوفهم عشرات السنين ، فيما بعد . وقد كان ينظر إليهم فى مطعم أبيه نظر السارى إلى الهلال فى السماء يستنير بنوره ولا يدرك من أمره شيئاً . فلما شارك فى حمل الراية ، وبعث الشعاع ، ارتفع هو نفسه إلى الذروة ، وأصبح الناس

ينظرون إليه كاتباً ومفكراً ومؤرخاً وأديباً ، يقرءون له فى كل مكان من أرجاء العالم العربى ، فانتقل من المطعم الضيق إلى الشهرة العالمية ، واحتل مكانته فى الرءوس والقلوب .

وانتصرت مجلة « الهلال » على يديه ، فكانت مثابة للقراء ومرجعاً للدارسين ومنبراً للأدباء والفلاسفة والمؤرخين والعلماء ، وغدت أعدادها مكتبة حافلة بضروب المعرفة ، تصدر كل شهر لتغذى العالم العربى كله ، فكأنها وحدها دائرة للنشر أو هيئة للتوزيع . أو خزانة سيارة ، سجلت فى عصرنا خلال القرن العشرين يداً كبرى للمتعلمين والمثقفين ، بفضل هذا الكاتب . وتوسعت شئون المجلة ، وأراد الرجل أن ينصرف إلى التأليف وحده ، فعهد بإدارتها إلى أخيه ، واستخدم معه آخرين للقيام بها ، وهكذا رعاها خلال اثنين وعشرين عاماً .

وقد وضع « زيدان » بعد تأسيس « الهلال » مؤلفات عديدة لا نستطيع أن نعرض لها كلها فى صفحات ، فهى فى أبواب شتى مختلفة متنوعة لا يحصرها قلم . ولكننا نحب أن نشير إلى ما يستوقفنا منها . فقد كان الرجل يكتبها وهو يحرر المجلة ، وينشئها وهو يصحح المقالات ، فيجمع بين التفكير العميق والعمل الآلى . لذلك صدرت وعليها مآخذ ما كانت لتسجل لولا انشغال الرجل بأعمال كثيرة يقوم بها معاً ، وينفذها معاً ، فهو جملة رجال فى رجل واحد ، ومن هذه المآخذ التى سجلها عليه معاصروه ، هى ترخصه فى بعض التراكيب العربية وتساهله فى تأكيد بعض النظريات الأدبية ، وتسرعه فى إبداء بعض الآراء عن الأدباء ، حتى لقد اتهم بتعصبه لفئة دون أخرى ودين دون دين ، ومبعث ذلك فى نظرنا إلى ضخامة المسئولية التى اضطلع بها .

فليس من اليسير أن يقوم فرد واحد بتأريخ الأدب العربى على عصوره كلها فى تلك الأيام ، وأغلب المصادر مخطوط أو مجهول . وليس من الهين أن يسير زيدان على غرار أحدث المستشرقين الألمان فى تأريخ الأدب العربى وهو « بروكلمن » ولا يهفو ولا يزل ولا يخطئ . وبروكلمن نفسه لقى النقد والتجريح وقد عاش بعد زيدان وأخرج آخر أجزائه منذ أعوام قليلة . وذلك

لأن تأريخ الأدب على هذه الصورة جديد فى بلادنا ، فهو يشمل كل الذين كتبوا روائع الفكر العربى فى أسلوب بيّن أدبىّ ، ويدخل فى جملتهم المؤرخون والجغرافيون وأرباب الرحلات ، والحكماء والفلاسفة وبعض المنجمين الأطباء . وهذه نظرة واسعة عريضة تفنى الأعمار دون تحقيق المثل الأعلى فيها ، ويرتد عنها جملة من العلماء والباحثين إذا عملوا معاً . وزيدان وحده قام بها ، فكان كتابه حتى الساعة أضخم مرجع وأوسع قائمة فى أسماء الأدباء الذين انقضوا على أربعة عشر قرناً فى رقعة من الأرض تحدّها تخوم الصين من جانب وبحر الظلمات (الأطلنى) من جانب آخر ، دخل فيها أقوام وألوان ومذاهب ولغات .

ولقد أثار الكتاب نقداً كثيراً ، كما أثار تقديراً كبيراً ، فقرّرت الجامعة المصرية إنشاء كرسى « تاريخ الأمم الإسلامية » ولم يجد المجلس غير زيدان أستاذاً جديراً بتدريس هذه المادة ، فكتبت إليه فى ١٦ يونيو ١٩١٠ ، تعرض عليه أن يدرس « تاريخ الإسلامية وخصوصاً مصر الإسلامية » وقالت فى عرضها : « وحيث أننا نرى أن حضرتكم خير كفء لتدريس هذه المادة لما نعهده فيكم من سعة الأطلاع والدراية التامة ، نودّ لو كنتم تقبلون القيام بهذه المأمورية لما فيها من المنفعة العامة لخدمة العلم وفائدة أبناء الوطن » .

وقبل الرجل « المأمورية » وأجاب مجلس إدارة الجامعة بعد يومين بكتاب فى هذا الصدد . وراح يعدّ المصورات والخرائط عن الممالك الإسلامية ، ووضع منهاج المحاضرات . ولكنّ الذين يغضبهم الأمر وقفوا للرجل ، وأثاروا حملة شعواء على جرجى زيدان ، واضطرت الجامعة أن تنزل على رأى هؤلاء وفصلت زيدان عن الجامعة قبل أن يدخلها . وطبيعى أن يتحمّل زيدان معارضة المعارضين ، وتحامل الحساد ، ونقد النقاد ، كما تحمل غيره من قبله وبعده . وانصرف عن منبر الجامعة إلى منبر أكبر يسدّد من ذراه نظراته الصائبة فى فهم الأدب والتاريخ ، ويرسل من فوقه دروساً تدخل إلى رءوس آلاف كثيرة من المثقفين فى الشعب العربى ، وغشى دراة الخلود بعد أن حرم من قبة

الجامعة . وقد نسى التاريخ كثيراً من المدرسين فى الجامعة ، ولكنه لن ينسى جرجى زيدان وأضرابه ممن اتخذوا منبرهم العالى فى ضمائر المثقفين وعقول الطبقة الرفيعة . ولقد غدت « الهلال » منبراً لنوابغ الأساتيذ الجامعيين ، ينشرون فيها أوائل محاضراتهم وفصولا من كتبهم . فتذيع ثقافتهم فى الملايين قبل أن تذيع فى قاعة الكلية بين العشرات وأعنى بهذا كتب الدكتور طه حسين ، وأحمد أمين ، وأحمد الإسكندرى ، وعبد الحميد العبادى ، وعلى الجارم ، وغيرهم . وقد عرفنا « الأيام » ، و « قادة الفكر » ، وبعض المسرحيات على صفحات الهلال قبل أن نعرفها فى كتب مستقلة .

والكتاب الثانى الذى يعدّ من حسنات جرجى زيدان هو كتابه « التمدّن الإسلامى » فقد رجع فيه إلى مصادر ما تزال مخطوطة بعيدة عن أيدى الجمهور وبسط فيه حضارة العرب والمسلمين على أجمل عرض وأحسن تبويب ، فى فهم وعمق وإلمام واسع . وهذا الكتاب ما يزال مرجعاً من المراجع الهامة لمن يريد أن يلمّ بهذه الموضوعات فى أقرب سبيل ، وقد ألف بعده كثير من الكتاب فى الموضوع نفسه لكنهم لم يستطيعوا أن ينسونا طرافة جرجى زيدان .

وعنى الرجل بتراجم الرجال فنشر عنهم كثيراً فى مجلته وفى كتبه ، فجعل لمشهورى الشرق كتاباً ، وللعرب قبل الإسلام كتاباً ، ودلّ فيهما على سعة اطلاع ، ودقة وصف .

وله فى القصة التاريخية باع طويل فقد أوغل فى التأليف لعصور الإسلام ورسم فى قصصه شخصيات عجيبة وحوادث غريبة نَسَجَ بعضها من خياله وأخذ بعضها من كتب التاريخ والأدب ، فأصابه التوفيق حيناً وأخطأه حيناً ، ولكنه كان فى طليعة الذين حاولوا التأليف فى هذا الباب . وقد تبعه بعده كثيرون ساروا على غراره ، وأخذوا عن طريقته ، وأصبحت القصة التاريخية باباً فى هذا العصر من أبواب الأدب الرفيعة ، دخله كثيرون فكسبوا غار التوفيق والإجادة . وزيدان يعدّ فى ذلك فاتحاً من الفاتحين حبّب التاريخ إلى الناس ، وقرب الأسماء إلى الجمهور ، وحدّثهم فى أعلامهم العظام عن طريق القصة فى

أسلوب يعلو ويرق حيناً وينخفض ويسهل حيناً آخر ، ولكنه على كل حال صورة للقصص الجميل المستحبّ ، الذى صدر قبيل الحرب العامة فملأ الخزائن وغزا البيوت ، وما يزال بعد أربعين سنة كما كان قبلها يغنى الأدب العربى وتاريخ الأمة العربية بصفحات جميلة تعتزّ بها القصة التاريخية ، فهى وحدها فى الميدان تبلغ ثمانية عشر كتاباً تصوّر مختلف العصور العربية منذ الجاهلية حتّى العصر العثمانى ، لم يضف إليها الكاتبون لأيامنا كبير أمر .

وكثير من آثار زيدان ترجم إلى اللغات الأوربية والشرقية ، وصدرت منه طبعات متعدّدة تشير إلى يد الرجل على ثقافتنا وعمله لرفعتنا بين الأمم ، لا نحبّ أن نشير إلى أسمائها لئلا نخرج عن الحديث فى سيرة هذا العصامى العامل الذى ما عرف الكسل والتوانى خلال حياته كلها .

فقد كافح صغيراً ليتخلص من أنياب الجهل حتّى توصّل إلى أن يتعلم اللغات الأجنبية واللغات الشرقية ، واستطاع أن يدخل الجامعة وأن يدرس الطب ، وأن يسافر إلى مصر ، وأن يحرّر فى كبرى المجلات ، وأن ينشئ أكبر المجلات فى الشرق العربى . واستطاع أن يرى وأن يشاهد ، فيدخل السودان ، ويعبر البحر إلى إنكلترة ويعود من ذلك كله بذخيرة عظيمة دفعته إلى التاريخ فكتب فيه كثيراً وحببته إلى الأدب فألف فيه مرجعاً خطيراً ، وارتفع شأنه وذاع صيته ، وخرج من مطعم أبيه ليقدم عن سبيل « الهلال » صحاف العلم والمعرفة والثقافة للشادين فى العالم العربى كله .

وكان ذلك كله بفضل نشاطه المتواصل وسعيه الدائم . ولعل هذا النشاط نفسه هو الذى أودى بحياة الرجل قبل أن يحقق كل آماله ومشاريعه وكانت الآمال كبيرة والمشاريع واسعة لم تخطر على بال أحد قبله ولم يستطع تنفيذها غيره . وقد وافته المنية بغتة ، وهو لم يشك علة ولا مرضاً فشهق شهقة فاضت معها روحه ، مساء الثلاثاء فى ٢١ أغسطس سنة ١٩١٤ ، وعمره ثلاث وخمسون سنة ، قضاها فى سعى وجد ، وفى خدمة الثقافة العربية فاستحق التقدير والإكبار .

رفيق العظم *

عرفت البلاد العربية ، خلال القرن التاسع عشر ، أعلاماً فى الفكر والأدب ، وقفوا حياتهم على إصلاح أمتهم وخدمة الشعب العربى ، فكتبوا ونشروا ، وكان لقلمهم أثر كبير فى يقظة الشعب وفى ثقافته ووعيه ، وفى طليعة هؤلاء المفكرين ، رجل نشأ فى الشام ، وعاش فى مصر ، وخلّف كتباً ومقالات ، ما تزال فى سمع المثقفين والمفكرين ، وهو رفيق العظم .

وُلد رفيق العظم سنة ١٨٦٥ فى أسرة قديمة رفيعة المكانة ، واسعة الجاه ، مترفة تسلّم أفرادها الحكم والثروة والمعرفة ، فكان لهم فى جوانب البلاد آثار وعمارات ما تزال من أجمل ما ترك الزمان للوارثين ، فى روعة البناء وزخرفة الهندسة وضخامة الترف ، وسعة الرقعة .

وفى هذه الأسرة ترعرع الطفل ، فلم يصرفه أبوه إلى الدراسة فى مدارس الحكومة العثمانية وكانت لتخريج العمال والموظفين ، ولم يدفعه إلى المدارس العربية لأنها كانت غالباً لتخريج رجال الدّين ، وإنما دفعه إلى شيوخ العصر ، يتردّد إليهم ويأخذ عنهم ، فعلق بكتب الأدب ودواوين الشعر ، قبل أن يحفل بكتب النحو والصرف والمعانى والبيان ، وهى وسائل إلى المعرفة ووسائط فى التمكن من آلات اللغة العربية ، ومع ذلك استطاع الفتى أن يكتسب السليقة وأن يجد الطريقة ، وأن يتمكن من الفصاحة والجزالة والصحة والقوة ، لما وهبه الله من قلب ذكى وفطرة مواتية ، وصفاء فى الذهن ، وانصراف إلى التعلّم .

---

* رفيق بن محمود بن خليل العظم ١٨٦٧ م — ١٩٢٥ م .

وأتيح للشاب أن يتعرّف إلى أعلام الأدب والفكر ، فاجتمع إليهم وسمع منهم ، فأقبل على الأساتذة سليم البخارى، وطاهر الجزائرى، وتوفيق الأيوبى، وأفاد من عقولهم الواسعة وتجاربهم الكثيرة ، ونزع كما ينزعون إلى البحث فى الاجتماع والتاريخ والأدب ، وفكر فى الوطن والتنبيه والإيقاظ، وتعلق بالإصلاح، وكانت ريحه تهبّ على الشرق وتلفّ العقول المشرئبة إلى النور ، فدارت على لسانه مباحث لم تخطر على بال مثله فى سنه ، وتنبه إلى الكتابة فيها ، فجرى قلمه بفصول عجيبة لزمانه فى الوطنية والأدب ، كتبها بأسلوب بعيد عن أسلوب العصر ، ليس فيه زخرف أو وشى أو سجع ، وإنما يعلق بالفكر ويقف عند المعنى ، فلا يبالى الثوبَ الذى يظهر به ، فكانت ثورته مزدوجة فى التفكير والتعبير .

وساقته هذه الثورة إلى مشاهدة العصر والحال والإدارة والسياسة ، فاجتمع إلى أحرار العثمانيين ، وتعلم اللغة التركية ، وتلقّحت نفسه بالمبادئ الحرّة الكريمة ، فكره الاستبداد والاستعمار ، ونفر من الظلم والضّيق ، وتقرّب من الجمعيات السياسية السريّة ، فأدرك كثيراً من الأسرار عن سبيلها ، ووقف على العنف والإكراه وعرف أن سياسة السلطان وحاشيته تسوق الشرق إلى هاوية سحيقة ، فأنشأ ينتقد ويقبح فى جرأة وفى صراحة أذهلت إخوانه ومحبّيه ، فلفت إليه الأنظار ، وحامت حوله عيون الجواسيس ، وضاق بهذا الحبس الكبير فعزم على الهجرة إلى مصر ، وكانت مراد الأحرار ، ومرتع المفكرين ، فسافر إليها سنة ١٨٩٤ م وهو فى الثلاثين من عمره .

وفى القاهرة استطاع الرجل أن يتعرّف إلى أعلام البلاد ، وأن يتصل بحلقة الإمام محمد عبده ، وفى هذه الحلقة كبار الكتاب والمفكرين ، أمثال قاسم أمين ، وفتحى زغلول ، وحسن عاصم ، فأفاد من مجالسهم كما أفاد غيره من الأدباء والشعراء ، ونبغ كما نبغوا ، فكأنه دخل جامعة فكرية من كبريات الجامعات العربية ، واتصل كذلك بالشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، وعرف مصطفى كامل ومحمد فريد ، فكأنه دخل كذلك من باب السياسة الواسع ،

وأدرك ما لم يدرك من قبل ، فاختمرت فى نفسه فكرة الإصلاح السياسى والاجتماعى .

وانصرف إلى تأسيس الجمعيات السياسية ، فأنشأ مع صحبه « جمعية الشورى العثمانية » الحرّة وفيها كبار الشخصيات من عرب وأتراك وجركس وأرمن ، وكانت لها صحيفتها ، يحرّر القسم العربى فيها . وكانت هذه الجمعية قبل ذلك تطبع المنشورات وتذيع البيانات فى الوطن العربى وفى غيره ، وتنبهت « جمعية الاتحاد والترقى » إلى خطر هذه الجمعية وأثرها ، فسعت إلى التقرّب منها والاعتماد عليها فى مقاومة الظلم والطغيان ، ولكن الشعار كان يختلف فى كل منهما ، والأهداف تباعد ما بينهما ، فجماعة الاتحاد كانوا يعتمدون على العنصرية التركية فى رفعة الجنس الطورانى وغلبة هذا الجنس على ما عداه ، وكان جماعة الشورى يجدّون وراء الحرية للشعوب ، لأنها حرية ولأنها زاد ليس غير .

وسعى الرجل مع صديقه الشيخ « رشيد رضا » فى تكوين جمعية عربية سرية ، هدفها التأليف بين أمراء الجزيرة العربية ، والسعى فى جمع شمل العرب لحفظ حقوق العرب فى الدولة ، والعمل لمستقبل بسام يعيد إليهم أمجادهم وتاريخهم . وقد ساق إلى تأليف هذه الجمعية ما ظهر من ضعف الدولة العثمانية بعد انكسارها فى حرب البلقان ، وبلوغ « الرجل المريض » إلى شفا الزوال والفناء ، وبدا للأذهان خطر كبير من وقوع الدولة فى براثن الغربيين ، فنهض رفيق العظم مع زملائه من الساسة فى تأسيس حزب اللامركزية ، لئلا يصيب الأقطار العربية خطر الانهيار الذى قد يقع على العاصمة ، وليصبح كلّ قطر فى منجى من السقوط فريسة للأوربيين .

وظلّ الرجل كذلك يعمل فى الأحزاب وفى السياسة لخير قومه وأمته وبلاده حتى ساءت صحته . فلما قامت الثورة العربية ، وتسلمت الحكومة الفيصلية مقاليد البلاد ، عاد السيد رفيق العظم إلى وطنه زائراً ، فاستقبلته البلاد خير استقبال ، وعرفت له أياديه الكريمة فى النضال والكفاح ، وعرضت عليه

أن يتقلّد بعض الرئاسات الكبرى ، فاعتذر لسوء صحته ، ولزهده فى المناصب وعاد إلى القاهرة ، ولازم داره بمصر الجديدة عليلاً يستريح حتى قضى سنة١٩٢٥ وهو فى الستين من عمره .

ولعل الإنصاف يقتضينا أن نشير إلى أن هذه الحياة السياسية التى عاشها الرجل ، لم تكن لتمنعه من أن ينصرف إلى هوى نفسه فى معالجة الكتابة والتصنيف ، وإرسال المقالات والدراسات ، فى التاريخ والأدب والاجتماع والإصلاح ، فكان دائم النشاط يتابع الكتابة فى كبريات الجرائد والمجلات ، فى الأهرام ، والمقطم ، والمؤيّد ، والمقتطف ، والهلال ، والمنار ، فتلقى الاهتمام والترحيب والإكبار .

وكانت هذه المقالات والمصنفات تدور حول التاريخ الإسلامى وصور رجاله الأعلام ، وصفحات الماضى المجيد ، وطرق إصلاح المجتمع ، وبسط الداء ، ورسم الدواء . وأشهر مصنفاته كتابه « أشهر مشاهير الإسلام » كتب منه أربعة أجزاء طبعت مراراً ، ولكنه لم يتمّه ، واستفاضت به شهرته فى قاصى البلاد ودانيها .

ومن آثاره كتابه «الدروس الحكميّة للناشئة الإسلامية » « والبيان فى أسباب التمدن والعمران » « والبيان فى كيفية انتشار الأديان »، وكتابه « الجامعة الإسلامية وأوربة » . وله كتاب « السوانح الفكرية فى المباحث العلمية » بحث فيه حال المدنية ودواعيها وأسباب تقدمها أو تلاشيها ، وكتب فيه عن التفرنج الذى أصاب العرب بدائه ، وقد أطال فى ذمه ووصف ضرره وشروره . وهذا الكتاب فى ستين صفحة ظهر بإقليم مصر ، وعرفناه بفضل شقيقه الذى نشره فيما نشر من آثار أخيه بعد وفاته .

وقد أعجب « المجمع العلمى العربى » فى دمشق بنفثات هذا الأديب وروعة أسلوبه وجميل خدماته للعربية ، فانتخبه عضواً مراسلا إكباراً لأياديه ، ولكنه لم يتح له أن يشارك فى أعماله ، وإنما أوصى بمكتبته كلها هدية إلى المجمع العلمى العربى ، وهى فى نحو ألف مجلد ، كلها من غرر الكتب ونفائسها ،

فأدّى بذلك خدمة عظيمة للناشئة خلال حياته وبعد مماته .

وقد شارك هذا الأديب فى ضروب الأدب ، فنظم الشعر على قلّة يرثى به أصدقاءه من زعماء السياسة والفكر ، فبكى فيه صديقه محمد فريد ، والشيخ طاهر الجزائرى وغيرهما ، ولم نقع على هذا الشعر لنقول فيه ونحكم عليه ، ولكنه كان من غير شك صورة للوفاء فى معانيه وشبيهاً بشعر ذلك الزمان فى مبانيه .

وشارك فى مناقشة الأدب الرفيع نقاشاً أدبيًّا رفع صاحبه إلى مستوى أدباء العصر ، فقد كتب الرجل يجادل الدكتور طه حسين فى نظرته إلى أدب العصر العباسى ، وخاصة صدر هذا العصر حين رأى الدكتور طه فى جريدة السياسة سنة ١٩٢٣ خلال « أحاديث الأربعاء » أن ظهور الشعراء الماجنين وانتصار هذا الشعر وسيرورته ودورانه على الألسنة كان دليلاً على أن العصر كان عصر شكّ ومجون ، وأن شعر هؤلاء الشعراء كان مثالاً صادقاً للعصر الذى عاشوا فيه .

وكان نقد الأستاذ رفيق العظم رفيقاً حقًّا ، يتحلى بالأدب والكياسة والذوق والدقة والأناة ، كأنه صورة لنفسية الناقد فقد كان الرجل نزيه اللسان ، طاهر القلب ، منزّهاً عن الحسد والحقد ، متواضعاً فى عزة نفس ، قليل التبجح والدعوى — كما قال فيه رصيفه « رشيد رضا » — ولعلّ هذا هو الذى دفع الدكتور طه حسين إلى أن يثبت نقد الأستاذ رفيق العظم بنصه وحروفه كاملا فى كتابه « حديث الأربعاء » فقد رأى فيه أناة وسلامة وبعداً عن العنف ، لم يسلم منها ناقدوه ، فاكتفى به صورة لنقد رأيه وللرد عليه . ويستطيع الأدباء أن يقرؤوا هذا النقد فإنهم واجدون فيه صورة للأديب المتّزن المهذّب ، الذى يعتمد على الحجج التاريخية والأفكار السليمة الهادئة ، ولا علينا أن نورد عبارته الأخيرة برهاناً لما نقول . كتب رفيق العظم يختم كلمته بقوله :

« ولا جرم أن المجاهرة بالمجون ، والاستمتاع باللذات ، ثم رواية الحديث نقيضان لا يجتمعان ، وهذا ما يؤيد رأينا فى أن أكثر ما نقل عن أبى نواس

وأضرابه من شعراء المجون ، إنما هى روايات قصصية بعيدة عن الصّحة ، وأنه لا يصح أن تتخذ دليلاً على حالة الأمة الروحية والخلقية فى ذلك العصر ، وفوق كل ذى علم عليم »

هذا قول رفيق العظم ، ولسنا نحن الذين نقول إنه كان أديباً حقاً ، وإنما نورد رأى الدكتور طه حسين فيه حين أجابه فقال :

« ما زلت أذكر هذا المقال الرائع الذى نشرته « السياسة » للأستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين ، ووعدتُ بالردّ عليه ، ثم حالت حوائل بينى وبين هذا الردّ إلى الآن . ما زلتُ أذكر هذا المقال ، وأريد أن أردّ عليه ، فإن الخلاف بين هذا العالم الجليل وبينى لا يتناول أشياء مفصّلة فحسب ، وإنما يتناول أيضاً مبدأ عاماً قبل كل شىء . وقد عرف الناس رأى هذا العالم الجليل ، وأريد أن يعرف رأيى فيه . ولستُ أدرى أ أطمعُ فى إقناع هذا العالم الجليل أم أيأس منه . لأن الخلاف بينه وبينى جوهرىّ جدًّا وشديد جدًّا ، يذهب مذهباً فى التاريخ وفهمه ، وأذهبُ مذهباً آخر فى التاريخ وفهمه ، ويخيل إلىّ أن ليس إلى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل »

ذلك صدر الردّ الذى كتبه الدكتور طه حسين على الأستاذ رفيق العظم ، وهو فيه يبادل العالمَ أدباً بأدب وإكباراً بإكبار ، يعيد فيه صفة «العالم الجليل» مرّات ، ويخالفه فيه لمذهبه فى التاريخ . وهو صورة للنقد الجميل الحاو الذى انقضى بين سمعنا وبصرنا ونحن أطفال نقرأ ونستعذب . وكنا نرى فى هؤلاء العلماء الأجلاء صورة للأدب الحق والعلم الصحيح ، فهم يكتسون ببرد الجمال الخلقى وينضحون من نفوسهم الحلوة وأخلاقهم الرفيعة على يراعتهم ، فينشئون الجيل الصاعد على خير ما تنشأ الأجيال .

وسواء أكان الدكتور طه على وفاق مع الأستاذ رفيق العظم أم على خلاف فهو يعترف له بكثير ، ويختلف معه فى كثير ، ولكنه لا يجرّده من الإكبار ،

والاحترام وهذا هو الذى ساقنا إلى الكتابة فيه ، وإعادة ذكراه وبسط سيرته لتكون شعلة للناشئة ، وعبرة للمتأدبين ، فسيرته سيرة العطر الخالد ، والجهد الكريم ، والنضال لخير العرب ، والجهاد فى سبيل تاريخهم ، والعمل لرفعة الشعب العربى مما يخلّده على الأجيال .

محمد رشيد رضا *

ينعقد مؤتمر ساسة العرب فى الفينة بعد الفينة بدعوة من الجامعة العربية للنظر فى أمر هذا الشعب الكبير ووحدته وما طرأ من جديد على صلات أبنائه بعضهم ببعض ، وما وقع بين الأخ وأخيه ، فالمؤتمر عربىّ صرف تقوم به جامعة عربية خالصة ، تسعى فى حلّ المشاكل ، والنظر فى المسائل المستعصية ، لتقرّب البعيد وتُحلّ الوئامَ بين الأقطار العربية ، وهى مهمة شريفة سامية .

ومثل هذا المؤتمر شبيه بالمؤتمرات العربية التى كان العرب يعقدونها فى صدر هذا القرن ، يبحثون فيها أمور الشعب العربى ، وأدواءه وطرق تحرّره . فليست فكرة الجامعة والمؤتمر جديدة بنت اليوم ، وإنما قامت على آراء زعمائنا ورجالنا المصلحين ، على نطاق قد يختلف بعض الشىء فى التسمية وفى السبيل ، ولكنه يتفق فى المبدأ والغاية ، لنصرة العرب . ولابدّ من التنويه هنا بأن القومية العربية التى نفهمها اليوم كان لها مفهوم آخر فى عقول رجالنا وزعمائنا ، ولابدّ من العودة إلى مطلع هذا العصر لنطلّ على هذه الرؤوس الكبيرة التى فكرت فى المؤتمرات العربية وفى جامعة عربية ، فقد تحققت الآمال ، وأثمرت الجهود ، وسار العرب فى الدرب الصحيح نحو نصر مقبل مؤزر لاشك فيه

والحديث فى هؤلاء الزعماء المصلحين ، والرواد القوميين يقتضينا أن نتحدث عن حال زمانهم ، ووضع العرب فى أيامهم ، لنحسّ الذى أحسوا به ، ونسير مع آرائهم فى فهم ما أرادوا لأمتنا وقومنا . فقد كان العرب فى أقطارهم تحت سيطرة العثمانيين على أشكال مختلفة ، أشدها إيغالاً فى الظلمة

* محمد رشيد بن على بن رضا القلمونى ١٨٦٥ — ١٩٣٥ .

سورية ولبنان ، لأنهما على الحدود القريبة ، ولأنهما كانا يحكمان حكماً مباشراً ، هدف فيما هدف إلى إحلال اللغة التركية محل اللغة العربية ، فى الدواوين وفى المدارس . واللغة سبيل إلى تمكين الرابطة ، وطريق إلى الحكم الدائم والذوبان ، وفصل العرب عن لغتهم العربية مؤامرة سعى إليها الغربيون والطامحون ، لأنهم يعرفون أنها سلم القومية العربية ، وأنها الحبل المقدس الذى يربط بين العرب . وفصل اللغة العربية يعنى فصل التراث وفيه التاريخ العربى الذى يصل بين الآمال المشتركة والأمانى المشتركة .

وقد وقف العرب أمام هذا الخطر ، بل وقف الزعماء من العرب أمام هذا التيار ، ونبهوا إليه الأفكار ، وصوروا لشعبهم العربى المصير المظلم الذى يرسم لهم فى الآستانة العلية على يد «خاقان البرين والبحرين وإمام الحرمين الشريفين السلطان ابن السلطان عبد الحميد خان» . وتكلف الزعماء منهم ما يتكلف الشجاع فى الصفوف الأولى من المعركة الدامية ، وأصابهم ما يصيب الفدائيين فى الهجوم على الحصون المحكمة ، فكان القتل والشنق والسفك والظلم والجوع والفقر والتفرقة العرقية ، بعض الهدايا التى ترسلها الآستانة فى قراراتها إلى الولاة العثمانيين لإسكات الشعب العربى . وطبعى أن ينهض فى هذه الفترة المدلهمة رجال من أبناء هذا الشعب ، يحملون لواء المعارضة والقتال ، وكان صراع مرير لا يصوره قلم فى سطور ، ولكن هذا القلم يجب أن يذكر فى إيجاز ما كان لهؤلاء الرجال . فقد نهض فى حلب السيد عبد الرحمن الكواكبى ، ونهض فى طرابلس الشام السيد محمد رشيد رضا ، وقاما كأنهما على ميعاد فى ثورتهما الفكرية ، يحطمان قيود الاستبداد والاستعباد لم يعرف أحدهما ما يفكر فيه الآخر ، ولكنهما التقيا أخيراً على صعيد واحد وفى أرض واحدة ، شاء القدر أن تكون أرض الكنانة ، فقد كانت منذ القرون الماضية ، فى السادس للهجرة موضعاً للاجئين من أحرار العرب وكتابهم ومؤلفيهم . فيها دُفن ابن العديم ، وفيها دفن غيره من كبار كتابنا ، وحملوا إليها كتبهم ومقالاتهم ، وطرحوا آراءهم فى جو حر فاستمع الناس وأصغوا وسرى اللهيب المقدس .

وكان للكواكبي ورشيد رضا أن يقوما في هذا السبيل نفسه وأن يكتبا في نصرة الحرية ونصرة الشّعب العربيّ ، فطفق عبد الرحمن الكواكبي منذ نشأته يكتب في جريدة « فرات » مقالات يندّد فيها بحال الشعب العربي ، والحكم التركي ، ويرسم فيها طريق الإصلاح . وجلبت عليه هذه المقالات الثائرة خيراً كثيراً فقد سجنه الولاة العثمانيون ، وراقبته عيون الجواسيس ، وقيّدت عيشه وبيته ، وصبّت عليه الاتهامات الكثيرة ، وكادت به لعلها تقتله . ولكنّ شعلة الكواكبي لا تطفئها يد حقيرة صغيرة ، وإنما تلهبها وتزيدها ضراماً ، فقام في نفسه نور أشرق في جوانبها ، وذلك أن يعقد مؤتمراً عربياً كبيراً في « مكة » ، يدعو إليه أحرار العرب ، يجتمعون فيه من كلّ حدب وصوب ، ويتداولون في أمر هذا الشعب العريق ، وفي رسم مصيره والتعرّف إلى دائه ورسم دوائه . وهذا المؤتمر العظيم رسمه الكواكبي رسماً لم يفته فيه أيّ تفصيل ، فأخذ له عدته وعقد له جلساته ، وفصل القول في هذه الجلسات ، وأجاب على الأسئلة أجوبة منطقيّة عاقلة ، وفكر في أن ينشر كتاب المؤتمر . ولكن أصدقاءه رأوا أن الولاة العثمانيين إذا ما وقفوا على الكتاب قتلوا الرجل وصادروا الأوراق ، وماتت الفكرة . فشرع في إعداد حيلة يسافر بها إلى مصر ، وكان له ما أراد ، وحمل معه هذا الكتاب وهذه الفكرة ، وبدأ يفتش عن ناشر يذيع الرأي ويدعم المؤتمر .

وهنا تقوم المعجزة العربية في تاريخنا ، فتلقى الكواكبي أمام السيد رشيد رضا وجهاً لوجه ، وتجمعهما مصلحة الشعب العربي الكبير ، وتوحّد بينهما نصرة هذا الوطن ، والقيام في وجه العثمانيين ، فكأنهما نشأا في مدرسة واحدة وترعرعا في بيت واحد ، وأخذا بمبدأ متقارب . رجل من داخل سورية وآخر من شاطئها الحلو وفيحائها الغراء ، استقيا من زعيم واحد كان يثير العالم العربي ضدّ الطغيان والاستبداد هو « جمال الدين الأفغاني » ، وقرآ له معاً ، وأعجبا بوثبته العظيمة فأراد كل منهما أن يحمل الرسالة وأن ينشر اللواء ، وأن يهبط أرض الكنانة ليعمل مع مصلح كبير كان صورة للأفغاني هو محمد عبده .

وهذا اللقاء الغريب بين رشيد رضا والكواكبي يدعونا إلى « القلمون » هذه القرية الصغيرة التي تشرف على البحر الأبيض قرب طرابلس حيث ولد رشيد رضا ، فى أسرة محافظة ورثت تقاليد أصيلة فيها العروبة والعلم وحب اللغة العربية . فنشأ الفتى فى القرية ثم هبّ إلى طرابلس الشام ، وكره الوظائف الحكومية منذ ترعرع ، وكره الحكم الاستبدادى منذ شرع فى القراءة ، وأرسل قلمه منذ تفتّح ذهنه فى الكتابة ضدّ العثمانيين كما كان يستطيع أن يكتب المتحررون آنذاك . وذلك لأن الوالى ألغى المدرسة العربية الوحيدة فى طرابلس ، فانقطع الشاب عنها إلى كتب الفقه والحديث والشعر والأدب ، ووجه نظره إلى الكتب المصرية فتعلق بأخبار مصر ، وتتبع آراء جمال الدين ومحمد عبده ، ففتن بثورتهما ، وأحب رسالتهما فى نصرة العروبة والقيام ضد الاستبداد ، وأراد هو كذلك أن يقول رأيه صريحاً كما أراد الكواكبي . ولكن أصدقاءه خافوا على الفكرة وصاحبها أن تموتا ، فتحمّل إلى مصر ليذيع ما فى صدره من آراء جريئة صادقة كما تحمّل الكواكبي . ولصق منذ اليوم التالى لقدومه بمحمد عبده . وأنشأ فى القاهرة مجلة « المنار » .

وفى مجلة « المنار » راح رشيد رضا ينادى بآراء جمال الدين ومحمد عبده ويذيعها على قلمه السيال ، وينهال على الحكومة العثمانية تجريحاً ونقداً ، ويهيب بالعرب أن يتفقوا مع الشيطان ضدّها لتخليص العرب من براثنهم وإيقاظ النعرة القومية فى وجههم. ورأى أول الأمر أن يسير مع إنكلترة لضرب العثمانيين وهى عدوّة تقليدية للشرق الأوسط ، تتآمر مع كل حزب أوربىّ ودولة أوربية لضربه وهدمه واستعماره . واتفقت مصلحة رشيد رضا والإنكليز فى هدم العثمانيين ، وقامت الحرب الكبرى فانفصل العرب عن العثمانيين ونشأت دولة جديدة فى دمشق ، وانتخب رشيد رضا رئيساً لمجلس الأمة السورى ، جزاء نضاله وجهاده ضدّ العثمانيين . ونكث الإنكليز عهدهم فأرسلوا الفرنسيين لاستعمار الشام ، واتفقوا معهم على ضرب العرب فى قلب العاصمة الأموية ، فقضوا على الحكومة العربية الأولى بمؤامرة دنيئة ، صنعوا لها كلّ ما يستطيعون من دسائس فعاد

السيد رشيد رضا إلى مصر سنة ١٩٢٠ .

ولكنه عاد هذه المرّة وقد فهم أن اليد الأوربية التى تعين العرب على هدم العثمانيين ، كانت تريد هدم العرب والعثمانيين معاً . فثار ضد الإنكليز ، وثار ضد البيت الهاشمى ، وفصَّل الأمر فى مؤامرة الإنكليز وفى معاهداتهم مع الحسين ، ودعا لابن سعود فى أن ينقذ الحجاز من الحسين وأولاده ، وأن يخلص هذه الأرض المشرقة من معاهدات الإنكليز . وكان لرشيد رضا نصر أى نصر حين نقض ابن سعود هذه المعاهدات ، وأعلن أن السعوديين لا يرضون بالإنكليز ولا بالعثمانيين ، وإنما يعلنون استقلالهم كاملا . وطفق رشيد يشيد بهذه الدولة السعودية ، ويدعو إلى مؤتمر عربىّ يعقد فى القاهرة ، وذلك لأن القاهرة فى رأيه كانت أوسع الممالك العربية بعداً عن النفوذ الاستعمارى رغم وجود الإنكليز فيها . ورأى رشيد رضا أن يكون هذا المؤتمر فى بحث الملك العربىّ أو الخلافة الإسلامية ، يتداول فيه المؤتمرون أمر الشعب العربى .

وهنا كانت نقطة اللقاء والخلاف معاً بين الكواكبىّ ورشيد رضا . أما اللقاء فكان فى عقد المؤتمر وأما الخلاف فكان فى مكان المؤتمر . فالكواكبى يراه فى مكة ورشيد رضا يراه فى مصر . ولم يمنع هذا الخلاف على التفاصيل أن تنشر مجلة المنار كتاب « أم القرى » للكواكبى وأن تذيع على العرب جلساته ومباحثه التى تخيلها هذا العبقرى . ولم يمنع كذلك ناشر المجلة من التعليق على المباحث والجلسات . فكان اللقاء والخلاف واسطة لتحقيق غاية واحدة هى وحدة هذا الشعب العربى من أقصاه إلى أقصاه . ومهما يكن من أمر ، فقد التقى الزعيمان العربيان من حلب وطرابلس ، على فكرة مخلصة فى نصرة العرب ومقاومة الاستبداد ، واستطاعا أن ينشرا رأيهما فى مصر ، وأن يدعوا سكان الكنانة إلى الأخذ بالفكرة العربية ، وإلى البعد عن الإقليمية الضيقة التى كان يدعو إليها أعداء القومية العربية .

وكان رشيد رضا أوسع أفقاً فى نضاله السياسى من زميله الكواكبى ، وأشدّ توفيقاً فى السعى وراء آرائه ، فقد منحته الحياة سنين طويلة امتد فيها عمره ،

واتصل فيها جهاده ، وحرمت هذه الحياة صديقه الكواكبي فقضى سنة ١٩٠٢ قبل ثلاثين عاماً أو تزيد من موت رشيد رضا . وخلال هذه الحقبة ، اتصل رشيد بالعالم العربي كله ، فألبه على صفحات « المنار » ضد الإنكليز والمستعمرين وأثاره ضدّ العثمانيين وأعوانهم ، فتناول البيت الهاشمي بالنقد والهجوم وكتب صفحات مريرة ضدّ الحسين وفيصل وعبد الله ، ورماهم بلسان لا يفتر ، وقلم لا يكاد يلين ، وفضح الصهيونية العالمية في بيان لا يختلف اثنان في أنه من أعظم الأسلحة في نصرة القومية العربية ، وفي العمل لبناء هذه القومية وتدعيمها عن أيّ سبيل .

وقد حاول « رشيد رضا » أن يتصل بالزعماء من العرب ومن الغربيين وكتب إلى هؤلاء وهؤلاء ناصحاً طوراً ومهدّداً طوراً ، فأرسل إلى الحكومة الإيطالية الناشئة بعد الحرب الكبرى الأولى ، أن ترسم طريق الصداقة مع الشعوب المتحرّرة ، وأن تبتعد عن أساليب جارتيها إنكلترا وفرنسا في الاستعمار والاستبداد والاضطهاد ، وقال إنه يريد أن يضرب الدول الغربية بعضاً ببعض عملاً بالآية الكريمة : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) . ولكنه يئس بعد قليل ، فقد عرف أن داء الاستعمار قد بلغ إلى جسد الطليان وعقولهم ، فأخذوا برأي الدولتين العجوزتين — كما كان يسميهما — وتنبأ للطليان بفشل عظيم وموت قريب إذا ساروا على هذا الدرب المشئوم . وأرسل إلى « لويد جورج » ينصحه سنة ١٩١٩ ، بأن يعمل مع العرب لتحريرهم لعلهم يصبحون أصدقاء فيما بينهم ، لا سادة ولا عبيد ولكنه يئس كذلك .

وآمن بعد هذا وهذا ، أن انتصار القومية العربية لن يكون من الخارج وإنما ينبثق من نفوس العرب ومن ضمائرهم ، فالأتراك كما قال : « سيئو الطوية ، راسخون في بغض العرب والعربية » وذلك لأنه كتب إلى مصطفى كمال بوجوب تعضيده للمسئلة العربية ، وعاد بعد ذلك ليقول في « مجلة المنار » عن جواب سؤاله : « فلم يسفّ مصطفى كمال من أوج كبريائه للرد عليّ » ووقف السياسي الكاتب المناضل بعد هذه الرسائل وهذه الكتب والنداءات موقف

الداعية الاجتماعي ، يدعو قومه إلى إصلاح مجتمعهم ، والعناية بتراثهم وآدابهم ، والعكوف على دينهم ، وتقوية البناء العربي ، ودعم أسواره الحصينة على غرار ما يفعل الغرب ، فالجسم القوى يطرد المرض ولا يبالى به ، والجسم السقيم يقع فريسة الداء ، ويولى إلى الفناء حين يستبد به المرض ويغلبه .

ومن الخير أن يرجع العرب إلى كتب رشيد رضا ، ففيها دعوات إلى الإصلاح وفيها خططه للمؤتمرات العربية ، وفيها مناهجه لتدعيم القومية العربية ، وذلك ينفعنا حين نوازن بين ما قاله فى صراحة وجراءة وبين ما قال الكواكبى .

وحينذاك نعرف أن النضال العربى متصل الحلقات ، متصل الأهداف ، عمل له رجالنا الزعماء ، وقادة الفكر فى إخلاص وفى جد وساروا على هدى الأجداد وقد تختلف طرق السير ولكنها كلها تتفق فى نصرة القومية العربية وفى خلود الشعب العربى وفى عودة الأمجاد السالفة وتربع الأمة العربية مكانتها العظيمة بين الأمم كما كانت فى القديم .

محمد كرد علي *

عملت بلاد الشام للنهضة الفكرية وشاركت فى السعى لرفعة الأدب العربى الحديث ، فقام رجالها الأفذاذ بنصيبهم فى هذه النهضة وفى طليعتهم الأستاذ محمد كرد علي . فقد كان وحده أمة فى التأليف والتحبير والإنتاج ، كتب فى مناحى الفكر والأدب والاجتماع والسياسة والتاريخ ، وخلّف فيها مجلدات كثيرة تشهد بفضله وعبقريته وما تزال إلى اليوم مرجعاً هاماً من مراجعنا الثمينة ، تفخر بها الخزانة العربية .

عاش فى عصر قلق مضطرب خلال نشأته وشبابه ، لا يكاد يبين فيه أديب أو يظهر فيه كاتب إلا فى الندرة ، فحمل الرسالة الثقافية كما يحملها أولو العزم ، وبشّر باللغة العربية والعمل لها والإنتاج فى آثارها والحفاظ على ذخائرها . وزاد على ذلك بأن شجع الذين حوله وعاضد الشباب ورافق إنتاجهم وفتح لهم آفاقاً واسعة ، وكان على تفكير واسع ، ونشاط عظيم لا يبالى بالأسفار والرحلات ، ولا ينقطع عن القراءة والتأليف ، لا يكاد يعرف الراحة والهدوء ، منذ نشأ حتى قضى ، فعاش سبعاً وسبعين سنة فى دنيا العرب وكأنها أجيال ، دخل خلالها فى أبواب مختلفة فى الصحافة والسياسة والوزارة والجامعة ، والمجامع العلمية ، فملأ الدنيا حوله وشغل الناس بمقالاته وآثاره وآرائه وأعماله ، فخلف دوياً رافقه كل حياته ، لأنه ما كان يقنع بالأمور العادية ولا يكتفى بما يصل إليه الناس ، فى طموح عجيب ونشاط غريب ، وحركة بعيدة فقد طوّف فى ربوع أوربة ، ورحل فى أقطار الشرق العربى ، وعاد من ذلك كله بمشروعات

---

* محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد علي ١٨٧٦ م – ١٩٥٣ م .

جديدة فى نفع قومه وثقافة أمته ، دوّنها فى جريدة يومية كان يصدرها ، وفى كتب كثيرة كان يرسلها واحداً بعد واحد ، فيغزو الأفكار والآراء ، لا يهمه رضى الناس عنها أم غضبوا، فكان داعية إصلاح ورسول فكرة ، وصاحب قضية ، كالمصلحين الكبار الذين عاصرهم أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وشكيب أرسلان ؛ ينادى بالحفاظ على العقيدة الإسلامية والعمل للقومية العربية ويحمل على الغرب المستعمر ، والمبشر المتعصّب ، ويرجو لقومه يقظة كيقظة الغرب ، وقوة كقوة الدول الكبرى وأخلاقاً كأخلاق العرب القدماء وعلماً كعلوم النوابغ العظماء ، وإنتاجاً فى العربية يقف لإنتاج الغرب .

كان « محمد كرد على » صورة للسعى الدائم فى الكتـــابة والتأليف ، أمسك القلم منذ أوائل سنيه ولم يفلته حتى أواخر أنفاسه ، فكأنه قضى حياته كلها مع الورق ، يقرأ ويكتب ، ويراجع ويترجم ، فكان صورة للسلف الصالح المنتج وقدوة للخلف الصاعد المتعلم ، ترك للعرب خزانة من كتب تبلغ عشرة آلاف صفحة إلى مجلة شهرية صدرت فى تسعة مجلدات وصحيفة يومية حرّرها خلال سنين عدة . فكأنه من مؤلفى الموسوعات الضخمة ، يسعى لتقليد علمائنا المؤلفين كالمسعودى والجاحظ ، وياقوت الحموى ، والنويرى ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، ليلحق بهم فى ضخامة إنتاجه ووفرة كتبه ، واختلاف مناحيه ، وسعة آفاقه . لذلك كان منارة الجيل الشامى الذى انقضى بين ظهرانينا ، ومن أعمدة النهضة الفكرية منذ صدر القرن العشرين . وكان جسراً عبرت عليه ثقافتنا من الركود إلى النشاط ، ننعم اليوم بأياديه وجهوده ونعترف بما كان له على السوريين من خير كبير ونعمى وافرة .

ولد محمد فريد كرد على فى دمشق أواخر صفر سنة ١٢٩٣ — ١٨٧٦ ، فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، والعصر يتنفس حزناً لما لقى من جور وفساد وجهل وركود ، وتعصّب وقلق ، وقد قدم جدّه « محمد » من السليمانية شمالى العراق ، وهو فيما يروى حفيده من الأكراد الأيوبية ، قدم تاجراً إلى دمشق ، ورحل إلى الحجاز ، ثم عاد منها ، وأعجب بدمشق ، واستقرّ بها ،

ونشأ « أبوه » عبد الرزاق فى الخياطة أول الأمر ، ثم انصرف إلى التجارة ، واشترى مزرعة فى الغوطة قرب دمشق فى قرية تدعى « جسرين » ؛ وتزوج امرأة شركسية أصلها من قفقاسيا ، فكان « محمد كرد على » فى سحنته ووجهه وتكوينه يشير إلى هذا الأصل ، فى زرقة عينيه وبياض بشرته ، ونقاء أديمه ، حتى ليقول : « فأنا على رغم من آمن وكفر من جنس آرىّ لايقبل النزاع » ولكنه كان لا يفخر بهذه النسبة فخره بعروبته ولغة القرآن وحضارة الإسلام وأمجاد العرب ومفاخرهم . وذلك راجع إلى تربيته ونشأته بدمشق وأساتذته الذين تعلم على أيديهم .

فقد دخل منذ السادسة فى مدرسة أميرية هى « المدرسة السباهية » بأحد أحياء دمشق ، وتعلم فيها عامه كلّه ، حتى إذا كان الصيف استسلم إلى الراحة والعبث ، فانتقل إلى « الغوطة » إلى قرية « جسرين » يجرى كما يجرى أطفال الريف ، ويعبث كما يعبث أولاد المترفين ، فيأنس بالماء والسماء ، والحيوان والجماد . ويعيش بين البيادر والنواطير ، يشهد الحصاد والرجاد ، فتسكن فى نفسه صور الطبيعة ، ويتفتح قلبه الصغير لألوان العيش ، ويعشق القرية منذ صباه ، يلهو بها صغيراً وتشغله كبيراً ، يتلفّت إليها على مرّ السنين ، فيقضى بها أوقات فراغه وساعات راحته ، فينصرف إلى حماها كلما ثقل عليه الزمان أو هجم عليه حبّ التأليف والتصنيف ، فقد أصبحت « جسرين » تشارك دمشق فى قلبه وعقله ، حتى قضى فيها أكثر أيامه ، وسجل فيها أجمل ذكرياته .

وأحسّ الطفل فى القرية بعطف الفلاحين والفلاحات يؤثرونه بالحبّ والدلال ، مما أورث فى نفسه حبّ العشرة والمخالطة والحديث المتصل ، والحياة مع الطبيعة وجهاً لوجه ، تناجيه ويناجيها ، وتعطيه ما تملك من أسرار ، وما تحوى من جمال ، فنشأ على حبّ الحياة البسيطة الجميلة مرحاً فى غير تكلّف ، صريحاً فى غير تعمل ، جريئاً فى غير خوف ، واضحاً فى غير غموض ، سواء فى ذلك نمط عيشه أو أسلوب حديثه أو طريقة تفكيره .

وكان في المدينة كما كان في القرية يلقى العطف الشديد والدلال الملح ، فيصحب أمه إلى الأعراس والحفلات النسائية ، ويستمع إلى المغنيات ويحفل بالراقصات ، ويفرح لألوان المرح والطرب والغناء ، ويعشق الجمال والفتنة بعينيه وأذنيه وحواسه جميعاً ، وظلّ على ذلك ما عاش ، لا يجد في ذلك ضيراً ، على رغم تقلبه في المناصب والمراتب والآفاق .

وقد أورثه هذا العيش في المدينة والقرية إحساساً بعيداً بما حوله ، وشعوراً دقيقاً بما كان يراه ، يلتقطُ الصور في سرعة مذهلة كما تلتقط آلات التصوير ، ويحفظ في ذاكرته كما تحفظ هذه الآلات على الورق ، فينتقش في خياله كأنه من مداد لا يمحى . وقد أفاده ذلك في أحداث حياته فما نسي قطّ ، ولاّ أضاع ظلاً لحادثة أو تفصيلاً لموضوع سمع به أو رآه .

وأول هذه الأحداث زيارة قام بها مع أمه إلى بيت « الشيخ محمد الطنطاوي » « بالقيمرية » وكان في الطليعة من علماء دمشق ، فوقع بصر الفتى على رفوف الكتب ودهش لكثرتها ، فشهق لمرآها ، وسأل عنها فأجابته أمه : « إنها كتب يقرأ فيها العلماء » فأحبها منذ صباه وأعجب بترتيبها وألوانها ، وحسب أنها أحسن دمية يلهو بها ، فأحب أن يكون له مثلها ، وقد كتب له أن يقع على أمنيته ؛ فلها بالدمية ولها طويلا حتى غدت آخر ما يراه في حياته ، لم تفارقه في شبابه وكهولته وشيخوخته ، يذكرها بعد خمسين سنة ويشير إلى أثرها في صباه ، لم ينسها قطّ فلعلها من أعمق الأحداث التي تركت في نفس الفتى صورة لا تمحى ، يتحدّث عنها في إجلال وحنان ، وكان لمثله أن يلهو بغيرها وأن يشغف بما يشغف به الأطفال في مثل سنه ، ولكنّ الدنيا حظوظ والعبقريات ألوان .

وعرف الأب ما يحبّ ابنه ، فاشترى له من الكتب ما روى غلته ، وأنفق عن سعة ، وهو عاميّ يقرب من الأمية ، فأصبحت له مكتبة فيما بعد تضاهي مكتبة الشيخ الطنطاوي ، كانت زاده وموضع اعتزازه وسبباً من أسباب تفوقه على أقرانه .

ولما أتم الفتى الدراسة الابتدائية سنة ١٨٨٦ م وقد جاوز العاشرة من عمره ، انتقل إلى الدراسة الرشدية (الثانوية) وسمى « محمد تعديل » نسبة إلى حىّ كان يسكنه أبوه على عادة ذلك الزمن ، وراح فى هذه الحقبة يقرأ ويقرأ حتى هام بالمطالعة وأصبح يسهر الليل حتى الهزيع الثانى منه ، يقضيه فى قراءة جريدة أو كتاب ، فضعف بصره ، وساءت صحته ، ونصح له الأقارب والأصدقاء فى الاعتدال ، ولكنه مع ذلك ما كان يذعن إلا حين يطفىء أهله المصباح .

وأنى لنفسه المتيقظة أن تستريح ، وهو فى كلّ يوم يقع على ألوان من الإغراء فى المطالعة والجدّ ، فقد دخل عليه فى الفصل (الصفّ) ذات يوم رجلٌ فى عمامة وجبة، كان يتحدث بلهجة مغربية ، فدهش الطفل لما رأى من احترام الناس له وإكبارهم لشخصه ، فلما سأل عنه قيل له إنه المفتش العلامة « الشيخ طاهر الجزائرى » وهو أعلم من شيخه وأستاذه وأوفر قدراً ، فأعجب به ، وتمنى أن يكون مثله .

ومن عجيب المقادير أن محمد كرد علىّ شبّ وكبر ، فأصبح صديقاً حميماً لهذا الشيخ ، يأخذ عنه ويعتدّ بصداقته ، ويذكره لكل مناسبة ، فحقق أكثر أمانيه ، ولم تكن بعيدة عن مثله ، ما دام يسعى بجد ويقرأ فى نهم . فقد تعلق الشاب بهاتين الصورتين ، صورة الكتب وصورة العالم المحترم ، فأخذ نفسه بالنظر إليهما على أنهما مثله الأعلى ، وظل على ذلك حتى بلغ الغاية .

أخبرنا فى « مذكراته » أنه كان يبتاع الكتب من التركات قرب الجامع الأموى ، وكان يقرؤها ويصحبها ليله ونهاره ، كما كان يشترى الجرائد اليومية وهو صغير فيطالعها ويقول فى ذلك : « بدأتُ أقرأ الجرائدَ اليومية فى الثالثة عشرة من عمرى ، وأنا فى السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية ، وبعد حين اشتركت بجريدتين : بيروت الأسبوعية، ولسان الحال نصف الأسبوعية » . ويبدو أن هذه الصحف كانت تحوى أخباراً طريفة معربة عن الإنكليزية . فلما كان فى السنة الثانية من المدرسة الثانوية دفع اشتراكَ جريدة فرنسية أسبوعية ،

كانت تصدر في باريس واسمها « صديق الريف » وراح يطالعها كما يطالع بعض الصحف التركية الصادرة عن الأستانة فدل على عمق أثر الريف في نفسه ، وحبّ القراءة والمطالعة في عقله .

ولعلنا أفضنا وأسهبنا في وصف نشأته ، وذلك لنشير إلى أسباب نجاحه وتفوقه فيما بعد ، ولنبين العوامل التي أثرت فيه فجعلته كاتباً ومؤرخاً ومحققاً وأديباً . فقد أشرنا إلى عكوفه على اللغات الثلاث التركية والفرنسية والإنكليزية ، مترجمة أو في مصادرها الأصلية ، وبينا أثر الطبيعة الحية فيه بالريف والمدن ، كما رسمنا إقباله على القراءة والمطالعة ، وذلك لننتهي إلى أنه ما كاد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى راح يكتب مقالات في الصحف عجب لها الناس وعجب هو نفسه فيما بعد فقال : « وما كنت أظنّ أن هذه البداءة تنتهي بي إلى الغرام بالصحافة » .

وكان أسلوبه في الكتابة هو أسلوب القدماء أول الأمر يعتمد على التكلّف في العبارة والسجع في الجمل والتنميق في اختيار الألفاظ فقد أخذ عن شيوخه السيد سليم البخاري ، والشيخ محمد المبارك ، والشيخ طاهر الجزائري ، وحذا حذوهم في الأسلوب ، وسار على طريقتهم في الإنشاء ، وهم من كتاب المدرسة المحافظة ، ومن كبار العلماء في تلك الأيام .

ومن العجيب أن يتجاور القديم والحديث في عقل الشاب وفي نفسه ، فقد ألف الثقافات الأجنبية الحديثة والثقافة العربية القديمة معاً . كان يقرأ كتب القدماء وكانت تسمى الكتب الصفراء ، في متونها وهوامشها ويقرأ صحف الغرب وكتبهم ، فطوراً يميل بخياله إلى البوسفور والسين والتايمز ، وطوراً يقع على الشيح والقيصوم والعرعر ، ولكن عقله كان يعمل على حسن الجوار وتصفية الفكر والثقافة ، فيأخذ من كلّ طرف بنصيب ، ويسعى إلى تكوين شخصية مستقلة ، ينجح فيها بعد ذلك إذا ما دخل غمار الحياة وخاض عبابها كاتباً وصحفياً وعالماً .

وترك الشابُّ الدراسة الثانوية ، فغادر « المدرسة العازارية » ليدخل في

الصحافة ، وهو يتسلح بثقافة عامة كانت كافية لزمانه ، فالقرن التاسع عشر كان يشارف الاحتضار ، والأمية كانت ضاربة بجرانها فى الشام لتلك الأيام ، والكتب عزيزة نادرة ، ولكن محمد كرد على شرب من ينابيع أصيلة وفاق أقرانه وكان فذًّا و «فريداً» حقاً كما سماه أبوه .

ودخل الوظيفة كاتباً فى قلم الأمور الأجنبية سنة ١٨٩٢ وهو فى السابعة عشرة ، وكان يعرف الفرنسية والتركية والعربية، مما أعانه فى هذا المنصب الذى ظلّ فيه ست سنوات كاملة لا نعرف من أمره فيها شيئاً إلا أنه حاول خلالها نقل رواية فرنسية هى «قبعة اليهودى ليفمان» أعانه فى سبكها أستاذه الشيخ محمد المبارك ، ولكنها لقيت نقداً كبيراً من معاصريه ، لبعدها عن الأصل ، وتكلفها فى السجع ، وثقلها على السمع . وهى فى أربعين صفحة صغيرة تدلّ على بداية فى سلّم التأليف والتحبير ، لم يكن ينظر إليها محمد كرد على فيما بعد نظرة التقدير ، لأنها كانت محاولة من شاب ناشئ ما يزال فى أول الطريق .

وشرع بعد ذلك يرسل فى الصحف مقالات باسمه كانت سطحية ، وصفها بقوله : «لم تصل إلى أكثر من أقوال مبتدئ» ووصف حاله آنذاك قائلاً : «لم أكن يومئذ أكثر من طائر لا زغب له ، أمام بواشق كاسرة» . ومع ذلك ظلّ يكتب ويكتب حتى بلغ الثانية والعشرين من العمر ، سنة ١٨٩٧ فتسلم تحرير أول مجلة ظهرت فى دمشق واسمها «الشام» وكانت أسبوعية ، وكان صاحبها لا يحسن الكتابة فاتكل على صهره أديب الطناحى المصرى وكان هذا فيما يقول محمد كرد على يلفّق بين جمل يحفظها لبعض الكتاب المحدثين ، لذلك اعتمد عليه صاحب الجريدة آخر الأمر فعهد إليه بتحرير الجريدة . ولبث يحرّرها على ذلك ثلاث سنوات ، فأصبح صحفياً وهو لما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وذلك لما كان من قراءاته المبكرة فى الصحف العربية والغربية وشغفه بالكتابة .

وراح الشاب يكتب مقالات يرسلها إلى كبريات الصحف بمصر ، ومنها مجلة «المقتطف» وكانت سبيلاً لشهرته فى العالم العربى فخرج من نطاق محدود

ضيّق بالشام إلى إقليم واسع كان معدن الصحافة وموضع الثقافة ومصنع الكتابة . وبذلك وصل محمد كرد على إلى ميدان الشهرة والنصر ، فعرفه كتابُ مصر وعرفهم عن سبيل مقالاته ورسائله .

وفكر الشاب فى أن يسافر إلى الغرب فيطلع على آفاق جديدة ، ويرى بعينيه حضارة أوربة ، ويفعل كما فعل جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وشكيب أرسلان ، وذلك ليستكمل رسالة الكاتب ومهمة المصلح ويقوم بأعباء الأدب خير قيام . فسافر سنة ١٩٠١ وهو فى السادسة والعشرين قاصداً أوربة عن طريق مصر ، ولكنّ أصحابه عرضوا عليه البقاء فيها ليحرّر ويكتب ويؤلف فقبل ، كما قبل غيره من الشعراء والأدباء حين مرّوا بمصر ، وكتب لهم أن يبقوا وأن يبدلوا وجهة حياتهم ، كما وقع لأبى ماضى ومطران ورشيد رضا والمغربى ، وراح بذلك يحرّر فى جريدة « الرائد المصرى » وهى نصف أسبوعية وكان صاحبها جاهلا فى العربية كذلك .

وأفاد الشاب من مقامه بمصر فاتصل بالكتاب والأدباء واجتمع إلى حلقة الشيخ محمد عبده ، وكانت جامعة سيارة — كما قلنا مراراً — تثقّف عليها علماء وأدباء وتخرّجوا بها ، ومنهم الذين ذكرنا فى غير هذا المكان من أعلام الشام مثل النعسانى ورشيد رضا . واعترف محمد كرد على فى مذكراته بأنه كان يحضر دروس محمد عبده فى التفسير مرتين كلّ أسبوع بالرواق العباسى ، وأنه كان يغشى مجالسه الخاصة ، فتعرّف إلى أعلام الإقليم ، وتبادل معهم وجهات الرأى فى الثقافة والمعرفة ، واستمع فأطال الاستماع ، فكأنه دخل كلية للدراسة ، تخرج منها بأوفر عدة وأكمل سلاح ، فقال : « ومن أعظم ما استفدته من رحلتى هذه الأخذ عن عالم الإسلام والإصلاح الشيخ محمد عبده وحضور مجالسه الخاصة والعامة » .

وكانت إقامة الرجل بمصر عشرة شهور عاد بعدها إلى دمشق ، مضطراً لوباء أصاب القطر آنذاك ، فهرب منه ليستقبل وباء أشد ، وهو ضغط الحكام وعنت الحاسدين وجهل الجهلة ورقابة الجواسيس والعيون . فقد ألصقت

به تهمة الطعن على الوالى ، فهرب من دمشق واختفى فى إحدى قرى الغوطة ، وذاع أنه سينفى إلى « رودس » أو « فزّان » ، وسئم التخفى فعاد إلى مصر ثانية وهو فى الثلاثين من عمره .

وتولى هذه المرة تحرير جريدة « الظاهر » وهى يومية ثم أصدر معها مجلة « المقتبس » الشهرية وقد عاشت سنين فى القاهرة ودمشق تحمل إلى القراء أطيب صفحات الأدب والشعر فى القديم والحديث ، وتعدّ من أحسن المراجع لتصوير الثقافة فى تلك الأيام . ثم دعاه صاحب « المؤيد » إلى التحرير فى أكبر جرائد القاهرة والعالم الإسلامى ، فطفق يكتب فيها خير نفثاته ، واشتهر شهرة واسعة جعلته ملء الأسماع وموضع الرعاية ، فحقق بعض أحلامه ، وأصبح فى الكتّاب المعروفين .

وكان الرجل يترجم بعضَ الروايات عن الفرنسية إلى جانب مقالاته وينشر كتباً عن مخطوطات قديمة ، فجمع بين القديم والحديث وكان صورة لتربيته ونشأته ، يمثل شيوخه فى دمشق ، ويصوّر ثقافته عن صحف الغرب .

ولبث محمد كرد على فى مصر حتى سنة ١٩٠٨ ، فلما سقطت دولة الاستبداد عاد إلى دمشق وأنشأ مطبعة وجريدة يومية سماها « المقتبس » وهى أول جريدة يومية منظمة تصدر فى دمشق، وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره .

وهذه الجريدة كانت تؤدى خدمة عظيمة فى بلده ، فقد تمرّس بالصحافة فى القاهرة واستطاع أن ينقل المهنة إلى الشام . ولكن السلطات ضايقته كذلك ، وهددته بالاغتيال لنقده وصراحته ، فهرب من دمشق ، وبلغ لبنان ، وركب منه البحر إلى فرنسا . ولقى فى سبيل ذلك أهوالاً وصفها وصفاً بارعاً يشير إلى صبره وثباته . فلما بلغ باريس زارها زيارة عالم مؤرخ وأديب باحث ، فعرف مؤسساتها العلمية وكتبها وخزائنها وفيها رأى « المجمع العلمى الفرنسى » ، فاستوحى منه فى المستقبل صورة للمجمع العلمى العربى بدمشق . وهذه عبقرية الرجل يقلد ما يراه من خير فى كل مكان ولكل لغة وثقافة ، واسم « المقتبس » لمجلته وجريدته يدل دلالة واضحة على مبدأ الرجل وطريقته فى الاقتباس من الغرب والشرق .

وعاد الرجل من باريس إلى الآستانة ودمشق فوصلها سنة ١٩١٠ ، وهو يحمل فى صدره صوراً للغرب المتحضر المتحرّر ، نقل منها إلى صحبه ومعارفه فأثلج صدورهم ، ولكنه أغاظ الحكام والرقباء ، فسئم السياسة والصحافة ، بعد عشرين عاماً قضاها بين الكبت والتقييد والحرمان والخوف والقلق ، فعزم على أن يخوض ميادين البحث العلمى والتأريخ الأدبى ، ووضع قبالة عينيه منهاجاً واسعاً عميقاً ، هو تأليف تاريخ للشام على نمط الكتب الغربية يتصيده فى مخطوطات لم تُنشر ومصادر لم تطبع أو كتب لم تترجم . فرحل إلى « رومة » وأقام فيها يجمع مادة كتابه « خطط الشام » وانتقل منها إلى سويسرة والمجر ، ثم عاد بذلك كله إلى بيته فى دمشق .

ووقعت الحرب الكبرى الأولى ، واشتدّ ضغطُ العثمانيين ، وكان لابد له أن يسيرّه الحكام فى ركب الدّعاة المسخرين ، فحملوه إلى استانبول ليشهد بأمجاد الأتراك ، ودفعوه إلى جريدة « الشرق » ليحرّر فى الدعوة لهم ، فاضطر إلى أن يخضع قلمه لهم حتى تنجلى الغمة . وأصابه من ذلك نقد كثير ألحق بسمعته أذى كبيراً ، ولكنه اعترف بأن ما سال على قلمه من مقالات وكتب إنما كان للدعاية الموجهة لا قيمة له فى صفحة حياته .

وانجلت غمة الحرب ، فرحل الأتراك وحلّ الاستقلال عقب الحرب ، فانصرف إلى الوظيفة ثانية بعد انقطاع خمس وعشرين سنة ، ولكنها هذه المرة وظيفة علمية ، إذ كلّف برئاسة « لجنة المعارف » لتنقيح المفردات وتصحيح اللغة السائرة والنظر فى المؤلفات ، ومعه جملة من الشيوخ يعملون برعايته . وهنا عادت إلى ذهنه فكرة مجمع باريس فطلب أن تكون « لجنة المعارف » مجمعاً علمياً يعمل لصالح العرب المستقلين ولخير لغتهم وكتبهم . ووافق الحاكم العسكرى فتأسس أول « مجمع علمى » على يديه وتبعته بعد ذلك المجامع العلمية فى بيروت والقاهرة وبغداد ، فكان أول رائد للغة والعمل لتأسيس مصانعها .

وتقلّبت بلاد الشام بين الأسى والقلق بعد ذلك فدخلها الفرنسيون غاصبين مخادعين ، واختاروا للوزارة سياسيين وعلماء وأدباء ، واختير محمد كرد على

مرتين لوزارة المعارف ، فسافر خلالها إلى أوربة ، وزار إنكلترة وأسبانيا وألمانيا وسويسرة وفرنسة وبلجيكا فطاف بها للمرّة الرابعة وقد أربى على الخمسين ، يتصل بالمستشرقين والعلماء ، ويزور المكتبات والمتاحف ويلقى المحاضرات ، ويحضر المؤتمرات ، فعرف فى جمهرة المستشرقين كما عرف فى جمهرة أدباء العرب ، وكتب فى أولئك وهؤلاء مقالات ومقالات جمع أكثرها فى كتب له . وقد كلّف بتدريس الأدب العربى فى معهد الحقوق بدمشق فقام بمهمته ثم عافها ، وأنشأ مدرسة الآداب العليا نواة لكلية الآداب . وكان يرجع من سفره ليشهد جلسات المجمع العلمي العربى الذى أنشأه عقب الحرب ، فقد ظل رئيساً له طوال حياته اعترافاً بأياديه عليه فى إنشائه ورعايته ، فقد كان يمده بمقالاته ، ويطبع فيه كتبه المحققة ، ويسهر على المقالات المرسلة إليه فيتناولها بالتصحيح والإصلاح ويحافظ على كيانه ، ويرد عنه هجمات الحاسدين وعنت المكابرين ودسائس الواشين ، فظل المجمع خلال سنى حياته مراده ، ومكتبه وبيته وملاذه ، فيه يعقد الجلسات العلمية للحفاظ على اللغة أو تحقيق كتاب أو شراء مخطوط أو الاشتراك فى مؤتمر أو إقامة مهرجان ، حتى كان للمجمع مكتبة ضخمة من كتب اشتراها أو تلقاها ، ومجموعة ثمينة من كتب حققها وطبعها ، وسنين عديدة من مجلة بقيت صامدة وحدها بين المجلات العلمية الأدبية فى الشام ، رفعت للمجمع مناراً ، وحققت أنبل غاية وقامت بأشرف مهمة ، عليها تعلم الناشئون وبها استعان المحققون ، فأنشأت جيلا جديداً يزحف نحو المثل العليا التى رسمها محمد كرد على وحققها صحبه وجماعته من أعضاء المجمع العلمى العربى ، وهذا الجيل سائر فى طريقه إلى احتلال المقاعد فى المجمع ليكون خير خلف لخير سلف شاكراً يد الرئيس معترفاً بفضله .

لقد كان — رحمه الله — حركة لا تهدأ فى الكتابة والتأليف . وكان لسانه لا ينقطع عن حديث عذب متصل ، ونكتة بارعة تسبق نكتة بارعة ، وضحكة يطلقها لتلحق بضحكة تسبقها ، وقهقهة لطيفة يميل لها جسمه وتنفرج

أساريره ، فكأنّ عينيه الزرقاوين تبتسمان من وراء نظارتيه ، ووجهه الأبيض المشرق يحمرّ بالسرور والنضرة ، ذلك أنه يحب الطرب والموسيقا والجمال ، ويعشق الحكاية والقصة والنكتة ، ويهيم بالمجلس اللطيف والعشرة الصافية فيفيض بالسحر الحلال من جمل الدعابة والتحبب وتنقلب نفسه الكبيرة فى دقائق إلى براءة الطفل وسحر السذاجة ، فيخيل إليك أنه أول مرة يضحك فيها بعد طول عبوس ، وتستطيع حينذاك أن تطلب فتجاب ، وأن تقول فيستمع إليك ، على أن تتلطف فى الحديث ، وتبتعد عن السفاسف فى القول ، فإن كنت لا تملك شيئاً من هذا فاسكت .

ذلك لأن كلمة عابرة ونكتة سافرة ، تؤذى سمعه وذكاءه ، فينقلب المجلس إلى كدر ، وتسمع ما لا قبل لك به ، وتعرف حينئذ أن ليس لك معه لقاء ، ولن تملك معه الصفاء ، وخير فى هذا ، أن تزايل المكان وتبرح المجلس ، فالرجل أديب فنان لا يرتضى لجليسه غير الرقة فى الأسلوب والدقة فى الحديث .

وأما إذا كنت تتحدث فى الجهد والسعى والصبر على العلم ، فهو شديد الإقبال على المشتغلين ، كثير التحمس للمجتهدين ، يحب النظام ويعشق التدقيق والتحقيق ، ويكره الفوضى ويحارب الرياء ، لا يفرّق بين دين ودين لأنه يمقت التعصب ، وطبقة وطبقة لأنه يرى الناس إخوة ، وإنما همه أن يرى من يعمل فيجيد ، ويقرأ فيفهم ، لا يؤخذ بالشهادات ولا يخدع بالألقاب . فإذا كان لك سعى حميد إلى جانب ذلك رفعك فوق مكانتك ، وأحبك فوق رتبتك ، ومال إليك بسمعه ودعا لك فى مجالسه ، فأنت تطير بجناحين من مديحه ، ذلك لأنه أديب عاطفى يحب ويكره ، ويذم ويمدح ، فإذا ارتسمت صورة من حب لم يطمسها واش ، وإذا ارتسمت صورة من كره لم يمحها مادح ، إلا إذا رأى بالتجربة وخبر بنفسه ، وقرأ بعينيه ، فأنت حيث يضعك أدبك وقلمك وعلمك .

- دخلت عليه كثيراً فى بيته ، والعباءة على كتفيه ، فى « جسرين » أو فى دمشق فرأيته يذيب نور عينيه فى صحيفة أجنبية وصلت منذ أيام ، يقرأ فيها

عن رأى الغربى فى الشرق أو مجلة مستشرقة تنشر فى أدبنا وثقافتنا ، فهو شديد التتبع لما يقع وراء الحدود وفى الآفاق العليا ، وهو شديد النهم لمعرفة أخبار المطبوع والمخطوط ، عاش عمره لهما وقضى فى سبيلهما .

وقد ظل الرئيس على هذا النشاط حتّى أشرف على قمة من المؤلفات والمحاضرات والمقالات كان لابد لها من أن تؤثر فى عينيه وفى صحته ، فترسل السقم إلى جسمه ، والضعف إلى بنيته ، فقد ناهز الستين وأصبح خلال السنوات العشر الأخيرة وهو يزحف نحو السبعين ، على مرض يختلف إليه ، ثم يغيب ، يقعده حيناً فيلزم كتبه وتآليفه ويبتعد عنه حيناً فيسافر إلى القاهرة لحضور جلسات المجمع اللغوى خلال كل خريف فهو عضو فيه ، فإذا عاد من رحلته تهيأ لموضوع جديد وكتاب جديد لا يبالى بالسن العالية والقوة المتناقصة والصحة المتأرجحة ، حتّى غلبته العلة وتعب القلب ، فأبى أن يتحمل فوق ما تحمل من جهد ورحلة فوقفت نبضاته يوم الخميس فى ٢ نيسان (أبريل) سنة ١٩٥٣ وهو فى السابعة والسبعين .

وشيعته البلاد وبكاه الكتاب والنقاد وأعضاء المجامع وعلماء الغرب ودفن فى دمشق بمقبرة « باب الصغير » بجوار قبر معاوية فى دمشق التى أحبها وعمل لها ورفع منارتها عالياً ، وسيّر ذكرها بين العلماء والأدباء ، ومكن لنهضتها الفكرية ودعم شبابها وشجع ناشئتها ، فكان من الأركان العاملة المخلصة فى الفكر والأدب والتاريخ .

وقد خلف الرجل قرابة عشرين كتاباً فى الترجمة والتعريب وفى وصف الرحلة والاجتماع ، وفى الدراسات التاريخية والأدبية ، وفى التحقيق العلمى ، لن نعرض لها هنا فهى تحوج إلى دراسة وتفصيل لا تتسع لهما هذه الصفحات ، وقد طبع أكثرها فى القاهرة فتداولته المدارس والجامعات وعرفته المؤسسات والهيئات . ولعلّ من أهم كتبه وأعظمها كتابه « خطط الشام » عن تاريخ بلاده صدر فى ستة أجزاء واسعة اعتمد فيه على عشرات المخطوطات والمصنفات بالعربية والفرنسية ، ويليه فى الإتقان والإحسان كتابه « الإسلام والحضارة

العربية » كان موضع الإعجاب والتقدير بسط فيه ما للعرب وللمسلمين من دين في أعناق الإنسانية ، سطره على خير أسلوب وكتبه على أجمل نمط ، وسيره في الناس خالداً بين الكتب الخالدة . رحم الله الرجل عداد حسناته وأجزل له الثواب في الآخرة كفاء أياديه على العربية والعرب .

أديب إسحق *

ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقضى طفولته فى دمشق وشبابه فى بيروت ، ونزع إلى التجديد والابتكار فى الآراء والأفكار ، ودخل فى الصحافة والتأليف والكتابة والترجمة ، وكان نشاطه مدعاة للإكبار والعجب ، وكانت حريته الفكرية تقوده إلى ميادين لم نعهدها لمعاصريه ، وكانت جرأته غريبة على شاب فى عصره وفى مثل وسطه ، فاقتحم مصر ، وسافر إلى باريس وأنشأ فى كل منهما مقالات وتآليف ، فاشتهر فى زمن قصير وعاش عمراً كعمر الورد قصيراً جداً ، ولكنه خلف دوياً كبيراً وصدى بعيداً ، فكان من رواد الفكر والأدب فى عصره وبعد عصره ، وما تزال كتاباته إلى اليوم جميلة بديعة تحمل طابع الثقافة البعيدة ، وتستهوى الأفئدة بأسلوبها ونصاعتها وأفكارها ، فكأنه وُلد فى غير زمانه ، وكأنّ عمره امتلأ بالعمل المثمر والتفكير الدائم والكتابة المتتابعة .

ولد بدمشق فى الحادى والعشرين من شهر يناير (كانون الثانى) ١٨٥٦ ولا نعرف الحىّ الذى نشأ فيه ، والبيت الذى تربى فى كنفه ، ولكننا نعرف أن أباه كان متوسط الحال قليل المال ، موظفاً من موظفى البريد (البوسطة) ونعرف أن له أخاً سمى فيما بعد باسم « عونى » ، فالأسرة من الأرمن القدماء والأبناء يحملون أسماء توافق الأسرة، ولكنهما اصطنعا فيما يروون اسم « أديب » و « عونى » مسايرة لتيار العصر ، وذهاباً مع الأسماء الرائجة عند المسيحيين آنذاك . وأخوه هو الذى جمع مقالاته ومختار أشعاره والمراثى التى قيلت فيه ، وجعلها ذكرى لعبقرية أخيه ، فأدّى خدمة عظيمة ، وكان مرجعاً لنا ولغيرنا فى الحديث عنه .

---

* ١٨٥٦ م — ١٨٨٥ م .

ولما ترعرع الفتى أدخله أبوه « مدرسة الآباء العازاريين» فأخذ يتعلم العربية والفرنسية ، وظهرت عليه فيما يبدو مخايل النجابة والذكاء فبذّ أقرانه وظهر على رفاقه ، ولفت نظر أستاذه فى العربية . فكان يشجعه ويثنى عليه أمام أبيه ويقول له : « إنّ ابنك سيكون قوّالاً » وذلك لما كان فى عبارة الفتى من السجع السائر والعبارات المنظومة آنذاك ، من غير أن يفقه قواعد اللغة . ولسنا ندرى من أمر أستاذه فى المدرسة وموضعه فى الأدب كبير أمر ، لنستطيع أن ندرك الأثر الذى كان له فى تكوين طلاّبه . ولا شك فى أن هذه المدارس كانت تتلفت إلى الاستظهار والحفظ ، وتلقين المقامات ، وحفظ الأشعار الجاهلية وتعمد إلى مباريات الذاكرة فيها ، فتعلق بالأذهان صورة الأدب الذى كانت له الصدارة فى المجالس وفى الأسماع .

ويقول أخوه إنه ما كاد يبلغ العاشرة من عمره حتى أخذ ينظم الشعر كلفاً به ، « فى حين لم يطالع من العروض كتاباً ، ولا خاض من بحوره عباباً » ولعل نظمه كان على السليقة تقليداً واحتذاء ، يكرّر ما قال القدماء ويعيد ما نظموا فى قوالب قريبة ومعان شبيهة ، حتى دار على لسانه الشعر فى سهولة وفى يسر . ولن نبحث عن هذا الشعر فى « الدرر » — كتاب الذكرى عن أديب إسحق — وهو يجمع كل شيء إلاّ نظمه خلال هذه الفترة ، ولعله أسقطه لبعده عن الشاعرية ، وسنرى أنه لم يكتب له التحليق فيه والابتكار فى مجاله خلال نظمه كله ، فما أتيح ذلك لغيره إلاّ فى الندرة ، ولذلك غلب نثره على نظمه ، وكان الشعر فى آثاره حلية (المتحلى) يزين به المجالس وينشده فى المناسبات لأنه لم يكن غالباً رسالة أو هدفاً ، وإنما كان تسلية وتزجية للفراغ .

وفى هذه السنّ الصغيرة ، أصيبت أسرته « بعطلة أعمال » كما يقول أخوه ، أو « أصيبتْ بنكبة » على حد تعبير زيدان فى ترجمته ، فاضطر الفتى إلى إعانتها والتفانى فى خدمتها فزايل المدرسة وهو فى أوائل الحادية عشرة من العمر ، وتولى الكتابة فى « الجمرك » براتب مئتى قرش . ولكنه لم ينقطع خلال فراغه عن مدارسة اللغة التركية ، وكانت سائدة فى الأوساط الحكومية ، فحصل منها فى

مدى بضعة أشهر ما لا يدركه غيره فى بضعة أعوام حتى أصبح قادراً على الإنشاء والكلام والترجمة ، فترجم قصيدة لكمال باشا فى السلطان عبد العزيز خان ، والتزم فيها الروىّ والقافية ، والبحر واللفظ التركى بعينه . ولا يهمنا أن نورد صورة عن عمله هذا ، فهو من عبث الشباب وتسلية المتعلمين فى ذلك الزمان لا يشهد بنبوغ ولا يرمز إلى أثر فى ثقافته ، وإنما يشهد بسعيه فى الرفعة والتدّرج بالوظائف فكان ذلك وسيلة إلى زيادة راتبه وإعجاب رؤسائه بذكائه .

وكان خلال هذه الفترة ينظمُ الشعرَ والموشحات ، ويقرأ الكتب الإنشائية ، ويرجع إلى المؤلفات فى العربية والفرنسية والتركية جميعاً . وكان يرسل ما يكتب إلى أصدقائه وإلى الأدباء ، وينشر فى صحف العصر ، ويبدو أن مجلة « الجنان [1] » نشرت له غير قليل من إنتاجه فى هذه السنّ ، وذلك دليل على تقدّمه بين أقرانه ، وشاهد على شهرته ورواجه .

ويقول مترجموه : إنّه ما كاد يتمّ الثانية عشرة من عمره حتى كان له ديوان من الشعر تزيد أبياته على الألف ، فى الغزل والمدح والرثاء ، ضاع مع تقلب الدهر ، ولم يبق إلاّ قسم قليل منه ظهر فى كتاب الذكرى يدل على السنّ التى نظم فيها والعبث الذى تكلفه الشاب فى معالجته والعكوف عليه ، فهو إلى النثر المنظوم أقرب .

وفى سنة ١٨٧١ ضاقت الحال بأبيه فى بيروت فاستقدمه ليعاونه فى خدمة البريد ، وقد بلغ الخامسة عشرة من سنيه ، وكانت بيروت موضع نشاط جم ، ومحل مطارحات أدبية كبيرة ، ومراسلات شعرية واسعة ، تعتمد على الخاطر السريع ، والنظم المرتجل ، والمعارضة والمنافسة والتقليد ، وكان الأدباء فيها يعالجون هذه الأنواع فى مجالسهم إذا أقبل الليل وقام السمر ، واجتمع حول الأديب زملاء يفهمون عنه ويفهم عنهم ، فتدور كئوس الأدب دهاقاً ، وكان الفتى فى هذه السنّ يشهدها ويعجب بها ، ويشارك فى كثير منها ، فتدور الفصحى على لسانه ، وتتقلب على شفتيه ألفاظ جديدة وعبارات أدبية ، كانت

(١) مجلة الجنان صدرت فى كانون الثانى ١٨٧٠ مرتين فى الشهر لمنشئها بطرس البستانى ، وكانت رائجة لما نال صاحبها من الشهرة العلمية الواسعة .

تكسبه غذاء وروحاً ، فيطمح أبداً إلى المزيد . فرأى فى بيروت ما لم يكن يرى فى دمشق ، وألف الحلقات ، واستمع إلى نخبة الأدباء فى البلد كالشيخ فضل القصار ، ومصباح رمضان ، وبولس زين . وحفظت له مع هؤلاء مناقشات ومساجلات تدل على براعة فى الفهم وسبق فى الفن ، وتقدم فى الذكاء ، وإحساس بالأدب رفيع .

واضطر بعد ذلك إلى دخول الوظيفة ثانية « فى الجمرك » ببيروت ، ولكنه عافها إلى الكتابة والتحرير . ولا ندرى كم كانت تغلّ مقالاته وأشغاله ، ولا نعرف عن هذا تفصيلات تشفع فى تحليل حالته النفسية والمادية ، فقد كان يعيش من غير شكّ فى كنف أبيه ، وكان مكفى المئونة على الأقل فى مأكله ومشربه .

ويبدو أنه تولى تحرير جريدة « التقدم [1] » بُعيد نشأتها الأولى ، ويؤكد زيدان أنه « لم يمض عليه زمن وهو يكتب المقالات الرنانة حتى تحدث الناس بطلاوة عبارته ورشاقتها وهو لم يتجاوز السابعة عشرة » ونحن حين رجعنا إلى ما حفظ منها رأينا فيها كتابة سلسة ، ولعله كان يسبق أقرانه لأيامه بتملكه ناصية الإنشاء .

والمهمّ أنه كان خلال تحريره لجريدة التقدم يترجم قسماً من « معجم المعاصرين » عن الفرنسية ، ولكنه لم يتمه لضعف وسائله المادية فى نشره . وقد وصلت إلينا صفحات من هذا المعجم فرأينا فيها واسطة من وسائط النبوغ عند الشاب . وهذه الصفحات فى ترجمة الأعلام بالقرن التاسع عشر ، والنشاط يعلو فى فرنسة ويبلغ الذروة فى التأليف المسرحى والروائى والقصة ، بل فى الميادين الأدبية واللغوية . أفاد منها الشاب فائدة عظيمة فى نظرنا ، فوقف على حياة الأعلام فى الغرب ، وعرف كيف كان القرن التاسع عشر يدفع

(١) وهى جريدة صدرت سنة ١٨٧٤ لصاحبها يوسف شلفون ، فكانت أولا نصف أسبوعية فى صفحتين متوسطى الحجم يحررها منشئها وحده ثم انضم إليه أديب إسحق فكتب فيها سنة كاملة وتركها ثم عاد إليها بعد ذلك سنة ١٨٨١ ، ورتبها وألبسها حلة قشيبة .

المثقفين إلى العمل والإنتاج فى خير الإنسانية وفى خدمة الآداب الرفيعة . وقرأ عن الأفكار الفلسفية والأدبية التى كانت سائدة فى فرنسة آنذاك ، وسمع عن المذاهب الفكرية . وأصبح يوازن بما كانت عليه بلاده وما كان عليه الغرب فشهد بوناً شاسعاً ، ورأى هوة سحيقة ، فنقل لقومه خلاصة ما قرأ ، وأوقفهم على زبدة ما كان يدور فى تلك البلاد ، وكأنه انتقل بالفكر العربى المعاصر إلى برج جديد ، لم يكن يفكر غيره فى البلوغ إليه لو لم يحاول هذه الترجمة . وقديماً كانت ترجمة الرجال ، وسير المفكرين وحياة العظماء دافعة إلى الخير ، باعثة على الفهم ، تثير فى النفس مشاعر ومشاعر وتبعث فى ذهن القارئ خيالاً جديداً ، وتوثباً بعيداً وانطلاقاً يعلو به على آفاق من حوله .

ولا شكّ فى أن « معجم المعاصرين » قد أثار ذهن الفتى ، ووسع أفقه ، وغذّى خياله وأكسبه معلومات أدبية وفلسفية وتاريخية عادت عليه بالنفع ، ورفعته إلى مستوى الدارسين بالجامعات ، والمختصّين بالدراسات العالمية ممن أخلصوا لعقلهم وفنهم وأدبهم . وهذه التراجم التى نقلها دفعته إلى أن يترجم للأحياء من معاصريه فيما بعد ، كما فعل حين كتب عن جمال الدين الأفغانى ، وعبد القادر الجزائرى ، وخليل الخورى ، وبطرس البستانى ، وتقف لما ترجمه من حياة « ليتره » و « غمبتا » وتوازن بها حين يعمد الدارس إلى العمق ويتوغل فى دراسة عقلية الشاب وأدبه .

وقد مضى « أديب إسحق » فى الترجمة عن الفرنسية ، فنقل لصاحب « التقدم » كتاباً فى « الأخلاق والعادات » وآخر فى « الصحة » كما كان يفعل المثقفون فى مصر من تراجم نقلوها فدفعوا بالذوق والخيال والأدب إلى الإفادة والمتعة .

وهذا النشاط فى مقالاته الإنشائية ، وفى ترجماته عن الفرنسية ، وفى تعليقاته السياسية والأدبية بجريدة « التقدم » دفعته إلى الشهرة ، وحببته إلى الأدباء وأظهرت اسمه فى الجمعيات ، فخطبته « جمعية زهرة الآداب » ببيروت عضواً ثم رئيساً يلقى على الأعضاء خطباً مرتجلة ، وأحاديث أدبية ، وقصائد نظمها .

وكتاب « الدرر » فى ذكرى الرجل ، يحوى صفحات عديدة مما كان يقوله فى هذه الجمعية من موضوعات . نحبّ أن نقف عندها لنرى إلى موضوعاته وأسلوبه . فقد أجرى محاورة فى الجمعية عنوانها « نابليون الأول هل كان خيره أكثر من شره » وأخرى عن « الحرية » و « التعصب والتساهل » و « اليونان والرومان » .

وهذه الموضوعات تمثل الجوّ الذى كان يلفّ بيروت وجماعة المثقفين الذين كانت تنتظمهم الجمعية . وهذا الجوّ يصور نزعة القوم إلى انطلاق من سجن رهيب كان يُحكِم قيوده ولاة العثمانيين وأتباعهم فى البلد، وخاصة فى بيروت. ويصوّر شغف الجماعة بالموضوعات البعيدة ، مما دار فى الغرب قديمه وحديثه ، ومما يقع آنذاك فى حياته من حرية ومن تساهل وبعد عن التعصّب . ولن ننسى أن القوم يتحدّثون فى هذه الأشياء بعد عشرين عاماً أو تزيد من حوادث ١٨٦٠ ، تمثل أمامهم ذكرى كارثة المذبحة التى قامت على التفرقة بين المذاهب والأديان ، مما كان يغذيه قناصل الدول ، وتشجعه مدارس الإرساليات ، ويذكيه جهل الولاة العثمانيين وأسيادهم فى الآستانة . وما من مثقف يجهل أن المذبحة فرّقت بين طائفتين كريمتين تسكنان البلاد ، وأنها وقفت ظاهراً عند تدخل الفرنسيين فى الأمر ، وأن الثقافة الفرنسية وجدت سبيلها إلى العقول والأذهان والنفوس إثر هذا كله ، فرحبت بها عقول وعقول واحتضنتّها قلوب ونفوس .

ومع ذلك وقف أديب إسحق يذم نابليون ويترجم كلام شاتوبريان فيه : « ولد بونابرت ليفسد فى الأرض فهو يحمل الشرّ بين يديه كما تحمل المرضع طفلها بفرح وافتخار ، ويكره سعادة الناس كراهة الأرمد للنور ، فقد قال ذات يوم : لا يزال فى فرنسة أناس سعداء من بعض ذوى البيوتات المقيمين بالضواحى والأرباض ، فهؤلاء يعيشون من دخل لهم يكون بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً من الفرنكات ، ولا يعرفوننى ولكننى سألمّ بهم لا محال ». وترجم الرجل قول مدام دى ستايل فى نابليون ، وهى أشدّ على الرجل من شاتوبريان . وفى هذه

الأقوال صدى لما فى نفس أديب إسحق وفى نفوس سامعيه من تنفيس عن كرب خانق ، وظلم مرير ، وعبودية قاتلة ، وضيق شديد ، هذا المستبدّ الذى قتل الثورة وسجن حرية الشعب .

ونجد بعد هذه الخطبة خطبة « فى الحرية » يقول فيها :

« ومن المقرّر المتفق عليه بين النقدة الأحرار أن الحرية والمساواة متلازمتان فلا حرية مع الامتياز ولكن هنالك درجات عبودية من الأمير إلى أحقر الرعية تتصل دنياها بالرق ولا تصل علياها إلى الحرية » .

وطبيعى أن يورد أديب إسحق آراء جان جاك روسو فى الموضوع . وأن ينقل عن غيره من فلاسفة الغرب وحكمائهم . وهذه الآراء ضد الاستبداد والطبقية والنزعات الفردية أخذ بها كثير من العرب بعد الرجل ، وكان فيهم من غير شك عبد الرحمن الكواكبى . فالكواكبى لا يتصل بالفرنسية كما يتصل بها أديب إسحق ، وأثر الثورة الفرنسية واضح فى كتابات أديب إسحق يأخذ بكل مبادئها لعرضها على الناس فى بيروت وغير بيروت من البلاد العربية . وقد ظل يكتب ضد الاستبداد فى مقالاته حتى كان فى باطن الأمر من ألدّ أعداء الرق والاستعباد وظلم العثمانيين . فهو ثورى عنيف ، وهو حر جرىء ، وهو يطلب المساواة فى أبعد الحدود . وهذه الآراء كلها تناسب ما كان يروج فى مصر وغير مصر على لسان جمال الدين وتلميذه كما نرى بعد قليل . وأما خطبته فى التعصب والتساهل ، فهى تاريخ شامل لكل من ظلم فى سبيل دينه واضطهد فى سبيل عقيدته ، وحرم من الحرية فى أرضه لأنه يعتقد بأمر لا يعتقد به جاره . وهو فى كلّ ما يكتب ذكىّ حريص لبق لا يكاد يمسّ وضع سورية وطوائفها من قريب أو بعيد،حرصاً على عدم إثارة المواضيع الشائكة— كما نقول اليوم — ولكنّ الذين يعرفون الحال والظروف يؤمنون بأن الأديب أخفى أشياء كثيرة كانت تحزّ فى صدره ، وبسط أشياء غيرها بأسلوبه الأدبى الرفيع الذى يجرى فيه على نمط البيان الرفيع والترسل البديع فى القرون الزاهرة وأخصها القرن الثانى والثالث للهجرة ، وهو ما يزال يزحف نحو العشرين من عمره ، ويطير إلى ذرى الشهرة

بجناحين من إنشاء بديع وآراء مبتكرة .

وفى سنة ١٨٧٥ ، وقد بلغ التاسعة عشرة من عمره ، انتدبه سليم شحادة وسليم الخورى فى إنشاء « آثار الأدهار » وهو معجم جغرافى تاريخى ألفه عن الأمم والمدن فى العالم من الناحية الجغرافية والتاريخية ، اشتغل فى تأليفه عاماً وبضعة أشهر وطبعت أجزاء منه ولم يتم (١) . وهو يدل على باع الرجل وسعة حبه للتاريخ وشدة شغفه بالمعرفة الجغرافية ، فهو يريد أن يعرف العالم كله على الأوطان والأزمان ، ولكن قصر الزمان وصعوبة النشر حالت دونه كما حالت دون معجم المعاصرين .

وفى هذه الفترة عرّب رواية « أندروماك » لراسين الشاعر الفرنسى ، إجابة لطلب قنصل فرنسا ، فترجمها نثراً وأضاف إليها شعراً نظمه فى أخبارها وجعله ألحاناً ، وعلم أدوارها فى مدى ثلاثين سنة ، ورفعها إلى القنصل ومثلت إرفاداً للبنات اليتامى ثلاث مرّات ، فكان من ريعها خمسة وثلاثون ألف قرش فى ذلك الزمان .

والرواية بين أيدينا تبلغ أربعين صفحة ، مزج فيها بين النثر والشعر على عادة ذلك الزمان ، وخرج عن حرفية الرواية إلى تعريب واقتباس ، وجعلها فى مستوى الجمهور العربى يستسيغها بجمال بيانها وعذوبة ألفاظها ورقة شعرها ، ولكنه ألح على السجع فى نثرها على غير عادته ، فهو فيما نرى بعد قليل يكره السجع ويبتعد عنه ، وسنعرض سطوراً منها فى مطلعها ليقف القارئ على أسلوبه فى هذه السن :

« أورست :

عرضتُ نفسى فى سوق الهوى فإذا قضيتُ فى الحب لا أبغى لها ثمنًا

بيلاد :

« لقد كنت إذن تخدعنى بالكلام . وتزعم أنك اعتزلت الغرام .

(١) طبع القسم الجغرافى فى ٧٨٨ صفحة ، بيروت ١٨٧٥ ، وطبع القسم التاريخى فى ١٨٠ صفحة وصل به حتى كلمة بلجيكا ونشر فى بيروت سنة ١٨٧٧ .

أورست :

مولاى لم أخدعك وإنما كنت أحاول أن أخدع ذاتى . وقد كنت تسمع أنينى وتلهفاتى . ألم تر بعد ارتباط (هرمين) (ببيروس) ما حل بنفسى . وما لقيت من حزنى ويأسى . حتى تركت الأوطان والأوطار . وسرت هائماً فى البحار . أصل الليل بالنهار وأمزج الهموم بالأكدار . . »

ولا حاجة إلى القول إن المترجمين لا يرضون بهذا الأسلوب اليوم لأنه يبتعد عن صلب الرواية ، ويتكلف لها من الأسلوب ما لا يرضى ولا يعجب ، ولكن الشاب ما يزال فى سنّ العشرين ، ومثله لا يقدم فى أيامنا على شىء من هذا الجهد والإنتاج .

وقد قال مترجموه إنه مال بعد ذلك إلى تعريب بعض الروايات وإلى تأليف غيرها ، وقالوا إنها مثلت فى القطرين السورى والمصرى . وقد شاركه فى صنعها صديقه سليم النقاش ، ولكنها لم تصل إلينا لنقول فيها رأينا . وذكروا كذلك أنه يمم الإسكندرية سنة ١٨٧٦ بإشارة صديقه النقاش ليدفع إلى تمثيل هذه الروايات فى مسارحها ، وفيها جالية سورية كبيرة . وسافر أديب إسحق فعلاً إليها وأصلح « أندروماك » وحلاّها بأبيات جديدة من الشعر . وعرّب رواية « شارلمان » وهى تدور حول ملك فرنسة ، عرّبها عن الفرنسية فى أربعة فصول مسرحية ، وجعلها كذلك بين النثر والشعر ، ولكنه هذه المرة ابتعد عن السجع كل الابتعاد ، وخلت الجمل من التكلف والتصنع ، وإن كانت لم تخل من ضعف فى بعض الاستعمالات والتراكيب ، فهو يقول فيها مثلاً :

« لقد افتكرت يا سيدى وقست هذا المرتقى قبل الصعود إليه ، فرأيت بل لا أزال أرى فى تصورى المتقد (رولان) شهيد الحرب الفارس المنتخب الذى جاد بروحه حباً بفرنسا . . . » .

ومهما يكن من أمر البيان فى الرواية والتعريب ، فالرجل قد شارك إلى حدّ بعيد فى نشاط المسرح وفى تغذيته بالروايات المعربة والمؤلفة ، كما شارك فى ذلك غيره من الأعلام الذين كانوا يفدون على الإسكندرية للغرض نفسه . فطرق بذلك أبواب النشاط الأدبى من خطابة ، ومقالة ، وتاريخ وجغرافية ، وتعريب ،

وتأليف فى المسرح ، وكان بذلك يبذل محاولات واسعة فى الميادين الأدبية بالشعر والنثر ، ينقل طرائف الغرب وينتقل بالأسلوب الكتابى إلى موضوعات طريفة غربية غالباً .

وانتقل الشاب من الإسكندرية إلى القاهرة ، وكان فى ذلك بركة وخير ونقطة تحول عظيمة . وذلك أنه سمع بجمال الدين الأفغانى ، فسعى إليه ولازمه حيناً من الزمن ، وكان يحضر حلقته ، ويأخذ عنه دروساً فى الفلسفة الأدبية وفى الفلسفة العقلية والمنطق وغير ذلك من العلوم العليا والفنون . فأفاد بذلك فائدة جسيمة كما أفاد جميع الذين اتصلوا بهذا العبقرى ، واتسع أفق مداركه ، وتغير وجه تفكيره جملة ، فما عرف فى بيروت مصلحاً عظيماً ومفكراً عالمياً ، وقائداً للثورة يشبه « جمال الدين » والرجلان على ثورة دائمة ، وعنف كبير ، وجرأة نادرة ، فاتفق مزاج الشاب الوافد ومزاج العالم الرحالة ، واشتد إعجاب أديب إسحق به حتى اتخذه مثلاً أعلى ، كما كان إعجاب كل الذين اتصلوا بالزعيم المفكر . وكتب عنه فيما بعد مقالة تشير إلى هذا الإعجاب والإكبار قال :

« عرفت صاحب الترجمة بمصر ، وكنت من مريديه ، وخاصة محبيه طول مدة الإقامة بالمحروسة والإسكندرية ، فكلامى فى ترجمة حاله عن علم واختبار على أننى ملتزم فيه جانب الصدق برىء من الهوى يعرف هذا كله من عرف السيد جمال الدين ، والله على ما أقول وكيل . »

ثم يقول فيه : « وهو قوىّ العارضة ميال إلى المعارضة ، طويل الحجة واسع المحفوظ ، نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ، ويهتك أستار السرائر . ولكنه على فضله لا يسلم من حدّة المزاج » .

وهذا أسلوب جديد يختلف عما كتب أديب إسحق فى رصانة العبارة وقصر الجملة يرتفع بصاحبه إلى مستوى المنشئين المترسلين من القرون الماضية . وهذا ما كنا نقوله من أثر الإقامة فى مصر ، واتصال الكاتب بالكتاب وعكوفه على لقاء الأدباء ، ومعالجته لأساليب الفصاحة السارية آنئذ على كثير من ألسنة المفكرين .

ومن العجيب أن يفكر الشاب فى إنشاء جريدة بمصر كما فكر كثير غيره بعد لقاء الزعيم الأفغانى ، كأنهم يحملون آراء جديدة يجب أن تذاع فى الناس أو كأنهم يضطلعون بمبادئ جديدة يجب أن تنشر فى القراء ، لذلك سعى فى امتياز جريدة سماها « مصر » ونال امتيازها ، وهيأ موادها فى يوم واحد . ولم يكن فى يده أكثر من عشرين فرنكاً . وفى اليوم الثانى « برزت تتجلى فى أبهى مطرف من مطارف البلاغة فى مقالاتها الإنشائية » كما يقول أخوه . وراجت الجريدة ، فنقل إدارتها إلى الإسكندرية وشارك فى تحريرها صديقه سليم نقاش فلقيت نجاحاً عظيماً ، وطارت شهرتها فى الآفاق ، وذلك لعبارتها المشرقة وإخلاصها للدولة والأمة « خدمت البلاد المصرية خدمة تذكر بما كانت تنشره من المقالات الأخلاقية والفصول الضافية فى تعريف الوطنية ، والدعوة إلى الاعتدال فى الحرية ؛ كما أنها خدمت اللغة خدمة تؤثر عنها بما كانت تأتى به من الكلمات العربية للمصطلحات الإفرنجية »

وفى كتاب « الدرر » مقالات متعددة نشرها فى هذه الجريدة، نستطيع أن نعرف بها أهداف الرجل وأسلوبه،وما كان يعالجه من موضوعات . فقد كتب ينتصر للعثمانيين ضد الروس وذلك أثناء الحرب التى شبت نارها بين الأمتين . وتحدث عن الأمة والوطن والفرق بينهما ، ووصف الأمانى الوطنية ، وامتدح خديوى مصر توفيق ، وقال فى صدد السياسة الوطنية :

« بل آن للأوربيين أن ينكفئوا عن الطمع فى الأثرة ، ويعدلوا عن الحرص على الامتياز . فقد أبطلت الحجة التى أثبتوا بها لأنفسهم ذلك الحق . وما كانت حجتهم إلا الأحكام مسلمة إلى من يخافون منه الخيانة ولا يعتقدون فيه الأمانة »

ودافع الشاب عن مصر وحقوقها ، والأمة العثمانية وموقفها ضد الروس ، وهاجم الحرب والدول الغازية المعتدية فى أسلوب بين مشرق ونحب أن ننقل تعريفه لهذا الأسلوب وحرصه على رسمه ؛ قال فى جريدته « مصر » عن خطته فى تحريرها :

« ورأيتُ من الواجب علىّ أولا أن أصرف العناية والاجتهاد إلى تهذيب العبارة وتقريب الإشارة لتقرير المعنى فى الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه

الكلام وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً ما كان من الكلام غريباً وحشياً ، أو مبتذلاً سوقياً . فإنّ التهافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج على دائرة الإنشاء داء إذا سرى فى القرّاء والمطالعين أدى إلى فساد عام وأغلق على الطلبة معانى كتب العلم : والتنازل إلى ألفاظ العامة يقضى بأماتة اللغة وإضاعة محاسنها . وإن فى لغة القوم لدليلاً على حالهم . وثانياً أن أسير فى السياسة سيرة محب لوطنه ، لا تأخذه فيه لومة لائم . . . » .

وهذا كلام شيخ عاقل عالم لا مقال شاب فى الثانية والعشرين من عمره لأنه يتسم بالهدوء فى تفكيره والأناة فى لفظه ، والتجويد فى تعبيره ، والّلحاق بالفحول من المنشئين وتقليد البلغاء من الكتاب ، وهو بعيد عن جوّ الفحولة ، فى سن لا يقرّ فيها القلم ولا يلحق بمثل ما حلق به أديب إسحق .

ولقد راجت جريدة (مصر) وهى أسبوعية ، فأحبّ الشاب وزميله النقاش أن يُخرجا إلى جانبها جريدة أخرى يومية ففعلا ، وسمياها « التجارة » وكانت الصحيفتان تنعمان بالشيوع والذيوع والربح والرواج حتى قال أخوه : « وكانتا من أقوى دعائم النهضة الأدبية » ويبدو أنهما أثرتا فى الصحف الأخرى فحذت حذوهما وسارت على غرارهما وارتقى الأسلوب ، وقل التقييد والتعقيد ، وتأنق الصحفيون فى كتاباتهم وبالغوا فى تنقيتها من أدران الركاكة واللحن ولا سيما فى التعريب « لأنهما كانتا تنتقدان كتابات الصحف ، وتهديانها فى إنتقاء الألفاظ سواء السبيل » .

وقرّ قرار الشاب فى القاهرة ، وكاد يظل فيها عمره كله ، يعمل فى الصحافة والتأليف والتعريب والنظم ، ويبلغ فيها إلى ما بلغ أقرانه وزملاؤه ، فقد كان على لسان فصيح وقلب حافظ وذكاء نادر . ولكنّ القدر شاء أن تختل الأمور فى مصر ، فارتحل الشاب إلى باريس سنة ١٨٧٩ ، وهو فى الثالثة والعشرين من عمره وفى قلبه ذلك البركان الثائر من حب الإصلاح والحرية ، ونفسه مفعمة بالسياسة مشبعة بالعمل لآرائه فى جمع الكلمة وهدم الظلم ومحو الاستبداد ، وميدان النجاح فى ذلك باريس فإن لم يكن فأين يكون النجاح؟ لقد كان دائماً

يردّد أن الثورة الفرنسية هي مضرب المثل وطريق العبرة وسبيل التقليد للشرقيين . فهي أرض الراحة وأهلها أهل الحرية فيما يقول ، وكان نابليون فى نظره مهدّم الحرية ومثل الاستبداد ، كما رأينا من مقالاته فيه .

وأقبل الشاب يعمل فى باريس كما كان يعملُ فى القاهرة ، فأنشأ جريدة سمّاها « القاهرة » وصدّرها بهذه العبارة : « ما تغيرت الحقيقة بتغير الرسم ولا تغيرت الصحيفة بتغير الأسم ، بل هى مصر خادمة مصر » وهو يعنى بذلك أنّ هذه الجريدة هى جريدته نفسها التى كانت فى القاهرة ، لم يتغير منها غير اسمها وأما خطّتها وطريقتها وعملها فسيكون فى خدمة مصر التى أحبها ، ورأى فيها وطنه الثانى ، وأحبّ أن يعيش فيها بقية حياته كما أسلفنا .

وبعد مدّة قليلة عاد إلى اسم جريدته الأولى وسماها « مصر » وراح يكتب فيها فصولاً جميلة . يقول أخوه إنّ أكثرها يتّسم بحدّة المزاج فى توجيه الخطاب إلى بعض المقامات العالية ، لذلك لم ينشرها كلها فى كتاب « الدرر » معتذراً عن مزاج أخيه ، حاملاً ذلك على نزق الشباب . وكنا نود أن نقرأ هذه المقالات الممنوعة بعد أن مضى على وفاة الرجل ما يزيد على خمس وسبعين سنة ، وماتت تلك المقامات ، وزالت تلك الموانع ، ولم يعد من حظر على نشرها . وبقراءة هذه المقالات يتبين لنا وجه الحذر وحدّة المزاج ، وهى لا شك فى مهاجمة أصحاب السلطان من المستبدين ، شبيهة بالمقالات التى كتبها الكواكبى وغيره فى محاربة الاستبداد ومقارعة الاستعباد .

وأما مقالاته الأخرى التى نشرها فى باريس سنة ١٨٨٠ فهى منشورة معروفة نستطيع أن نجد فيها بعض الذى نريد من معرفة أغراضه وأسلوبه ، فهو يقول « الحمد لله وحده : هذه صحيفة مصر طواها الاستبداد فماتت شهيدة ، ثم أحيتها الحرية فعاشت سعيدة ، ترسل إلى المريدين والأولياء ونبهاء القراء منهية إليهم : أن قد أتانى الله نعمة الحرية ، ومن أوتى هذه الحرية فقد أوتى شيئاً كثيراً » . ثم يقول : « حاول أحدهم فى مصر إطفاء نورى وأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره وإن كره الظالمون . أماتنى بدعوى الحرص على الخواطر أن أثيرها

إلى الفتنة بل خاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله فزعم أنى ناصبته الشر نفرة منه ، وتشيعاً لسواه » وفى هذه الجمل بيان لسبب هجرته مصر ، وتلميح إلى من وقف أمامه . والأسلوب هو الأسلوب والمتانة هى المتانة تشرب من بلاغة القرآن وبيان العرب الفحول .

ومقالاته فى باريس يغلب عليها طابع السياسة ، فهى فى رسم سياسة أوربا نحو الشرق ، وفى الاستقلال والتابعية ، وفى مجلس المبعوثين ، يندّد فيها بسكوت السوريّين قومه عن ظلم الآستانة واستخفافها بهم ، وهو يقول فى بعضها :

« وأنا تحت سماء الإنصاف على أرض الراحة ، بين أهل الحرية ، أسمع ألحاناً فى مجالس العدل ، فأذكر أنين قومى فى مجالس الظلمة ، وتحت سياط الجلاّدين فأنوح نوح الثاكلات ، وأرى علائم النعمة فى معاهد المساواة ، فأذكر شقاء سربى فى ربوع الظلمة فأذرف الدمع ممتزجاً بسواد القلب فأكتب به إليهم . »

وفى هذا الكلام حنين المواطن وإشفاق الحرّ ، ومحبّ العدالة ، فالشاب يتحرق حين يذكر موقع قومه بين الأمم ، وظلم المستبدين ينصبّ عليهم ، فينادى يا لثارات الضعفاء ، ويتألم لمصادرة الصحف وإلغاء الجرائد الداعية إلى الحق وإبعاد كل ناطق بالصدق ، ويتوجّه بكلامه خاصة إلى أهل مصر ، فقد أخرج منها ، وأبعد عنها مكرهاً مرغماً . وهو أبداً ينتظر المعجزة ، ويقول إنّ مصر أرض المعجزات . ويندّد بالشعب أن يسكت على ضيم ، ويُنادى بالثورة ويعيد القول فى الثورة الفرنسية وفى الحديث عن الحرّية . وكلامه كله فى استنهاض الشرق على طريقة جمال الدين الأفغانى فى « العروة الوثقى » ، وكله فى التنديد بالقاعدين ، وتحريك الهمم الخامدة والنفوس الساكنة ، فيقول عن العرب :

« ومن سمعهم يقولون لأميرهم إنّ رأينا فيك عوجاً قومناه بحدّ السيوف يعجب من رضاهم بفساد الأحكام ، وصبرهم على التواء الحكام . ومن وقف على

شروح ابن رشد ، ومطالعات ابن سينا ، وخواطر ابن جبير ، وتقارير الغزالى ، يندهش إذ يلقاهم مقتصرين من العلم على ما يجلب خيراً ، ولا يدفع ضيراً ، يعقدون مذاهبهم فيه بالأوهام ، أو بأضغاث أحلام ، أو ينيطون أسبابها بالسماء فيخطئون من حيث يريدون الإصابة » .

وهذا كلام جميل يشبه أقوال المصلحين الزعماء وقادة الأمة ، وكتاب الطليعة جعله الرجل فى خدمة وطنه مصر وسوريا ، وتمنى أن يمن الله على الوطن بالحرية والخير ، وأراد أن يرشد قومه إلى سبل الهدى والنجاح . وهذه الصيحات كانت تثير فى العرب حبا للرجل ، وعكوفاً على ما يكتب ، وتنبه الغافلين ، وتهيئ للثورة المرصودة والنهضة المنتظرة ، فهو من كتاب الثورة العربية الكبرى ، ومن رجال الإصلاح ، ومن أدباء المعركة التى دارت رحاها بين الاستعمار والعرب خلال القرن التاسع عشر ، يجب أن تسجل لأديب إسحق بمداد الفخر اعترافاً بأياديه . وقد حصل فى باريس على حظوة كريمة ، فقدره الكتاب وأرباب الأقلام ، واجتمع إليه الوجهاء ، والتف حوله الأدباء والعلماء ، ورأوا فيه داعية من دعاة الشرق . وقد كان يحضر جلسات مجلس النواب الفرنسى ، فيرى كيف تدور الخطابة ، وكيف يدور النقاش ، وعرف الحرية التى يتحلى بها هؤلاء المتكلمون والكتاب ، والجرأة التى تنطلق بها أفواههم ، فزادته إيماناً بموقفه ، واحتراماً لخطته ، وأصبح يرى نفسه فى جملة الكتاب العالميين الذين يناضلون فى سبيل حرية قومهم واستقلال وطنهم . بل كان يكتب فى الصحف الفرنسية نفسها مدافعاً مناضلاً صريحاً جريئاً ، فاحترمته الصحافة والأقلام ، واشتهر بينهم ، وقد قيل إن فيكتور هوغو قال إثر انصراف أديب عن مجلسه « هذا نابغة الشرق » .

وأفاد الشاب وهو فى الرابعة والعشرين من أدب الغرب ، فراح يقرأ لأدباء الفرنسيين ، ويستمتع بثقافة واسعة عريضة ، كما أفاد من أدب العرب حين دخل دار الكتب الوطنية فى باريس ، ورجع فيها إلى آلاف المخطوطات العربية التى سكنتها منذ عهد ريشيلو . وانتفع بها ونقل منها فقرات إلى مقالاته

وكتبه . ولكنه لم يكن يلتفت إلى هواء باريس وبردها ، وهي شديدة الاختلاف عن بيروت والقاهرة ، وقد هبط ميزان الحرارة فى تلك السنة إلى درجة الثلاثين تحت الصفر ، ونال البرد من صدره فأصيب بعلة الصدر ، واضطر إلى العودة ، فآب إلى شمس بلاده وصفائها ونقاء جوها ، ولبث فى بيروت مصدوراً ، ولكنه راح يحرّر جريدة « التقدم » فقد تسلمها ثانية من صاحبها ، وكانت له فيها كتابات رائقة وفصول شائقة ، وقد دخل فى معركة قلمية مع الآباء اليسوعيين حول « التعليم الإلزامى ومجانية التعليم » استشهد فيها بما رآه فى باريس وما عرفه عن التعليم هناك .

وأقام الرجل سنة فى بيروت ينتظر تغير الأحوال فى مصر ، فتبدلت الوزارة المصرية أواخر سنة ١٨٨١ ، فدُعى إليها ، وعين ناظراً لقلم الإنشاء والترجمة فى نظارة المعارف ، وعين كذلك علاوة على وظيفته الأولى كاتباً لأسرار مجلس النواب . ولكنه رغم قيامه بأعباء المهمتين طلب أن يصدر ثانية جريدته « مصر » فرخص له بذلك ، وكان يكتب القسم الأكبر منها ، لأنه ألف الصحافة وألفته ، وتزوج الكتابة فلم يطلقها ، وعاش صديقاً للقلم يبثه آراءه فى الإصلاح والخدمة الوطنية والأدب الرفيع . ويبدو أنه حظى عند عزيز مصر ، وأنه نال بذلك رتبة رفيعة تسلم براءتها منه يداً بيد . وأثار ذلك حفيظة الحساد وهم يقفون حسدهم على الرتب والنياشين فحسب ، فحاولوا أن يحولوا بينه وبين خديو مصر وأن يفسدوا الجوّ بالدسيسة والوشاية قبل أن ينال الرتبة ، فكتب مقالة فى الجاسوسية كان لها فيما قيل وقع كبير ودوّى عظيم .

وقامت الثورة العرابية فى مصر ، وكان من أصحاب الدعوة إلى الاعتدال فعاد إلى بيروت فى جملة المهاجرين إلى سورية . وبعد أن احتل الإنكليز الإسكندرية ، رجع أديب إسحق فى التماس شأنه الأول ، ولكنه أودع السجن بضع ساعات ، وأبعد إلى بيروت سنة ١٨٨٢ ، فتولى تحرير جريدة « التقدم » للمرة الثالثة ، وأنشأ فيها مقالات شديدة الوقع كثيرة الحماسة ، تشبه فى أسلوبها ما عرف عنه ، فارتفع شأن الصحيفة ، وتهافت الناس عليها من جديد ، وقد

كان يكتب فى الأخلاق والطباع والأدب ، ويتحدث عن شعراء لبنان وعن أدباء الغرب ، فتقرأ له فى الشاعر « خليل الخورى » كما تقرأ له فى الكاتب السياسى « أميل دى جرردين » .

وقد طبع خلال هذه الفترة روايته « الباريسية الحسناء » وهو مما عرّبه أيام الصبا ، فجاءت فى لغة جميلة وعبارات بينة محكمة .

واشتدت عليه علة الصدر ، فأشار عليه الأطباء بالذهاب إلى القاهرة مستفيداً من ملاءمة هوائها لصحته ، فالتمس الإذن فى الرجوع إليها ، فأذن له ، وحلها فى موضع الحب والتجلة ، أياماً قليلة ، ثم انصرف إلى الإسكندرية فأقام أياماً فى محطة الرمل التماساً للعافية ، ولكنّ الأطباء أحسوا باستفحال الداء وعجز الدواء ، فأشاروا عليه بالعودة إلى بيروت ، فأطاع الرجل ، وذهب إلى مصيفه « بالحدث » فى جبل لبنان سنة ١٨٨٥ ولكنه بعد ثلاثين يوماً فيها لفظ أنفاسه ، وقضى وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، فى ربيع الحياة ، لم يذق فيها غير النضال والعمل والجد والسعى .

وقد وقع فى يوم وفاته أن امتنع الكاهن الذى انتدب للصلاة عليه عن مرافقة الجثة وإدخالها البيعة ، طالباً إلى أبيه الثاكل أن يوقع بخطه أن ولده عاش كاثوليكياً ومات كاثوليكياً . وتلك دسيسة من خصومه وأعدائه وقد عجزوا عن الانتصار خلال حياته فعمدوا إلى حربه بعد مماته وهو جثة هامدة ، بعد أن سكت لسانه الفياض ، وقلبه الجرىء ، وقلمه السيال . ولكن العقلاء دفعوا الفتنة عن جدث الراحل وأباحوا للكاتب المناضل أن يدخل عالم الأبدية — كما يقول مارون عبود — . وهكذا ضمّت قرية « الحدث » جسدين ناضلا وتحملا وكتبا وألفا فرفعا للعربية منارة ، وهما أديب إسحق وأحمد فارس الشدياق .

ولكن هذا الشاب الذى ناضل كل حياته ، وتنقل من دمشق إلى بيروت ومنها إلى مصر ، ومن مصر إلى باريس يحمل سنانه بيده فى معركة الحرية

والتقدم والرقى والاستقلال كان أبعد من زعيم سياسى وأكثر من كاتب صحفى فقد فهم الأدب على أنه رسالة مقدسة دافع عنها ورسم لها الحدود ، وخطّ لها القواعد ، وفصل فى أمر الخطابة والكتابة والإنشاء ، وحاول أن يكون قدوة لغيره فى التعريب فكانت منه مسرحيات وروايات ، وصفحات فى رسم الرجال وكتابة السير فملأ الصحف فى التعريف والتاريخ والوصف ، وفى الخطابة فوقف على المنابر مرتجلا كالدرر ، مرتلاً كالنغم الجميل فى الجو البديع والدنيا الساحرة .

وقد نشأ أديب والكتابة العربية تحاول أن تجد لها صورة للمستقبل . فقد كانت حائرة بين السجع الركيك المتكلف ، وبين الأساليب الإفرنجية المائعة المترجمة المنقولة بزّيها ولباسها ، فاندفع فى ذمّ السجع وفى تحبيب النثر المطلق ، وأنشأ كتاباته على أبسط سبيل وأجمل نمط ، فقال :

« النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة وصنعة إلا ما يكون من وضع الكلام فى مواضعه ، وإيثار ما يألفه السمع والطبع منه ، فهو من هذا الوجه مقدّم على سائر أنواع الكلام ، بل هو الأصل فى الإنشاء وما سواه فرع منه فإنه طبيعى أصيل ، وما دونه صناعىّ حادث ، والأصل فى الطبيعة لا محالة . يدلّ على ذلك أنّ هذا الكلام المقفى الذى يسمونه سجعاً لا يوجد فى غير اللسان العربى ، فلو كان طبيعياً لوجب أن يكون فى جميع اللغات أو فى المعدودة منها أصولاً لا أقلّ » .

وهذا كلام صريح فى رسم الطريق للجيل ، فالإنشاء الطبيعى هو الذى يتجاوب مع النفس الطبيعية من غير تعمل أو تصنع ، لأنه كالرسم والموسيقا والتصوير تمثل الطبيعة وتقلدها من غير زيادة أو نقصان إلا فى الخيال الجميل الجامح والجملة المعطرة المجنحة ، فالعاطفة الصادقة حين تتقد فى الصدر لا تفتش عن كلام مصنوع ، وإنما تقع على الكلام الملهم الطبيعى . ولنا فى أسلوب أديب إسحق مثل واضح بل أمثلة كثيرة لما عالجه من مختلف الموضوعات ، فقد عبر به فى السياسة والوطنية والتاريخ وغيرها من فنون ، فقال يصف المستقبل :

« وإذا انقضّت صقالبة الشمال على بقايا الأناضول ، واندفعت ألمان الوسط

على فضالات البلقان ، ووقعت حيتان بريتانيا على سواحل مصر وجزائر بحر الروم ، وترامت نسور الفرنسيس على فينيقية وبلاد السوريين ، وتداعى أبناء الرومان على تونس الغرب وما يليها ، ورجعت عساكر الإسبانيين إلى المغرب الأقصى . فماذا يحل بالشرقيين وكيف يتقون البلاء وهم على ما نرى من ضعف القلوب وقوة الخلاف وتفرق الكلمة واختلال الأحوال ، ضؤلت نفوسهم وانقطعت أسبابهم ، واحتجبت عنهم سبل النجاح ، فهم فى غفلة الساذج ، وخدر السكران وكسل المهوّم لا ينتفعون بما يعلمون ولا يسألون عما يجهلون » .

وهذا الوصف للمستقبل كان بالأمس واقعاً ، لم يبلغ إليه أديب إسحق ، ولو عاش لما زاد فى وصفه جملة واحدة ، لأنه كان يستلهم المصوّر الجغرافى ، ويتحدّث قلبه على سبيل لسانه فيملى هذه الجمل التى فصّلت على قدر المعانى — كما يقول القدماء — فتحركت الجمل نفسها كأنها تتراقص فى موكب من مواكب الإلهام ، وعرائس الفكر ، تتدافع إلى الورق متماسكة متلاحقة فى موسيقا ألفها خيال الكاتب كما يؤلف الموسيقى معزوفته البارعة ، لكلّ كلمة وقع ولكلّ جملة أثر ، ومن مجموعها تكون السمفونية اللفظية ، فإذا انفردت الكلمة عن جارتها ، وانحازت الجملة عن أختها فقد زال عن الأسلوب جملة الخلق والتكوين والإبداع ، فكأنّ كل صوت من المعزوفة وحده يغنى فلا جمال ولا اتساق ، لأن الجمال لا يقاس بالعضو الواحد منفصلاً عن جاره بل ينظر إليه مع الأعضاء جملة معاً ، وليس صحيحاً أن الأنف وحده أو الفم وحده يكسبان الوجه جمالاً ولكن التناسق بين الخطوط هو الجمال ، وكذلك يكون الإنشاء وتكون الكتابة .

وإذا كنا قد أسرفنا فى الحديث عن كتابة الرجل فلأننا نجد فى هذه الكتابة سرّ عبقريته فى عصر ران عليه الإنحطاط فى التعبير والركاكة فى الكلام .. ونستطيع قبل أن نختم القول فيه أن نورد صورة ساخرة رسمها للإنكليز والأرلنديين ، أو صورة سباق الكلاب بإنكلترة ، ولكننا نحب أن نظل مع الرجل فى وضعه القومى ودفاعه عن السوريين ضد كاتب أجنبى زار البلاد

وأزرى بأهلها ، فكتب يرد عليه :

« جئتنا العام السالف زائراً أو مستشفياً ومستمنحاً من جبالنا بعض ما أصبت في وادى النيل ، فلقيتَ منا وجوهاً صباحاً تعد البشاشة للضيف فرضاً ، ونفوساً كباراً تحسب الكرامة للغريب ديناً ، وقوماً يُبدون الفضل ويعيدون ، أكارم تحسد بهم الأرض السماء ، وما تمثيل صفاتهم للناس إلا كما مثل النجوم الماء ، فحسبتَ البشاشة صغاراً ، وعددتَ الكرامة استعطافاً ، ورأيت الفضل بمرآة ما فيك من النقص ، فالتوى معناه عليك ، فعدتَ يا مؤاجر القلم ترمينا بدائك وتنسل . تقابل صفو ما وردت من مائنا بكدورة اغتيابك ، وسلامة ما تنسمت من هوائنا باعتلال روايتك » .

ولا نحب أن نمضى فى رواية ما قال لأنه يجب أن يُروى لأبنائنا كقصائد الشعر الوطنية فى الفخر القومى ، يحفظونه ويلقونه ويرددونه ، كأنه ملاحم القومية ، فقد سكب الرجل أجمل خياله فى هذا النثر ، فلما أراد أن يسجنه فى قوافى الشعر ضاقت به السبيل ولم يطق الحبس فأرسله فى النثر إرسالاً ، لأنه يحب الحرية فى العيش والقول والعمل ، ولأنه حقق فى حياته القصيرة بعض ما أراد فكان منه شعر لا يقف للنثر ، وكان هذا النثر موضع الإعجاب والتقدير ، وموضع الحديث هنا والإشارة .

خليل مطران *

يرى كثير من النقاد أنّ مطران حمل راية التجديد فى الشعر العربى ، وأنه برع فى الغزل القصصى وفى الوصف ، فكان شاعر معان لا شاعر صناعة وصياغة ، وأن عنايته انصرفت إلى معرفة الأدب الغربى يقلده ويحذو حذوه أكثر مما يقلد القدماء من العرب الفحول ، فانخفض عن زملائه البارودى وشوقى وحافظ فى السبك والمتانة ؛ ولكنه فتح فتحاً كبيراً فى صوره وألواحه وتماثيله الشعرية .

ويرى هؤلاء النقاد أن ذلك راجع إلى نشأته وتربيته وثقافته وتقلب حياته ، ونحبّ هنا أن نستعيد الخطوط الكبرى لهذه النشأة والثقافة مما يفيدنا فى عرض غزله ووصفه . فقد ولد الخليل فى « بعلبك » بعد عامين من حرب السبعين ، ولبث العالمُ يتحدّث عن الحرب الطاحنة ، والمدافع الهدّامة ، والأجساد المتساقطة ، وانتصار الألمان واندحار الفرنسيين . وسورية كانت تتصل فى كثير من أجزائها بجانب واحد من ثقافة هؤلاء المحاربين وعقليتهم ، فلها أن تهتمّ بالقوم وأن تتحدّث عن نكبتهم وأن ترهف السمع إلى تلك الأحداث ، فدارت حول الفتى أحاديث فى سهرات بعلبك وفى بيت « مطران » لا تخلو من أسى وهول ، فى بشاعة الإنسانية ومصائب الحروب .

ودرج الفتى فى هذه المدينة الصغيرة ، وهى لمن يعرفها حديقةٌ زرعت بالبيوت البسيطة ، وفى قلبها أعمدة شاهقة ركزها الرّومان فى القديم ، وخلفوا على جنباتها نقوشاً لآلهتهم ، لعلها من أجمل ما بقى من آثارها فى الشرق ، فهى منحوتة على براعة شاهقة ، تمثل إله الحرب « مارس » وعليه درعه ، « وديانا » إلهة الصّيد ، « وباخوس » إله الخمر وحول رأسه عناقيد العنب ، وإلهة العشق

* خليل بن عبده بن يوسف مطران ١٨٧١ م — ١٩٤٩ م .

وبين ثدييها تجسّم ولد ذو جناحين هو « كوبيدون » رسول الحب والهوى وعلّة القلب فى كل شاعر .

هذه الأعمدة كانت تبعث التاريخ والأسى والجمال والعظمة ، يراها الفتى إذا أصبح ويراها إذا أمسى ، قائمة إلى السماء مائلة نحو الأرض ، أو نائمة إلى الأبد ، فتلهو عيناه الصغيرتان بالجوارى ، والحُور والعنب على أطرافها ، وقلب الفتى يعبث بالتاريخ والقصص فيحلم بالحب الذى نبت فى ظلالها والهوى الذى عاش فى أكنافها . وبذلك وُلد فى نفسه عاملان عامل النحت وعامل الحبّ ، وقامت فى قلبه مشاعر القصة والحزن والكآبة .

فلما زُحزح عن « بيروت » وكليتها ويمّم باريس لَقِيَ الجمال كذلك فى كلّ زاوية ، وتنشق العطر عند كلّ شجرة ، وتعلق وهو فى الثامنة عشرة بمنابع الأدب الغربى ، يعبّ من الرومانسية السائرة ، فيعشق « فينى » « وموسه » ويحفظ من شعرهما ، ويسهر مع مسرحيات باريس فى قصص جميل .

وعلى هذا كله أصاب الفتى مرض العصر فى لبنان وهو الهجرة والرحلة ، فوقف بين « شيلى » و « مصر » ، ولكن مصر تغلبت أخيراً ، فعاد إليها ليقضى فيها قرابة خمسين سنة ، وفى برديه كآبة الماضى ، ورحلة التاريخ ، ونقوش الجمال ورومانسية الشعر . فقام فى نفسه أن يحدث حدثاً فى الأرض المضيفة ، وعزم على أن ينقل الشعر الغربى والمسرح الغربى إلى مصر ، ففكر فى أن يجعل الشعر العربى الذى ينظمه على غرار ما حفظ وما سمع ، وراح يعمل له فى فهم جديد وروح جديدة على جناحين من تصوير بارع وقصص فى الحب ، فكان منه ديوانه الأول ، أصدره سنة ١٩٠٨ وعمره ست وثلاثون سنة ، هو الذى يمثل شعره فى رأينا ، وهو الذى نقف عنده خلال هذه الصفحات لنرى إلى الغزل والوصف كيف كانا منه .

صدر الديوان « ببيان موجز » شبه فيه الشعر الذى بقى له ببقايا السفينة الغريقة والقطع السالمة من الآثار ، فأذكرنا ببقايا بعلبك . وقال إنّه لن يخشى

الخروج على المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ولكنه سيحتفظ جهده بأصول اللغة ، وردّ على من سخر من شعره العصرى قائلاً : « فيا هؤلاء نعم ، هذا شعر عصرىّ ، وفخره أنه عصرىّ ، وله على سابق الشعر مزيّة زمانه على سالف الدهر » . ورسم فى هذا البيان خطّته فقال بأنه لا ينظر « إلى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره ، وشاتم أخاه ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام » . فقضى على نظرية الجمال فى البيت الواحد ، والشاعر بالبيت المفرد ، وأراد أن يكون الجمال بجملة القصيدة « فى تركيبها ، وترتيبها وتناسق معانيها ، وتوافقها ، مع ندور التصوّر ، وغرابة الموضوع ، ومطابقة كلّ ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعور الحر وتحرّى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر » كما قال .

بهذه الصّرخة كان خليل مطران يرسم الشعر لنفسه ولجيله فيقول : « إنه شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً » . وعلى هذه الخطّة سار فى ديوانه الأول يواكب العصر والزمان ، ففشل فى بعض ونجح فى بعض ، ولكنه سار على الدّرب ، وسارت قوافلُ الشعراء مثله على الدّرب نفسه ، فى المهجر ولبنان وسورية ومصر ، لأنها أحسّت كما أحسّ بضيق المعانى ، فأرادت أن تفتح على الغرب ، نوافذها ، تطلّ على ألوان جديدة ورسوم جديدة شريطة أن تستمدّ جذورَها من عبقرية اللغة العربية وغناها وجمال طواعيتها للمعانى البعيدة المولّدة ، فهى قد أعطت أبداً على الزمان لم تمنع ولم تضنّ .

وفى هذا الديوان الأول طغى شعر القلب على كل شىء حتى قال مطران نفسه : « الحبّ ثلاثة أرباع شعرى » ولعله نظر فى شعر معاصريه فأراد أن يسدّ النقص فى قصص الحب بقصائدهم فيملأ الخالى من حافظ ويوضح الخفىّ من شوقى ، بل لعله أراد أن ينتصر لهذا اللون فى معركة الشعر ، على قصص جميل جديد .

كان فى حديقة « الجيزة » أصيلَ يوم ، فرأى فتاة تنظر فى عينى أمّها ، وتصلح شعرها فوصف منها الثياب والقوام وقال :

جلستْ تقابلُ أمَّهـــا وكأنّما ... كلتاهمـــا جلستْ قبالــة رسمها

وتناثــرتْ ضفر الفتــاة غمائمـًا   ســتَرتْ عن الأبصار طلعة نجمها
فتحيَّرت فيما تُحاول وهي قد   أعيت بلا مرآتِهــا عن نظمها
فدنتْ تُحاذى أمَّها وتناظرتْ   بعيونِهــا وجلَتْ سحابَة همها
وكـــذا الفتاة إذا أضلَّت ساعةً   مرآتَها نظرتْ بعينَىْ أمهــا

وأحبّ أن نتلفتّ إلى الرقّة فى الوصف والتغزل ، والتخلص ، لقد أعارها الخايل هنا من شعره مرآة جلت وصفها ؛ وهو فى الثانية والعشرين ، وأنامله ما تكاد تقوى على صنع المرايا ورسم الألواح ، فإذا أمسكتبازميل النحات والمثّال، طمحت إلى مثل ما صنع الرومان فى بعلبك .

ودرجت السنون وإزميل الفتى ينحتُ من قصص الحب معهودة ومرويّة ، كأنه ترجمان القلوب وبستان الأحبة ، يسيل دمعه حيناً فى فرح ، وحيناً فى أسى ، فهو يبثُ شكوى المحبّين ، ويفضح أقاصيص المغرمين ، ليخفى وراءها هواه وآلامه . فكان يقلّد الرومانسيين ويتبع « ألفريد ده ڤينى » حين يتحدث هذا الشاعر عن « بنت يفتاح » وقد نذر أبوها قرباناً أن يضحى بأول شخص يلقاه حين يعود منتصراً ، فإذا بابنته تخرج أول من يخرج للقائه ، أو حين يتحدّث « فينى » عن الحبّ فى قلب موسى الكليم عليه السلام ، بل لعله يتشبه بليالى « موسيه » الأربع ، والألم ينبع من نفس الشاعر ، والآلهة تحثّه على الصبر أو أنه شبيه بقصائد « موسيه » فى الصفصاف ، ونامونا ، وورولا ، وكلّها تتغنى بالحب الباكى والغرام الحزين .

وعلى متن هذه القصائد الغرامية التى نسجها « مطران » ركب إلى ساح الشعر الغربى ، فانتقل من ميدان المقطّعة الغزلة أو مطالع النسيب التقليدية إلى قصائد جعلها برمّتها لهذا الغرض ، وصف فيها الهوى بين الفتى والفتاة وترجم ما كان بينهما من لقاء ، وأحداث ، وعواطف ، ومشاعر . فأصبح الشعر على يديه طامحاً إلى أن يجارى أدب القرن التاسع عشر فى فرنسة . وبذلك رسم مطران قصص الهوى فى نفوس غيره ، فوصف ضلوع الأحبة وأفئدة العشّاق التعساء وقام للشعر الرومانسىّ فى جوى وحرقة وألم . واستعار قلوب الناس ليرسم ما فى قلبه.

وألحّ مطران على ذلك حتى كانت قصة حبّه سنة ١٨٩٧ ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، فنظم قصيدة جعل عنوانها « حكاية عاشقين » وقدّمها بقوله « تتّبع الناظم وقائعها ، وكان فيها ترجمان ضمير العاشق ولسان فؤاده » . وهذه القصيدة استهوت النقاد ، واستحوذت على إعجابهم ، فتحدّثوا عنها ، لأنهاحقاً أطول قصائد العشق فى الأدب العربىّ ، بل إنها مجموعة مقطعات وقصائد يتغير فيها الوزن والقافية ويظلّ المعنى متلاحقاً متتابعاً ، كأنها مسرحية شعرية لمتكلم واحد (مونولوج) . وصف فيها مطران رواية الحب منذ اللقاء حتى الختام ، فيها حديث القلب ، ونعيم الحب تحت ضوء القمر أو فى ظلّ الشجر ، أو على النيل المبارك ، وفيها الغضب والرضا ، والصّحة والمرض . وقد خُتمت بفاجعة ، لأن الفتاة سافرت إلى الشّام ومرضت وماتت . ومرض الفتى حتى لكأنه رسم محيل أو بيت عتيق شيّد فيه لعابد ورع مقامٌ .

ثم وجد المحبّ منديلاً بين ملابسه أبلاه مرور أعوام لم يسلم منه إلاّ الموضع الذى طُرّز عليه حرفان مشتبكان من أسم حبيبته ، فاستبكى وراح يغنى شعراً وختم القصة بدمعة على قبرها ونجوى فى ذكرها .

وهذه القصيدة المتقطعة فى أوزانها وقوافيها وقعت فى ديوانه على ست وثلاثين صفحة ، فكانت قصة الحبّ الطويلة ، هى قصة « الخليل » نفسه أثرت فى حياته وهزت كيانه فيما قيل ، وبدلت من شخصيته ، فعاش أعزب لم يتزوج بعدها أبداً ، وقد قالوا إنّ هذه الصدمة العنيفة كانت نهاية حبه ختمه حبها ، فماتت عذراء ، وقضى عمره شهيد الحب ، فكأنهما من أشخاص مسرحيات شكسبير .

وبعد أن عرفنا القصة نحب أن نستمع إلى صور قليلة منها ، مثالاً على أسلوبه فى الغزل القصصى أو قصة الغزل ، قال يرسم أثرها فى نفسه :

إنّ لى فى الغيب إلْفاً قد نأى عنى نَفورا
حجبتْ منه اللّيالى عنىَ الصبحَ المنيرا
منيةٌ قد أصبحت فى خاطر الدّهر ضَميرا

فارقَ الدُّنيا وأبقا نى جزوعا مُستطيرا
أبتغى السيرَ إليه حيثما بات قريرا

* * *

فإذا أدركتُه أطفأ تُ من وجدى السَّعيرا
واتحدنا فاغتدينا مزج روحين سُرورا
نفحة إنْ هى إلَّا نسمة ضمَّت عبيرا
أو شعاع إنْ تبينت فنورٌ ضمَّ نُورا

ويعفّ الحبيب عن لقاء غيرها على كثرة ما وقع له من فرص ؛ فيقول مناجياً منديلها :

وكم عرضت لى غانيات فعفتُها وصنتُ ضميرى واللسان المشبّبا
وكم بادٍ وافيتُه متلهيـًا فغادرتُه أدمى فؤاداً وأكأبا
وما زال هذا الحبّ فىّ مؤيداً مكيناً نبت عنه السنون وما نبا
وما زلتَ يا منديلَ «ليلى» ملازمى تنشقنى الذكرى نسيمًا مطيبًا
أصابك ناب قارض من فم البلى إلى موضع فيه اسمها فتجنبا
وغال فؤادى البينُ إلّا بقيةٌ قضى الحبّ أن أحيا بها فأعذّبا

وسافر « خليل » بعد هذه المأساة إلى الشام سنة ١٨٩٩ ، ليستشفى من جراح قلبه وجسمه ، ويرى من جديد مدينته بعلبك وجارتها زحلة « جارة الوادى » فلما عاد إلى مصر أقبل يستمع إلى قصص الحبّ والهوى ، يرى فيها صورة حبه ونشيد أيّامه ، فيصوغها ألحاناً يبثها أله وبكاءه ، فهو مشوق حين يلتى العاشقين . وكان أن وقعت إليه قصة فتاة أحالها الحبُ من الطهر إلى السقوط فنظم فيها ، وفصّل فى حكايتها .

وهذه الفتاة « فلاخيّة » قدمتْ مع المهاجرين ، وكان أبوها وإخوتها فى فقر مدقع ، فمضت تستجدى الأكفّ من السابلة لتعول أسرتها ، فلما أصبحت صبّية جميلة دفعها أبواها إلى حانة ترتزق منها ، وتصيب عيش أهلها ، فراحت

فى هذا القبو العفن تشرب وتسقى حتى نصبَ لها شابٌ مخادع حبالَ الصيد ، ومنَّاها بالزواج فأطاعته فى الهوى حتى كان له منها ما أراد ، وحملت جنى غير مشروع ، فتركها ولاذ بالفرار . وقاست بعده آلاماً مبرحة من ذلّ وفقر وعار ، فدفنت ضميرها وقضت على جنينها الشهيد ، ونسيت الذى كان من شرفها ، وغدت فى خمّارتها الجديدة ، بؤرة للسقوط ، لتشهد العالم على شرور الرجال وضعف النساء .

وهذه القصّة ليست جديدة ، لأنها قد تقع فى كل ساعة بالشرق والغرب ، إنها قصة آدم وحواء ، جنت حواء فيما قالوا مرّة ، فراح آدم يجنى فى كلّ سانحة مرات . ومسارح باريس مشغوفة حبا بهذا اللون ، شهدها « مطران » وفهمها ، وتأثر « بغادة الكاميليا » وأخواتها فيما تأثر به .

والمهمّ أنّ « مطران » نظمها فى قصيدة طويلة كذلك استغرقت ثمانى عشرة صفحة متصلة لا انقطاع فيها ولا عناوين بينها ، على بحر واحد ، وروىّ مختلف ، فى أبيات مخمسة جعل عنوانها « الجنين الشهيد » وقصّ فيها حكاية الحب ، فكانت من الغزل القصصىّ البارع ، وكانت القصيدة المدوّية التى دفعت الشاعر إلى الشهرة ، قرأها نجيب الحداد فقال : « إن هذا المذهب فى اعتقادى هو مذهب الشاعر فى المستقبل » وقال صاحب مجلة «سركيس» : « إنها إلياذة الشعر الحاضر ، ومعلّقة النهضة الشعرية العصرية » . وذلك لأن الشاعر اعتمد على وحدة القصيدة ، فكان كالغربيين سواء بسواء ، حتى لكأن قصيدته مترجمة أو منقولة . وأنها على بساطة فى الأسلوب وسهولة فى اللفظ ، ولو أنها لا تقف للشعر الجزل الذى كان يرسله شوقى وحافظ .

ومرد النجاح عند « مطران » فى هذه القصائد القصصية للغزل هو هذا الوصف الذى كلف به الشاعر ، وطاوعته ريشته فى رسمه ، فصور الحب تصويراً ، وكان فى هذا الباب الشاعر الوصّاف . فكل غزله يعتمد على القصة ، والقصة تعتمد على الوصف والتصوير ، وقد كانا من أكبر الأسباب فى شهرة مطران .

* * *

إن الوصف كان على لسان شاعرنا تصويراً للمنازع والمشاعر والعواطف ، وكان تصويراً للمشاهد والجمادات ، تأثر فيه الغربيين ، وشغف حباً بالألواح التي خلدها شعراؤهم فأراد أن يكون فى أدبنا رسام المشاهد الكاملة حتى لقد وازنه النقاد بابن الرومى على بعد ما بينهما من أهداف وأغراض .

والحق أن الخليل اعتمد على الوصف فى مديحه وفى رثائه وفى قصص الحب ، فوصف الرجال أحياء وأمواتاً ، وصفاً انتزعه من صميم الحياة ، فى خيال قوى وشعور واسع ، وحيويّة فياضة كانت ينابيعها من صباه ومن رحلته ومن ثقافته ونفسيته .

فخلّف منذ صباه مشاهد فى الوصف جميلة ، لعله استقاها من صور الصبي ونقوش بعلبك ، فسعت يداه إلى نحت تمثال أو لوحة لنابليون الأول حين انتصر ، ونابليون الثالث حين انكسر ، وكان فى هذه القصيدة الفتية يرينا أول محاولة لوصف القتال ، والفناء ، والبشرية المتحاربة فقال فى نابليون :

المجد رهن إشارة بيمينه والنصر بين يديه كالمنقاد
والفخر فى راياته متمثل وطلائع العقبان فى ترداد

إلى أن قال فى الرصاص والقنابل :

تلقى الرجال على الثرى قتلى كما يلقى السنابلَ منجلُ الحصّاد

وأتخذ سبيله إلى صور العقبان كما كانت فى شعرنا الحمدانى ، وصور السنابل كما هى فى الشعر الغربى ، ووصف الجيشين يلتقيان ، والهتاف يعلو ، والآلات تتجاوب ، والنار فى كل مكان كالشهب الضخام والردى غاد وآت ، والجراح تسيل ، والأمهات يبكين الأولاد ، والحزن يعمّ ، فكان « مطران » بهذا إنسانياً يهتمّ بالمتحاربين لا بالقادة فحسب ، وينظر إلى الشعب وما تكلفه الحرب حين الانتصار والانكسار من ألم وفقد وخراب . وهى نظرة بعيدة لشاب ناشىء .

فلما أراد أن يصور آثار بعلبك ، ويرسم الحجر ويستذكر طفولته وعهوده حين يلهو بهند وتلهو به هند ، وصف حاله وحالها كالفراش يجريان فى الرياض ثم يلتقيان على قبلات طويلة تحاكى الندى فى الأسحار ، ثم انتقل إلى الحجر والجماد فقال :

صنعوا من جماده ثمراً يُجْـ ... نى ولكن بالعقل والأبصار
وضروباً من كل زهر أنيق ... لم تفتها نضارة الأزهار
وشموساً مضيئة وشعاعاً ... باهرات لكنها من حجار
وطيوراً ذواهباً آيبات ... خالدات الغدو والأبكار
فى جنان معلقات زواه ... بصنوف النجوم والأنوار
واسوداً يخشى التحفز منها ... ويروع السكوت كالتزآر
عابسات الوجوه غير غضاب ... باديات الأنياب غير ضوارى
فى عرانينها دخان مُثار ... وبألحاظها سيول شرار

وكثيرة هى ألواح الوصف عند « مطران » فى هذا الجزء الأول من الديوان ، ما نستطيع أن نستعرضها كلها . فهناك قصيدته فى « فتاة الجبل الأسود » وفى المساء والغروب تحمل ألواناً مختارة من الشعر ، ولكننا نحب أن نختم بصورة عن مصر تقف لصورته عن بعلبك ، وصف فيها بناة الأهرام فقال :

إنى أرى عدّ الرمال ههنا ... خلائقاً تكثر أن تعدّدا
صفر الوجوه نادياً جباههم ... كالكلأ اليابس يعلوه الندى
محنية ظهورهم خرس الخطى ... كالنمل دبّ مستكناً مخلدا
مجتمعين أبحراً منفرعين ... أنهراً منحدرين صُعّدا
أكل هذى الأنفس الهلكى غدا ... تبنى لفان جدثاً مخلدا

وهذه الأبيات على ضآلة موسيقاها ، تلزّ بالصور العالمية للشعر ، ففيها براعة الأزميل عند المثال ، وفيها نفسية الشاعر الإنسانى ، وقلب الشاعر الأشتراكى ، وعقل المواطن الصالح . ذلك لأنها تأسى لأسى الشعب ، وتحنو

عليه ، فلا تقف نفسها على مدح أمير أو تعزية وزير أو رثاء كبير ، وإنما تتلفت إلى البشر لتصنع منه تمثالاً ناطقاً ، يصوّر الألم والحزن والبشرية المعذبة منذ ولدت إلى أن تموت .

وهذه الأبيات جزء مما خلّف « مطران » لأدبنا ، صرفته الحياة ومشاغلها عن الأتقان فيه والتجويد ، فلم تكن مهنته الشعر فحسب ، وإنما كان يسترق الوقت من وظائفه فى الزراعة والاقتصاد والأوبرا ، ومن أوقات مرضه ليصوغ هذا الشعر الأنسانى الذى رفعه إلى مواضع الإكبار والذكرى الخالدة ، فقد كان « مطران » أديباً بروحه وخياله مخلصاً لفنه وأمته بشعره ونثره ، محباً للتاريخ فى ديوانه وفى تصنيفه ، عبر عن ذلك فى حياته الخاصة وفى شعره الكثير فكسا حياته وأدبه أجمل أبراد الحياة ، واستحق منا أجمل ما تهب الحياة خلوداً على الدهر ، وعرفاناً على الأيام .

كامل الغزى *

ولد أبوه الشيخ حسين بن محمد بن مصطفى البالى بمدينة « غزّة » فى أسرة اشتهرت بالعلم والفضل ، والوجاهة فى ميادين الزراعة والتجارة ، فتوجه إلى الدراسة فى الأزهر ، وأخذ العلم عن الشيخ « عيّاد الطنطاوى » الذى سافر معلماً إلى روسيا ، ولبث فيها ، وتزوج ، وقضى هناك على شهرة واسعة . ولما عاد « حسين » إلى بلده ضاق بحسّاده ، فسافر إلى « أرواد » ثم إلى طرابلس الشام واشتهر بفضله فيها . وكانت حلب يومئذ بحاجة إلى عالم كبير بعد أن مات كثير من علمائها بحادث الطاعون ، فدعاه أحد وجهاء حلب إليها ، فقدم حوالى سنة ١٨٤٦ ، وبنى له هذا الوجيه مدرسة تجاور « جامع السكاكينى » فى محلة « القصيلة » من أحياء حلب المتطرفة ، وجعل فيها ست حجرات ، واحدة منها لإقامة الأستاذ .

وراح الشيخ « حسين » يغدق من علمه ، ويدّرس ساعات النهار بغير كلل ولا ونى ، يعالج علوم الشريعة والحديث والمنطق واللغة ، وخاصة الأدب العربى فقد كان له ديوان من الشعر ، وصل إلينا بعضه يشبه فيه شعر ذلك الزمان . فأحدث الرجل نهضة فكرية وأدبية فى مدينة حلب ، ولكنها مع الأسف كانت مدة قصيرة جداً فقد قضى بعد ستّ سنوات من وصوله إلى حلب سنة ١٨٥٣ ، فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وسنّ ابنه « كامل » لا يتجاوز تسعة أشهر .

وإذنْ فقد ولد « كامل البالى » واشتهر بالغزى كأبيه ، سنة ١٨٥٣ فى

---

* كامل بن حسين بن مصطفى البالى ١٨٥٣ م – ١٩٣٣ م .

مدينة حلب ، وعرف اليتم قبل أن يفقه الأشياء ، فترعرع فى أحضان اليتم كما ترعرع غيره من عظماء الرجال ، ولم يخلّف له أبوه شيئاً يعيش منه ، فقد انصرف إلى العلم وأنفق فى سبيل طلابه نور عينيه وصحته وماله ، ولكنه ترك له داراً متواضعة وهبها له هدية أحد الوجهاء وهو « محمد على بيازيد » رئيس محكمة التجارة .

وتلفت أصحاب أبيه إلى الطفل وهو فى التاسعة من شهوره ، فحنوا عليه حنوّ الآباء ، وأحاطوه بالرعاية ، فتزوّج أحدهم هذه الأم المفجوعة واحتضن البيت ، فكان من ذلك أخوه « الشيخ بشير هلال أو الغزّى » . ونشأ الطفل فى كنف هذا الزوج ، وفى رعاية هؤلاء المخلصين لأبيه الفقيد الذين كانوا يبذرون بذور الإحسان فى هذه التربة الخصبة الصالحة التى آتت ثمارها علماً كبيراً وفضلاً عظيماً فيما بعد .

ولما بلغ الطفل سنّ الدراسة دخل الكتّاب وما كاد يتمّ العاشرة حتى حفظ القرآن ، ودخل بعد ذلك « المدرسة القرناصية » فى حىّ « الفرافرة » فتابع فيها دروسه الابتدائية والثانوية . وفيها حفظ أكثر من عشرين ألف بيت — فيما يروى الأب جبرائيل رباط — منها ألفية ابن مالك ، والشاطبية ، وعقود الجمان للسيوطى . وهذا الشعر التعليمى ، على ما فيه ، صقل ذهن الفتى وروّج للشعر عنده ، وغرس فى قلبه حبّ النظم ، وقرّبه إلى الأدب ، ودفعه إلى القراءة والفهم . وانطلق الفتى بعد ذلك إلى العلوم العالية فدرس التفسير والحديث النبوىّ والفقه ، وأتمّ ما كان يطلب لزمانه من هذه الفروع ، وهو لما يتجاوز السابعة عشرة من عمره . وقد ذكر مترجموه أنه أخذ العلم عن الشيخ محمد الكحيل والشيخ مصطفى الكردى وسواهما ، فكان موضع تقديرهم فى هذه العلوم وهم أعلام البلد لأيامه .

واتصل الشاب بأصدقاء أبيه ومعارفه ، وبلغ إلى مجالس والى حلب آنذاك وهو « محمد رشدى باشا الشروانى » ، وكان قبل ذلك رئيساً للوزراء فى الأستانة ،

فأعجب الوالى بذكائه ومعرفته ، وقرّبه إليه ، وشجّعه ، ورأى فيه نجابة ونبوغاً لم يرهما عند غيره . فلما نُقل الوالى حاكماً للحجاز اصطحبه معه وجعله إماماً لتلك البلاد . فرأى الشاب الديار المقدسة ، وعرف بلاداً بعيدة واسعة يطمح إلى معرفتها كل شاب عربى ، فهى مهد العربية ومهبط الوحى ، وأصل كثير من القبائل ، وفى كل ركن منها تاريخ قديم وإشارات إلى الأدب ، فتفتح عقله وتنبه ذهنه ، ولكنه لم يطل مقامه هناك لأن الوفاة أدركت ذلك الوالى الشروانى ، ففقد ركناً عظيماً من أركان عزّه فى الشباب وعاد أسيفاً إلى حلب ، بعد أن قضى فى جزيرة العرب ثمانية أشهر فحسب .

ولما رجع « كامل الغزّى » إلى حلب استأنف دراسته ، ودخل « المدرسة العثمانية» وظل فيها حتى سنة ١٨٧٥ ، وقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره تقريباً وبعد سنتين تزوّج ، ولكن الزواج كان فاشلاً ، فاضطر إلى أن يطلق بعد أثنى عشر عاماً ، وأن يتزوج ثانية ، ومن هذه الزوج الثانية ولد ابنه « حسين فيصل » سنة ١٩١٩ .

وخلال هذه الفترة بين الزواج والطلاق دخل الشاب الغزّى فى وظائف الدّولة ، وتقلب فى المناصب ، فأصبح ترجماناً لمطبعة الولاية ، ثم عضواً فى محكمة التجارة ، ثم عضواً فى غرفة التجارة ، ثم رئيساً لهذه الغرفة ، ثم رئيساً لمجلس بنك الزراعة ، ولبث بعد ذلك عشر سنوات عضواً فى المجلس البلدى بحلب . والذين يرجعون إلى سيرة « عبد الرحمن الكواكبى » صديق الغزّى ورفيقه وزميله ، يرون أنه دخل مثل هذه الوظائف ، وتعلق بها ، ودرج من واحدة إلى واحدة ، فقد كان فى مثل سنه وكان بلديّه ، وكانا يتبادلان الأسرار فى القيام ضد الدولة العثمانية وفى السعى إلى الحرية ، والكواكبى قرأ على صديقه الغزى كتاب « أم القرى » ونصحه هذا بأن لا ينشره فى حلب ، وخاف عليه مغبة الفساد والجواسيس ، وحذّره من الأذى الذى يناله إذا ضبط عنده ، ونشر الغزى ذلك بعد موته فى مقالة طويلة كانت لنا مرجعاً ومنارة [1] .

---

(١) ارجع إلى كتابنا « عبد الرحمن الكواكبى » فى سلسلة نوابغ الفكر العربى ، دار المعارف بمصر ص ٢١ – ٢٢ .

ولسنا هنا بصدد الموازنة بين الرجلين ، ولدا فى عام واحد تقريباً ، ودرجا على العلم ، ونشآ معاً فى حلب ، وذلك لأن كلاً منهما اختطّ لنفسه خطة خاصة ، فقد كان أحمد الكواكبى والد عبد الرحمن تلميذاً للشيخ حسين الغزّى والد كامل الغزى ، جمعت بينهما صلات كثيرة ، وأسباب متعددة ، فلم يطق عبد الرحمن الكواكبى البقاء فى حلب وهرب إلى مصر ، فنشر فيها كتابيه ومات بالقاهرة فى سنّ الخمسين .

وكذلك كان « كامل الغزّى » فقد ملّ الوظائف والمناصب كما ملّ صاحبه الكواكبى ولكنه لم ينطلق إلى مصر ، وإنما آثر أن يتلفت إلى التأليف فى خدمة بلده ووطنه ، فاعتزل هذه الأعمال كلها ، وانصرف إلى إنشاء تاريخ حلب فى مؤلف ضخم سمّاه « نهر الذهب فى تاريخ حلب » أنفق فى سبيل جمعه وتأليفه سنوات طويلة من عمره ، فقال فى مقدمته [1] :

« وبعد ، فإنى منذ زمن بعيد أُعانى جمع هذا الكتاب وأصرف على تأليفه من نقد عمرى وجوهر مالى ما يُستكثر مثله من أمثالى . وقد تتبعتُ من أجله العدد الكثير من الكتب التاريخية وغيرها ، وتصفحت زهاء مائة مجلد من السجلات المحفوظة فى المحكمة الشرعية ، وتكبدتُ عناء زائداً فى الأطلاع على دفاتر الدوائر الرسمية ، وعلى ما هو مدّخر فى المكتبات الخيرية والأهلية من المجاميع والرقاع الخصوصية التى سطّرها ذووها فى بعض شؤون تاريخية ذات أهمية عظيمة فى وقتها ، فكنت لا أصل إلى ما يهمنى أمره من بعض هذه المواد إلاّ بعد عناء شديد ونفقة باهظة . وكنتُ فى أثناء استقصائى أخبار الآثار أضطرُ فى بعضها إلى تحمل مشاق الأسفار لأتمكن من الاطلاع على حقيقة حالها ، وأكتب عنها كتابة تحقيق لا كتابة تقليد وتلفيق » .

والواقع أن الذى يميز هذا الكتاب من سواه أن صاحبه أعمل فيه الروية والعقل والنقد والتمحيص والتثبت والتبويب أكثر مما يعمل النقل والتقليد والرواية على علاّتها ، فكان تاريخاً على الطريقة الحديثة سبق به زمانه وكفى المؤلفين

---

(١) طبع من التاريخ ثلاث مجلدات بحلب من سنة ١٩٢٢ — ١٩٢٦ فى ألفى صفحة تقريباً .

بعد زمانه مئونة التأليف فى مثله ، فقد نظر فى المصادر العربية القديمة ، واستطاع أن يعرف ما فى المصادر الأجنبية عن سبيل أصدقائه من الفرنجة المقيمين بحلب أو المسيحيين المطلعين على خزائن الغرب فى هذا الموضوع . وكان الرجل متسامحاً أشد التسامح ، يأخذ عن المصادر المختلفة من أى جهة كانت .

والمهم أن « نهر الذهب » جمع ألوان البحث عن تاريخ حلب فى صنائعها ومدارسها ومذاهبها وأديانها ، وعاداتها ، وحياتها الاجتماعية فى مختلف أحيائها القديمة والحديثة ، رسمها الرجل بريشته ووقف عليها بنفسه فكان مؤرخاً حقاً ، وكان أديباً وصافاً جامعاً لألوان الحياة فى هذه المدينة ، مما يخلّد على الزمان ويصبح فى القريب القريب تاريخاً عظيماً يتداوله النقاد كما يتداولون تواريخ حلب القديمة المؤلفة فيها . بل إنهم يجدون فيه ما لا يجدون عند هؤلاء القدماء ، فقد كانوا لا يكترثون إلاّ قليلاً بالعادات والتقاليد ورسوم العيش ، وخاصة ما راج عند الشعب وجرى عليه الناس فى ولائمهم وأفراحهم وأحزانهم ، وليس فى القدماء من تلفت إلى الأزياء والملابس والأعياد والصناعات وحال الأسواق والمعامل اليدوية والصناعات الصغيرة وأرباب الحرف فى الخانات وفى القيساريات كما تلفت كامل الغزى . فكأنه تنبّه إلى التاريخ الشعبى أو الأدب الشعبى وإلى الفولكلور — كما يسمونه اليوم — قبل أن يسمع بالحديث عن ذلك .

فإذا وصف الغزى نهر حلب وميادينها وحاراتها وآثارها ذهب إليها بنفسه ، ورسمها بقلمه كأنه يصوّر ، أو يضع اللّوحات ، أو يكتب المذكرات فيورد رأى القدماء ، ثم يقف منهم موقف المؤرخ الناقد ، ويكمل الصورة والرسم ويصبح مؤرخاً لبلده وأحداثها ، وخاصة تلك الأحداث التى وقعت منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى أيامه ، وهى حقبة غامضة أشدّ الغموض ، لم يكتب فيها مؤرخ منصف كما كتب الغزى ، فقد كان يجيد التركية والعربية ، وكان يقتبس عن اللغات الأخرى كما قلنا . ولذلك عكف المستشرقون على كتابه ، ورأوا أنه يصنع صنيعهم من غير أن يختلف إلى مدارس أجنبية أو علماء غربيين. وهذا سرّ نجاحه ونبوغه وتوفيقه فيما ترك وفيما خلف .

وأخبار العثمانيين فى الشام تجدها مفصّلة فى كتابه أروع تفصيل، سنة بعد سنة ، وكذلك المسألة الشرقية تراها مرسومة أدق رسم بسبب اطلاعه الشخصى وصلاته الخاصة بقناصل هذه الدول التى كانت ترى فيه انشراحاً للقائها والحديث إليها ، فهو يفهم عنها وينقل صوراً حيّة عن وثائقها ، ولن تجد مصدراً للحرب العامة الأولى وأثرها فى حلب وغير حلب كما تجده عند الغزّى . وهذا جهد كبير شخصى ، وعمل مبتكر واسع يميزه عن غيره من التواريخ . وفرق بين جمع المصادر وترتيبها وبين إنشاء جديد يصبح مصدراً من المصادر فيما بعد ولذلك كثرت صفحات العصر الحاضر فى تاريخه ، فعاش الرجل لزمانه وبعد زمانه ، وعاش غيره للماضى ينقله ويفسره ، ويفنده فى أكثر الصفحات .

وهذه الصفحات التاريخية التى تركها عن العصر الحاضر ناطقة حيّة ، تصرخ بظلم العثمانيين والاتحاديين ، وتتهم جمال السفاح بالحوادث المسلسلة المؤكدة المدللة لا تعتمد على إنشاء لفظى ولا تستند إلى تهويل ، وإنما تدمغ تاريخ هؤلاء العثمانيين بفظائع لم يقرأها المعاصرون قراءة تدبّر ليكتبوا لأبنائنا حقيقة الحال ، مما سطّره هذا الزعيم المؤرخ ، فوقف وقفة الكواكبى صديقه من وراء صفحات التاريخ وعلى منبر الأحداث ، وكانت صيحته من خلال الصفحات مدوّية لو رزقت قراء يلتهمون ما ترك لهم العلماء . ولكنّ حلب كانت تغوص فى جهالة عمياء وحزبية ضيقة وتفرّق بعيد ، وفقر وظلم خلال عهد العثمانيين ، فلما حلّ المنتدبون شغلوا أبناء الشعب بالنضال والتدبير للخلاص من نير جديد لم يكن بأقلّ من نير العثمانيين ، كان وقوده الشباب النير والطليعة المجاهدة .

ولم يكن فهم الغزى للتاريخ مقصوراً على مدينة حلب أو مدن سورية كلها وإنما كان يصل بين أحداث بلده وأحداث العالم ، فيطلّ من نافذة التاريخ على أحوال أوربة وأممها وشعوبها ، فلا يحجبه جدار ولا تمنعه أسوار ، ينظر إليها وينقل إلى قرائه أهمّ ما يتصل بالشعب العربىّ ، فقد عاش الغزى عربياً مخلصاً لا يذهب مع الأحزاب ولا يشغل بالسياسة الضيقة لأنه كان يؤمن بالوطن

العربى الكبير ، ويعشق اللغة العربية الكريمة ، ويعمل لها كل حياته .

وقد تلفّت الغزى إلى الشعر العربى القديم فجمع أشعار قومه من بلاد الشام ، وتناولهم بالدراسة ، كما جمع أشعار القدماء ، واجتلب المخطوطات النادرة فقرأ شروح المتنبى ، ودواوين العباسيين ، وانتهى إلى فهم عميق للشعر العربى وللغة العربية ، لذلك اختاره المجمع العلمى العربى عضواً فيه ، ثم رئيساً لفرعه بحلب سنة ١٩٢١ ، وجعل هذا الفرع فى قلب الأسواق الداخلية للمدينة ، وجمع فيه مكتبة غنية أصبحت نواة لدار الكتب الوطنية فيما بعد . وحول هذه الكتب كان الشيخ كامل الغزى يجتمع إلى إخوانه وأبنائه الطلاب ينثر الأحاديث النافعة والنوادر الأدبية الرفيعة ، يحلل ويشرح ويعلل ، فكان فرع المجمع نواة لتخريج أعضاء المجامع العلمية فى المستقبل ، انتفع به شباب كثيرون بلغوا اليوم مبلغاً عظيماً من العلم والجاه .

وفى هذا الفرع كنا نجتمع إلى الأستاذ كامل الغزّى ، والمكان قديم أشبه بحجر القرون الوسطى ، تنيره أشعة ضئيلة ، وكان الشيخ يفيض علينا من نوره ، وينثر علينا من حديثه فى بشاشة وطلاقة وبساطة ، فتذهب وعورة البحث الذى يلمّ به ، وتبقى الفائدة العميقة . وكان الرجل بعيداً عن الأنانية والأثرة والطمع بعيداً عن الانقباض والوحشة ، تسيل نفسه مرحاً ودعابة ، وينطلق لسانه فى المزاح والعبث والسخرية والنكات بما لا يذهب له هيبة ، وقد كنا نجلس منه مجلس المستفيد ، فى وقار واحترام وحبّ . ونعلق بأحاديثه الجميلة ، واطلاعه الواسع ، وما نزال نعيش مع الذكرى الطيبة ، رحمه الله .

وقد أشار مترجموه إلى هذه الخصائص عنده فقال فى ترجمته الأستاذ قسطاكى الحمصى : « أحد معاصرينا الألباء وأصحابنا الشعراء الأدباء ، وممن نباهى بهم عند عدّ أصدقائنا العلماء ، وهو فرد من الأفراد الجامعين بين الأدب والظرف ، وبين خفة الروح وعذوبة المنطق واللطف ، بصير بمذاهب الكلام ، عليم بأسرار محاسن النظام ، حلو المعاشرة ، ظريف المحاضرة ، ذكى المشاعر ، سريع الخاطر ، يميل إلى المزاح ، وتستريح إلى كثرته منه الأرواح ،

كما يستريح النديم إلى كثرة الراح ، جوابه على رأس لسانه ، ونظمه على رأس القلم ببنانه ، لنا معه مجالس أنس هى من مواسم العمر وأعراس الدّهر » .

وقد أحسّ الرجل بما أحسّ به الغربيّون حين قراءة التاريخ الإسلامى وذكر السنين الهجرية فيه بأيامها وشهورها ، من حاجة إلى جداول تسهّل موازنة الشهور الغربية بالعربية والسنين الهجرية بالميلادية ، فألف « الروزنامة الدهرية » وهى شبيهة بما صدر فى الإنكليزية والأسبانية منذ سنين على أيدى المستشرقين. وهى خدمة كبيرة استلبت من صاحبها وقتاً طويلاً فى حساب الرياضيات ورسم الأرقام .

وكان كامل الغزى يسكن حيًّا اختلطت فيه المذاهب والأديان ، وتجاورت فيه مساكن ومساكن يدين أصحابها على ما كان عليه آباؤهم ، وكانت تدور بين السكان نعرات وآراء غذّاها التعصّب ، وأنعشها بعض القناصل ، وشجعها جهل الحكام العثمانيين ، وكانت البلد تعيش غالباً على بقايا عصور الجهل والظلم فى قلب القرون الوسطى ، لذلك أحسّ الغزىّ بالحاجة إلى كتاب يشرح فيه لبنى قومه وضع الإسلام والمسيحية ، وحقوق أهل الذّمة وواجباتهم ، وموقف المسلمين منهم ، بحسب الشريعة ، فأنشأ « جلاء الظلمة فى حقوق أهل الذمة » وهو فى مقدمة وخمسة أبواب ، يحسن الرجوع إليه لفهم هذه العقلية الواسعة النيرة فى تقريب الحقوق وإدراك الشرائع السماوية ، وتحطيم الجدران الوهمية التى كان يقيمها المستعمرون بين أبناء المذاهب الثلاثة فى الوطن العربى .

والشيخ كامل الغزّى كان مثلاً رائعاً لهذا التسامح الدينى فى حياته الخاصة والعامة ، فكان يجتمع إلى الأدباء المسيحيين وشعرائهم ، أمثال جبرائيل الدّلال ، وقسطاكى الحمصى ، وجورج كورنلى ، وجورج خيّاط ، وميخائيل صقّال ، فى سهرات ممتعة تنقضى فيها الساعات جميلة خلاّبة ، يسميها الأب رباط « بالليالى الخالدة » وكان الشعراء فيها يتنافسون فى إيراد الشعر المحفوظ أو الشعر المرتجل لساعته ، يشارك فيه كامل الغزّى أجمل مشاركة وألطفها ، يحلو القول على لسانه ولو كان فى مداعبة النصارى وتقاليدهم الاجتماعية

فى حلب ، فى نثر أو فى شعر ، فقد كان الرجل شاعراً كأبيه ، وكان يساير روح العصر فى شعره ، وهو يختلف عن شعر العلماء ويرتفع إلى مستوى الشعر الجميل ولا بدّ من وقفة قصيرة عنده ، فقد اشتهر عنه شعر فى العبث بالناس أو السخرية الجميلة لا نورد منه هنا لبعده عن الموضوع ، وإنما نروى ما أورد له الأديب « قسطاكى الحمصى » فى كتابه عن أدباء القرن التاسع عشر . فقد نقل من غزله قوله :

ما صدّ طيفُ خيالها أو زارا إلّا احتملتُ بحبهـا أوزارا
نالَ الغرامُ من الفـؤاد منالَه عدل الحبيب بصبّه أو جارا
مستعذب عندى العذابُ بها وإن أبدتْ إلىّ من الصُّدود مِرارا

ومنها :

دارتْ ذراعى فوق دارة خصرها فحسبتُ نفسى فى البرية «دارا»
هاجَ الحيـاء بخدّها فأعاده ورداً يؤجج فى الجوانح نـارا

وهذه الأبيات تمثل الشعر فى القرن التاسع عشر بالشام ومصر ، فى معانيه وأغراضه وأسلوبه ، وهو هنا رقيق عذب مستملح فى لفتات جديدة تختلف عما قيل قبله ، يشير إلى ذوق الشاعر وجميل نظره إلى الحياة ورقة شعوره وخفة روحه . وله مثل ذلك فى وصف الهلال :

كأنّ خيال بدر التمّ يبـدو على صفحات موج قد تكسّرْ
كراتٌ من لجـين ساطعات على درجات بلّور تحدّرْ

وفى هذا ابتكار جميل لم يسبق إليه ، ولمحات حلوة أدخلها بخياله الواسع العميق فى الشعر وعبر عنها أجمل تعبير . وأما قوله فى مؤذن قبيح الصوت فهو يدل على هذه الرقة وجميل اللفتة فى ذهنه حين يقول :

أقول لعمرو حين صاح مؤذنًا بصوت حمار ضجّ منه حمانا
بصوتك آذيتَ الأنام فقلْ لنا ؛ أردتَ أذانا أم أردت أذانـا

وله مثل هذا الشعر كثير فى ديوانه ، ولكنه لم يطبع إلى اليوم ، وحين يظهر

على الناس فى تعليق واسع يفيد منه مؤرخ الأدب للعصر الحاضر فى حلب ، ويفهم صلات الأدباء فيما بينهم ، فهو يصوّر العيش الذى كان يزجيه الشيخ كامل الغزى بصراحة وحرّية وجرأة . فقد اتخذ شعره صورة لحياته أو جريدة يومية يسجل عليها ما يمرّ به ؛ ونظمه فى أغراضه الخاصة والعامة . وعرف كثير منه فى الأوساط ، وتناقله كثير من الأدباء . وله قصيدة عامرة جعلها فى مئة وعشرين بيتاً نظمها بمناسبة ولادة أبنه « حسين فيصل » سنة ١٩١٩ — كما قلنا — عقب الحرب العامة ، وقد بلغ السادسة والستين من عمره ، اشتهرت بين الأدباء وتداولتها الأيدى فى مصر والشام وبلغت بلاداً بعيدة ، وهى أشبه ما تكون بنظرة النسر يودّع وليده وقد قاربت سنيه نهايتها ، بل هى دمعة رثاء وإشفاق افتتحها بقوله بعد حمد الله :

ابنىّ أنتَ وديعة الله الذى — هو بالودائع خيرُ من يتكفّلُ
أبصرتُ نجمكَ فى الدّيار وانّنى — لأخال شمسى عن قريب تأفُلُ
فالى الآله وكلتُ أمرَك إنّه — نعمَ الوكيلُ لنا ونعمَ الموئلُ
أولاكَ مولاكَ السعادةَ والرضا — وحباك سعياً بالنجاح يكللُ
ووقاك من غدر الزمان ومكره — وعليك فيما ترتجى يتفضّلُ

وقد شرح هذه القصيدة وعلّق عليها ، وجعل فيها كل الآراء التى يريد لأبنه أن يتخذها وأن يتعلمها ، وجعل هذا الشرح فى رسالة عنوانها : « القول الصريح فى الأدب الصّحيح » وهى ما تزال مخطوطة يحفظها ابنه وأقرب طلابه إليه الأستاذ يونس رشدى . وهى لا تقف عند النصائح الجامدة وإنما تضم معلومات شتّى عن الفرق والمذاهب والقدريّة والسلفية ، والقضاء والقدر ، والجبر ، وما أصاب الأمة الإسلامية من ذلك كله على مدى التاريخ ، وهى أقرب إلى رسالة الزعماء المصلحين والأئمة القادة من الكتاب فى ديباجتها وفى أغراضها ، تطرق موضوعات عرض لها الكواكبى ، والأفغانى ، ومحمد عبده . فى رسائلهم الإصلاحية . وهى تتضمّن آراء سياسية واجتماعية شديدة الجرأة فى أيامه دفعت السلطة إلى الغضب من مؤلفها ، واضطرته إلى الهرب من حلب واللجوء

إلى « رأس العين » حيث أقام ثلاثين يوماً عند صديقه « إبراهيم آغا ممّو » ، عاد بعدها حين هدأت العاصفة ، واطمأنّ الرجل على حياته .

وقد كتب الرجل فى الإصلاح كذلك رسائل أخرى أشدها خطراً رسالته عن المرأة ، وقد كانت المرأة موضع النظر والخلاف والرأى فى الحجاب وغير الحجاب ، وفى دخولها الحياة العامة ، فتناولتها أقلام الكتاب والشعراء فى مصر والعراق والشام ، ودارت حولها مساجلات ومناقشات ، فى الطلاق وتعدّد الزوجات ، وقد جعل عنوان هذه الرسالة « الروضة الغناء فى حقوق النساء » تدلّ على عمقه ووقوفه على أدقّ قضايا الشرع الإسلامى .

وفى مقالاته العديدة التى نشرها على الصحف فى حلب وبيروت والقسطنطينية ودمشق ، حول موضوعات مختلفة ، نجد سعة الأفق وبسطة العلم وتمكن الرجل من البيان فى التعبير والبحث ، وهى جديرة بالجمع والنشر ، والمطالعة ، تحمل طابع التجديد والجرأة والعمق .

وقد اختارته « جمعية العاديات » بحلب رئيساً لها سنة ١٩٣٠ وظل على ذلك حتى آخر أيامه . وكان يُرسل فيها مقالاته عن حلب وآثارها تنشرها مجلة العاديات معتزّة ببحوثه وآرائه التى كانت تقف لآراء علماء الغرب سواء بسواء .

وفى صباح الثانى عشر من يناير ١٩٣٣ ، قضى العالم الشاعر فى الثمانين من عمره فحزنت حلب لموته . وأقامت لتأبينه حفلة عظيمة عدّد فيها الخطباء مزايا الراحل ، وبسطوا أياديه فى ميادين المعرفة ، وخدمته لبلده وللثقافة العربية . ومن عجيب الصدف أننا وقفنا باسم الطلاّب نؤبنه منذ ربع قرن ، ونقف اليوم لنعدّد أياديه ، ونبسط فضله بين الأعلام المعاصرين .

معروف الأرناؤوط *

منذ زمن بعيد كان المسلمون من البلاد العثمانية الواقعة فى أوربة يفدون إلى الشرق الأوسط ، يسكنون فى رحابه ، ويعملون مع أبنائه ، ويصبحون بعد قليل من خيرة المواطنين . وفى هؤلاء الوافدين قدم رجل ألبانى الأصل منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وسكن « بيروت » ، واستقرّ فيها ، وتزوج من بيوتاتها فى أسرة « آل الخورى » ، فكان من هذا الزواج طفل سمى « بأحمد » وعرف بالأرناؤوط إشارة إلى موطنه الأصلىّ .

وكان « أحمد الأرناؤوط » ، يترعرع فى بيروت فى رعاية أبيه ، حتى إذا شبّ عمل فى مهنة « البحارة » يعيش منها كما عاش أبوه ، فلما اشتدّ ساعده وقوى رزقه تزوج وأعقب فكان من أولاده « معروف » وسمى بالأرناؤوط طبعاً ، دلالة على الأصل والنسب . وقد ولد معروف سنة ١٨٩٢ والقرن التاسع عشر يشرف على نهايته .

وكان حظّ معروف الأرناؤوط خيراً من حظّ أبيه ، فقد انتعشت بيروت لزمانه ، وسرت الثقافة فى جنباتها ، فدخل المدرسة الابتدائية ، ثم تابع دروسه فى « الكلية العثمانية الإسلامية » ، وكان يديرها الأستاذ الشيخ أحمد عباس الأزهرى ، إدارة حازمة عاقلة بلغ بها إلى مرتبة المدارس المثلى فى زرع الوطنية ، ورعاية اللغة العربية ، والوقوف على اللغات الأجنبية ، وفيها اللغة الفرنسية . فكان الطلاب يتمرسون بالقريض والنثر ، ويعتلون منابر الخطابة ، وكانت آنذاك خير وسيلة من وسائل العربية ، وأفضل سبيل إلى بثّ الحماسة والفخر والعروبة فى نفوس الطلاب والسكان .

---

* معروف بن أحمد الأرناؤوط ١٨٩٢ م – ١٩٤٨ م .

ودرج « معروف » الفتى على ما درج عليه زملاؤه ، فأخذ بأسباب الخطابة والكتابة والقريض ، وشارك فى القول ، وانتفع بالاستماع ، وكانت بيروت تسمع لشكيب أرسلان ، وخليل مطران ، واليازجى ، والبستانى ، وتنتشى ببيانهم فى الشعر والنثر وتسكر بأقوالهم فى الخطب البارعة والقصائد الرنانة فى الحرية والكرامة والأخاء والمساواة والثقافة وحب العرب . وكانت مجالس بيروت تعقد حول أبحاث عميقة فى الجدل حول اللغة ومفرداتها ومشتقاتها ، وفى نقاش حول المعاجم والتاريخ والقصة ، والكتب المقدسة .

وأصبح « معروف » يقول كما يقول غيره من أقرانه ، ويكتب فى موضوعات جديدة ، ويتلفت إلى الترجمة والتعريب ، ويكب على الشعر فيلهو به مترجماً وغير مترجم ، حتى عُرف بحبه للأدب وإتقانه للخطابة وبراعته فى القول .

فلما قدم الشاعر معروف الرصافى إلى بيروت ، نهضت المحافل لتكريمه ، وفى إحدى الحفلات الجامعة ، وقف الجهابذة والخطباء والشعراء يرسلون فى مديحه وإكباره شعراً ونثراً يشهدان له بالجهاد والتضحية والعمل للعرب . وكان أن وقف بينهم فتى فى السادسة عشرة من عمره ينشد قصيدة فى الحفل ، تلفت لها القوم ، ونظروا إلى الفتى نظرة التشجيع والثناء والفرح ، ورأوا فيه ناشئاً يزحف نحو العبقرية والرفعة والإحسان ، فتردد أسمه ، وبرقت العيون غبطة لولادة الأديب

وانقضت شهور بعد ذلك ، قرأ الناس خلالها فى الصحف السورية بالثغر اللبنانى قصائد أخرى ومقالات فى الأدب ، وترجمات عن الفرنسية وقصصاً متصلة ، كانت بتوقيع « معروف الأرناؤوط » تُنبئ عن نجاح وتبشر عن مستقبل بسام ، وتشير إلى خيال عريض وقلم بارع ، وعربية فصيحة تتمتع بالجزالة والقوة وتخطر بالألوان والظلال .

ومرت الشهور والأعوام بعدها كذلك ، والفتى الشاب يرسل فى الناس طوائف من القصص المترجمة والقصائد المعربة ، فيها أسماء كبيرة لكبار الكتاب الفرنسيين أمثال (فرانسوا كوبيه ، وتيوفيل غوتييه ، وأسكندر دوماس ،

والفريد ده موسيه ، وميشال زيفاكو وغيرهم) . وكانت هذه الكتب صغيرة لا تتجاوز فى غالب الأمر عشرات الصفحات .

ثم رأى الناس بعدها كتباً صغيرة مؤلفة ومترجمة لا تعدو ثلاثين صفحة فى كلّ منها ، بعضها عن عمرو بن العاص ، والحرب فى طرابلس الغرب ، والجاسوس اليابانى ، والأخرس القاتل ، وبعضها عن مواضيع بعيدة فى القصة والخيال مثل نيويورك الخفية ، والجريمة السرية ، وهى فى جملتها على ورق تجارى ، وطباعة صحفية ، تهدف فيما تهدف إلى التسلية وقتل الفراغ .

وكانت سورية ولبنان بلداً واحداً ، يهتم القراء فى كل منهما بأبناء الطرف الآخر ، فى الساحل كما فى الداخل فتلفت أبناء دمشق إلى هذا الشاب ، وخاصة حين قرأوا له كتاباً عن المعرّى سماه : « فردوس المعرى » سار فيه على نمط رسالة الغفران ، واستوحى فى سطوره من خيال اليونان ، فزرع فى صفحاته القليلة أسماء آلهة الأولب بالشعر والجمال ، وحطّ به المطاف عند « البانتيون » ، وانتقل به إلى باريس ، وكان أبداً يسائل العباقرة القدماء عن موقع المعرّى بينهم ومكانه فى الحكمة بين أساطينهم .

ولما وقعت الحرب الكبرى ، سيق الشاب معروف الأرناؤوط فيمن سيق إلى الجندية ، ووصل إلى استانبول ، عاصمة البزنطيين ومدينة المساجد والجوامع ، وحاضرة الخلافة العثمانية ، فراح يستمتع بأجواء السحر والأدب والعطر والخيال ، ويرتع فى آفاق جديدة عادت به إلى الأدب البعيد ، فكتب يذكر أثرها فى نفسه بعد أن مرت السنون فقال :

« فى صيف ١٩١٦ ألقت بى حظوظى إلى مغانى استانبول ، وأرادنى قدرى جندياً من جنود الحرب الكبرى التى روّعت العالم قاصيه ودانيه ، فارتضيت ما لا يرتضيه العمر الطرىّ ، وفزعت إلى منزل صغير فى ضاحية (فنار يولى) على الشاطىء الوارف فى بحر مرمرة الهادىء ، وصحبتُ معى إلى المثوى الذى اشتمل علىّ ، كتابَ الله ، وسيرة نبيه . وقد حملتهما أمى إلىّ ساعةَ سفرى ، وأوصتنى بالرجوع إليهما فى محنى وكوارثى ، وأملتْ أن أفىء إليهما بعد

اغتراب ، ودعت لى وللذين يحاربون وينافحون » .

وهكذا أشار الشاب إلى أثر البحر والحضارة فى نفسه ، فقد انتقل من بحر ليجاور بحراً ، وسافر من حاضرة فينيقية قديمة ليسكن حاضرة بزنطية قديمة ، وكان زاده فى المرحلة الثانية كتاب الله وسيرة الرجل الكامل رسول الله ونبيه . فأفاد منهما إفادة تركت أثرها فى قلمه ، وفى خياله ، وأضافت إلى مواطن صباه ومراتع فتوته أيادى كثيرة . وقد كتب يذكر بعد ذلك هذا الأثر ويصفه فى وفاء وصدق ، فيرسم المنعطفات فى بلاده والأودية فى وطنه وما كان لها من خير فى عقله ولبه ، فقال :

« فإنى لأحب أن تفلت خواطرى ، فتجفو أودية دمشق وتطير إلى ذلك البحر الأزرق الجاثم على قدمى بيروت ، وتفتش فى نواحى المدينة التى خلفتُ فيها طفولتى ومراكض شبابى ، عن قبور هؤلاء الذين أحببتهم وفى هؤلاء أمى : وأبى »

وقد رسم ما كان من والديه فى تربيته ، فتحدث عن أمه وقال : « يوم كانت أمى تجلس إلىّ فى ليالى الشتاء لتقص علىّ أروع ما عرفته عن حياة سيد قريش وصحبه » وتحدث عن أبيه فقال : « وأروح ناظراً إلى صورة لأبى معلقة على الجدار فيؤنسنى أنّ بهذه الصورة عينين شاخصتين إلىّ ، وأن فيهما رقة وعذوبة ورحمة ، كأنهما كانتا ترسلان إلىّ فى طريق حياتى ذلك النور الأقدس الذى يضىء قلبَ المغترب النازح ، فيرى العالمَ السابحَ فى ليل مآسيه ، كأنما هو قد اكتظ بالضحك ونفض عنه أشباح قتلاه » .

ولا شك فى أن الشاب كان يسرح بخياله فى كلّ بقعة حلها ، وفى كلّ أرض رآها ، وكان يستمتع بحسّه وقلبه بكل ما كان حوله من ماء وسماء ، وصخرة وخضرة ، وزهر ونور ، وسحر وعطر ، فيسكب ذلك على الورق مداداً وصوراً خلابة جميلة . فقد تنقل فى مرابع العراق ومصر والشام والآستانة ولبنان ، ونقل من هذه المرابع ألواناً وأصباغاً كسا بها كلماته وحروفه ، فراحت تتيه بالطيب والخير ، وطفقت تهتز بالموسيقا والأنغام ، فكانت جمله

مجنحة عاطرة ملونة على أحسن ما تكون الجملة لتلك الأيام .

وصف بيته الريفى فى استانبول فقال :

« إن هذه الليلة الساجية قد ابتعثتنى على كتابة أول أشعارى فى الإسلام ، ففى أستانبول على الشواطىء الهادرة ، التى لم تشقها سفن أمير المؤمنين معاوية ، ولم تبلغها سفن مسلمة بن عبد الملك فى خلافة أمير المؤمنين الوليد ، فجازتها جيوش محمد الفاتح ارتجّ الإسلام فى قلبى وولد أنشودة أسميها (سيد قريش) وانها لحادثة رائعة ، أتمها الله على يدى فى زمن يكتسح فيه انتصارُ القوى الحدودَ الجغرافية ، واستعبد الأمم الصغيرة وطوى حرياتها ، وفصل بين غابرها وحاضرها » .

ونحن ندرك بعد هذا أثر المناظر والمشاهد فى نفس الشاب معروف الأرناؤوط ، وندرك اليدَ الخفيّة السحرية التى شدّته إلى إنشاء روايته الكبيرة (سيد قريش) ، فقد شهد الغربَ فاغراً فاه لابتلاع الشرق وتحطيم تيجانه وإذلال جيوشه وقتل قوّاده ، بعد ذلك الماضى الضخم الذى كان للإسلام من عزة شامخة ، وقوة مذهلة ، وعظمة باهرة . وتأثر الرجل أيّما تأثر بما كان من شعور الأدباء العثمانيين فى زمانه ، من حفاظ على الخلافة ، وتعلّق بالأمجاد المتلاحقة ، وإبقاء على الزعامة والقوة والسلطان ، وقال كما قال غيره بحبّ العثمانيين ، فراح يصف حبهم فى قلبه :

« ولقد خرجتُ من الحرب وأنا أحمل فى قلبى كثيراً من الهمّ وكثيراً من الشعر . فأما الهمّ الذى حملته فلقد سربَ إلى نفسى من إنكسار هذه الأمة التى أحببتها ، ومن إخفاقها فى جَنى ثمار كدحها وجدّها » .

وهذا الأثر الكبير لم يرسمه معروف فى قصيدة واحدة أو فى مقالة سائرة ، وإنما وضعه فى روايته الكبيرة « سيد قريش » ، فأبدع فيها شخصيات مختلفة أعارها صور الشخصيات التى رآها فى حياته خلال رحلاته أو فى إبّان مقامه ببلاده . وقد لفّ هذه الشخصيات جميعاً بثياب مزركشة من الذكاء والطموح والتواضع ، وأحاطها بسياج جميل من المرح والأنس والدعابة ، فى نكت مبثوثة بكل مكان ، وأقاصيص مروية فى كل جانب ، وفيها

سخرية وعبث أشبه بظلال الربيع فى خضرة الدنيا .

ولعله صرف أكثر صفحاته وسطوره إلى تمجيد الشرق وإكباره ، ومدح العرب وأيامهم ، والتغنى بأحاديثهم وأخبارهم فقد كان لا ينسى أبداً هذا الملك العريض الواسع الذى انتشر فى الشرق حتى بلغ تخوم الصين ، وامتد إلى الغرب حتى جاور بحر الظلمات . بل لعله أكثر الأدباء الذين تغنوا بالملك العربى ، فامتدح ربوع دمشق ، ونظر فى كل زاوية من زواياها إلى ظلال الغساسنة ومرابع الأمويين ، وآثر أن يعيش مع تاريخهم ومفاخرهم ، فسكب روحه وبيانه فى حب دمشق والعرب فقال :

«أىْ دمشق، لقد قرأتُ تاريخك الماضى ، وأصغيتُ — وأنا أتحدثُ إلى حماته ورعاته — إلى خفق ألويتك واهتزاز راياتك، ثم رأيتك تجتازين البحارَ والخلجان والمدن الكبيرة عظيمة كالشمس قوية كالخلود . ثم رأيتك تتخلين عن البحار والخلجان والمدن الكبيرة لتعيشى فى جنباتك ، فما استهوانى من هذه الصور المتنافرة غير آلامك وغير جراحاتك ، فأنت على ما بك من الألم أشد فتوناً من كل مدن العالم ، وذلك لأن روحك لم تهرم ، فهى ما تزال فتية نضرة كأنها ولدت ليلة أمس » .

إنّ حبّ معروف لدمشق عميق قوىّ جارف ، دفعه إلى هجر بيروت ، واللجوء إلى هذه الحاضرة الأموية ، فسكنها ، وأقام بقلب « سوق الحميدية » وراح يعمل فى الصحافة بها ، فأنشأ مع عثمان قاسم ورشدى ملحس (جريدة الاستقلال العربى) سنة ١٩١٨ فى أعقاب الحرب مباشرة ، فعاشت الجريدة شهوراً ، ولكنها لقيت حتفها بعد ذلك . فأنشأ مجلة (العلم العربى) وجعلها للأدب والشعر سنة ١٩١٩ ، وانطلق بعد ذلك إلى جريدة جديدة سماها « فتى العرب » ظل يعيش معها وتعيش به حياته كلها حتى قضى نحبه .

وفى هذه الجريدة وغيرها ، كان الكاتب معروف الأرناؤوط يقضى نهره ولياليه فى العمل والكتابة والتحرير ، يراسل ويخاطب ويصطاد الشعر والنثر ، ويجمع على صفحات جريدته مختارهما وطيبهما . وأما فتى العرب ، فقد

عاشت ما عاش موضع الشعر الرائع والنثر البارع والمقالة الضخمة ، تضم العناوين الكبيرة والأعلام المشهورة من كل ربع عزيز من ربوع العرب ، فالتقى فيها العقاد والمازنى وحسين هيكل ، ودياب وأحمد شوقى وخليل مطران ، وشكيب أرسلان وشفيق جبرى . فكانت جريدة الأدب العربى الرفيع وكانت مجلة يومية ؛ الرأى الأول فيها للأدب ثم للسياسة ، تحمل إلى الناس أطايب القول ومحاسن النقل .

وكانت هذه الجريدة خلال ثلاثين عاماً موضع همّه ومسرح قلمه ينصرف إليها أحياناً كل الانصراف ، وينصرف عنها أحياناً إلى إنشاء كتبه ورواياته وقصصه التاريخية . وكان يعيش لها كما يعيش لأولاده الثلاثة فهى ظله فى الأدب ، وهم ظلّه فى الأرض ، يقرأ ويقرأ ويكتب وينشىء حتى كانت منه ملحمة فى القصة العربية إذا جاز التعبير .

وهذه الملحمة القصصية تاريخيّة أشبه ما تكون بقصص زيدان ، ولكنها كانت خالية من الغرض المتطرّف واللمحة الجارحة . ولعلها لا تعجب أدباء الساعة من قصصيّين ينظرون إلى حاضر القصة العالمية ، ويحكمون عليها بأحكام اليوم ومقاييس العصر ، ولكنها محاولة أولى فى بلادنا تضاهى محاولات القاهرة فى رسم عصورنا الأدبية على يد العقاد وطه حسين وهيكل فيما بعد .

وقد وقف بها معروف الأرناؤوط عند حدود الأمجاد العربية والإسلامية فأنشأ أربعة كتب أولها « سيد قريش » ثم « عمر بن الخطاب » ، ثم « طارق بن زياد » ثم « فاطمة البتول » وهى تمثل نضج الكاتب الغنائى ، وعبقرية القاص الرومانتيكى ، أفردته بين كتاب القصة ، وجعلت له أسلوباً خاصاً ومكاناً فريداً فى الخيال والأسلوب .

وهذه الكتب الأربعة هى من طراز متفق تحوم كلها حول التاريخ العربىّ خلال عصوره الزاهرة الأولى ، صوّرها الرجل فى قلب القصة فوفق فى ذلك إلى حدّ بعيد ، رسم الجبال والوديان والبحار والحدائق والصحارى على اختلاف العصور وفى مختلف الألوان والأخيلة الأدبية ، يريد أن يقرّب البعيد ،

وأن يلوّن القريب ، لعل القارئ يعرف العرب عن قرب ويلمحهم على أربعة عشر قرناً بيديه ، ويصافحهم بعينيه ، ويطأ أرضهم ويعيش بينهم فى بيوتهم ويسمع حديثهم الرفيع أو كلامهم العادى .

ويمتطى « معروف » إلى هذا كله قراءاته المختلفة من كتب المستشرقين ومصادر العرب الأقدمين ، يوطّىء أكنافها ، ويذلّل اختلافها ، فكأن السيرة مكتوبة قبله ، ينقلها إليك من كتاب يسهل ويلين ، حتى يجنّب القارئ أغوار الفكرة وأعماق الفلسفة ، فهو يؤثر الراحة والبساطة وقرب الآفاق .

وهو فى هذه الكتب يدور على إكبار العربىّ والتغنى بحضارته ومدنيته وحريته ، فيرى فى قصوره نعمى العيش ترقص نشوى وأغانى المجد تنصبّ سكرى ، لم تنقصه إلاّ صرخة الوحدة واجتماع القريب إلى القريب . فلما جاء سيد قريش حقق الأمانى ، وعزّز الرابطة فانتفضت إمبراطورية عربية ، وكتبت أمجاد خالدة على صفحة الشام وجنبات العراق ومصر وأفريقية ، جعلها المؤلف مراتع أبطاله ، ومواطن رواياته ، فعطر المرابع وكسا التاريخ بثياب القصة .

وقد طوى فى سبيل ذلك عشر سنين كانت عبقريته فيها على تفاعل متصل وولادة متتابعة ، فقد أظهر رواية سيد قريش سنة ١٩٢٩ ، وهى فى ثلاثة أجزاء ، رسم فيها الشّام قبل الميلاد ، وصوّر قصورها وحياتها وشعراءها ممن وفد على الغساسنة ، أو اجتاز بهم ، وأسهب فى حياة هؤلاء الشعراء وقصص هواهم وحكايات عشقهم ، وانتقل من ذلك إلى سيرة النبى الكريم وما كان منه من خير للعرب ومن بشرى لهم قبل أن يولد وبعد أن ولد .

وفى « سيد قريش » صورٌ نقلها الأرناؤوط عن مشاهداته الخاصة ، كما رآها بنفسه حين زار القسطنطينية وحوران ودمشق ، رسم فيها الكنائس وبيوت العبادة كما شاهدت عيناه ، ثم أضاف ما كتب المؤرخون من العرب ومن المستشرقين على حدّ سواء ، فتجاورت أسماؤهم فى صفحة واحدة ، لتبين عن جهد الكاتب القصصى فى تاريخ قومه .

ثم أصدر معروف كتابه « عمر بن الخطاب » سنة ١٩٣٦ فى جزءين اثنين أولهما « ليالى شاعر » ، والثانى « فرسان سيد قريش » وأعلن عن الثالث والرابع ولكنهما لم يصدرا قط . وميدان هذا الكتاب معارك فى سبيل الحرية بين الفرس وعرب العراق ، وتدمر وحوران وبصرى ومدن شرقى الأردن وفلسطين ، وقد قلنا إن الكاتب القصصى زار هذه الربوع جميعاً فوصفها كما جاءت عن التاريخ وكما رآها بعينيه . واستعان فى تدبيجها بكتب الغرب والشرق فى رسم عمر .

وفى سنة ١٩٤١ أصدر كتابه « طارق بن زياد » وصوّر فيه إفريقية والأندلس والعرب والبربر ، ورسم الحبّ والجمال ، وأراق من هذه الخمور على أفواه الأبطال ما يسكر ، وجعل من هذه الملحمة الأمّوية لوحة خالدة لجهاد العرب فى سبيل العقيدة والإيمان والأخاء والأتحاد .

وفى سنة ١٩٤٢ أظهر كتابه الرابع « فاطمة البتول » تحدّث فيه عن يزيد بن معاوية ، وموقف الحجاز من البيعة ، ونضال العراق فى جانب الحسين السبط ابن فاطمة البتول . وخلّف فى هذا الكتاب كذلك ألواحاً بارعة عن الأسرة والأم والولد ، تصف الحنين والحب والجزع والوداع ، إلى ألواح الحرب والقتال بين جيش الحسين وجيش شمّر بن ذى الجوشن ، وما كان من ضحايا فى العرب ، وبشاعة فى القتال والتنكيل .

إن هذه الكتب الأربعة هى تاريخ العرب فى صدر انطلاقتهم بالشام والعراق وإفريقية ، رسمها الكاتب فى تفصيل وفى دقة على أسلوب فذّ ، فقد كان معروف يكتب على الورق كما ينسكب الربيع على الطبيعة ، فيورق ويزهر ويعطر ويسحر ، ويضحك ويبتسم ، ويغنى وينشد ، وتشرق من خلال ذلك ألوان زاهية وأنوار مشرقة ، فتقع على حلو اللفظ وضاحك المعنى ، وعاطر الصورة ومجنح الخيال ، فكأنه فى مرح أبداً ، وكأنه فى فرح دائماً ، تتسابق فى إنشائه الألفاظ المدوية والعبارات الضخمة والكلمات المختارة ، كما تستبق الفتيات إلى عرس فتزغرد وتصفق وتنتشى ، وتسكر ثم تخلّف هذه الموسيقا التى تبدو للسامع عنيفة حيناً هادئة حيناً آخر كالطبيعة نفسها أو كالموصوفات

عينها ، يرسم المعركة فتسمع القعقعة والدوىّ ، ويصف الليل الساجى فترى إلى الأشباح تسبح فى الظلام ، ويصوّر المحبين ، فتحسّ الثغور والصدور والقدود تلتقى وتنفصل ، كأن عصا سحرية قد حركت المشهد وقادت المنظر ، فاتصل سحر السماء بالحديث وانتقل عطر الزهر إلى المرأة ، وحملت الملائك إلى المحبوب فضائل الرجال وخصائل الأبطال .

كل ذلك فى كلمات جمعت للكاتب وجعلت طوع يديه ، يصفّفها ويرصفها لتحلّ فى المحل المناسب ، وتقع فى الموقع الرضىّ ، ولا تكاد تنبو لفظة إلا فى القليل ، فكأنه يقول الشعر من غير قواف أو كأنه يرصف الدرر فى السطور من غير أن تحسّ له تصنعاً كثيراً أو تكلفاً ممجوجاً . والغريب أن الكاتب يكتب صفحاته كما يكتب السطور ، يسيل قلمه بالكتب هدّاراً كالشلاّل ، يرغى ويزبد عند مسقطه ، فإذا سار صفا وسكن ، وتقلّبت على وجهه صور السماء وظلال الأحياء ولذلك كتب فنال فى الأدباء مرتبة الكاتب المحلّق والأديب المترسل ، وعرف لنفسه ذلك فقال يصف فنه :

« وإنما أنا كاتب قصّة يصانع ذوقَ عصره كما يقول بعض الناس؛ ورائد أموات كما يقول بعض ، أدخلُ المقابرَ وأشقُ الحجرَ الصلد ، وأزيح التّرابَ الغامر ، وأبحثُ عن أولئك الذين طواهم ليلُ الموت فى غسقه حتّى إذا أطللتُ على الرفات الطحين رأيتُ بعينىَّ المضيئتين المتحركتين إلى عينيه السادرتين ، وفتشتُ فى صورته عن الطيف الذى أحبّه ، فتسرقت صوته ، وسكرتُ من لحونه ، أو تقصصتُ أثره ، واستوقفته وتحدّثتُ إليه بلغة يعافها الأحياء من الناس ، وتنبو عنها أذواقهم ، ولا تسيغها أفهامهم ، ذلك الطّيف الهالك هو الماضى . »

ويعترف الكاتب أن من عناصر أدبه الحزن والألم والمجد والشهرة والحب والشعر والزهر والنغم الماتع . ونحن نلمح أثرها فى كل كتاب سطره وفى كل رواية نقلها أو ترجمها .

إنه وحده فى القصة التاريخية بلغ منزلة فى إقليمنا لم يبلغها غيره إلا

جرجي زيدان في مصر كما قلنا ، ولقد سار في السبيل نفسه كثيرون في الإقليم المصري .

ولو أتيح لمعروف الأرناؤوط أن يتفرّغ لأدبه وقصصه التاريخية لزادنا روعة وإنتاجاً ولكنه كان مشغولاً بجريدته يسعى وراءها ليله ونهاره . وكان كذلك في عمر قصير لو امتدّ لكتب كثيراً وغنى كثيراً ، ولكنه لم يتح له ذلك وكأنه كان يحسّ الأمر فكان يردّد في صدر رواياته : « وإني لأرجو الله أن يمدّ في أيامي ، فلعلني أقول هذا الشيء الكثير على فمي ، ولعلني بعد هذا كله أفيء إلى ظلّ هذه الأرض الحادبة ، فأستريح إليها بجوار أمي ، في خضرة تندّيها السحب وترقّقها هذه الأزهار التي جمعتها في أسفاري من سيناء ومكة ومن بوادي الشام والعراق ؛ ورحم الله أمي ، فلقد حسرتْ عن بصري ، وأرتني دنيا محمد رسول الله ، ودنيا صحبه ، ووهبتْ لي مجدَ هذا اليوم الذي أنا فيه » .

أجل كان يحسّ ذلك وكأنه كان يرثي نفسه ، ويبكي أيامه الحوالي ، فلقد توفاه الله عن عمر كان قصيراً وعن أجل كان مبتوراً ، فقضى في صباح الجمعة ٣٠ يناير ١٩٤٨ ، عن عمر لم يتجاوز الخامسة والخمسين ، فوقد من دمشق التي أحبها وكتب فيها ، بمقبرة باب الصغير ، بعد أن جاهد على أرضها ثلاثين عاماً تغنى فيها بأمجاد العرب ومفاخر الإسلام ، وكتب فيها ملاحم بالنثر كانت رواياته التاريخية التي صدرت فأحدثت دوياً في زمانها ، وما تزال من حسنات الرجل إلى يوم الحساب .

بدر الدين النعسانى *

فى أواخر القرن التاسع عشر ، ضاقت سورية بأحرار الفكر ورجال القلم ، وأرباب الصناعة والتجارة ، فقد ناءوا بحمل الدولة العثمانية وجهل ولاتها وتعسف حكامها ، وتقهقر النظم السياسية والاجتماعية والثقافية ، فلا جامعة ولا مدارس عالية ، ولا مصانع ، ولا معامل ، فاتجهت أنظار كثير منهم إلى أرض الكنانة يجدون فيها الحرية الجميلة للقول ، والمدرسة الواسعة للعلم ، والمجال الرحب للعمل ، فدخلوا فى الصحافة والطباعة والتأليف والنشر كما دخلوا فى الصناعة والتجارة ، فكانوا فيها بعد زمن قصير موضع الثقة والرفعة والشهرة وأصبحت مصر تعج بهم فى كل سبيل ، وأصبحت جاليتهم فى جملة الجوالى الطيبة إن لم تكن خير جالية .

واتصل تاريخ القطرين سورية ومصر اتصالاً وثيقاً فى الفكر والثقافة حتى ما يستطيع المؤرخ أن يتحدث عن أديب فى الشام إلا إذا ذكر ما كانت له من صلات بالإقليم المصرى . ولهذا كانت تراجم الأعلام السوريين تنهض على معرفة ما فعلوا وما أفادوا من مصر . فالأزهر مدرسة عالية كبيرة قبل أن تولد الجامعة كان يلجه السوريون ويجدون فيه ضروباً من الثقافة والتعليم ليست فى أى قطر آخر . وكان إلى جانب الأزهر معهد كبير لا تحده جدران ولا تحصره حدود ، هو هذه الحياة الثقافية العامة التى كانت تروج فى أذهان الأحرار ، وتجتذب قلوب المفكرين ، وهذه الحياة كانت تقوم على عدد من الكتاب والمفكرين ، أخذوا فى جملتهم عن حلقة عظيمة سلكت سبيلها إلى

* أبو فراس محمد بن بدر الدين بن مصطفى بن رسلان ١٨٨١ م – ١٩٤٣ م .

النجاح ، هى حلقة الشيخ محمد عبده . وهذه الحلقة جامعة عالية كان الإمام وجلساؤه ينعشونها بالحوار الرفيع ، والآراء المثالية ، فتتقلّب فيها صفحات القديم والجديد ، وتتزاوج فيها هذه الآراء ، وترسم المستقبل لثقافة العرب فى ذلك العصر ، وما من أديب أردنا أن نترجم له بين الأعلام إلا ذكرنا تأثره بهذه الحلقة العظيمة ، أو أثره فيها .

ولن نتطرق هنا إلى العظماء والعلماء والمفكرين الذين وفدوا إليها وأقبلوا عليها وانصرفوا بعدها يرسلون إشعاع فكرهم فى كل مكان ، فقد تحدثنا فى ذلك حين الكلام عن محمد كرد على ، وعبد القادر المغربى ، وغيرهما ونحن نلمّ بمن خرج من الشام إلى مصر ، ونحبّ أن نتحدث الآن عن علم آخر من الأعلام خرج كذلك من الشام وتوجه إلى مصر ، وكان مع محمد كرد على والمغربى فى كثير من المراحل حتى قضى الثلاثة على جهود رفيعة فى ثقافتنا وصفحات لامعة فى تآليفنا ، ولكن الأستاذ بدر الدين النعسانى لم يتحدّث عنه كاتب فى تفصيل ، ولم يتطرق إليه باحث فى تعمّق ، لأنه لم يرزق الشهرة فى بلده كما رزقها الرجلان الآخران ، ولأنه لبث فى مدينة نائية بالشمال من سورية هى حلب ، كانت أوائل القرن العشرين عظيمة فى كل سبيل إلاّ فى احتضان الأديب العربى وفى رفعة الكاتب العربى بين جدرانها .

وكانت حلب أواخر القرن الماضى محطة للطرق التجارية بين آسية وأوربة وموضعاً للتبادل التجارى بين سورية وتركية ، وفيها مدارس أجنبية وإرساليات دينية ركزت فيها صروحها فى زمن مبكر ، فعكفت طائفة منها على صلات الغرب فى الفكرة وتعلقت بالغرب فى أكثر من اتجاه ، وعمرت بيوتها بالثقافة الأجنبية والتقاليد الأوربية ، فقامت هوة سحيقة بين طبقاتها المختلفة ، طبقة تعمل للتجارة الخالصة فلا تُعنى بالثقافة عنايتها بالمال ، وطبقة تعنى بالزراعة فلا تلتفت إلى الثقافة فى حال ، وأخرى تعنى بالوجاهة والرفعة والعزة ، فتوجهت إلى الثقافة عن سبيل الآستانة العلية ، ودخلت مدارس العثمانيين العالية وثقفت بعض

الفرنسية إلى جانب اللغة التركية ، ولكنها كانت في العربية على أشد مايكون الضعف ، لأن التيار العربي كان يتغلغل فى طبقة معينة محصورة فى جماعة درست اللغة العربية واتصلت بآثار الأجداد ، فيها المسيحيّ وفيها المسلم ، وانطلقت على لسانها صفحات النثر والشعر ، وكانت هذه الصفحات وحدها دليل الوجود العربي فى هذه البقعة الشمالية .

لذلك قامت بعض الأسر فى حلب بإرسال أبنائها إلى القاهرة يتعلمون فى الأزهر ويأخذون عن شيوخه ، فإذا عاد هؤلاء الأبناء ، أخذوا فى التعليم والتدريس أو الوعظ والخطابة ، فقد كان تعلم العربية منوطاً بهؤلاء الشيوخ زمناً طويلاً حتى العقد الثالث من القرن العشرين .

وقد قامت أسرة النعسانى ، بإرسال هذا الطفل محمد بدر الدين ابن مصطفى بن رسلان سنة ١٨٩٢ م إلى الأزهر ، وهو فى الثانية عشرة من عمره فأقام هذا الطفل عدداً من السنوات فى هذا المعهد الكبير ، خرج منه بعدها وهو أشد ما يكون كرهاً لهذا المعهد ونقمة عليه ، فقد ألف كتاباً سماه « التعليم والإرشاد » ونشر الجزء الأول منه فى القاهرة سنة ١٩٠٦ ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . وقد بسط فى هذا الكتاب حال التعليم فى الأزهر ، وصوّر ما كان منه خلال ذلك ، فقد دخل فى مناقشات مع أساتيذه وزملائه ، وخاض غمارَ النقد على أعنف ما يكون النقد ، وخرج مغاضباً كما خرج الدكتور طه حسين ، فأحسّ ما أحسّ الدكتور طه ، ولكنه فنّد ذلك فى تفصيل علمى لم يتطرّق له صاحب « الأيام » . وهذا التفصيل تأريخ لجانب من جوانب الأزهر فى تلك الحقبة التى كان فيها كبار الأعلام يدرسون فى الأروقة ويستمعون إلى هؤلاء الشيوخ . وكان من زملاء الرجل الأستاذ محمود حسن الزناتى أمين الخزانة الزكية فى القاهرة ، وناشر كتاب « الفصول والغايات » للمعرى اتصلت بينهما الأسباب فيما حدثنى الزناتى ، ولقِيَ كلٌّ منهما التقدير من صاحبه والوفاء ، والزناتى زميل طه حسين والزيات .

ومهما يكن من أمر فكتاب « التعليم والإرشاد » لم يصنع فى النقد لعصره ما

صنع كتاب « الأيام » لأن كتاب بدر الدين النعسانى كتاب فى مناقشة الكتب والبرامج وطرق التعليم ، لا يلمّ بالطريقة الأدبية أو الفنية الخالصة التى عالج بها صاحب « الأيام » هذه الموضوعات . ولا نستطيع أن نوازن كتاباً بكتاب ، لأنه لا سبيل إلى الموازنة فى الأسلوب وفى الغرض ، وانْ كان أسلوب الكاتب الحلبى أسلوباً هادئاً رزيناً يتسم بالإنشاء المتين والعبارة الجميلة الرفيعة ، فهو أشبه ما يكون بأساليب النثر المترسلة فى عصور الفصاحة الواضحة . فقد كان « بدر الدين الحلبى » يكتب فى سلامة وفى وضوح وفى يسر ، لا تكلف ولا تعمل ، ولا تقعر ولا انحدار. وسبيلنا إلى البرهان عبارته فيه فقد قال :

« وقد كنتُ ممن ابتلى بهذا وأضاع فيه أوقات طويلة ، ولم يحظ فيها بطائل فلقد حضرتُ من بلدى للأزهر ، لتلقّى العلوم الدينية فيه ، وكنتُ قد حصلت فى بلدى طرفاً يسيراً من علم النحو ، فلما حصلتُ فيه وانخرطتُ فى سلك تلامذته مكثت فيه نحو ثلاث سنوات أعانى فيما أعانى قراءة الكتب النحوية فما ازددت فيه بصيرة ولا فتح علىّ بشىء منه » .

وهذا أسلوب جميل لا يشبه ما كان يرسله بعض الكتاب فى تلك الأيام حوالى سنة ١٩٠٦ ، بل إننا نرى فيه السهولة والتجديد ، مما يرفع من شأن صاحبه ويفتح له أبواب الشهرة . ولكن هذا الأسلوب على جماله لم يكن له أثر بعيد فى أروقة الأزهر ، ولم يكن له صيت مدوّ كما كان لغيره ، فلبث صاحبه عند الجزء الأول منه ، لم ينشر الثانى ما عاش ، وإنما اضطر إلى البعد عن الأزهر كما ابتعد عنه كثيرون .

ولجأ الشاب إلى الصحافة فراح يحرر فى جريدة « المؤيد » للشيخ على يوسف ، وهى كبرى الصحف آنذاك ، وسال قلمه فى أنهارها ، فضاع مع الزمن ما كان منه ، لم يجمع فى كتاب كما صنع محمد كرد على وعبد القادر المغربى ، بعد ذلك ، ولم يقرأه قارىء ناقد ، ونحن نملك أعداداً كثيرة من « المؤيد » لذلك العهد ولكننا لم نقف على مقالات موقعة باسمه ، لأن الرجل كان يكره الشهرة والإعلان .

ويبدو أنّ الشاب حين اتصل بحلقة « محمد عبده » كما اتصل به السوريون ممن ذكرنا ، أفاد من هذه الحلقة حرية فى الفكر وثقافة فى العلم والأدب ، وانطلاقاً فى أجواء الإصلاح ، ولعلّ هذا الاتصال كان سبباً من الأسباب فى تنويره وفى ثورته على الأزهر ، ظهرت بوادره فى إنشائه وتفكيره كما رأينا .

ولما بلغ الشاب الحادية والعشرين من سنيه سافر إلى الهند سنة ١٩١٠ ، واتصل « بجمعية العلماء المسلمين » هناك وقام بالوعظ والتدريس والكتابة ، ولبث فيها سنة ونصف السنة ، فاطلع على آفاق جديدة ، كما اطلع قبله عبد الرحمن الكواكبي الحلبيّ ، خلال رحلته فى آسية ، بل لعله حذا حذوه فى هذه الرحلة بعد عشر سنوات . ولسنا ندرى من أمر النفقات والجهات التى تولّت توجيه الرحلة شيئاً ما ، فلم نستطع قراءة ما خلّف الرجل من مذكرات ، لأنه آثر أن لا ينشرها خلال حياته ، ولم يقم بنشرها أحد بعد وفاته . وبذلك ستظل هذه الحقبة كما تظلّ غيرها فى ظل الظلام ، فلا نقول فيها شيئاً عن آرائه فى المسلمين وفى الوحدة الإسلامية التى كانت غالبة على آراء كثير من المصريين بل كانت موضوع الشعر والنثر فى تلك الأيام ، مما يفسر سلوك الرجل بعد ذلك .

وعاد الشاب إلى مصر فانصرف إلى أمر عجيب مال إليه كبار المصلحين فى زمانه ، وبعد زمانه ، فهو لم يكتف بالكتابة فى إصلاح أمر المسلمين وفى رفعة الشعب العربى وفى الحضارة الإسلامية أو العربية كما صنع محمد كرد على ، وعبد القادر المغربى ولكنه اتجه مبكراً إلى تحقيق الكتب المخطوطة وانصرف إلى التراث العربى ، ولعله فعل ذلك لتحقيق ما كانت تصبو إليه نفسه منذ كان طالباً فى الأزهر ، فقد كتب فى كتابه « التعليم والإرشاد » يقول :

« وإذا قايس المرء بين مطبوعات مصر ومطبوعات البلاد الإفرنجية رأى أمراً عجباً . . يرى أن مطبوعات البلاد الإفرنجية كلها لأجلّ علماء الإسلام وأفضلهم ، اللهم غير كتب قلائل ، ويرى أن المطبوعات فى مصر على ضدّ ذلك على خط مستقيم » .

والواقع أن المطبعة فى مصر كانت تلتهم الكتب الصفراء فتعكف على

المؤلفات المتأخرة ، مما ألف فى عصور الانحطاط ، من حواش وذيول وهوامش ، فى البلاغة والنحو والصرف وكتب الفقه والتوحيد وبعض التصوف ، مما لا علاقة له بالفكر العربيّ والبيان العربى الصحيح فى إبان مجده وازدهاره . ولذلك شعر بحاجة ماسة إلى هذه النصوص القديمة الّتى لم تر النور بعد ، ولم يطلع عليها أكثر المثقفين والمتعلمين ، فانصرف إلى طباعة كتب الجاحظ ، فنشر « البيان والتبيين » و « الحيوان » وذيّل «معجم البلدان » وأخرج « المفضّل » للزمخشرى ، و « شفاء الغليل » للخفاجى وديوان زهير بن أبى سُلمى و « شرح مفضليات الضبى » وغيرها من كتب لا نريد أن نعرض أسماءها ، فنحن لا نستقصى فى دراسة الرجل وإنما نلمع إلى بعض ما كان منه فى إحياء التّراث العربى .

ولما بلغ الثامنة والعشرين من عمره ، رحل إلى تونس والجزائر ، وطرابلس الغرب سنة ١٩٠٨ للميلاد ، وسافر بعدها إلى الأستانة ، فاستكمل بذلك رحلته إلى المشرق والمغرب واستطاع أن يقف على أكثر رقاع العالم الإسلامى ، وعرف عاصمة الخلافة الإسلامية عن قرب ، كما عرفها قبله جمال الدين الأفغانى ، وعبد الرحمن الكواكبى ، ولعلّ هذه الرحلة فى هذه الأقطار كانت سبيل المثقفين إلى التعمق فى أمور الإسلام والمعرفة ، كما أصبحت الديار الغربية بعد ذلك سبيلاً للتعمق والمعرفة .

وعاد محمد بدر الدين النعسانى « أبو فراس » — كما كان يحبّ أن يكنى نفسه — إلى بلده حلب ، مسقط رأسه ، كما عاد أحرار الفكر فى هذه البلاد ، بعد إعلان الدّستور العثمانى ، فقد فرح المسلمون فرحاً كبيراً بإعلانه ، وظنوا أن الحرية فتحت أبواباً كانت مغلقة وهدمت الظلم والعسفَ والجهل ، وحسبوا أن سورية مقبلةٌ على عهد جديد . وقد ظنّ بدر الدين أنه ملاق فى بلده ما لقى فى مصر من عمل حرّ وشهرة طيبة ، ورواج فى التأليف والتحقيق ، فقد طال ابتعاده عن أهله وعشيرته وصحبه ، وأقام مهاجراً بعيداً عن حلب خلال ستة عشر عاماً ، وهى مدّة ليست بالقليلة ولا الهينة ، غادرها طفلاً لا يعدو الثانية عشرة من عمره ، وعاد إليها وهو فى السابعة والعشرين من سنيه ، فى

ذروة شبابه ونشاطه واكتماله فعين مدرساً للعربية فى ثانوية حلب « المدرسة السلطانيّة» وكانت البناية الوحيدة للتعليم الثانوى التابع للدولة ، ولم يكن بعدها معهد عال ينصرف إليه المدرسون والمتعلّمون ، لذلك كانت أعلى رتبة تسند إلى مثقف أديب .

فانصرف الرجل فيها إلى تعليم العربية ، كما انصرف زملاؤه أساطين اللغة فى دمشق وغير دمشق ، وهؤلاء الأساتذة المدرسون كانوا أعلام العربية فى الشام . فلما نشأ المجمع العلمى العربى كانوا هم نواة هذا المجمع ، فكان منهم فى دمشق عبد القادر المغربى ، سليم الجندى ، محمد البزم ، عبد القادر المبارك ، خليل مردم ، شفيق جبرى ، وكان منهم فى حلب بدر الدين النعسانى ، كامل الغزى ، راغب الطباخ ، قسطاكى الحمصى ، وهم يعدّون على الأصابع ، فى وقوفهم ، على أسرار اللغة العربية وفى اطلاعهم على تراثنا القديم الضخم .

وفى « المدرسة السلطانية » قام بدر الدين النعسانى بقسط كبير فى تثقيف البلد ، وفى تحبيب أبنائه بتراث العرب وفى تعليم طلابه أساليب الإنشاء العربى والنقد العربىّ ، وتذوّق الشعر ، وفهم النثر ، فقد تجمع فى ذهن الرجل منذ صباه شىء كثير عن مثالب التدريس فى الأزهر وعن الكتب المقررة فيه وعن الذوق الأدبى فى أروقته ، كما تجمّع فى ذهنه ما رآه من أساليب الفهم فى مشرق العالم الإسلامى ومغربه ، وعرف الداء الذى ألمّ بذلك العالم ، واستحضر فى عقله الدواء ، ولذلك كان يحبّ أن يداوى هؤلاء الشباب الذين يفدون إليه ، خالين من كل ثقافة عربية رفيعة . يُقبلون إليه وقد حملوا سخافة المدرسين من زملائه فى نحو كله إعراب ، ومحفوظات تلمّ بالزمخشرى والحريرى ، وتقف عندهما أكثر الأحيان ، فكان الشعر الذى يلفّ رؤوسهم نظماً سقيماً ، وكان النثر صفحات عقيمة فانصرف الشيخ بدر الدين النعسانى إلى علاج ذلك كله فى صبر أول الأمر انقلب معه بعد ذلك إلى تراخ وعزوف أشبه ما يكونان بالقرف . فقد كان الشيخ وحده يصلح ما أفسده الزملاء من متعمّمين جاء بعضُهم من « جامعة الزيتونة » بتونس ، وبعضهم من جامعات المغرب العربى ،

وبعضٌ تعلق بالخطابة والمنبر الدينىّ والوعظ فكأنه عاش صباه يتعلم على النظم العقيمة ، وعاش شبابه يجاور هذه النظم نفسها ، فلا يطيق السكوت ، ولا يطيق الانصراف عن جهاده ، فكثر نقده لما يرى ، وفشت سخريته ممن كان حوله .

فلمّا قامت الحرب الأولى ، وخاضت غمارها الدولة العثمانية ، عبأت قواها كلها للدعاية والتبشير بالنصر وخاصة فى الأقطار العربية التابعة لها ، وساقت الكتاب والمثقفين إلى التحرير فى الصحف وزيارة الجبهة .

وكذلك كان الأمر بالنسبة للأستاذ « بدر الدّين النعسانى » فقد أرسل إلى « المدينة المنورة » ليصدر فيها جريدة « الحجاز » ويحرّرها بقلمه ، فظلّ على ذلك ستة أشهر لا نعرف من أمر مقالاته فيها ما يجب أن نعرف .

وسافر الوفد الذى أنشأه القائد جمال السّفاح إلى الآستانة ، وقد حشد فيه ممثلين عن كل ولاية من ولايات الدولة العثمانية ، بل كلّ مدينة من مدنها من فلسطين ولبنان وسورية . وكان سفره فى ١٥ سبتمبر ١٩١٥ عن طريق حلب وكان فى هذا الوفد الأستاذ بدر الدين النعسانى ، انضمّ إلى زمرة رجال الدين والأدب والصحافة ، وفيهم محمد كرد على ، وأبو الخير عابدين ، وعبد المحسن الأسطوانى ، وكان رئيس الوفد الشيخ أسعد الشقيرى . واستغرقت الرحلة فى البلاد العثمانية ، وخاصة فى زيارة الجبهة ، ورؤية معالم الآستانة مدّة شهرين . وقد طُبع فى بيروت كتاب عن الرحلة بعنوان «البعثة العلميّة إلى دار الخلافة الإسلامية » وصدر بها سنة ١٩١٦ .

وفى هذا الكتاب شعر ونثر فى مدح الخليفة ، والثناء على القائد العام جمال باشا ، وكان الوفد يسير على هدى إسلامى لنصرة الدولة العلية ضد أعدائها من الإنكليز والفرنسيين ، ولذلك كان يدعو أبداً لخليفة المسلمين ، ويقيم الوعظ والخطب لنصرة الأمة الإسلامية ويعدّ الحرب ضد هؤلاء الأوربيين حربَ جهاد واستشهاد فى سبيل الله وفى سبيل نصرة دينه الحنيف ، بقطع النظر عما كان من شكوى عميقة ضد بعض الحكام العثمانيين الذين كانوا ينظرون فى الجملة إلى الشعب العربى نظرة حاكم إلى محكوم ، ويودّ بعض هؤلاء الحكام

أن يستبد العرق التركى بالأمر لأنه أشرف من العرق العربى فى نظر هؤلاء العميان ، وأعرق حضارة وأقرب إلى الغرب فى تقدّمه وسيره .

وكان بعض الساسة والمفكرين من العرب يودون أن يغلقوا باب الشكوى إلى حين ، حتى يتقرر مصير الحرب لئلا يفسدوا على الدّولة المسلمة خطة النصر ضد أعدائها ، فإذا انتصرت أثاروا حقوق العرب واستقلالهم ، وإذا انكسرت تنادوا للاستقلال التام كما استقلت دول البلقان وغيرها .

وعلى هذا كان الوفد العربى يتكلم فى الحفلات والمناسبات خلال الرحلة شعراً أو نثراً ، مدفوعاً بعاطفة الدّين فى صلة ما بين الأتراك والعرب ، أو مدفوعاً بعاطفة السياسة فى صلة ما بين الشرق والشرق ، أو مسوقاً بعاطفة الإكبار للبطولة أو الإكبار للخليفة رمز السلطان الشرقى والمسلم . وكان الكلام فى الوزراء أو القواد أو فى جمال باشا نفسه ينصب على إحدى هذه العواطف ؛ لأن هؤلاء يمثلون الحكومة المركزية القائمة بحكم العرب ، والمدافعة عن حدودهم . فلا يجب أن ننظر إليهم بمنظار أيامنا وقد عرفنا أن العثمانيين كانوا مستعمرين أو مستبدين أو أعداء للقومية العربية ، فلم تكن هذه النظرة لترود أذهان رجال الوفد أو لتخطر لهم على بال .

وبهذه النظرة يجب أن نفسّر القصيدة التى أنشدها الأستاذ بدر الدين النعسانى عضو الوفد ، ووجهها لحضرة صاحب الدولة ناظر البحرية العثمانية وقائد الجيش الرابع أحمد جمال باشا ، بل يجب أن ننظر إليها الآن من الناحية الفنية للشعر فى تلك الأيام ، وشعراء مصر فى كثرتهم كانوا يباركون الخلافة ، ويدعون للانتصارات ، ويحدون فى الهلال العثمانى هلال الربوع العربية ، فلكل مقام مقال . وقد افتتح الأستاذ النعسانى قصيدته بالمدح التقليدىّ فى ذكر الجود والفضل وفى أن الممدوح كان بصيراً بأعقاب الأمور ، وأنه ينجز فى الخيرات صادق وعده ، ونظر إليه نظرة الرعية إلى رئيس قائد فقال :

ومن طلب العلياءَ والمجدَ لم يكن … إذا رقدَ الغرّ المفرّط راقـــدا
فلو أن مجد المـــرء أخلـــد ربّه … بقيتَ على الأيام فى الدّهر خالدا

على أنَّ حسن الذكر عمرٌ مجدد — وأحرِ بحسنِ الذكر للخير قائدا
رمى الله منك الأنكليزَ بصارم — صقيل يقد الهندوانيَّ غامدا
بعثتَ اليهم مُنذرين فخالفوا — وأذكوا من العُدوان ماكان خامدا

وهكذا يستمر الشاعر فى وصف بطولة القائد وفيما وقع منه ضدّ المعتدين الإنكليز ، فتلقاهم بصارم صقيل فكأن القائد التركى كان يدافع عن حمى الشاعر وبلاده ، فيفرح للنصر ويدفع للثأر ويطلب إلى القائد أن يقوم على شطّ القنال لصدّ الأعداء ، وقتل الرجال ، وأن يبعث اليّم والحريق فى القوم . ويختم الرجل بتحية القائد فى أخلاقه وفى عاداته وفى كرم أصله ونجابة أسرته ، وثبات قلبه ، ويتعلق بمدحه ليبلغ من كيد حساده مايريد ، ويعلق به رجاءه راجياً منه القبول . والمعانى فى هذه القصيدة تقال فى كل ماجد وتنشد فى كل بطل ، لأنها صورة لمديح الخليفة أو السلطان خلال العهود السابقة . وفضل الشاعر فيها لمبانيها لا لمعانيها ولا لأهدافها ، فهى مطبوعة جميلة ، تدلّ على شاعرية متدفقة سلسة فى أغراض واضحة ، لا تعمد إلى التصوير ، وإنما تعتمد على التقرير . والمهمّ فيها أنها وقفتنا على شاعرية النعسانى بعد أن أطلعتنا على أسلوبه فى التأليف والكتابة النثرية .

وليس غريباً على النعسانى أن يقول فى مدح العثمانيين فقد قال غيره قبله ، وكان فى ذلك يجارى شعراء عصره فى مصر وغير مصر — كما قلنا — ، ولكنّ الوفاء يقتضينا أن نورد له شعراً جريئاً عاتب فيه السلطان عبد الحميد على سياسته الاستبدادية وصوّر خطره على الجيش والشعب ، فقال يمتدح الجيش أول الأمر :

يا أيها الجيشُ لا فلت عزائمه — ولا برحتَ على الأيَّام منصورا
قد كنتَ أنتَ وكان الناسُ قاطبة — صنفين لا غير قهاراً ومقهورا
إذا تأوبتَ ماتَ الموتُ من جزع — وإن سريتَ تولى الدهرُ مذعورا
عواصمُ الملك فى خوف وفى قلق — وانت ترفُل فى برديك محبُورا
هم سيَّروك وناموا فى مراقدهم — إنَّ الرقادَ عليهم كان محْظورا
تشاغلوا عنك باللَّذات وانهمكوا — وضيَّعوا المال إسرافاً وتبذيرا

وكان همهم فى ذات أنفسهم ولم يكن همهم للملك تعميرا
أتيتهم بجنان الأرض ناضرة فسعّروها على الأهلين تسعيرا
تلك السياسة قضت كل شامخة ولم تدع من بناء الملك منظورا

وهذا مديح لامتداد السلطان العثمانى والخلافة الإسلامية على رقاع أوربة ، ووصف جميل فى عبارة بحترية للجيش المظفر ، كما كانوا يسمونه ، لأنه كان أملاً من آمال المسلمين كلهم ، بل كان أملاً من آمال العرب فى نصرة الشرق على الغرب .ولكنّ النقد الذى تلا هذا المديح كان مُرّاً وجريئاً وصريحاً ، يصوّر حال الساسة والقواد فى الغفلة عن الجنود والجيش ، وفى هذا الجيش جنود من العرب جاءوا من الولايات المختلفة ليدافعوا عن حوزة الملك العثمانى . فكان من العرب ضحايا كما كان من الترك . ومن حق الشاعر أن يأسى للفوضى التى استحكمت فى هيكل الدولة ، ونخرت فى عظم الحكومة ففتحت أبواباً للرشوة والفساد والتهتك والسرقة وذلك مردّه فى رأى الشاعر إلى الرأس الحاكم وهو الخليفة فقال فيه :

يا حارسَ المُلكِ لا آلوكَ تكرمةً ولستُ آلوك إجلالاً وتوقيرا
فى النفس منك أمورٌ ساء موقعها ما إن أطيق لها حلاً وتفسيرا
ملكٌ قضيتَ زماناً أنتَ تحرسُه ونام إذْ سهرتْ عيناك مسرورا
أضحى وخوفُك لا ينفكُّ يقلقه يراكَ سيفاً عليه صرتَ مشهورا
ربّيتَه زمناً ثم انثنيتَ له فلم تَدَع منه بين النّاس مذكورا
ليتَ المنية غادتْنى مصبحة ولا رأيت هلالَ الدين مقهورا
يا مسلمون أفيقوا درّ درّكهم وشمروا فى طلاب المجد تشميرا
دعوا العناصرَ والأحزابَ بينكم لساءَ ذلك مبذولاً ومنفورا
ساءَ النبيَّ وساءَ الدينَ أنكم شتّى قلوبكم رأياً وتفكيرا

وهذا التصوير صادق فى رسم السلطان واستبداده فهو نقد صريح لطريقته فى الحكم وفى أذاه للجيش والشعب ، يكاد يكون من أجمل ما قرأنا فى نقد سياسة السلطان عبد الحميد ، فى سلاسة وبساطة ويسر . وقد ختمه بنصائح تُهيب

بالناس إلى نبذ الأحزاب واحترام العناصر المختلفة ، ويدعو إلى تآلف القلوب وتآخي المواطنين من غير تفريق بين دين ودين وعنصر وعنصر . فالقصيدة كانت في الخير وفي الإصلاح وفي حب المسلمين ، لا شكّ في ذلك ، تنمّ على شعور الناس والأدباء خلال تلك الحقبة وقد أحسوا بالخطر الجاثم على الجيش والشعب معاً ، ولعلهم خافوا العاقبة الوخيمة التي آل إليها العهد العثماني .

وظلّ أبو فراس النعساني يدعو إلى نصرة الجيش والهلال العثماني كما كان يدعو إخوانه الكثيرون من المفكرين ، فهم يرون رأياً آخر يختلف عن رأي المطالبين بالانفصال ، وكان رأي شاعرنا مع كثير من الشعراء المصريين في الدعوة لنصر العثمانيين — كما قلنا — . فلما كانت سنة ١٩١٧ ، أنشأ القائدُ جمال السفاح جريدة للدعاية العثمانية ، وسماها « الشَّرق » وحشدَ فيها كثيراً من الكتاب والمفكرين ، فاجتمع على تحريرها الأستاذ محمد كرد علي والأمير شكيب أرسلان ، وعبد القادر المغربي ، ودخل فيها بدر الدّين النعساني ، وراح هؤلاء يكتبون فيها ما تطلبه الدّولة من أمور ، يبررون على لسان القائد مسلكه وينشرون عواطفه في حبّ العرب ، .وكان الناس ينظرون إلى الجريدة وإلى محرريها نظرة لا تخلو من حذر .

وجلا الأتراك عن سورية وُغلبوا على أمرهم ، ودخلتْ جيوش الفرنسيين ، فانصرف الأستاذ بدر الدين النعساني إلى التدريس وهجرَ السياسةَ ، وراح يطيف على طلابه في الثانوية الكبرى بحلب كئوس البيان طافحة ، وينثر أدبه في الأسماع فتحلو نكاته ، وتسير شواهده وقصصُه في الناس مسرى التكريم والحب ، فكان أديب حلب وحده من غير منازع . وكان طلابه ينصرفون إلى دروسه كأنهم ينصرفون إلى موسيقا متناغمة لا تكاد تنقطع خلال الدرس ، ينعمون بها ، ولا يريدون لزميل منهم أن يقطع سيلها العذب ، فدخلوا في دنيا الأدب وتذّوقه من أقرب سبيل على طريقة جميلة في التدريس ، لا تعتمد على قواعدَ جافة ومحفوظات عقيمة ، ولكنها تقوم على درس حيّ ، كان أستاذنا النعساني يعرفُ كيف يصرّفه فيبدأ بالشعر ، وتحليله ، ويعرج على السيرة الأدبية والذوق

الأدبي في نكات جميلة ، كانت تنثر في ساعة من دروس النهار ، فيقبل إليها الطلاب مشوقين منهومين ، لا يعرفون غيره ، في زرع الذكاء ، وبذر النقد ، وتحليل الكتابة ، فكانوا في كثرتهم ينشئون على غراره بساطة في التعبير ، وجمالاً في التصوير . فقد كان بدر الدين ساحراً حقاً في معالجة الموضوعات وفي عرض ما يكتبُ على طلاّبه خلال الدرس ، يستمعون إليه يقرأ ، وكأنه يرتّل أنغاماً ترتيلاً عذباً ، يحبّون تقليده ، فتسعى إلى رؤوسهم الصغيرة مفرداته وتعابيره وصوره ، وتسكن فيها إلى ما شاء الله .

وأما أماليه في دروس الأدب فكانت صورة للإنشاء الرفيع والكتابة الأدبيّة المتينة يحفظها جيل بعد جيل ، ويتناولها خلفٌ عن سلف ، فما عرفنا منذ استمعنا إليه حتى الساعة أمالىَ غيرها تُحفظ كالشعر ، وتُنشد كالنغم ، نستعملها كلما عنّ لنا أمر أو طُرح علينا موضوع . وكانت نفوسنا الفتية تعكف على شيخنا في زيه المصري وعمّته المصرية ، وقفطانه البسيط ، فتتلقّف عنه ما يقول ، وتزهى تياهة بما تسمع ، فكان الأديب حقاً ، وكان المدّرس المحبوب . ولعله كان يحسّ هذا كله ، فيجعل من دروسه محاضرات ومحاضرات ، أقرب إلى الأسلوب الجامعيّ منها إلى أسلوب التدريس الثانوي . فقد خُلق لذلك منذ كان في الأزهر ، ونقم على أسلوب الأزهر ، واختار لنفسه هذا السبيل فنجح في تكوين أدباء ظفروا به ، ومالوا إليه ، فكانت دروس الأدب فوق كل توفيق ونجاح ، وكان « بدر الدين أبو فراس » في طليعة الأساتيذ ، إكباراً وتقديراً ، كما قلنا .

وأحب أن أعرض نماذج قليلة من هذه الأمالي لأذهب إلى توكيد ما قلتُ من بيانه وطريقته في معالجة الأدب ، ولأبرّر عكوف الطلاب على هذه الأمالي وتسلقهم ذرى الشهادات بحفظهم لأساليبها ، ونجاحهم في المسابقات اعتماداً على صورها ومعانيها ، فأسوق سطوراً وقعتْ تحت عينيّ وأنا أقلب تلك الصفحات القديمة التي كتبتها بأنامل ضعيفة منذ ربع قرن ، حين كانت كتب الأدب للمدارس الثانوية تقتصر على الوسيط والزيات وحديث الأربعاء ، وهي في

جملتها لا تروى غلة البرامج ولا تقوم بما يجب لهؤلاء الطلاب الذين يقرءون بعض الآداب الأجنبية فيرون بوناً شاسعاً بين النقد عندها والنقد فى كتبنا . فلما كانت أمالى النعسانى صرفتهم إلى نقد ما يقول القدماء من غير حرج ، وإلى معارضة هؤلاء من غير إثم ، وأغنتهم عن آراء القدماء فى الأديب ، فقد كان الجيل لا يخرج عنها ولا يفكر فى نقدها . ومن هنا كانت حرية الفكر ، وكانت هذه الثورة فى عقولنا الفتية ، نقرأ الأستاذ فى بيان متين سلس سهل ممتنع كأساليب ابن المقفع ، ولكننا نجد عنده لفتات بارعة وملاحظات ذكية ، وهو فى ذلك كله يعرف أنه يكتب لطلاب المدارس لا لطلاب الجامعات فى إيجاز كثير ، وصفحات قليلة عن كل أديب ، وهى تصلح منطلقاً لكثير من الآراء ، قال فى المعرى :

« ونثره أقل طلاوة من شعره ، وأكثر خشونة ، والغرابة فى مفرداته أكثر ، والمعاظلة فى تراكيبه أظهر ، ولا أحيلك على كتابه « الغفران » ولكنى أحيلك على رسائله التى أرسلها إلى جماعة فى بعض حاجاته ، فإنك ترى فيها خشونة تمنعك من المضى فى قراءتها ، وتحس من نفسك العجزَ عن فهم المراد منها ، لالتزامه السجع والإشارة إلى كثير من المسائل العلمية والتاريخية إلى غير ذلك مما يؤثر فى رونق الكلام ويقلل من بهائه » .

وهذا أسلوب يشرب من أساليب القدماء فى سهولته ويسره ، وفى رصانته وإيجازه ، أخذه شيخنا عن الفحول لكثرة ما أطال من صحبة هؤلاء الفحول وهو يقرأ لهم ، ويُعنى بطباعة آثارهم ، ويحقق فى صحة المخطوطات التى تنقل الآثار . وأكثر الذين عاصروا شيخنا حققوا الكتب وقرت فى صدورهم تعابير الفحولة ، ومنهم أحمد زكى ، وأحمد تيمور ، والزناتى ، والمرصفى ، وشكيب أرسلان ، ومحمد كرد على ، وطاهر الجزائرى ، وغيرهم كثير . هذا من حيث براعة الرجل فى إنشائه ، أما براعته فى النقد فهى وقوفه عند الأساليب وموازنتها على طريقة لم تعهد فى كتبنا المدرسية لأيامنا ، ومعالجته لآراء النقاد من معاصريه ، فقد تحدث عن المتنبى فى هذه الأمالى فتصدى للزيات قائلاً :

« وعلى هذا فالمتنبي لم يكن من المبتدعين الذين خرجوا على أساليب اللّغة العربية كما يقول الزيات فى كتابه تاريخ الأدب العربيّ ، ولكنَّه من المتبعين الذين ساروا على طريقة من تقدّمهم فى أساليبهم وأغراضهم باختلاف قليل كما بسطناه قبلاً . وكان الواجب على من يدّعى هذا للمتنبي وابن هانئ والمعرّى ، ويزعم أنهم خرجوا على أساليب العرب المخصوصة وأطلقوا الشعر من قيد الصناعة أن يبسط لنا ذلك وأن يوضّح الأساليب المخصوصة وقيودها ، لنعرف كيف خرج هؤلاء عليها وكيف طرحوا عنهم قيودها ، أما هذا النحو من الكلام فلا ينقع غلّة ولا يشفى علّة ، والأساليب والقيود غير المعانى والأغراض» .

ونحن لا نحبّ أن نسوق صفحات أخرى من الأمالى للبرهان على رصانة الرجل واتزان عبارته ، وتملكه لعنان البيان الفصيح ، لأننا نعرض عرضاً سريعاً لما كان منه خلال التدريس ، وما قام به من خدمة بلده فى حلب ، حاضرة سيف الدولة ، والناس فى شغل شاغل عن الأدب ، يقيسون الحياة بالمدّ والصاع والقرش والذراع ، ويقيسون العلماء بما يملكون من جاه فى الدولة ومال فى المملكة ؛ والأستاذ « أبو فراس » لم يكن يملك من هذا ولا هذا ، لذلك انصرفَ عن السياسة لزمانه ، لأنها كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على القبليّة والحزبية الضيقة ، والسَّير وراء الأشخاص ، لا تهدف إلى مثالية فى غالب الأمر ، فآثر العزلة وانزوى عن النَّاس ، وراح يعيش مع ذكرياته الغالية لأيام شبابه ، يذكر أرض الكنانة بالخير ، ويعترف لها بأياديها عليه ، ويستعيد أيام شهرته حين كان يحرّر فى « المؤيد » أو يجلس إلى حلقة الإمام محمد عبده ، أو يصحّح أكبر كتب التراث . فلما أقامت القاهرة سنة ١٩٢٧ ، مهرجاناً لتكريم الشاعر أحمد شوقى أرسل قصيدته إلى « المهرجان » فكانت من أطيب الثناء ، وعبّرت عن أجمل آيات الوفاء لمصر ، قال فيها :

بَنى مِصر فديتُكم بنفسى ... وذلك كلّ ما تحوى اليدان
ولو كانت لى الدنيا جميعاً ... فديتُكم بها سمحَ الجنان
عَبرتُ بأرضكم زمناً طويلاً ... قليلَ البثّ موفور الأمانى

أروحُ وأغتدى طالقَ المحيّا كأنى من زمانى فى أمانِ
وفوقَ مهادكم نشزَتْ عظامى وتحتَ سمائكم طالتْ بنانى
ومنكم كلُّ ما أوعى فؤادى وعنكم كلُّ ما أحصَى لسانى

وهذه أبيات شخصية عاطفية لا يدرك سرّها إلاّ الذين عرفوا الشاعر الأديب فى مصر ، وعرفوه فى حلب ووازنوا بين حاله هناك وحاله هنا ، فرأوا ما بين الأمس واليوم من بون ، وغفروا له هذه الشكوى التى يقول فيها :

وأبدلنى الزمانُ بكم أناسًا يضيقُ بشرحِ حالهم بيانى
جرَوْا يتسابقُونَ إلى المخازى كأنَّ القومَ فى مَجرْى رِهانْ
أزجّى العيشَ بينَهُمُ وحيدًا فلا أنا بالمُعين ولا المُعانْ

وطبيعى أن ينتهى الشاعر من بسط حاليه فى الشباب والكهولة إلى الحديث عن شعر شوقى فيقولُ فيه :

زعيمكم له الأرواحُ ملكٌ وشاعركم لـه ملكُ المعانى
أتاه عصيهـا يسعى إليـه ذلولَ الرأس منقادَ العنان
تخير خيرَها شرفاً وقدْراً وأودعهـا ثمينات المبانى
رأيتُ بعينـه البوسفور حقًّا بما يحويه من آى حِسانِ
ومذْ أبصرتُه بعيون نفسى إذ البوسفُور كان كما أرانى
فما أبصرتُ وصّافًا كشوقى ولا بصرتْ بذلكَ مُقْلتان
إذا وصف الجنانَ نعمتَ فيها كأنَّك منه فى وصف الجنانِ
وإنْ وصفَ الجحيمَ شقيتَ فيها وضقتَ من الشقاء بما تُعانى
فما المرآةُ أصْدَقُ منْهُ نَعْتًا ولا أقوى على حِفْظِ الكيان
تريكَ ظواهراً ويُريكَ عينًا بواطنَ ليس تُدرك بالعيان

وليس فى هذا الشعر ابتكار كبير ، ولكنّه يسيرٌ سهلٌ ، يشبه نثره ، فهو يعبر عما يريد بلغة زمانه ، ويقول الشعرَ كما قالته مدرسة الشعر المعاصرة لشوقى ، فى كلاسيكية تعتمد على تقليد القدماء فى سلاسة الأسلوب وبساطة

التعبير ، تقوم على البيت من غير أن تنظر إلى وحدة القصيدة كما نظر خليل مطران وأضرابه . ونحن لا نسوق الشعر للحديث عن الشاعر ، فأكثر شعره ضائع قد التمس مكانه فى صدور طلابه وفى كراريس أصحابه ، لم يجمع منه شىء ولم يطبع منه شىء ، قد انتشر فى الناس كما انتشرت أماليه ومقالاته ومذكراته . فقد كان الرجل يحرّر فى إحدى الصحف المعارضة للحزب الوطنى ، تشفياً من أشخاص الحزب وانتقاماً لنفسه ، لأن الحزب قرّب من هم دونه ولم يتلمس السبيل إلى دعوته فى احتلال مكانته الأدبية التى يستحقها ، فأغفله ونسى أياديه ، ولم يحفل بأدبه وعلمه وثقافته متذرعاً بحجة أنّه كان خلال الحكم العثمانى مع السلطة يكتبُ لها ويخطبُ ويحرر كما رأينا . ولكنّ غيره دخل معه هذا المدخل وخرج منه إلى الوزارة والرئاسة وتسنم المناصب الرفيعة ، وبقى وحده فى حلب بعيداً عن التكريم الرسمىّ يكتفى بتكريم طلابه ، وهم اليوم يحتلّون أرفع المناصب ، ويعترفون له بأياديه على الجيل ويذكرون له علمه وثقافته وأدبه .

ومقالات الرجل فى الصحافة اليومية رصينةٌ قوية فيها إبداع وابتكار وأدب رفيع لو جمعت لكانت من خير ما ينشر فى أدب السياسة المعارضة ، فقد كانت له قصة أنشأها فى تصوير الانتخابات ، وأخرى أنشأها فى رسم الشخصيات على سبيل « كليلة ودمنة » ، فاستخدم الحيوان وأنطقه بما كان يقول الإنسان ، وكلّ ذلك حسنٌ رائع ، تهافتتْ عليه بعض دور النشر لإذاعته وطبعه ، ولكنه أبى وآثر العافية والانزواء وعزلة الناس .

وظل الكاتب « أبو فراس الحلبى » فى حلب يزاول التدريس ، بينما كان زملاؤه فى مصر يملأون الصحف ويغمرون المكتبات ، فهو فى وادٍ غير زرع ، وهم فى واد غمره الخير وخطبته الشهرة والخصب ، وكان ذلك يحزّ فى نفسه ، فيشكو إلى ضلوعه وحدها ويبثها ظلمَ الجاهل للعالم ، وينعى على الوسط ضيقه وجهله حتى ضاق صدره بما وعى . وتعبَ قلبُه مما احتمل ، ووقفت الآلة عن الدوران ، فقضى فى نوفبر ١٩٤٣ على اثنين وستين عاماً . أنفقها بين البلاد الشرقية والإسلامية فى المشرق والمغرب ، وانتهى به المطاف إلى قبر بعيد فى أرض

حلب التى أحبها وأخلص لأبنائها ، فلم تعرفْ له يدَه ولم تقدر له أدبه وجهده ، فأصبح فى المغمورين بين أهله ؛ وهو لو أنصف الزمان فى طليعة الأعلام المعاصرين بسورية .

رحمه الله رحمة واسعة .

محمد راغب الطباخ *

كان العلم إلى زمن قريب يحتضن فروعاً عدة من المعرفة ، وكان العالم فقيهاً فى الدين ، عالماً بالتفسير ، واقفاً على الأدب ، محسناً للنظم والنثر ، شأن كثير من العلماء فى القرون الوسطى ، فلم يكن ثمة وقوف خاص على الأدب دون الدّين ولا الدين دون الأدب . وكان الذى يتقن العربية يجب أن يتقن القرآن وعلومه فعليهما يبنى صرح المعرفة والتمكن من اللغة . لذلك كان أكثر العلماء والأدباء يحملون العمة وأردية المشايخ وكانوا أكثرية مطلقة فى المتعلمين يشار إليهم بالبنان .

ولم يكن فى الشام مدارس تنشئ هذا الجيل من الشيوخ إلا الجوامع والزوايا والكتب القديمة يقرؤونها ويلخصونها بعقلية معينة لا تتصل غالباً بعقلية القرن العشرين ومنهم : من وهبه الله فطرة سليمةً واندفاعاً وراء العمل فأبدعوا ونقلوا إلينا علم الأولين واختصروا لنا كتبهم الطّويلة ذات المجلدات الضخمة ، فأفادوا وأكسبونا يداً على أيادى العلماء الأولين ؛ ومن هؤلاء الشيوخ الأستاذ محمد راغب الطباخ .

ولد الرجل فى حلب ١٨٧٦ م (١٢٩٣) بحىّ من أحيائها القديمة هو حىّ « باب قنسرين » ، يزخر بشواهد التاريخ العربية ، من أبنية عريقة وكتابات تلمع بالأمجاد ، وكانت داره تواجه هذه الأبنية وتعيش بينها ، فكأنه كان يصبح على رؤية التاريخ الماجد ويُمسى على هذا التاريخ ، وكأنّ عينيه منذ تفتحتا على النور ذهلتا لهذه الضخامة فى صفحاتنا ، وحاولتا أن تفهما أسرارها وأن تقرأ سطورها ، ولكن هذه الصفحات كانت دفينة مطوية لا تدركها عيون كعينيه وقلب فتىّ كقلبه .

---

* محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ ١٨٧٦ م – ١٩٥١ م .

فلما أنهى الشهادة الابتدائية سنة ١٨٨٨ للميلاد ، انصرف إلى دكان أبيه ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وأبوه كان يعيش مثل أجداده على أمرين ، هما التجارة والعلم ، يعمل نهاره للبيع والشراء ، وينصرف ليله إلى هذه الكتب الصفراء القديمة فانصرف الفتى إليها فوجد فيها عسراً كل العسر ، ورموزاً لا يفقهها ، لذلك راح يلمّ بحلقات الشيوخ فى حلب وكانت عامرة برجالات العصر وشيوخ الزمان ، فأخذ عنهم وطبع قلبه بطابعهم ، وكان أهمّهم أربعة هم : الشيخ محمد كلزية ، والشيخ محمد رضا الزعيم الدمشقى ، والشيخ محمد الزّرقا ، والشيخ بشير الغزّى . وكان لهؤلاء الشيوخ أثر كبير فى نفسه ، فقد كانوا أعلام البلد وقادة الفكر الدّينى فيه ، فأما الشيخ محمد كلزية فقد كان بارعاً فى النحو واقفاً على أصوله متبحراً فى قواعده ، فأخذ عنه الطباخ فيما بعد طريقته وعلق بها ، وأما الشيخ الزعيم فقد كان على جرأة نادرة وعكوف على تدريس الدّين وحب للإصلاح جعله موضع الإكبار ، فأفاد منه الشاب وظلّ يذكره حتى كانت له بشأنه حوادث اتصل فيها بحاكم سورية فيما بعد[1] . وأما الشيخ الزرقا فكان ثقةً ومرجعاً فى المذهب الحنفى وكان بحراً واسع المعرفة فى فروعه وأصوله طبع الرجل بطابعه ، فألّف فيما بعد كتباً واضحة ميسرة فى الفقه ، والشيخ الغزّى وحده كان يلم بالشعر وشواهده والأدب وكتبه .

وكان « الطّباخ » خلاصة هؤلاء الأربعة فيما بعد ، كما يستطيع شاب مجتهد أن يكون خلفاً لأساتيذه ، وهو يجرى فى ميدانين لا صلة بينهما هما التجارة والعلم . فالمدينة تحوى خزائن خطية لا عداد لها ، وهى غنية بالكتب القديمة المكتوبة بأقلام أصحابها ، تعد من النوادر فى العالم العربى ، وقفها أصحابها فى جوامع ومدارس لاذ بها الشاب وعكف عليها خلال فراغه . والمدينة تجارية صرفة تعيش على نشاط واسع آنذاك فى البيع والشراء ، فأخذ الطباخ من هذا وهذا فكان فى التجارة موضع الأمانة والثقة والتقدير ، وانتخب مرات عضواً فى

---

(١) كان ابنه قد تسلم الحكم إثر انقلاب عسكرى ، وصدر كتاب عن عهده عنوانه « من ذكريات حكومة الزعيم حسنى الزعيم » للأستاذ فتح الله الصقال — دار المعارف بمصر .

الغرفة التجارية لأمانته ودربته وكان فى المراجعة والدراسة والقراءة والتعلم على مثل عال فى التجارة فانتخب عضواً فى مجلس المعارف سنة ١٩١٠ وسنه لا تتجاوز الرابعة والعشرين .

ومن العجيب أن يظل فؤاد الرجل عالقاً بأمرين اثنين معاً، فلايستطيع أن ينصرف إلى هوى ضلوعه فى المعرفة والثقافة فحسب ،لأن الحكومة لم تكن تحتضن هؤلاء الدّارسين ولم تكن ترعاهم ، وكان من الواجب أن يعيشَ العالم على رزق وأن يتخذ له مورداً . وقد أحسّ الشابّ بهذا ، وملّ التجارة والبيع ، فانصرف آخر الأمر إلى التدريس وعاف الدكان وأصبح يعيش نهاره وليله للعلم والتعليم . وعيّن مدرساً للعربية والإنشاء والدين فى مدرسة « شمس المعارف » سنة ١٩١٨ ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، وظلّ فى التعليم قرابة أربع عشرة سنة بهذه المدرسة ، وقد انقلب اسمها فيما بعد إلى « المدرسةالفاروقية »نسبة إلى ابن الخطاب ، وكانت المدرسة الأهلية الأولى فى ثقافة العربية والعمل للقومية ، ونشدان المعارف والعلوم العصريّة ، تقوم بنشاط واسع فى هذه المدينة ، فتحيي مفاخر الحمدانيين بالشعر والنثر ، على خطابة وتمثيليات ومجلة سائرة ، وحفلات زاهرة ، فتخرّج بها أعلام الحلبيين ممن أصبح إليهم أمر الحكم والثقافة والقضاء والوجاهة وسائر فروع المعرفة .

وفى هذه المدرسة عرفنا الرجل صغاراً ، وكان على نشاط كبير ، يلقّن العربية والتاريخ الإسلامى والدّين ، على أسلوب حسن يختلف عن غيره من الشيوخ ، فقد كان الرجل يعشق العربية شعرها ونثرها، ويهيم بتاريخ سورية، هياماً كبيراً ، وكان يتعلق أبداً بالكتب المخطوطة والدواوين المطوية ، والآثار اللغوية ، فيهيب بنا إلى إخراجها وتحقيقها ، والرجوع إليها ، فقد طغت آنئذ فكرة الترجمة على كل ما ندرس حتّى خلنا أن سيرة النبيّ يجب أن تستخرج من الفرنسية . وقاوم الرجل فى سبيل ذلك خصومه ، وصمد لأعدائه وحساده فقد كان يسير على أثر المصلحين فى إحياء التراث والدعوة للوحدة ، وإيثار العرب ، والتعلق بحضارتهم ، وكان الشيخ مشرق الوجه أبداً أبيض البشرة ،

تحمرّ وجنتاه خجلا وتواضعاً إذا سمع مديحاً أو ثناء ، يتردّد فى لفظه ، ويتأنى فى تعبيره ، ويمتلك مادّته ، وهو لم يتمّ دراسته الثانوية ولم يدخل الجامعة ، ولكنه كان يأخذ بأساليب السلف فى التعلم والتعليم .

وكنا نتّصل به خارج المدرسة ، ونعقد حوله جلسات العلم ، فقد أبى أن يكون نظريًّا فى حياته ، وإنما أنشأ مطبعة يصدر فيها آثار السلف وكتب التاريخ والأدب سمّاها « المطبعة العلمية » ، وذلك سنة ١٩٢٢ وفى هذه المطبعة كنا ندخل عليه وهو مكبّ على مخطوطة قديمة يعالج خطوطها ، ويعلق على سطورها ، ويسلمها إلى المطبعة لتصدر عن هذه المدينة التى ما كانت تعرف ناشراً ولا محققاً ولا ساعياً فى إحياء التراث القديم . فكان لذلك كله غريباً فى بلده ، نادراً فى قومه ، يشبه هؤلاء الأعلام الذين كانوا يعيشون فى مصر مثل عيشه ، ويعكفون على المخطوطات نهارهم وليلهم أمثال أحمد تيمور ، وأحمد زكى ، ومحبّ الدين الخطيب .

وفى هذه المطبعة أخرج الشيخ راغب الطباخ عدداً من الكتب القديمة وصلت إليها يده فى الفقه والتاريخ والأدب ، ما كانت لتخرج لولاه . فقد خلا الميدان قبله وخلا الميدانُ بعده ، وكان هو وحده يكتب ويحبر ويعلّق ويصحّح المطبوع ، ويرسله إلى العلماء والمستشرقين ، فكان جماعة فى رجل ، وكان رجلاً يعمل عمل جماعة .أصدر « المصباح » على « مقدمة ابن الصلاح » ، ومعالم السنن للخطابى ، « والدلائل والاعتبار » المنسوب للجاحظ ، « وفضل الخيل » للدمياطى ، و « دمية القصر » للباخرزى ، وغيرها من كتب لا يتسع لها هذا المكان جاوزت العشرين فى عددها ، ونشر « الروضيات » للصنوبرى ، وعُنى « بأبى فراس الحمدانى » ، كما عنى بغيره ، ولكن التدريس كان يسدّ عليه أكثر وقته ويصرفه عن هذه الذخائر ، كما يصرفه عن أهم عمل قام به وهو تأريخه لمدينة حلب .

وذلك أن الأستاذ الطباخ كان متعلقاً بتاريخ البلد ، حريصاً على معرفة آثارها وصفحاتها ، متأثراً بالبيئة والوسط ، يصبح على بناء شامخ ويمسى على

مسجد عظيم — كما قلنا فى نشأته — فالحىّ الذى يعيش فيه تلفه شواهدُ التاريخ ، وتنيره هذه القلعة التاريخية الضخمة التى سخرت بالقرون وظلت شامخةً على الزمان ، فانصرف إلى جمع الآثار المخطوطة والمطبوعة ، وأحصى هذه المصادر التى تتحدّث عن تراجم الحلبيين ، وتلمّ بتاريخ المدينة ، فجمعها على سنين ، وأصدرها فى سبعة أجزاء كبيرة تحوى كلّ ما تفرّق فى المخطوطات والمطبوعات من تراجم الرجال ، رتبها الرجل على السنين كما يفعل القدماء ، وذكر مصادره كلّها بين يدى كتابه ، فخرج أوسع ما ظهر فى المطبعة عن هذا البلد وأصبح مرجعاً ثميناً من مراجع التاريخ .

ولعلنا نجد شبهاً كبيراً بين فكرة تأليفه عن حلب وفكرة « محمد كرد على » فى تأليفه « خطط الشام » عن دمشق والشام كلها ، ولكنّ الرجلين يختلفان مشرباً وثقافةً ويختلفان منصباً وعيشاً ، فقد أتيح للرئيس « كرد علىّ » أن يرحل وأن يطوّف وراء المصادر والمخطوطات ، فرحل إلى أوربة عدة مرات ووقع على خزائن المستشرقين وفيها صور المخطوطات وجملة المطبوعات فى اللغات العربية والغربية ، وكان الرجل وزيراً مرتين ورئيساً للمجمع العلمى بدمشق أبداً ، فلقّى من العون واليسر ما لم يستطع أن يلقى هذا الشيخ . وقد رحل « الطباخ » مرة واحدة إلى الحجاز مع والده وعمه للحج وسنه أربع عشرة سنة ، ومات عنه أبوه وهو فى الخامسة عشرة ، فكان عليه أن يقوم بأمر الأسرة ، وأن يُعيل من حوله ، وأن يعمل للعيش فى محيط مادىّ تجارىّ ، فلم يتعرّف إلى لغة أجنبية ، ولم يسافر إلى بلد غربىّ . وكان طوال عمره يتحسر على ذلك ، وكان يشكو لى كلما اجتمعنا حاجته إلى المخطوطات ، ورغبته فى التطلع إلى الخزائن الغربيّة ، فلما طبعتُ « ابنَ العديم » غبطنى أشد الغبطة فى الحصول على نسخته . وكم كان يتمنى أن يقع على « بغية الطلب » لابن العديم ، وهو كبير يترجم لآلاف الحلبيين ، فى أجزاء كثيرة لم يصل إليه منها إلاّ واحد فرح به وأخذ عنه ، ولو وصل كله لتضاعف حجم كتابه ، وسدّ فيه ثلمة ، ولكنه قضى دون هذه الأمنية الغالية ، فالموازنة بينه وبين محمد كرد على قريبة

فى العمل للتاريخ فحسب ، ولكنها بعيدة فى طريقة العمل وفى الوسائل والسبل .

والشبه الكبير الذى نستطيع أن نعقده هو بينه وبين زميله ومعاصره الشيخ كامل الغزىّ ، فقد فكرا معاً فى تأليف كتاب عن حلب ، فجعل الطباخ عنوان كتابه « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » وجعل الغزى عنوان كتابه « نهر الذهب فى تاريخ مملكة حلب » وسار الرجلان فى التأليف والجمع والتنقيب ، وكل منهما يعرف أن زميله ماض فى ذلك ، وكلّ منهما كان يرحب بكتاب زميله ويشوّق له ، ويعلن ذلك لقرائه ، فما وقع بينهما ما يقع عادة بين المتعاصرين من حرفة واحدة وعمل واحد وتأليف واحد . وكان « الطباخ » يعترف أنه مضى إلى زميله يسأله عما هو بسبيله فى تأليف الكتاب ، فيريه زميله ما سطّر ، ويبيح له نقل ما كان يريد منه ويعلن الطباخ أنه نقل كذا وكذا ، فما يجد غضاضة وما يجد عسراً فى هذا التصريح فما يحطّ من قدر العالم إذا أخذ وذكر ، وما يشين من عمله إذا أفاد وصرّح ، وكذلك كان هذان المؤرخان يتمّ كل منهما بكتابه ما نقص الآخر ، ويعملان معاً فى خدمة التاريخ لبلدهما .

وقد كان كتاب الغزّى فى ثلاثة أجزاء مبوبة ، أخذ أكثرها من تنقيبه ومن إحصاءات الدوائر ، وأفواه العلماء ، فكان الكتاب لامعاً حقًّا وذكيًّا حقًّا فيه عمل شخصىّ وابتكار ظاهر ، فقد أفاد الشيخ الغزّى من صحبة الأجانب فى حلب ونفعه اتصاله بدمشق وغير دمشق ، فعاد ذلك على كتابه بخير وفير ، وفضّله كثير من المستشرقين على كتاب زميله .

على أن كتاب « الطباخ » جامع شامل ، عمل فيه صاحبه كما عمل القدماء ، فجمع كل ما وقع له من غير تخير أو حذف أو انتقاء ، وكان مصدراً يجمع المصادر ، ليس لصاحبه فيه كبير رأى ظاهر كما يرى كثير من النقاد ، ولكن ذلك لا يضير الكتاب ولا يحطّ منه ، فتلك طريقة جرى عليها غيره ، وتبعها وعمل فيها كما استطاع بجهد كبير ، لا تدعمه دولة ولا تعينه جمعية ، وإنما ينفق من جيبه ، جزءاً بعد جزء فاستغرقت طباعته ثلاث سنوات (١٩٢٣ — ١٩٢٦) ، واضطر مع ذلك إلى أن يبيع هذه الأجزاء خلال الحرب

الثانية وضاَئقتها بالمكيال ، لأنّ المثقفين الذين يشترون الكتاب فقراء، وغيرهم تلهيهم تجارة الحرب فالتهمه الباعة يجعلون ورقه مع كل بضاعة وسلعة ، حتى ضاعت نسخ هذا الكتاب ، وضاع معه جهد العالم الذى سكب نور عينيه فى سبيله وأذاب شبابه وحياته فى تصحيحه والعناية به .

ولعلّنا أطلنا الوقوف عند تاريخ الشهباء لطول الكتاب وضخامته ، فقد أنفق فيه الرجل اثنتين وعشرين سنة ، ولكن مسعى الطباخ لم يقف عنده ، وإنما جمع أشعار الحمدانيين وغير الحمدانيين وتسقّط مئات المصادر المخطوطة والمطبوعة ، فطبع ما عرف من شعر « الصنوبرى » ونشر دواوين عدّة للحلبيين الذين عاشوا خلال القرن الحادى عشر للهجرة ، وقد ذكرنا أنه حقق « دمية القصر » للباخرزى وغيره من كتب الأدب ، فلم يقف جهده على التاريخ ، وإنما صرفه فى سبيل الأدب كذلك ، وألف كتباً فى الدين وفى الإعراب انتفع بها جيل كامل كان منقطعاً عن كثير من المصادر الأصيلة .

وكان أكثر ما يشغل الرجل سعيه فى سبيل التوفيق بين العلوم الكونية الحديثة وعلوم الدين ، فنظر فى السير وفى التاريخ ، وحاول أن ينفع طلابه فى المدارس العلمية الدينية ، فانتصر انتصاراً كبيراً حين أدخل الدروس الجديدة فى هذه المدارس . فقد عين الشيخ الطباخ سنة ١٩٢١ مدرّساً فى « المدرسة الخسروية » وهى لتدريس الشرع الإسلامى ، علم فيها العربية والتاريخ الإسلامى والفقه ، وظلّ يعمل لخيرها ويرقى بها صعداً فى منافسة مدارس الحكومة حتى وفق إلى ذلك توفيقاً كبيراً ، وغدا مديراً لها سنة ١٩٣٧ ، وهى أكبر مدرسة شرعية فى حلب . وقد كلفه ذلك عداوة الحساد والمبغضين « الذين لا يعملون ويؤذى نفوسهم أن يعمل الناس » فقاموا لحربه وتصدّوا لأعماله لأن ذلك يكشف عن أعمالهم ، ويجهز للبلد علماء صالحين يفقهون ما يصنعون .

وأما مساعى الطباخ فى سبيل جمع المخطوطات والحرص عليها ، والسهر على ما فى الجوامع منها والتكايا ، وإحصاء ذلك كلّ حين ، فهى مساع تفوق حدّ الوصف وتستحق من جيلنا الشكر والإكبار والاعتراف بالجميل ،

تشبه إلى حد كبير ما صنعه الشيخ طاهر الجزائرى فى سبيل دمشق . وقد رأى الرجل قبل أن يموت كيف جمعتها الحكومة فى مكان واحد ووكلت بها أميناً ، فأصبحت فى منجاة من السرقة وأيدى السوء وبذلك تحقق أمل كبير من آماله وقضى قرير العين .

ولعل هذه المساعى جميعاً هى التى دفعت « المجمع العلمى العربى » بدمشق إلى انتخابه عضواً مراسلاً له ، يحرّر فيه ويكتب وينقد ، فيقع فى ذلك كله موضع الإكبار والتقدير ، وهى التى دفعت كذلك كبار المستشرقين إلى الكتابة إليه ، وسؤاله والاتصال بما يعرف عن مصادر التاريخ والفقه والأدب ، فقد كان مع « الغزى » فى حلب حجّة فى هذا ، وما يكاد غيره يهتم بالتراث القديم أو ذخائره ، فهو محجة الزوار من العلماء ، ومقصد المستشرقين الوافدين ، وكعبة الطلاب النابهين الذين يريدون أن يسلكوا سبيله فى التحقيق والتدقيق والنشر . وقد تخرج على يديه عدد منهم وطبعت برعايته كتب على أيديهم ، وانتفع به شباب كثير ، وتغيرت نظرة طلاب الشريعة تغيراً كاملاً إلى العلم والأدب ، فراحوا يشاركون فى أبواب المعرفة الدنيوية ، وفى علوم الجامعة ، فدخلوها وخرجوا منها على أرفع الدرجات وأسمى الشهادات ، وهم جميعاً يشهدون له بالتشجيع والثناء والعون .

وقد خط الأستاذ الطباخ سبيل التأليف الحديث أمام طلابه بالخسروية فأصدر كتاباً فى الثقافة الإسلامية ، وآخر عن إسكندر ذى القرنين ، وثالثاً فى تبسيط المعرفة الإسلامية فكان له فى كل فن تأليف ، وفى كل تأليف تجويد وإحسان .

وكان الطباخ على اشتغاله فى العلم والتحقيق والتدقيق والطباعة والتدريس ، يعمل لخير بلاده فى النواحى الاجتماعية والوطنية . فكان يحاضر فى الجمعيات ويرقى المنابر ، ويكتب فى الصحف ، ويترجم للأعلام ، ويتحدث عن الأحياء والمساكن والآثار ، وقد ترأس « جمعية البر والأخلاق الإسلامية »

وكانت غايتها الإصلاح الاجتماعى والدعوة الدينية والإرشاد القومى ومناهضة الاستعمار وجمع العرب ، فلقى فى سبيلها عنتاً كبيراً ، وعمل فى مطبعته على طبع المنشورات القومية التى وقفت للانتداب المشئوم إبان الضيق والإرهاب . فجاهد مع الزعماء الوطنيين فى خدمة الاستقلال ، ووقف له الزبانية بالمرصاد ، فهجموا على مطبعته ، واستلبوا ابنه منها وهو فى الخامسة والثلاثين فقضى بين أيديهم على وسائل الإرهاب والتعذيب ، واحتسبه عند الله فى سبيل الوطن . وما لانت له شكيمة ولا وهنت له عزيمة ، وظلّ يناضل بقلمه ولسانه ومطبعته حتى تعب جسمه ، وكلت يداه ، وضعف بصره ، وأدركه المرض والشيخوخة ، ففاضت روحه الذكية سنة ١٩٥١ ، بحلب على خمس وسبعين سنة ، قضاها فى خدمة بلده وأمته على خير ما يصنع العلماء الأحرار والمؤرخون المخلصون ، ورجال الدعوة والإصلاح رحمه الله .

عبد القادر المغربي *

قدمت أسرة الرجل من « تونس » وكان جده الأعلى « طورغود باشا » أمير البحر التركى المتوفى ١٥٦٤ م والمدفون فى طرابلس الغرب ، فدعيت بعد ذلك باسم « درغوث »، ويبدو أن جدّه « عبد الرحمن » تولى منصب الإفتاء فى اللاذقية وطرابلس والشام ، وتوفى سنة ١٧٧٧ م ، وسكنت أسرته بعده مدينة « طرابلس الشام » ، وتعلق أفرادها بالفتيا والقضاء والعلم فى طرابلس الشام وفى تونس جميعاً ، وكانوا موضع الاحترام والتقدير فيهما ، ونسبوا إلى المغرب ، وكان أبوه « مصطفى » صورة لأجداده تعلق كذلك بالعلوم الشرعية فذهب إلى مصر ودرس فى الأزهر ، وعاد إلى بلده ثم تنقل فى وظائف القضاء بين دمشق وطرابلس واللاذقية ، وكلها مدن لإقليم واحد آنذاك ، لا تفصل بينها حدود ، ولا تعوق أفرادها عوائق عن الرحلة والعمل والاجتماع . وكان « مصطفى » يعمل للشرع الإسلامى ، ويكتب ويؤلف ، ويجتمع إلى أكابر الرجال ، فاتصل بالأمير عبد القادر الجزائرى ، وهو مغربىّ كذلك قدم من الجزائر ، وتوطّدت بينهما وسائل المحبّة ، وسافر إلى الآستانة ثم عاد إلى طرابلس ، وانتقل إلى اللاذقية قاضياً .

وفى هذه المدينة السّاحلية ولد « عبد القادر المغربى » سنة ١٨٦٧ ، وظل فيها صغيراً يحبو ، حتى انتقل به أبوه إلى « طرابلس الشام » فعاد إلى بيته العامر بالزّوار والوجهاء ، وتفتّحت عينا الطفل على خزانة غنية واسعة بكتب الدين والتاريخ ، مما جلبه أبوه من مصر ، ومما حصله فى بيروت ، فيها المخطوط والمطبوع ، فأحسّ الفتى بجمال هذه المائدة الشهية من كتب مزوّقة منمقة

---

* عبد القادر بن مصطفى بن عبد الرحمن درغوث ١٨٦٧ م — ١٩٥٦ م .

مرصوفة جميلة ، يقبل إليها صباحاً وينصرف عنها مساءً ، وألفها ، وتذوق ما كان يعرضه أبوه من صحاف النحو والإعراب واللغة ، وكانت آنذاك فى المتون العلمية كالألفية والأجرومية والسنوسية ، فانصرف اليها ذهنه وحفظ منها ، فطبعته بطابعها أمداً طويلا ، وأعانته عوناً كبيراً ، وكانت له زاداً فيما يستقبل من أيام ومجامع .

وقد ختم الفتى القرآن الكريم وسنه عشر سنوات ، واختلف إلى « المدرسة الوطنية » بطرابلس ، وهى أول مدرسة عصرية أنشئت فى ذلك البلد ، أسسها عالم كبير مصلح هو الشيخ « حسين الجسر » ، وأحسن رعايتها وترتيب برامجها بالنسبة لتلك الأيام ، وقد دخلها معه فتى ناشئ من طرابلس كان له أثر كبير كذلك فيما بعد فى الإصلاح والأدب واللغة والسياسة هو « محمد رشيد رضا » وقد جمعت بينهما المدرسة وحب الشيخ حسين الجسر ، والالتفاف حول آرائه فى الإصلاح والثقافة ، وظلا صديقين حميمين منذ ذلك الحين حتى طوتهما المنون . وتنبه العثمانيون إلى خطر المدرسة وصاحبها ، فأقفلوها لأنها سبيل إلى الحرية وانطلاق الفكر العربى ، فغادرها الأستاذ الجسر ، ولحق به بعض تلاميذه إلى بيروت وفيهم عبد القادر المغربى ، حتى إذا عاد الأستاذ رجع معه تلميذه إلى طرابلس .

واعترف « محمد رشيد رضا » بأنه كان يقبل على الجرائد المصرية الممنوعة مع زميله المغربى ، وكانت تحمل إلى طرابلس فى برد القناصل الأجانب ، وكانا يشغفان بها حبًّا لآرائها الصريحة ولغتها الفصيحة ، وأساليبها المجددة ، فاستقر حبّ القطر المصرىّ فى نفس كلٍّ منهما وهما فى أوائل الشباب .

وكان المغربىّ قد أخذ من دراسة علوم الدين بنصيب وافر فى طرابلس ، وحفظ آى الذكر ، وتفهم الحديث النبوى ، وأطرافاً من اللغة ، فقد كان إمامه فى طرابلس الشيخ حسين الجسر يقرأ له فى جريدته التى ينشرها « طرابلس الشام » ، ويستمع إليه فى دعوته الإصلاحية لخير المجتمع الإسلامى . فلما وفد إلى بيروت أقبل على شيخ آخر كان له باع كبير فى العلم والإصلاح كذلك هو

الشيخ أحمد عباس الأزهرى ، وكان ناظراً «للمدرسة السلطانية» وفى هذه المدرسة رأى بين أيدى الطلاب جريدة « العروة الوثقى » التى كان يصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمّد عبده ، وسمع من أستاذه الأزهرى عن مكانة «العروة » والغرض من صدورها ، فراح يقرؤها ويحفظ منها ، وينسخ من مقالاتها بيده ، وهى شديدة على الأوربيين المستعمرين مخلصة فى العمل لخير العرب والمسلمين ، فتأثر بآراء الرجلين أشد التأثر ، وحمل فى صدره حماستهما للإصلاح والكتابة ، وكان لطريقتهما فى الكتابة والإنشاء والمفردات والتراكيب أكبر موجه لأسلوبه وإنشائه ، وأصبح لهؤلاء الأساتذة : الجسر ، والأزهرى ، وجمال الدين ، ومحمد عبده مكان الصدارة فى حياته ، لم يفارقه حتى قضى ، لأنهم كانوا الأنوار التى تهديه والمشاعل التى تنير سبيله والصّوى فى طريقه .

فلما حصل « جمال الدين الأفغانى » فى الأستانة سنة ١٨٩٢ ، سافر إليه الشاب « المغربى » وهو لما يتجاوز الخامسة والعشرين من حياته ، وظل فى الأستانة دار الخلافة بجواره سنة كاملة ، بسط أثرها فى نفسه وفى آرائه بكتاب نشره عن « جمال الدين » فى سلسلة « اقرأ » لخص فيه حياة الأفغانى وآراءه ، وما كان له من أثر فى المسلمين وفى نفس المغربىّ . والكتيب مصدر عن حياة المصلح وتلميذه المغربى لا يستغنى عنه من يريد فهم الرجلين ومبلغ الصلة بينهما فى الفكر والإصلاح ، وقد علمنا أن المغربى حاول خلال إقامته باستانبول أن ينخرط فى سلك القضاء الشرعى ، وكان فى الأستانة معهد خاص لذلك ، ولكنه لم ينجح فى طلبه ، فعاد دون ذلك ، ولو نجح لتغيرت حياة الرجل ، وأصبح صورة عن أبيه فحسب ، لا يلمّ بما كان منه بعدها ولا يتعلق بالصحافة والكتابة والمجامع .

وعاد الشاب المغربى إلى طرابلس يدرس آثار جمال الدين وتلميذه محمد عبده ، ويقف عندهما وقفة طويلة فى الفهم وفى الاحتذاء والتقليد ، يريد أن يكون صورة عنهما وأن يسير على أثرهما فى الدعوة وفى الكتابة ، فراح ينشر هذه الآراء بين قومه ، وينهض للتنبيه والتحذير وإصلاح حال المسلمين وإحداث انقلاب

دينى فى الناس ، وعودة صادقة إلى جوهر الدين ، وإزالة القشور والبهرجة والزيف عنه ، وزحزحة المتعمّمين من الجهلاء والخادعين من المترعّمين فى السياسة ، والسعى إلى الحرية ، والخروج على هذا الجوْر الذى كان يفرضه زبانية السلطان عبد الحميد . وكان من المغربى نثر وشعر ، نعرض هنا للشعر فى رواية أبيات لنشير إلى الفكرة التى كانت تراود رأس الشاب وإلى الأسلوب الذى كان ينطلق على لسانه مما يصوّر الأدب فى بلده والطريقة الشعرية. قال المغربى :

بلّغ أمير المؤمنين نصيحةً تبغى القبول ولا تُريد ثوابا
قبرٌ تعمره ببدرة عسجد وتُعيد عمرانَ البلاد خرابا
تكسو الدعىّ الحلّة البيضاء إذ تكسو الشعوبَ من السّواد ثيابا
تَجبى الضرائبَ من فقير مُملقٍ تغنى بها المتملقَ الخلاّبا
تُقصِى إلى الأطراف كلَّ محنكٍ وتبيتُ تُدنى النوكَ والأوشابا

وهذه صيحة شبيهة بالصيحات التى كان يطلقها المصلحون قبله أمثال عبد الرحمن الكواكبى من الأحرار ، وهى صيحة صريحة تبين عن الأعمال التى كانت تجرى فى عهد عبد الحميد ، فقد بنى الخليفة ضريحاً لوالد أبى الهدى الصيادى فى حلب وجعل له زاوية أنفق عليها الذهب النضار ، وخرب البلاد بالضرائب وكسا الشعب العربىّ بالسواد وأقصى الأحرار والمصلحين وقرب الحمقى والأوباش من الجواسيس وبذلك أضاع الملك وهدم الخلافة .

وطبيعى أن يغضب السلطان وأن يغضب رجاله وأن ينتهى ذلك بالمغربى إلى السجن ، فاعتقل فى طرابلس ليلاً وسيق إلى بيروت سنة ١٩٠٤ تحت الحراسة ، وهو فى السابعة والثلاثين من العمر ، وفتّشت الحكومة خزانته وأوراقه ، ثم أفرجت عنه بعد أشهر ، وفرضت عليه رقابة شديدة .

وضاق الرجل بالعيش فى هذه الربوع السجينة ، وكاتبَ زميله الشيخ محمد رشيد رضا ، وكان الرشيد قد حصل بمصر ، وحظىَ عند الشيخ محمد عبده ، وارتفع شأنهُ فى مصر وراج قلمه ، فأراد أن يكون فيها وأن يحاول حياة جديدة ، فقر

قراره على الهرب ، وسافر خلسةً إلى « قبرص » وركب الباخرة الخديوية وبلغ مصر فى يونيو ١٩٠٥ .

وبعد وصول المغربى إلى مصر ، قضى الشيخ محمد عبده وُحرم المغربى من عونه وإرشاده ، فتولى إلى الصحافة وراح يحرّر فى جريدة « الظاهر » التى كان يصدرها المحامى محمد أبو شادى ، وقد حرّر فيها كذلك محمد كرد على ، ثم دعاه الشيخ على يوسف إلى التحرير فى جريدة « المؤيد » سنة ١٩٠٦ خلفاً لعبد الحميد الزهراوى . فأنشأ الرجلُ ينشر مقالاته فى صفحات « المؤيد » خلال ثلاث سنوات ، كانت خيراً وبركة على الشيخ المغربى ، وكانت واسطة شهرته فى مصر وفى غيرها ، وكانت نواة لأدب فى المقالة والمحاضرة والتأليف أصبحت زاداً له فيما بعد وموضع تقدير وإكبار من النقاد والدارسين من العرب والمستشرقين ، وجعلته فى مصاف زعماء الإصلاح فى الكتابة والنقد الدينى .

ولما أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ تنفس المغربى الصعداء وعاد إلى سورية ليقرّ عيناً بلقاء أهله ، ومنها كان يواصل التحرير والكتابة ، فتنشر له كبريات الصحف فى مصر كاللواء والمؤيد والشعب وغيرها ، مما دعم شهرته ومكّن له فى بلده وغير بلده .

وفى سنة ١٩١١ ، أنشأ فى طرابلس الشام جريدة « البرهان » وراح يحرّرها بنفسه ويدعو للإصلاح ووحدة الكلمة ، وقد بلغ الرابعة والأربعين ، ونضج تفكيره واستوى بيانه وعرف بين الكتاب ، وكان يكتب فى جريدته كبار الكتاب آنذاك كالأمير شكيب أرسلان وإسعاف النشاشيبى وغيرهما ، فنشأت صداقة وطيدة بينه وبينهم ، وأصبح فى الأعلام المشهورين .

وفى سنة ١٩١٤ فكّرت الحكومة العثمانية فى مقاومة التبشير الذى أنشب أظافره ببعض الرّقاع العربية ، وحزمت الأمر على إنشاء كليات إسلامية فى الدول العربية ، فأنشأت وفداً لتأسيس كلية فى المدينة المنورة وجعلت الوفد من شكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش وعبد القادر المغربى . وسافر الوفدُ إلى المدينة فى هذه الغاية ، وأنشأ المعهد المذكور ، ولكن الحرب قامت فجأة

فقضت على المشروع ، وعاد الوفد إلى سورية . وهذه الحرب نفسها عطلت البرد وقطعت الاتصال بين الأقطار ، فاضطر المغربى إلى إيقاف جريدة « البرهان » لعجزه عن متابعة السير ، ولوقوف الهند ومصر عن عونه وتسديد الاشتراك .

وفى سنة ١٩١٥ ، عادت وزارة الأوقاف العثمانية إلى فكرة كلية إسلامية ، وفكرت فى إنشائها بالقدس ، ودعت الوفد نفسه إلى السفر ، وسافر الوفد وكانت « الكلية الصلاحية » تيمناً باسم صلاح الدين ، وذكرى لمدرسته الأولى فى القدس ، وظل « المغربىّ » فيها يدّرس الآداب والبلاغة والسيرة النبوية .

وفى سنة ١٩١٦ أنشأت الحكومة العثمانية « جريدة الشرق » للدعاية لجيشها وللعمل على جمع المسلمين تحت راية الخلافة ، واستدعت رجال الوفد الذين أوفدتهم إلى المدينة وإلى القدس ، وأضافت إليهم رجالاً آخرين ، وأسندت إلى هؤلاء تحرير هذه الصحيفة ، واشترك فيها محمد كرد على ، وبدر الدين النعسانى ، وشكيب أرسلان ، وكان مديرها المسئول محمد تاج الدين الحسنى ، وكان المغربىّ يحرّر فيها المقالات الأدبية واللغوية والإصلاحية والسياسية وظل على ذلك يحرّر فيها ما عاشت الجريدة ، حتى وضعت الحرب أوزارها ، وانكسر العثمانيون ولاح بريق من الاستقلال .

وفى عهد فيصل الأول ، أنشئ « ديوان المعارف » وانقلب إلى مجمع علمى عربى سنة ١٩١٨ فدخله الشيخ عبد القادر المغربى عضواً عاملاً ، ولأول مرّة ينصرف الرجل تماماً إلى مشاغل اللغة والأدب والكتب انصرافاً كاملاً ، ويستريح إلى جوّ العلم والبحث والدراسة والتأليف ، ويعيش بعيداً عن قلق السياسة والصحافة ، ويسكن فى دمشق نهائيًّا ، وينتقل بأهله إليها ، وتظل دارته وموضع علمه حتى قضى .

وكان الشيخ المغربى يركن إلى المجمع العلمى ، يقرأ ويدرس ويتحدّث ويناقش ويحرر فى المجلة ، ويحاضر فى قاعة المجمع العلمى العربى ، ويتصل بالعلماء فى مصر وغيرها ، ويراسل ويكاتب ويعلق ، فاشتهر أمره وأصبح ركناً هامًّا من أركان الثقافة التى كان ينشرها ويعدّ لها المجمع العلمى العربى بمقالاته ومحاضراته

ومنشوراته ، فقد كان المجمع وحده محجّة المثقفين ، ومراد المتعلمين ، ومرجع الناشئة والعلماء وقادة الرأى ، فيه تعقد المجالس النافعة وعنه تصدر المجلة الرصينة ، فهو مظهر دمشق الثقافى وهو جامعتها ، وهو كليتها للآداب واللغة .

فلما تقدمت كلية الحقوق وترعرعت طلبت إلى المغربى سنة ١٩٣٣ أن يدرّس فيها اللغة والآداب ، وقد بلغ السادسة والستين من عمره ، فما تأخر ولا تردّد ، وإنما راح يرسل من منبر الجامعة جماعَ معلوماته واطلاعه ووقوفه على اللغة وآدابها .

وفى هذه السنة أو بعيدها اختاره « مجمع اللغة العربية » فى مصر عضواً عاملاً فيه ، فأصبح الرجل يسافر كلّ شتاء إلى القاهرة فيعيد ذكرياته الماضية التى تتصل بمصر ، منذ قرأ لها صحفها سرًّا وخلسة حين كان صبيًّا ناشئاً وفتى يافعاً ، ويذكر ما كان منه حين وفد إليها أول مرة منذ ثمان وعشرين سنة يحرّر هذه الجرائد ويشارك فى مقالاتها ، ويذكر كذلك زياراته بعد ذلك وما كان له من لقاء مع العلماء والأعلام والوجهاء ، حتى اشتركت حياته معهم فكأنه يعيش بينهم عمره كله ، كما عاش محمد كرد على ، وبدر الدين النعسانى سواء بسواء ، يرجعون إلى بلادهم ولكنهم يحيون بالذكرى فى القاهرة كلما خلَوْا إلى أنفسهم وتحدّثوا إلى ضلوعهم وقلوبهم .

وظلّ الرجل يسافر إلى القاهرة شتاء كل عام ويعود منها مع الربيع ، فيلبث فى المجمع بدمشق صباحه كله ، ثم يعود فى نشاط الشباب إلى بيته على قدميْه غالباً ، وهو يعمل ويكتب ويحرّر ويجمع كتبه ، حتى كان المجمع العلمى العراقى فاختاره عضواً كذلك سنة ١٩٤١ ، وأصبح الرجل يراسل المجامع الثلاثة ويكتب فى مجلاتها ويرسل بحوثه إليها ، لو جمعت لكانت مجلدات كبيرة .

وقد نشر الشيخ القليل من مؤلفاته ، ولكنها مع ذلك سدّت فراغاً عظيماً ، ولا نحب أن نعدّدها كلها ، وإنما نعرض لبعضها بياناً ليده على الجيل وتعريفاً بأعماله خلال النصف الأول من هذا القرن . نشر كتاب « الاشتقاق والتعريب »

سنة ١٩٠٨ وأعاد طبعه ثانية بعد أربعين سنة ، وهو مصدر لغوى هام لمن يريد أن يجرى فى الاشتقاق وأن يفهم أصوله ، وهو يبحث فيما يعرض للغة العربية من تكاثر كلماتها ومفرداتها عن طريقة الاشتقاق أو التعريب ، فالتعريبُ واسطة لتنمية اللغة وتوسيع دائرة التخاطب بها . وكتابه هذا دليل على شغفه باللغة وتمكنه منها ومعرفته لأسرارها ، وسعيه إلى إنشاء مجامع علمية لحمايتها والحفاظ عليها وعقد المباحث والمجالس فى خدماتها ، حتى لكأنه كان يفكر فى فائدة المجمع قبل عشر سنوات من ولادته ودخوله عضواً فيه ، وحتى كأنه عرض للموضوع الأساسى فيه قبل أن تنعقد جلسات المجمع ، فإذا وُلد المجمع أصبح « الاشتقاق والتعريب » من أبرز النقاط التى تعالج فيه ، وهذا الموضوع غدا المشكلة الرئيسية التى وقف أمامها مجمع اللغة بمصر حين تطرّق إلى بحث المعجم الكبير . فالمغربىّ نشأ مجمعياً قبل كل شىء فيما نرى . وكتاب المغربى الذى نشره بعنوان « عثرات الأقلام » سنة ١٩٤٩ دليل على هذا ، وشارة على عناية الرجل باللغة صحيحها وخطئها ، خلال أعوام طويلة . فقد سمع الناسَ فى سورية ولبنان ينطقون بكلمة فيخطئون فيها ، فأنشأ يصحح لهم طريقة النطق بها فى البلاد الشامية فحسب لا يتعدّاها إلى غيرها ، والواقع أنها تنفع أحسن المثقفين ، وتنبّه إلى الأخطاء الشائعة وهى تدلّ على صبر المغربىّ وتسقّطه للمراجع والمصادر الأصيلة وحرصه على كرامة الصواب فى النطق العربى .

ونشر المغربى كذلك كتابه « البيّنات» سنة ١٩٢٤ ، فى جزءين كبيرين جمع فيهما مختار مقالاته التى نشرها قبل ذلك فى صحف مصر ، وهى فى الاجتماع والإصلاح والأخلاق ، عالج فيها مشاكل العصر بأسلوب بيّن رائق ، قدم له الأمير شكيب أرسلان بقوله : « فلا جرم أن صاحب البينات سيبقى على الدهر من أفذاذ المصلحين الذين كلما تعاقبت الأحقاب تذكر الناس باكر كلامهم ، وحمدوا عند صبح الخطوب سرى أقلامهم . وما وجدت فى هذا الميدان باعاً أطول من باعه ، ولا قلماً أجرى على القرطاس من يراعه »

وقد اعتمد المغربى فى أساس آرائه على زعماء الإصلاح فأصبح يعدّ بعد

ذلك من هؤلاء فى الطليعة ، حسنَ إنشاء وسلاسةَ تعبير وصفاءَ ذهن وطيبَ ذكاء . وفى الكتاب سيرٌ من التاريخ العربىّ تلذّ بأجمل السير العربية فى كتبنا القديمة وأمالينا المطبوعة . ويحسن بالقارئ أن يرجع إلى تلك الصّفحات فهو واجد فيها سيرة « البطّال » وموازنته بسيرة «السيّد» عند الإفرنج مما يلهمه الإعجاب ويدفعه إلى التصديق بقوة حضارتنا وعزة ثقافتنا ، وهو واجد فى ذلك مقالات تصف الأزهر على لسان فتاة إنكليزية لا ينقصها الإبداع والابتكار ، ولا تفوتها لُحمة القصّة وبراعة الوصف وجمال الحديث، فهى فى أجمل ثياب البلاغة وأساليب البيان والفصاحة ، تنقلنا إلى الأساليب البيّنة السهلة مما لم يكن معروفاً فى أيامه إلا للنخبة من كتابنا الفحول .

وكتاب « البيّنات » جميلٌ فى عرضه ، رائع فى حديثه ، يسير مع العصر فى جماله وتراكيبه ، فكأنه لأيامنا لأن صاحبه سبق أيامه فى التفكير ووثبة التعبير وسعة العقل والخيال ، فهو من الكتب الأدبية التاريخية التى تهدف للإصلاح على أجمل متن وأقوى سلاح . وذلك لأن المغربى كان شيخاً فى ثيابه ، وكان عصريًّا فى أهدافه يعيش على صدق التسامح ، وجمال البساطة ، وعمق الود ، لا ينسى صديقاً عرفه ، ولا يحيد عن النزاهة لسبب الصداقة ، وهو شديد البشر ، يهتزّ للنكتة ، دائم الابتسام يفهم الحضارة الأوربية فى سعة تفكير ، فيصادق أبناء الجامعات من كل جنس ، ويلائم بين آرائهم الخيرة فى التجديد العاقل . وكم لقيناه بآراء جديدة فى التحقيق والنشر ، فكان يسبقنا إلى الغرض ويعيشُ لأيامنا كما عاش لأيامه ، وهو شديد الحرص على الدين عظيم الرغبة فى صفاء المذاهب وعودتها إلى الأصل المصفّى . فكان فى نظرنا صورة للزعيم الدينى والكاتب المفكر والباحث اللغوى فى العصر الذى نعيش فيه . وكان فى ذلك يغضب الحشويّين والنفعيين والمتنطّعين ويرى فيهم أسوأ دعاة للدين والحضارة الإسلامية .

وقد كتب العالم الأمر يكى تشارلس آدمس فى كتابه « الإسلام والتجديد » عن المغربى فقال : « تفيضُ كتابات الشيخ عبد القادر المغربىّ بنفحة من

الرّوح النقدية الحرة اشتملت عليها كتابات جمال الدين ومحمد عبده ، وتدلّ على ما بين تعاليم المغربى وتعاليم مدرسة الشيخ محمد عبده من تشابه » .

وله كتب فى موضوعات مختلفة منها عن « المرأة والإسلام » وقد عُرف بدفاعه عن المرأة ودعوته إلى تحريرها واستقلالها أثارت عليه الحملات فى مصر والشام ، وسددت إليه الأقلام ، فاتّهمه بعضها بالمروق والكفر ، وقد صمد لها ورد عليها وتحمل فى سبيل ذلك عنتاً كثيراً .

وله كتاب « الأخلاق والواجبات » نشره سنة ١٩٢٠ وهو خلاصة ما ألف فى الأخلاق والفضائل ، جعله لإرشاد العامة ولتربية الطلاب والناشئة ، فدلهّم على الواجبات الشخصية والواجبات العائلية ، والواجبات الاجتماعية ، والواجبات المدنية ، وهو فى أسلوب واضح ونثر سهل قريب من الأذهان ، بسط فيه الصفات الحسنة والفضائل الخيّرة وزين كتابه بخير القول وأحسن الشواهد ، فحلاّه بآى القرآن الكريم والحديث الشريف ، والشعر الرائع ، فكتابه من خير الكتب النافعة للعقول الناشئة قد أودع فيه خير ما جاء فى كتب العرب لهذا الباب .

وقد شارك أواخر أيامه فى تحقيق الكتب ، فأتمّ التعليق على « تائية عامر البصرى » وطبعها وهى على غرار تائية ابن الفارض ولكنها أكثر ترتيباً منها على حد رأى ماسينيون وهى تنقسم إلى اثنى عشر نوراً تليها لمعة فى الوحدة الإلهية والروح والنفس وفساد العالم ، وقد خرجت على يديْه فى أحسن ثوب وأجمل عرض ، شهدنا معه العمل لها بإخلاص وتفان .

وأما عمله للتفسير فشبيه بالذى صنعه أبوه قبله أو بالذى صنعه الإمام محمد عبده ، وقد نشر منه « جزء تبارك » إكمالا لما بدأه أستاذه محمد عبده من تفسير جزء « عمّ » ، وقد راج التفسير وطبعته وزارة المعارف بمصر مراراً ، وأفاد منه ألوف القراء ، وخدم به الدّين والنشء .

وللمغربىّ كتب أخرى فى التفسير وفى سيرة النبى الأعظم ، وفى العمل للمعجم ، يضيق المقام عن وصفها وعرضها هنا ، فهى تدلّ على نشاط واسع

وسعى متواصل وخدمة كبيرة ، وإيمان عميق ، رفعت الرجل إلى مستوى العلماء العاملين ، وذلك إلى محاضراته فى ردهة المجمع ومقالاته فى مجلته وغير مجلته ، مما يملأ المجلدات العديدة .

وهذا الجهد المتواصل فى خدمة الدين والصحافة والأدب والتاريخ والحضارة الإسلامية واللغة العربية ، وفى السعى للمشاركة بالمجامع الثلاثة وخاصة دمشق والقاهرة ملأت أيامه ودقائق حياته بالعمل المثمر ، فجعلت حياته مثلاً يحتذى وسيرة تروى ، حتى إذا كان يوم ٧ حزيران (يونية) ١٩٥٦ ، نضب الزيت ووقف القلب وقضى الرجل عن تسع وثمانين سنة بذل فيها ما استطاع لخدمة العرب ولغتهم وثقافتهم ، وخسرت البلاد بموته علماً من الأعلام الأفذاذ ، رحمه الله .

إيليا أبو ماضي *

لبنان الأشم ، رفيع الذرى ، جميل ملهم ، أوت إليه العروبة فى عصورها الأولى وسكنته كريمة عزيزة ، فما لانت لها قناة ولا سكنت إلى ذلّ وهوان ، وعاشت بين الصخر الصلب المتسامق والوادى الممرع السحيق ، تتقلب فى أجواء الطبيعة ، وتتمرّس بألوان التقشف أو الرياضة حتى ألِفت هذا العيش وهذا الجو ، كما تألف النسور ذُرى الجبال فتأنف من الحضيض والسَّهل الخفيض .

فلما كان القرن التاسع عشر تفتح البحر لإرساليات العلم والسياسة ، وكليّات الدين والثقافة ، وارتبطت بعض النفوس بجوالى الغرب ، واشتدّ نفوذ الأجنبي وارتفعت له ألويةٌ على كثير من البيوت وقامت له أمكنة فى كثير من القلوب ، خاف العثمانيون أن ينقلب معها لبنان إلى منارة ثورة ، تجرّ العرب إلى الخروج عن نيرهم والانفلات من سلطانهم ، فضيقوا على لبنان الخناق ، وبثوا فيه روح التفرقة ، وسدّوا عليه أبواب النعيم ، وأعانتهم الطبيعة القاسية فيما صنعوا ، فاكتوى الشعب بالجوع والحرمان ، والطيش والجهل . وراح النسر اللبنانى يفتش عن ذرى جديدة يخفق فيها جناحاه فى عزّة ورفعة ونعيم ، وتوجه إلى مصر وإلى أمريكا وغيرهما من ربوع الأرض هرباً من الذلّ والحاجة . ولسنا لنبحث عن أصل الهجرة والمهجريين ، وسبب النزوح وسبيل النجاح وإنما نتحدّث عن مهاجر طفل ولد فى قرية « المحيدثة » بأطراف « بكفيّا » على الوادى الساحر سنة ١٨٩١ ، وأحسّ بالحاجة وضاق بالعيش وهو صغير ، فسعى إلى الرزق ولما يعدُ الحادية عشرة من عمره ، متوجهاً إلى الإسكندرية سنة ١٩٠٢ ، وفى الإسكندرية من أهل لبنان وغير لبنان من

* إيليا بن ظاهر أبو ماضى ١٨٩١ – ١٩٥٧ م .

اتخذها ملجأً وملاذاً ومراداً للرزق ووسيلة للعيش ، فنزل فيهم هذا الطفل ، واتخذ لنفسه مرتزقاً يعيش منه فى متجر عمه هو أن يبيع « السجاير » والتبغ ، فهى مهنة تدرّ المال الضئيل ولا تتطلب الرأسمال الكبير . ولا شكّ فى أن أصدقاء أهله ومعارفه أعانوه فى هذه السبيل وكفلوه فى هذا الميدان ، وأحاطوه بالرعاية والعناية ، لما عرفوا من نحوله وضآلة جسمه وقلة ماله ، فأدخلوه بيوتهم وقرّبوه من أهلهم وعشيرتهم ، فلم ينظر إلى شىء نظره إلى كتب اللغة ودواوين الشعر ، حتى عشقها وأكبّ عليها يقرؤها فى كلّ ليلة ، وفى كلّ فرصة تعرض ، ولعله دخل بيوت هؤلاء اللبنانيين الشوامخ الذين كانوا يسكنون فى مصر ، كالشيخ إبراهيم اليازجى وصحبه ، فقد نقل إلينا الأديب « أنطون الجميلّ » وكان ينشئ مجلة « الزهور » وينشر فيها مختارات الأدب وروائعه أنه تعرف مرّة إلى الفتى وسمع منه شعراً ، وأعجب بهذا الشعر الناشئ فنقله إلى مجلته وأداره على قرائها يرشفون من هذا الأدب الغضّ الفتىّ ، ويتساءلون عن مستقبل الشعر عند الشاب .

ولعل هذه المجلة هى التى أكسبته الشهرة المبكرة ، ودفعته إلى بيوت هؤلاء السوريين الذين كانوا يعيشون فى الإسكندرية والقاهرة عيشاً اجتماعياً راقياً يجارى الجوالى الغربية التى كانت تسكن هذه الربوع . وقد وقف الشاعر الفتى من هذه المشاهد موقفاً يحتمه عليه سنه وثقافته وقراءاته ، فطرق الموضوعات السطحية ، وجمعها فى ديوان صغير ، ونشرها سنة ١٩١١ بالإسكندرية وعمره عشرون سنة آنذاك وسمّى الديوان « تذكار الماضى [١] » وأكثر الذين تحدّثوا عن الشاعر لم يقفوا على الديوان ، ولم يتحدثوا عنه .

وأىّ ماض لشاب فى العشرين من سنيه ، أهو ماضى فتوته وعذابه وهجرته ، ونزوحه عن أهله ، وبعده عن أبويه ، يتصوّرهما فى لظى الجوع والحرمان ، وأنباء العثمانيين تترى عن ظلم وجور وقسوة وبغى ، هل بكى هذا كله ورسمه فى لوعة أسى ؟ ذلك هو الماضى الذى كان ينتظر على لسان الشاعر

(١) صدر فى ٨٣ صفحة ، بالإسكندرية سنة ١٩١١ وطبع فى المطبعة المصرية ، نظم إيليا ظاهر أبو ماضى .

الفتى . ولكن شيئاً من هذه الألوان السياسية لم يرد مطلقاً ، لأن الفتى فى سنه كان يقظاً ، ملء برديه خوف وحذر وأناة ، فلم يجعل فى ديوانه شيئاً من هذه الموضوعات الوطنية كلها ، بل حذفها وأرجأها ولم ينل العثمانيين بأذى ، وإنما أثبت فيه ما كان يقوله على غرار الشعراء من معاصريه ، وخاصة هؤلاء الذين وفدوا لاثذين بمصر . فتنادى مع الشعراء المصريين لنصرة « الهلال » وظفر الجيش العثمانى المفدّى الذى كان يقاتل فى الغرب تلك الدول الغربية المتحرّرة ، ودعا معهم لهذا السلطان بالنصر كما يدعو العثمانيون فى الأستانة سواء بسواء .

لذلك كان « تذكار الماضى » باكورة لآثار الشاعر التى تظهر فيما بعد وتنشر على العالم العربى عطرَ الشاب ، ويغدو « الديوان الأول » هذا من الماضى لأنه يصوّر بيانه فى ماض محدود ليس غير . وفيما عدا ذلك فى الديوان موضوعات فى الإنسان والدين ، والمرأة وتبرجها وأزيائها ، وفى فتاة أرغمها ذووها على الاقتران برجل طاعن فى السنّ ، وفى الشباب المتفرنجين ، وما يقوم بينهم وبين النساء من روابط وصلات ؛وهى موضوعات كتب فيها معاصروه ، وتحدّثت فيها الصحف وهمست بها الأندية ، ونادت بها الأقلام ، فنظمها الشاب شعراً ليشترك فى هذه المعركة التوجيهية الاجتماعية وهو ما يزال يحسّ بعقل غيره ، وينظم بلسان معاصريه وأذواقهم .

وما يدرينا لعله كان يقرأ آثار هؤلاء الفحول من المصريين فيتأثر بهم ، ويسير على خطاهم فى الإصلاح وفى الاجتماع فقد ضمّ ديوانه الأول رثاء لمفتى الديار المصرية الإمام الحكيم « محمد عبده » وضمّ كذلك رثاء لفقيد الوطنية « مصطفى كامل » إلى رثائه « لليازجى » فدلّ على فهم سريع وتقليد عجيب ، سبق سنّه حين يدعو إلى ما دعا إليه هؤلاء المصلحون ، ويتناول ما تناوله زعماء الفكر بمصر آنذاك ، فى شعر فتىّ يمثل الشباب فى الشعر فيقول فى الذين انصرفوا عن العربية :

فتنتهـــمُ لغةُ الأعاجم إنمـــا ... لغةُ الأعاجم منهم تتبرّمُ

ويقول فى عبّاد الذهب :

إذا رأوا صورةَ الدينـــار بارزةً خرّوا سجوداً إلى الأذقــان كلّهمُ
قد أقسموا أنهـــم لا يشركون به بئسَ الإلهُ وبئس القومُ والقَسَمُ

ويدلى برأيه فى الشعر وهو فى هذه السنّ فيقول :

ذر المدحَ والتشبيبَ بالخمر والمـَهى فإنى رأيتُ الوصفَ أليَقَ بالشعر
وما كانَ نظـــمُ الشعر دأبى وإنما دعانى إليه الحبُّ ، والحبُّ ذو أمر
ولى قلمٌ كالرمح يهـــتزّ فى يـــدى إلى الخير يسعى والرماح إلى الشرّ

ويبتسم الناقد لهذه الآراء التوجيهية الفتية فى الشعر ، وخاصة حين يقرأ فى الصفحات التالية من الديوان أنه سكر بالرضاب كما سكر بالخمر ، وأنه علم خداع المرأة وتغريرها بحبه ، وأنه لا يخشى إلا الحسان فهنّ أفعل فى قلبه من السهام حين يرمينه بأحداقهن ، ويصف لنا على ذلك لقاء بآنسة فى التّرام ، تحدّثت فيه العيون فأسكرت ولا خمر ، وانتشت ولا سكر ، ثم رسم أخرى فى مكان غيره كالجؤذر بل كالبدر فى الدّجى ، وجعل على الورق ما كان فى برديها من محاسن ومفاتن ، فحنّ واشتاق وتلظى وهام .

ولعله الشباب فى الشعر يقلد ما يسمع ، ويهذى غالباً بما يقول حتى يصبح آخر الأمر شاعراً ، وهو على كل حال غنىّ خلال هذه الفترة كما كان الشعراء حوله يغنون ، فاتخذ سبيله إلى رضى القوافى ، ونعمة البحور ، وسهولة اللغة ، ومدح العثمانيين أول الأمر حتى كان من المحسنين فى الديباجة لا تزلّ قدمه إلا قليلا ، فى هذه السنّ المبكرة ، وهى فاتحة حسنة .

ولكنّ الشاب تحرّك للهجرة ثانية ، وفكر هذه المرة فى أن يذهب بعيداً بعد أن طوى عشرة أعوام فى مصر ، فركب البحر إلى أمريكا الشمالية سنة ١٩١٢ وهو فى الحادية والعشرين ، بعد عام واحد من صدور ديوانه الأول .

وفى مقاطعة « أوهايو » راح الشاب « إيليا » يعمل فى التجارة بإرشاد أخيه « مراد » وعونه وعطفه . وظلّ كذلك خلال أربع سنوات انتقلَ بعدها إلى

نيويورك سنة ١٩١٦ وفى هذه المدينة الجديدة رأى الشاب حضارةَ العصر فى آليّة عجيبة، تلتهم الهدوء الشعرىّ والتلذّذ الأفلاطونى، وتبتلعُ الزمن، فلا يتفرّغ السكان للهوى والعاطفة كما يتفرّغون فى الشرق، وإنما يعكفون على المادة والعمل، حتى لكأنهم يسيرون فى سباق مع الأيام والليالى.

ويبدو أن الشاب أوى بعد ذلك إلى فتية من لبنان ثائرة عاقلة، قد كلّلت رءوسها بغار الحكمة والجمال، فأفاد من أقوالها فى الشعر والنثر، وراح يشرب من ينابيعها ما وسعه أن يشرب، وكان يسير فى قافلتها نحو الشعر الإنسانى، وهذه القافلة كانت تسمى نفسَها «الرابطة القلمية» وكانت تدعو إلى التعمق فى فهم هذه الدنيا الجديدة لأنها أشبه بمستشفى كبير كان اللبنانيون يئنّون فيه من أمراض الجهل والفقر والحضارة الطارئة، فقد كان هؤلاء المغتربون فى جملتهم يتسلون بالغناء والنادرة، بعيدين أشد البعد عن أحاسيس الشعر العميقة، وأوتار السحر البعيدة وأنغام النفس العلوية. هجروا بلادهم على غير ثقافة، وتركوا أهلهم فى سنّ لا تشجع على العلم وفى حال لا تسلح بالمعرفة. فكانوا فى هذا المستشفى الكبير يعيشون من غير هدف روحى وعلى رؤوسهم صور لبنان وأهله كأيقونات تهدى القلوب المؤمنة، وشموع تنير اليأس الحالك، وهذا الحنين وجمع المال كانا كلّ ما يربطهم بهذه الدنيا.

وقد أدرك «أبو ماضى» كما أدرك زملاؤه أن هذه الدنيا الجديدة أتون فغر فمه ليبتلع كل ما فى المهاجرين من الشرق، أو كأنها شلاّل من النار قد انحدر ليحرق كلّ ما علق بهم من لبنان، ورأى أن صدور قومه امتلأت بالدخان، فلا سبيل إلى مكان فيها للنغم الحلو، كأنها أوصدت منها مواضع الحب والجمال.

ولعلّ هذه الحال هى التى دفعت به عن قومه بعيداً، فتوجه إلى الوحدة والعزلة، وراح يغنى حنينَه إلى الوطن، وذكريات الأهل، وصورِ لبنان، ففرّج عن نفسه كربةً أخفاها فى مصر، وأفرجَ عن معان وطنية وسياسية

حبسها طويلاً ، فالحرية التى نعم بها فى المهاجر فتحتْ له أبوابَ الشكوى والحنين ، وراحت ترقص فى شعره صورُ سورية ولبنان، وتختال العرائشُ وذُرى الجبال وأطرافُ الوديان وتماوج لعينيه رسومُ الثياب اللبنانية بحمرتها وزرقتها ، فهاج لسانه ، وطرب لبنان لأصداء شعره ، ينشره فى صحف المهجر التى دخل فى تحريرها منذ دخل نيويورك .

فالتحرير هو المهنة الوحيدة التى كان يعرفها ، فما كان يملك إلا لساناً وقلماً ، عمل لهما طويلا وحفظ كثيراً ، حرر « المجلة العربية » ثم أسهم فى تحرير « الفتاة » لشكرى البخاش ، ثم انصرف إلى تحرير « مرآة الغرب » عشر سنوات منذ سنة ١٩١٨ ، واتخذ « السمير » منبراً لنثره وشعره سنة ١٩٢٩ حتى ماتت بموته .

وقد تنبّه أرباب « الرابطة القلمية » لهذا الشاب الشاعر الناثر ، ورأوا فى شعره أملاً كبيراً ، وفى نثره ثروة واسعة ، ووجدوا فيه عضداً وساعداً ، فقد أقبل ليعيش على أطراف قلمه ، ويحيا بمداد روحه ، فكأنه خص حياته بالأدب ، ووقف أيامه على تطريز الفكر ومعالجة المعانى . لذلك اتصلوا به واتصل بهم ، فأفاد منهم آراء جديدة وصوراً جديدة ، نقلته من الشعر الذى كان سائداً فى مصر على غرار البارودى وشوقى وحافظ إلى شعر آخر اتخذه أربابُ الرابطة ، فيه ثورة وفيه آفاق مختلفة ترمى إلى دنيا أخرى فى الأدب والنقد كان يطمح إليها النقاد فى مصر أمثال العقاد والمازنى وشكرى ، تتلخّص فى مواجهة العصر ، والتفتح على القرن العشرين ، فى الأدب وفى الحياة كلها ، وكان رائد الفكر والأدب فى هذه الرابطة « جبران خليل جبران » ، لأنه كان يشرب من ينابيع المعرفة والفن والأدب ، كما يشرب الغربيون من معاصريه الأدباء ، فيستوى معهم فى التعبير والرسم والتصوير ، ويزيد عليهم معرفة بالعربية كانت واسطة صلته « بنعيمه » وغيره من شعراء المهجر .

وقد اشتدت هذه الصلة بين الشاعر الوافد وبين الأدباء المقيمين فى مدّة قليلة كان سداها الإعجاب والحبّ ، وكانت لحمتها قرابة اللغة والوطن ،

فأصدر أبو ماضى ديوانه الثانى « ديوان إيليا أبو ماضى : الجزء الثانى » وطبعه فى نيويورك سنة ١٩١٨ على مئتى صفحة تقريباً ، ونشر فيه كلّ ما أغفله من شعر وطنى وسياسى ، كان محله الديوان الأول ، وأضاف إليه شعراً جديداً ، فيه فلسفة الحياة ، ونفسية الشاعر ، وصور الخلود ، فاجتمع الماضى بذكرياته إلى الحاضر ، وكانت هذه الانطلاقة الجديدة التى لا تشبه فى شىء ديوانه الأول . وقد كتب المقدمة « جبران خليل جبران » نفسه ، وصف فيها الشعرَ وعرف الشاعر ، وختم بقوله :

« وإيليا أبو ماضى شاعر ، وفى ديوانه هذا سلالم بين المنظور وغير المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها ، وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التى إنْ لم ترشفها تظلّ ظمآناً حتى تملّ الآلهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان »

وهذا هو الذى قلناه من حب الشاعر لزملائه أرباب « الرابطة » ، وتجاوبهم معه فى ميدان الأدب فى سرعة مذهلة ، حتّى قال زعيمهم إن شعره حبال تنجى من مغاور الكهوف وعفن الماضى ، وإنه سفينةٌ يركبها الشعر العربى إلى يمّ الخلود ، ولولاها لكان الغرق .

والواقع أن شعر أبى ماضى كان تفاؤلاً وأملاً ، تضحك فى قوافيه أمانى المغتربين وتشفى نفوسهم بموسيقاه ، وتفرح قلوبهم بفلسفته الجديدة ، فهو يحارب الشكوى والدّمع واليأس ويقول :

قلْ لقومٍ يستنزفون المآقى ... هل شفيتم مع البكاء غليلاَ

ما أتينا إلى الحياة لنشقى ... فأريحوا أهلَ العقول العقولا

كلّ من يجمع الهموم عليه ... أخذته الهمومُ أخذاً وبيلا

وهذه الابتسامة جديدة فى شعر المهجر ، تختلف عن الأدب هناك كل الاختلاف فى النظرة إلى الحياة ، فأكثر الشعر آنئذ كان يتسم بالشكوى والأنين والرومانطيقية . ولكن « إيليا » وحده حمل الربابة ، وراح يغنّى للتفاؤل والأمل ، وهذا سر نجاح الشاعر ، وتفرّده بين شعراء المهجر . وليس فى هذا تناقض ولا تنافر ، وإنما يعنى الحرية الكاملة لكلّ أديب ، ما دام يسلك

السبيل الصحيحة إلى فهم الأدب ورسالته، فهو تصوير للإحساس ، وإحساس بالواقع ، ورسم للمثل العليا التي تلفّ خيال الشاعر .

وأبو ماضي حين سلك هذه السبيل ابتعدَ عن رشيد أيوب واختلف عن جبران ، ولكنه بقي في ميدان الشعر الذي يجله هذان ويحترمه أرباب « الرابطة » ، فلا ضير إذا كان في جبل « الأوليمب » من يغنّي ألمه ومن يحسّ الألم ولكنه يسخر منه ، والشاعر إيليا كان كالهزار في هذا الجبل يتغنّى ، لا كالغراب يبكي الطلول . وكان في هذا الديوان يستعيد صورَ القرية وجمالها والأنوار وسحرها ، وعيشَ الطبيعة وفتونها ، فالشجرُ يحنّ والزهر يبتسم والدراري تُنصت . فالأرضُ جميلة سعيدةٌ تبعث الهناءة ولكن أهلها أشقياء في عبودية مقيمة ، يرسفون في الأغلال ويرْمون المصلحين بالزندقة ، ويفسدون الوطن على الأحرار ، فالجهالة تسحب الذيل تيهاً ، والشعب متفرّق متمزّق والرؤساء حمقى ، والبلدان العربية مثل لبنان كانت تسبح في سجون الاستعمار . لأن الأتراك أفسدوا العيش على العرب ، وفرضوا جهلهم على الرءوس ، وربطوا النّير حول الأفكار ، وطوقوا الأعناق المشرئبة إلى النور . فما يتصل الغرب ورقيه بأهل لبنان والعرب وما نجت مصر وسورية من الأغلال حتى ذلك الحين . وهذا النقد مبعثه الحب والإكبار للربوع العربية فهو يذكر أيامه بمصر على وفاء وحنين فيقول :

لكنَّ مصراً وما نفسي بناسيــة	مليكةَ الشرق ذات النيل والهرمِ
صرفت شطر الصّبا فيها فماخشيت	رجلي العثار ولا نفسي من الوصم
في ذمة الغرب مشتاقٌ ينــازعه	شوقٌ إلى مهبط الآيات والحكم
جَادَ الكنانةَ عني وابلٌ غدق	وإنْ يكُ النيلُ يُغنيها عن الدّيم
الشرقُ تاجٌ ومصرٌ منه درّته	والشرقُ جيشٌ ومصرٌ حامل العلم

وهذا الشعر شبيه بما قاله من شعر خلال إقامته بمصر من حيث المبنى والمعنى لا يختلف عنه ، والديوان قد جمع ألوان الشعر مما يتصل بقديم الشاعر

وجديده كما قلنا ، فلا غرابة فى أن يتطرّق الشاعر هنا إلى الإصلاح وإلى جمع الشمل ، والبعد عن التفرقة فى الدين لأن العروبة جامعة شاملة . والشاعر يدعو الهممَ إلى الوثوب والطوائفَ المختلفة إلى اتحاد ، ويحثّ الأمة على العلم ، وينبه إلى أن العالمَ يسير إلى الأمام ، ونحنُ ما نزال فى لهو وعبث وتفرقة وبغضاء ، ومن الخير أن يجدّ العرب قبل أن يجدّ الدهر فى إفنائهم .

وهكذا وقف أبو ماضى فى هذا الديوان الثانى على برزخ بين الماضى والحاضر قبل أن ينطلق إلى المستقبل ، وقبل أن ينصرف إلى السؤال والشكّ ، وهذه خطوة عظيمة . فالشعراء فى الشرق لأيامه ما زالوا يتحدّثون عن الماضى ، خوفاً من سلطان الحاضر وظلمه وآلامه ، وقلقه وعدوانه ، مكتفين بأن يتخذوا منه عبرة للحاضر ودرساً للجيل ، فلم تكن البلاد العربية تنجد شعراءَها كما يجب ، لأن الشاعر كان مغنّياً فحسب ، وكان قائلاً ضعيفاً لا يُسمع له أمرٌ ، شأنه شأن المطرب والعازف ، يسرّ أو يؤلم ، وينقضى السرور والألم حين ينصرف الناس عن السماع : وينصرف « حافظ » إلى دار الكتب ، و« شوقى » إلى كرمة ابن هانئ ، وكأن الجموع تنفضّ إثر سماع الشعر عن سحاب خيم على الناس ، فأمطرهم حيناً وبلل منهم الثياب ، ولكنه لم يبلغ إلى القلوب والألباب ، لأنها كانت مقفلة بالثقافة السطحية والوعى الضعيف .

وهذا فضل أبى ماضى ، تحدّث عن الحاضر فى أمريكا ، بما لم يستطع أن يقوله فى مصر ، ثم تحدّث عن المستقبل فانتصر ، واعتزّ بالابتكار ودخل مدرسة الشكّ والتساؤل فكان له فيها طلاّب ومريدون من كلّ قطر ومصر .

والحقّ أنه اندفع إلى الغاب وراء « جبران » ، وسلك سبيله ، فدخل مغارة الظنون والشك ، وطفق يسأل ويسأل ، ويتعلق بحبال المنظور وغير المنظور ، ويتلفت حيناً إلى نفسه ، وأحياناً إلى قومه فى الوطن والمهجر ، فصرف قوافيه فى هذه الطريق كأنه صاحب رسالة فى الشعر ، وشقّ طريقه إلى الديوان الثالث الذى أصدره سنة ١٩٢٧ بعنوان « الجداول » وقد بلغ الخامسة والثلاثين

من عمره ، وكتب مقدمته ميخائيل نعيمه فقال :

« والذى أحاوله الآن هو القول أنى آنس اليوم قرابة روحية بينى وبين صاحب الجداول ما كنتُ أشعر بمثلها بينى وبين ناظم الجزء الأول والثانى من ديوان إيليا أبو ماضى . ترى أتغير أبو ماضى إلى هذا الحد فى السنوات الثمانى الأخيرة أم تغيرتُ ؟ »

وفى هذا الكلام صراحة جميلة ، و « نعيمه » يريد أن يقول : « إن الديوان الذى قدمه جبران لم يرضه كما أرضاه هذا الديّوان ، ففيه رعشات تهز الوجدان ، وشعور جديد وخيال جديد . فالشاعر أبو ماضى تغير حقًّا ، وأصبح على طريقة جديدة تعتمد على التجديد فى الشعر :

لقد أعجب « نعيمه » بالآراء فى الديّوان ، ووقف عند هذه الأبيات :

علمتنى الحياةُ فى القفر أنى ... أينما كنتُ ساكن فى التراب
وسأبقى ما دمت فى قفص الصلـ ... ـصال عبدَ المنى أسير الرغاب
خلتُ أنى فى القفر أصبحتُ وحدى ... فإذا النّاس كلهم فى ثيابى

وراح « نعيمه » يترنم بالبيت الثالث ، لصدقه وبعد الغور فيه ورحابة الأفق والإنسانية المتألقة . ولعله يريد أن يقول إن الشاعر أبا ماضى أصبح شاعراً إنسانيًّا ، ولم يعد ملكاً للعرب وحدهم ، لأنه أصبح يعزف الأنغام العالمية ويضرب على الأوتار الإنسانية فينظم بلغة البشر جميعاً لكلّ اللغات الحيّة .

وأصغى الأدباء فى العالم العربى حقًّا إلى الناى الجديد فى الجسد الناحل والهيكل الصغير ، فعجبوا لروحه تتعلق بالحكمة والعقل ، وتكفر بالمادية وترتفع عن سفاسف الوجود ، وتدخل معارج النفس وأقبية العقل البعيد لعلها تعرف موقعها من المسرح الإنسانى والمأساة البشرية ، وأعجب الأدباء بقول « نعيمه » فيه : « إن هذه الحقيقة لا يدركها فى مثل هذا الجمال إلا شاعر ملهم أو نبى مرسل » .

وأصبح أبو ماضي يحلّق في قمة الشعر كشاعر ملهم ، ويمضي بعيداً في شكوكه وأسئلته ، يسأل عن كل شيء ، يريد أن يعرف هل تنوح ريح الشمال وإلى أية غاية تركض :

أبنتَ الفضاء ، أضاقَ الفضاءُ فأنتِ إلى غيرِه أميـلُ
أغاظكِ أنَّ الدُّجى لا يزولُ وأنَّ الكواكب لا تأفُل
أتبكين آمـالك الضائعات هـل الريح مثل الورى تأمل
فجاوبني هاتفٌ في الظلام : غلطتَ فـا هذه الشمأل
ولكنَّهـا أنفسُ الغابرين تجوسُ الـديارَ ولا تنزلُ

وهذه الأسئلة طغتْ على لسانه ، فطاف وراء الأرواح بين شعراء العالم الإنساني ، وحلق في « الأولمب » يسأل عن المجهول وأسرار الوجود ، لعله يجد اللغز ويمسك بالمفتاح ، ولكنه خاب كما خاب غيره في معرفة السرّ ، ونجح في السؤال والشك ، وخرج إلى حدود الزمان يسأل عن المنشأ واليوم والغد ، فكتب يناجي الطين الإنساني :

لستُ أدرى من أيـنَ جئتُ ولا ما كنتُ أو ما أكون ياصاح في غدْ
أفتـدرى إذنْ ؟ فخبّر ، وإلاَّ فلمـاذا تظـنُّ أنك أوحـدْ

ولم يلق على ذلك جواباً ، وما نظنُّ أن الذين سألوا تلقوا جواباً ، فليس للعقل أن يجد عند هذا منطقاً يجيب أو فكراً يصيب السرّ ، فقد ضاع المفتاح منذ الشعراء الأول الذين أحكموا العقلَ في القوافي ، وركبوا متنها إلى عقول الناس .

وفي هذا الديوان راح الشاعر يناجي الزهرَ والورد والضفادع والنجوم ، وينظر إلى السماء والأرض نظرة عاقل مفكر وفيلسوف حكيم ، ويتحدث عن الحجر والطين والحقل والقفر ، والكمنجة والأسرار الكونية ، والعاقل والمجنون ، والبحر والمقبرة ، والقصر والكوخ . وهو خلال ذلك كله يتساءل ويتساءل حتّى ليعييه الجواب على ما يرى وما يسمع وما يفكر فيه . ويخرج من ذلك كله بتفاؤل عجيب ، ذلك أنه خير له أن لا يفهم وأن يعيش ضاحكاً باسماً ،

فحوّل الرثاء إلى نشيد للعقل ، قريب من أناشيد شيخ المعرّة ، وصنع من المديح أغاني علوية في مدح الوجود ، فكان ديوانه الثالث أولى خطواته نحو التميز والتفرّد في شعراء المهجر وشعراء العرب المعاصرين .

وكان أبو ماضي بهذا الديوان فاتحاً في الشعر العربي الحديث ، مجدّداً في ناديه ، رائداً في معانيه ، لم يبلغ منه ذروة أو قمة ، ولكنه ركب خياله بجناحين من ذكاء فطرى ، وعقل طامح ، يجمع الأدب والفلسفة ، بل يصطاد الفكر البعيد ويجعله في سجن القوافي ، ويحثّ السياط إلى ميادين الفحول من الشعراء العالميين ، ما يفتأ يسأل ليفهم الأسرار ، فيقولُ عن الغدّ :

هيهات ما أرجو ولا أخشى غداً   هل أرتجي وأخاف ما لم يوجدِ
والأمس فيّ فكيف أحسبه انتهى   أفما رأيت الأصل في الفرع الندى
قبلٌ كبعــد حالةٌ وهمية   أمسي أنا ، يومى أنا ، وأنا غدى

وما تزال فكرة الزّمان تراود أذهان شعرائنا ، حتى إن ديواناً كاملاً جعله « الدكتور سليم حيدر » لهذا التساؤل وسمّاه « ألسنة الزمان » لعله يجد المفتاح ، ولكن القصر المسحور لم يجد بعد الفاتح الساحر .

وهذا الفتح في الشعر الحديث أبعد شاعرنا عن شاطئ الشعر القديم العربي وجعله غريباً على كثير من قوالبه السطحية التي كان يترنم بها صغيراً ، فأصبح أمسه غريباً عن يومه وغده ، وقد كان من قبلُ يرسم المرثيات كغيره بصور مشابهة كما يصنع رسامو الصور الشمسية ينقلون من الطبيعة إلى الورق ويقلّدون ، فتكثُر الصور وتتعدّد ، ولكنه في ديوانه هذا ، نقل عن لوحة بعيدة عن الطبيعة ، غائبة في ذرى الإلهام ، فاستجليها وعرضها في بساطة وسحر ، فاصطاد وولّد ، كما يفعل الفلاسفة فانسجم العقل عنده والشعور ، واصطحب الفكر والخيال مع الألوان والموسيقا ، فكان شاعر الفكر ، والمفكر الشاعر ، والإنسان الملهم ، وهو يهزّ الشعور والعقل والعاطفة والأذن ، بعد أن كان كثيرٌ من زملائه المعاصرين يهزّون القلب والأذن حين النشيد فحسب ، ويتبخر كل شيء بعد ذلك .

وقد أحسّ أبو ماضى بهذا الانتصار فاستعلى على الملوك والأمراء والقواد والزعماء واعتزّ بشاعريته ، ورأى فى الشاعر سيداً للدّنيا ، يحطم كلّ تمثال ويُشيّد أى تمثال. واستعرض الملوك والشعراء فرأى أن الملوك إلى فناء والشعراء إلى خلود ، ذلك لأن هؤلاء لم يرتفعوا عن طين الأرض فلبثوا يكسون وجه الأرض تدوسهم أرجل الزمان وتثيرهم كالغبار ، أما الشعراء فهم الأنوار التى تشرق مع كل صباح لتنير العقول والأذهان والبصائر .

وفى سنة ١٩٤٠ أصدر أبو ماضى ديوانه الرابع « الخمائل » وقد جاوز الخمسين من عمره ، وبلغ قمة أمجاده ، أرسل فيه تأملاته ، وصاغ فيه عقود التفاؤل والابتسام فجمع بين روعة الرسام وفلسفة الخيام ، وصوّر الدمعة الخرساء ، والفراشة المحتضرة ، والكنار الصامت ، وتطرّق إلى الماء والطين ، وعالج قضايا العرب وحنّ إلى لبنان ، ودافع عن « فلسطين » ولكنه لم يستطع أن ينسينا « الجداول » .

وظلّ أبو ماضى مع « السمير » يحبّر فيه ، ويكتب حتى كان عام ١٩٤٨ إذ عاد إلى وطنه بعد حنين طويل ، فرأى الأهل والأحباب والصحاب ، وقد استقلت الأرض وارتفع علم لبنان عالياً ، فلقى الإكبار والترحيب ، وعرّج على دمشق فاستقبلته فى الجامعة قصائدُ الشعر وصحائفُ النثر ، وزحف المثقفّون يستمعون إليه ويكبرون فيه الشاعر الوفىّ للشعر ، وللعربية ، وظل ذلك غذاءً للشاعر وموضع عزة وفخار فى ذكرياته .

وعاد إلى بروكلين فى بيته الهادئ ، يعنى بمطبعته وجريدته ، وحوله أولاده الثلاثة ، وفيهم عالم من علماء الذرة ، وآخر يعمل فى الطيران ، وثالث قعيد البيت ولكنهم لا يعرفون العربية ، ولا يفقهون لما يقول أبوهم فيها من درر ، وكان ذلك يحز فى نفسه ، ويؤلم قلبه ويثير غضبه ، فقد شكا إلىّ فى بيته بـ« بروكلين » سنة ١٩٥٤ انصراف المغتربين إلى العيش المادّى والبعد عن العربية ، والعزوف عن الشعر ، لأن ذلك لا يطعم خبزاً فى تلك البلاد . وهو نفسه كان يعتزم بيعَ المطبعة وإغلاق الجريدة لشدّة ما يلاقى فى سبيلهما من

عَنَسَت ، وقد جاوز الستين من عمره، وابيضّ شعره ، وتقوّس ظهره ، وبقيت في عينيه آمال الشعر تضحك ، وعرائس الشعر تبتسم ، ولكنه ملّ الوحدة والغربة .

وفي الثالث والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٧ ، فاضت روحه الطيبة ، وهمد الصلصال ، وقضى الشاعر على ستّ وستين سنة خلّف فيها مجداً للشعر العربي من وراء البحار ، وسجل له انتصاراً لا ينسى على الزمان .

فوزى المعلوف

فى « زحلة » الجميلة إحدى عرائس لبنان ، ومسارح لهوه ، ومبعث أنسه ، يتآخى الشعر والخمر ، وتتآلف الفتنة والسحر ، ويتعانق الماء والصخر ، ويصبح لبنت الكرم فى كل زاوية قبلة ، وفى كل ركن مذبح ، وعلى كل شفة شعر ، وفى كل دوحة غناء .

فى هذه المدينة الفاتنة ، وفى ٢١ من شهر أيّار (مايو) لعام ١٨٩٩ كانت أسرة « عيسى اسكندر المعلوف » تنتظر غلاماً يضفى على بيت هذا العالم المؤرخ فنّاً وشعراً وشهرة وذلك هو « فوزى » .

درج فوزى كما درج إخوته بعده على سنن واحد ، يعيشون نهارهم فى المدرسة ويقضون ليلهم فى المكتبة ، فبيتُ أبيهم عامر بالدواوين الشعرية القديمة والحديثة ، المخطوطة والمطبوعة ، وبيت أبيهم خزانة من الكتب لا ينقطع عنها الزوار ، ولا تستغنى عنها الآثار ، ولا يسكت عن ذكرها المؤلفون .

فلاعجب إذا أحب الطفل لغته العربية ، وتفوّق على أقرانه فى معالجتها وكتابتها فلكل من هؤلاء أستاذ واحد ، ولفوزى أستاذان : أبوه ومعلمه ، وما إن بلغ الطفل سنّ الرابعة عشرة حتى عمد إلى بيتين من شعر « الأخطل الصغير » فعالجهما أجمل ما يعالج طفل شعراً ، وشطّرهما أحسن ما يشطّر طالب نظيماً .

فقال وهو فى « زحلة » بالكلية الشرقية سنة ١٩١٣ :

« زحزِح لثامَكَ عن جبينكْ »	وابرزْ كليثٍ من عرينكْ
وانفثْ بشهدِكَ فى الحشا	« وابعثْ بسحرٍ من عيونكْ »

وكشف الفتى لدارسيه فى هذه السنّ المبكرة أنه كان يدين بأستاذين فى

---

* فوزى بن عيسى إسكندر المعلوف ١٨٩٩ – ١٩٣٠ م .

شعره هما غزل الأخطل بشارة الخورى ، وفتنة الجمال ، فقد لبث سنين ينظر إلى شعر الأخطل الصغير نظرة إكبار وهوًى وتقليد ، ولبث كذلك سنين يتّخذ الجمالَ دمية يعبث بها ، وصوراً ينظر إليها ، وألواناً من السحر يمرّ بها لاهياً تثير قلبه حيناً ، وقد لا تثيره أحياناً ، وقد كان الأخطل يفد إلى المدرسة فى امتحان التلاميذ فينظر إليه هؤلاء الفتية نظرَهم إلى أستاذ عظيم ، وقد ذكر الفتى أن الشاعر كان يهتمّ به ، وأنه يُعجب بقصائده المبتدئة فى الشعر ، وأنه كان يشجّع خطاه الأولى ، ويطلب إليه أن يشطّر أبياتاً من الشعر ، وكانت تلك عادة الزمان وواسطة الامتحان ، فينبرى فوزى للإجابة فوراً ، وكان منه فى مدرسة « الفرير » ببيروت أول سنى الحرب الأولى أن طلب إليه الأخطل تشطير أبيات فقال :

« صبراً على الأيام فى بلوائها »	فالصبرُ أولى لاتّقا آفاتها
وإذا تجنَّت أو رَمت سهمَ الشقَا	« لا بدّ أن تأتى على عاداتها »
«إنْ كان عندكَ يازمانُ مكيدة»	مكشوفةٌ فأنا لقا فتكاتها
أو كانَ عندكَ آفةٌ محجوبةٌ	« مما تكيد بها الرجالَ فهاتها »

ونحن نورد الأبيات من عمل الفتى لا إعجاباً بها وبأسلوبها بل لنشير إلى غرض نحسب أنه هامّ فى حياة فوزى ، وذلك هذا الحزن فى لفظه وتفكيره ، مما عرض له هنا مصادفة ، فأصبح بعد ذلك ديدَنه ، فقد طبعَ لسانَه على الهوى والحب كما طبع لسانه على وصف الأسى وذم الزمان وكيد الشقاء ، منذ هذه السنّ حتى أواخر أيامه . وقد حار النقاد فى تعليل هذا ، وهم يعلمون أن الفتى كان فى عيش جميل وأنه فى أسرة ميسورة الحال ، وأن قوله لا يصف بؤساً حقًّا ولا يرسم أسى حقًّا ، وإنما كان ذلك من مرض العصر — إذا صحّ التعبير — سرى إليه على لسان هؤلاء الشعراء فى لبنان وفى المهجر ، وفى غير هذين من مواطن الشعر العربىّ ، متأثراً بالشعر الغربىّ الذى ترجم إلى العربية ، وطغى عليه طابع الرومانطيقية الحزينة ، فقد سار « جبران » على هذا ، وتابعه فى ذلك أكثر الشعراء فى المهجر ، وتأثر بهم خليل مطران ، وبشارة الخورى ،

وأخذ بمذهبهم فوزى المعلوف منذ نعومة أظفاره ، فانصرف إلى الأسى والتشاؤم ، يشكو الهوى والزمانَ ، ويعلق بالحسان ويتأسى بجبهن ، ويتبرّم بالحياة وهو لم يعرف من الحياة شيئاً . فكان لسانه وحده يدور فى تقليد الشعر الذى يلفه فى « لبنان » ، وكان يقرأ الشعر العذرىّ وشعر أبى العلاء ، فيجد عندهما ينبوعاً خالصاً كذلك لهذا الحزن وهذا التشاؤم ، وهكذا انتصرت الرومانطيقية فى شعره ، وطغت على أقواله حتى ليظنّ الدارس البعيد أن حياته كانت كلها أسى وحرماناً وصدمات وكوارث .

والواقع أن فوزى كان يعيشُ فى أسرته عيش الطبقة الخالية ، يلقى أباه ويلقى أمه وقد عاشا بعده ، فلم يحرم حناناً ولم يشكُ عطفاً ، وفى الأسرة أفراد كثيرون . وفى زحلة وبيروت منهم كثيرون ، يقضون الشتاء فى بيروت إذا أقبل البرد وينصرفون إلى ضفاف « البردُونى » ينعمون « بجارة الوادى » إذا هجم الحرّ ، فلا يشكو عزلةً ولا يحسّ وحدة . وكان يختلف إلى المدرسة فى زحلة ، ثم اختلف إلى بيروت ، فلم يضطر إلى طلب العيش والسعى وراء الرزق ، فلا حرمان ولا حاجة ، ولكنها كما قلنا علة الشعر ومرض العصر .

* * *

فإذا كانت سنة ١٩١٤ ، والفتى يدرس فى بيروت ، وقعت كارثة الطيارين التركيين محمد فتحى وسليم صادق ، حين سقطا قرب « طبرية » فى فبراير من تلك السنة وأثار مصرعهما شعراء كثيرين ، وتحدّث الشرق العربى عن هذا المصرع ، وأطال الحديث ، فأصبح شغلَ الشارع والبيت والمدرسة ، فطلب معلم الصف الأستاذ البستانى أن ينظم طلابه فى الموضوع ، على عادة المدارس آنذاك ، فكان لفوزى قصب السبق بين إخوانه فى وصف الكارثة فقال :

يا « سمخ » لاسحبٌ سقتكَ عهادَها	فلقد أسلتَ من العيون عهادا
وصرعتَ مَنْ ركبَ الجمادَ فراضَهُ	والريحُ تزبد تحته إزْبادا
خاضَ الفضاءَ وداسَ متنَ سَحابة	ببسالة وعلاَ السهى أوْ كادا
ما روّعتْ شهبُ السّماء فؤادَه	بل طافَ فيها مُبْرقًا رعّادا
يا مَنْ سموتَ إلى العُلى فبلغتَه	وسبقتَ أسرابَ الطيور طِرادا

وهنا نحبّ أن نشير إلى طموح الفتى فى ركوب الجوّ وامتطاء السحب ، وخوض الفضاء ، ومجاورة النجوم واستعماله منذ صباه تعابيرَ « ركب الجماد » و « أسرابَ الطيور » ، ونحبّ أن نصلَ بين هذا الصبى وبين الشباب ، حين ركبَ الطيارةَ فعلاً ، فردّد بعد خمسة عشر عاماً ما قاله فى هذه الأبيات ، وتوسع فى تفصيل ما أجمله ، وعمد إلى التعابير نفسها وإلى الصّور عينها ، فكأنّ الحادثة لم تبرح ذهنه ، وكأنّ فكرة المغامرة لم تغادر ذاكرته ، فعاد إلى الطيارة وركبها فى أسًى وحزن ، والكارثة تلوحُ لعينيه ؛ ومصرعُ الطيارين يرتسم أمامَ خياله ، لكأنه شبحٌ قائمٌ على الزمان .

وانصرفَ الشابُّ إلى الشعر خلال الحرب القائمة ، ولكنه لم يستطع نشره لأن الصحف فى تلك الأيام السوداء كانت فى أكثرها محتجبة ، بعيدةً عن الشعر ، وقد حمد الله فيما بعد أنها كانت كذلك ، لأن نظمه كان دون ما يحب ، فدفن مع ما دفن من ذكريات كالحة مدلهمة عن الحرب ، سقط فيها البشر إلى درك الهمجية ورأى فوزى بأم عينيه ما كان من مشاهد الجوع والفاقة ، فلقد أصابَ لبنان أقسى ما أصابت الظروف فأضحى واللقمة تشغله ، والبؤس يلهو بالناس كما تلهو النار بالحطب ، فيسقط الناس كالرماد تذروه الرياح بعد ذلك . وكانت الفاقة تخيم على القرى ، والعوز يقفُ على كلّ باب ، وتناثرت الجثث فى الشوارع كأنها أشلاء ممزقة ، وكشفَ الموتُ عن انتصاراته البشعة وعرضَ ضحاياه فى كلّ سبيل ، فانتقلَ فوزى إلى قرية « المريجات » يعين عمه فيما كان بسبيله من تجارة الحبوب ، مع الجيش العثمانى .

« والمريجات » قريةٌ ساحرة كذلك ، تشرف على وادى « البقاع » الجميل وتتربع الجبلَ الأشم ، ولكن أين للسحر أن ينفذ إلى قلب الشاب وقد امتلأت شعابه أسى وفاض بالحزن والألم ، وتحوّل الشؤمُ واليأسُ إلى عقل الشاب فلكا عليه السبيل ، وراح يفكر بأنانية البشر ، وتكالب الأقوياء ، وجشع الأغنياء ، وسخرية القدر ، ورأى الموت يمر حوله مراراً يحمل المنجل إلى كل بقعة ، وأحسّ

بأطياف الأرواح كأنها تزأر أو تهمس شاكية باكية ، فتألم وحزن ، وراح يختزنُ في صدره ألواحاً للألم والعذاب ، ويلفها باليأس ، والعبوس والتشاؤم ، حتى غدا هذا الصدر متحفاً للصور المريرة ، أو حبساً للآلام ، فلما أراد بعد ذلك أن ينظمَ في البرازيل ، أخرَج هذه الصورَ والألواح ، وأطلقها من حبسها ليقيدها بقوافيه الباكية الحزينة ، ويرسلها في شعره بين الناس .

وخلال هذه الفترة القاسية عمد الشاب إلى الترجمة والتعريب والتأليف ، فترجم عن الفرنسية رواية « كنزلف القرطبي » لفلوريان[1] وألف التمثيلية المعروفة « ابن حامد أو سقوط غرناطة » وهو في السابعة عشرة من عمره ، كما نظم شعراً لا ندري أين موقعه من دواوينه لأن شعره متشابه على السنين .

وانتهت الحرب العالمية ، وقدم الشاب الشاعر إلى « دمشق » ليلحق بأبيه فيها ؛ وأبوه الأستاذ عيسى اسكندر معلوف ، كان عضواً في المجمع العلمي العربيّ بدمشق وكان قيماً على الآثار العربية ، يشارك في الكتابة والمقالة والمناقشة . فعين فوزي أميناً لصندوق دار المعلمين ، ثم كاتماً لأسرار عميد المعهد الطبي العربيّ ، وهنا عاش الشاعر في جوّ جديد ، تكتنفه جدران تاريخية تتكلم ، وتحيط به آثار عربية قديمة لا تشبه في شيء ما خلف من جمال وروعة في المشاهد عند زحلة أو بيروت . ولكنه جمال آخر فيه عظمة الفاتحين وخلود الأجداد ، فلمس الشاب تقديراً لشعره . ووقف على الحماسة في الشام ، والتهب قلبه وطنية ، فغضب لحال وطنه لبنان آنذاك وقال يناجيه :

يا حنيني إلى فضائلك لولا   مابه اليـــوم من غمائم سود
وإلى الأرز شامخ الـــرأس لولا   أنهم حمَّلـــوه ذلَّ السجود

ثم قال في قصيدة أخرى :

هم ضيعوا إرثَ الجدود فنالهم   غضبُ الجدود ولعنةُ الأجداد
قسماً بأهلي لم أفارق عن رضىً   أهلي وهُم ذخري وركنُ عمادي
لكنْ أنفتُ بأن أعيشَ بموطن   عبداً وكنتُ به من الأسياد

(١) قاص فرنسي عاش ١٧٥٥ — ١٧٩٤ الميلاد .

وهذه نغمة محببّة جميلة رتلها فوزي بهذه السن ، وأثار بها الأفئدة والعواطف ، وشارك في الوطنية والإباء ، فغنى على هذا الوتر كما غنى غيره من شعراء دمشق لذلك الزمان . وانتصر فوزي في دمشق ، فشرع يكتب المقالات ، ويرسل الخطب وينظم الشعر وينشر ذلك في الصحف والمجلات ، فذاع صيته وعرفته الأوساط الأدبية وتغنت بنثره وشعره ، فقد كان نثره رقيقاً جميلاً سهلاً يحليه الكاتب بما وقف عليه في أدب الغرب من أقوال بارعة ، كان يرددها في أقواله وهو لما يبلغ العشرين من عمره .

وكان شعره ينطلق في ميادين مختلفة ، فيها الوصف والغزل والحماسة ، يضحك لسانه حيناً في هزل أو نكتة ، أو حبّ طارئ ، ويبكي أحياناً في تشاؤم وأسى ، ولكنه في الحالين كان بارعاً يرمي إلى التجديد في أسلوبه وبحوره وقوافيه مقتفياً شعراء المهجر ، وفيهم إخوة وأصدقاء وأقارب ، فوفق في كثير من شعره إلى اللحاق بألوان المغتربين ، والسير على خطى خليل مطران أو التأثر بالأخطل الصغير . وقد كنا نود أن نؤرخ هذه الخطى لو كان لقصائده كلها تاريخ وتوقيت . وكنا نحبّ أن نرسم تطوّر الشاعر ، ولكننا نكتفي بعرض ألوان من شعره :

ذكر بعض النقاد أن الشاعر تغزّل وعبث بمن حوله من نساء كنّ يهمسن في أذنيه ، أو يخطرن لعينيه أو يبسمن لبسماته ، فقد كان على شباب يعجب ، وقيافة ترضي ، وأدب يقنع ، فوقف منهن موقف عمر بن أبي ربيعة فيما يبدو وسعى إثرهن وكانت له مواقف فرح كذلك كما كانت له مواقف أسى ، ويعزو آخرون تشاؤمه وإغرابه في الحزن إلى خيبة في الحبّ ، وخيانة في الودّ ، كان لها أثر كبير في شعره يردّده ما عاش ؛ فلم يتزوج ولم يبن أسرة ، ومرّ بالحياة فرداً وقضى وكأنه لم يحدّث نفسه بأمر الأسرة أو المرأة ، فكأنه أخلد إلى نظرية المعرّي في هذا كما أخلد إليه في كثير من نظريات التشاؤم ، بل عكف على كثير من ألفاظه ومعانيه . ومن العجيب أن يجمع الشاعر جماله إلى المال ، وذكاءه إلى الثقافة ، ولا يدخل الدنيا من بابها الجميل ، بل يتوكأ على « رهين

المحبسين » فى نظرياته ، وعلى الرومانطيقية الباكية فى قوافيه ، فنشأ منذ مطلع شبابه على مرض العصر حتى قضى فى إبان الشباب — كما نرى — .

والذين يقرءون شعره فى الغزل يعجبون لألوانه المختلفة فهو يقول فى غانية :

مالتْ وقالت : أنت يا شاعـــرى صِفْنِى وقل : هل لقوامى مثيل ؟
أليس غُصْنًا ؟ قلتُ : لم تُخْطِئى لكنَّــــه لكـــلِّ ريح يَميل

فيخافُ التقلب فى أخلاق الغوانى ، وتبدّل الريح فى شراع الحب ، وهو مع ذلك كله عذرىّ الهوى كما يبدو فى المقطعة التالية على الرغم من وصفها البعيد ، فيقول :

لففتُ ذراعى حولَ خصر حبيبتى كما التفّ حول الصخر عاشقه النهرُ
وكنا — وجسمانا لصيقان — واحداً وصدرا كلينا فى اعتناقهمـــا صدرُ
وقبلتُهـــا والنفسُ منّى مشوقـــةٌ وما زلتُ حتى ذاب بالقبل النحرُ
وما هى إلاّ برهـــة فمشى بنـــا نعاسٌ فنمنا نومَ من ناله السكرُ
ولم نخشَ عمـــا كـــان لومةَ لائم فمن حبنـــا العذرىّ قام لنـــا عذرُ

وهذه المعانى مطروحةٌ فى الشعر العربى ، يعرفها الدارسون تكاد تتكرّر على لسان كلّ شاعر منذ القديم حتى اليوم ، وأكثرُ الشعراء يفخرون بأن عفافهم كان حائلاً كريماً وُبرداً نبيلا يغطى الموقفَ ويُسدل عليه الستار . وقد ناجى الشاعر « لفيفة التبغ » وهى السيجارة فقال فى شعره ، إنه لثمها كتقبيل الفراشة للورد ، فبعثتْ حوله زفرةً من دخانها ، فكأنهما صبّان ، يشكو لها الهوى وتبثه أنفاسَ الصبابة ، ولكن حبيبته كانت تغار من اللفيفة وترى فى قبلاتها شريكاً فى الحب فأجابها :

أتعروكِ من هذى اللفيفة غيرة وما بُعدُها يشقى ولا قربها يُجدى
ولكنها إن غبتِ كانتْ نديمتى على رغم أن ليستْ تُعيدولا تُبدى
أراكِ خيالاً فى ضباب دُخانها تغلغلَ من أحلامى البيض فى برد
أرى فيه حينًا شكلَ عينٍ جميلة وألمسُ حينًا فيه تكويرة النهد
وكان دخان موصـــل قبلاتنـــا على رغم بعد الخدّ منّا عن الخد

سكبنا به الروحين فاعتنقا معاً   يحومان فى جوٍّ إلى الله ممتدّ

وهو فى هذه الأبيات يجلّى فى الوصف البارع، والخيال البعيد، فيرسم الدّخان فى أشكاله على أجمل ما يرسم عاشق محبّ، وهو فى ذلك مجدّد ومبتكر فى معنى لم يكد يسبق إليه فى العربية على ما نعلم.

وأشعاره فى هذه الفترة كثيرة مختلفة تلمّ بما كان يرى فى « سورية » من صور يرسمها وآراء يعرضها، وإصلاحات يقترحها وحماسة يبسطها. ولكنه صمم أخيراً أن يسافر إلى أخواله فى « البرازيل »، لعله يصيب هناك ما أصابوا من ثروة عريضة وجاه واسع، وعزّ مقيم. فركب البحرَ، وودّع الأهلَ والربعَ وما كاد يستقرّ فى الباخرة حتى أحس بالنوى والبعد، وشعر بلوعة المهاجر، بل لعله لمسَ الشعورَ العميق الذى تصبه الأقدار أحياناً قبل وقوع الكوارث فى قلب المهدّد، فأحسّ بأنه لن يعود إلى هذه الأرض الحبيبة، وأنه لن يرجع إلى الأسرة فى زحلة ودمشق وبيروت، وأن البحرَ الذى سمّاه العرب « بحر الظلمات » سيلفه بظلمات بعضها فوق بعض، فلن يرى النور القديم، وإنما يضيع فى طياتها بعد قليل إلى الأبد.

* * *

وركب الباخرة فى ١٧ سبتمبر، سنة ١٩٢١، وهو فى الثانية والعشرين من عمره، وفيما كان البحر حوله ينبسط فى غير حدود، وكانت الباخرة تتهادى فى خيلاء، والموج يعبث بأطراف السفينة يقبل إليها ويرتدّ عنها مداعباً، كانت صور وطنه الحبيب تملأ عليه خياله وتسدّ كل لوحة ومشهد فيطير إليه بالحنين والشوق، ويقع من تلك البقاع وقوعَ الطائر الظامئ، ويعود إلينا بشعر جديد، عنوانه « حنين المهاجر » يقول فيه:

واطولَ شـوقى إلى الـوادى   وادى الهوى والحسنِ والشعرِ
ملهـى صباىَ وملهى ميلادى   وعسى يكون بحضنه قـبرى
وإلى الرياض تعانقَ الزهـرُ   فيهـا مع النسمات والغصن

وهذا الجديد هو فى القافية والطريقة، سار عليها فوزى فكأنه أعلن أن

البحر يفصل بينه وبين الشعر القديم بعد اليوم، وأنه شاعر مغترب، يربطه بوطنه حنين وحب وتقديس ، ويربطه بالشعر العربيّ طموح إلى التجديد وشوق إلى الابتكار ، مع تعلق عظيم بما كان للفحول من معان وصور كابن الرومى وابن المعتزّ ، يستغلها الشاعر فى الصعود وفى السير قدماً إلى الأمام .

ويصيح فى قلب الأمواج صوتُ الشعر فى أعماق صدره ، فلا يسمعه أحدٌ من الركب المسافر ، ولا يشعرُ به أحد ، لأن فوزى كان يخفى كل شىء ويظهر أمراً واحداً هو ابتسامة رقيقة عذبة ، تخدع أقرب الناس إليه ، وتُبعده عما فى أغوار الشاب من إحساس بالأسى والحزن ، وكان الصوتُ يقول :

لَهفَى للربوع تُضحى وتمسى	وهى خلوٌ إلاَّ من التنكيدِ
ينزحُ الساكنون عنها ووجهُ الـ	أرض رحبٌ إلى المزار البعيـــدِ
هجـــروهـــا وماءَها وهواها	لم يطيقوا فيهـــا هوان القعـــود
ودّعوهـــا والدمع ملء المآقى	لنواها ، والنار ملء الكبـــود
ولو أنّ الأصمَّ يسمع صـــوتـاً	صرخوا بالبواخر الصّم : عودى

وكان الشاعر الشاب يبكى والنار تحرق ضلوعه ، أسًى على ما خلف وقلقاً لما يستقبل ، ولو كانت الباخرة الصمّاء تعى ما كان يقول لعادت به إلى شاطئ لبنان ، إلى أهله ، ليعيش فى « جارة الوادى » ، ويطلق الشعر مع الخمر ، ويرسل النشيد مع « البردونى » فيسكر الشاربون ويثمل السامعون .

ولكنه نزل « العالم الجديد » وقر قراره وانقطع الأمل بعودة الباخرة ، وأرسى حياته فى البرازيل وأنشأ فرعاً فى مدينة « ريوده جانيرو » لمصنع أخواله ، ونجح الشاعر الخيالى حين أمسكَ دفة الأعمال التجارية ، وأقبلت عليه الدنيا ، ولفه الثراء الواسع ، فمال إلى الخير والكرم والإحسان ، ولعله ملّ كثرة العمل ، فصاح يوماً بعرائس الشعر أن تعود إليه وقال :

مهلاً مشاغلَ يومى ساعةً وقفى	يكفيك منّى طولَ العُمر إدْمانى
حتّام نيرُك مَشْدودٌ إلى عنقى	ألقيه عنّى من آن إلى آن
تفنَى الحياةُ ولا تفنى مطامِعُنا	ليس الزمانُ علينا وحده الجانى

يا للتجارة صارتْ بيننا صَنماً! لم يلقَ منا سوى عُباد أوثان
نَقضي ونحنُ وقوفٌ فى هياكلها مستعبَدين بأرواح وأبـــدان
وعجلُنا الذهبى المالُ تبهرنا أنواره وهى ليست غير نيران

وفى هذه الأبيات تبدو نفسية الشاعر جلية واضحة ، ويظهر خلقه الأصيل ، فقد ولد شاعراً ، وخلق ليعيش شاعراً ، فأما التجارة والمال والعمل وما فى الحياة من مشاغل ، فهى كلها أحجار منثورة فى سبيله لا يكاد يتعثّر بها ، ولكنه يشعر بوجودها ، وتكاد وحدها تمسك رجليه عن الانزلاق والسقوط فى طريق العمر ذى المزالق البعيدة . وما أعجب وصفه للتجارة والتاجر ، وما أجمل دقته فى التعبير ، فكأنه كان يعيش فى نفسيتين معاً نفسية الشاعر ونفسية التاجر . فالشاعر يسخر من استعباد المال للتاجر ، كما يسخر التاجر من حاجة الشاعر إلى المال ، ولكن الشاعر عند فوزى ينتصر أبداً فهو يعترف بقوله :

ألّهت شعرى ففى أبياته حَرَمى وفى قوافيه إنجيلى وقرآنى
وشدتُ هيكَله فى أضلعى فإذا بهيكل خالدٍ فى هيكل فانِ

وهذا دليلٌ قاطع على أن الشاعر ما فارق الشعرَ ولا خانه ساعةً من حياته ، بل صحبه وفياً أميناً مخلصاً على الرغم من حبه الطويل للتجارة وسعيه إلى المال وعكوفه على الشغل .

وطبيعى أن ينال فوزى حظوة عند وجوه الجالية العربية بالبرازيل وهى كثيرة غنية ، فأحبه الأدباء وأكبره التجار ، وامتدحه المعوزون وأثنت عليه جمعيات البر ، وأخلصت فى وده الأسر على اختلافها ، فاعترّت به لما كان له من خلق سام رفيع وجهد نبيل وسيرة مثالية ، وأقبل العرب على سماع خطبه وشعره ، فاشتهر بينهم وأحبه أبناء العرب وغيرُهم ، وطارت شهرته إلى ما جاور البرازيل من بلاد .

وأحبّ الشابُّ الشاعرُ بلادَ البرازيل وعشق عاصمتها « الريو » وقال فيها مادحاً غير مرة . وفى إحدى قصائده حملَ على الحياة القديمة الجاهلية ، وثار

على الطلول والوقوف بها كما ثار أبو نواس سواء بسواء ، ودعا إلى زيارة الفردوس في البرازيل وانتقل إلى وصف المدينة فقال :

نامت على حضن المحيط فأيقظتْ عينَ المحيط فلن تذوق منامها

ثم قال :

حتى إذا هبط الظلام وبخرت أنفاسه فوق الرمال ضرامهـــا
شاهدتُ أجمل منظر في وصفه يُعيي البراعة أن تنال مرامهـــا
أفق من الأنوار شعّ على الثرى ودّت سماؤك لو كسته غمامها
فتظنّ نفسك ضمنَ عقد لآلئ خفيتْ مصابيحُ النجوم أمامها
وتخالُ فوقَ البحر من أشباحها غيداً يدغدغ ماؤه أجسامها
لم تدر هل جعلت به مرآتهـــا أم أنهـــا جعلت بهحمّامهـــا

وهكذا أضحت الحاضرة الجديدة موضعَ هواه ، يجد فيها السحر والجمال كما وجدهما في وطنه لبنان ، فغدت البرازيل حقًّا وطناً ثانياً له . ففي كل منهما أهله وعشيرته وصحبه . وفيهما من أهل زحلة كثير ، يجتمعون في « المنتدى الزحلي » الذي أصبح رئيسه هو نفسه ، يدير في أماسيه كئوس الأدب وقصائد الشعر ، ويغنّي وينشد ويعمل ويدبر في خير وطنه الأول ورفعة الجالية العربية في وطنه الثاني . فما يقع حادث في البلاد العربية إلا انتقل إلى المنتدى فدافع وتحمس وجمع وتبرع ، وكم ناصر مصر وسورية بخطاباته وقصائده ، فكان خير سفير ، وكانت الجالية أحسنَ سفارة . ولنسمعه يقول في الملأ هناك قصيدته « أماني مهاجر » التي يختمها بقوله :

لا دينَ للعلم في الدنيا ولا وطن فالعلم كالنور لم تحصر به تربُ
ولتستعد لغةُ الضاد التي رعيت أم اللغات شبابًا بردها قشبُ
إنْ لم نكن كلنا في أصلنا عربًا فنحن تحت لواها كلنا عربُ

كذلك كان يقف فوزي في « الريو » كما كان يقف شعراء مصر وسورية من اللغة العربية ومن آدابها ، ومن القومية العربية ، فلا ينسى موطنه ومفاخره ،

ولا يستسلم للأعمال والمال وإنما يذكر أن لوطنه عليه حقاً، فكان المخلص الأمين لأمانىّ أمته وبلاده ، وكان وفياً لرسالة المواطن الصحيح مقيماً ومغترباً . وإذن فقد قرّ قرار الشاب فى تلك البلاد النائية ، وانصرف إلى عمله حيناً ، وإلى قلبه أحياناً ، كأنه فى سورية تماماً ، لا يشكو كما كان يشكو أول الأمر ، فقد تعوّد وألف ، فكان يتوجّه إلى جمال الحسان كما كان يتوجه إلى جلال المكان وعظمة لبنان ، وكان ينشد فى النساء أجملَ أغانيه فيقول فى حسناء :

وحينَ تُلْقى فى الدجى رأسَها ... فوقَ الفراشِ الخافقِ الحالم
فدغدغى بالعطْرِ إحساسَها ... ولينتشرْ فى جسمها الناعم
وقبّلى بالسرِّ أنفاسَها ... وحدّقى فى حسنِها الحائم

ونحسّ فى هذه الأبيات أنفاسَ شعراء المهجر ، ونقرأ لغتهم وأسلوبهم ، ونجد معانيهم الجديدة فى الحبّ والشوق والمداعبة ، وذلك طبيعى لأنه يقرأ لهم هناك على مقربة منه ، تصله صحفهم من الشمال والجنوب ، ويستمعُ إلى أقوالهم وآرائهم ، فأصبح فيهم تجديداً وابتكاراً ومنحى ، يأخذ بالرومانطيقية الباكية ، ويعالجُ تلك الشكوك التى تراود الشعراء فى المهجر ، والتساؤل عن الوجود وما إلى الوجود ، مما بدأه شعراء الحكمة فى الشرق وغلب على شعر المعرى . فكان فوزى يعيش فى شعره موصولاً بالقديم والجديد ، لا ينسى التراث الجميل ولا يطرح الألوان الجديدة . ولكننا نرى مع ذلك أن شعره خلال السنوات الأولى لوصوله إلى البرازيل كان قليلاً ، لا يتجاوز عشر قصائد فى أغلب الظنّ ، ترمى فى جملتها إلى معالجة موضوعات طارئة كالرثاء ، والحب أو مقتل السردار ، أو فى انتحار قريب له ، فرثاه بقصيدة نقف عندها قليلاً لنرى إلى رأيه فى الحياة والانتحار حيث يقول :

هجر العيشَ باحتقار وهل فى العيـ ... ـش شىءٌ يدعو لغير احتقاره
كلّ ما يحتويه همٌّ فهمٌّ ... ينقضى بين ليله ونهاره
إنّ عمرَ الشقاء عمرٌ طويلٌ ... ومصيبٌ من يعتنى باختصاره
ليسَ عارٌ فى الانتحار مشينٌ ... فهو خيرٌ من البقاء وعاره

والقصيدة كلها دقيقة فى معانيها، مثيرة فى يأسها ، تذكّرنا بما كان يعالج فوزى أوائل أيامه فى صباه من بؤس وأسى ، مبعثه فيما نرى خلال الأبيات أن الروح « جاوزت إلى حد تكلّ العقول عن إظهاره » وأن الجسم « ضاقَ عن ضمّ نفس حرة حملته فوق اقتداره »،وهل هذا يبرّر الانتحار والذهاب ؟ ذلك كان رأى فوزى خلال هذه الآونة ، لم ينس النزعة المتشائمة فى قرارة نفسه أو على لسانه ، رغم ما كان له من شهرة ومال وصحة وكمال فى الجسم والعيش ، ذلك قبيل رحلته فى الجو وقبل أن ينظم « على بساط الريح » .

* * *

وفى مايو ١٩٢٦ ركب الشاعر فوزى طيارة حلق بها فى سماء « ريوده جانيرو » ثم عاد إلى الأرض بجسمه ، ولكنّ خياله ظلّ عالقاً بالسماء ، وظلت روحه تحوم حول تلك البقعة كأنها وجدت أرواحاً تألفها ، وتأنس بها وتحدّثها ، وكأنها كانت تملى عليها آراء سالت على لسان الشاعر فى قواف مختلفة ومعان متصلة ، فى قصيدة واحدة طويلة تبلغ ١٣٥ صفحة ، قسمها الشاعر إلى أربعة عشر نشيداً سمّاها النقاد بعد ذلك « ملحمة الشاعر » ودعاها فوزى « على بساط الريح » ، ونُشرت أول مرة فى مجلة « الجالية » ختام عام ١٩٢٦ وطبعت فى سان باولو سنة ١٩٢٩ ، وأثارت فى عالم النقد بالشرق والغرب حركة ونشاطاً فكانت فتحاً للقصيدة الواحدة الطويلة فى الشعر العربىّ ذلك لأنها حذت حذو « مطران » ولكنها أوغلت فى التماسك والطول ، فكانت الملحمة .

وبين يدىّ هذه الطبعة الأنيقة المترفة التى صدرت فى البرازيل وهى على أجمل ما تطبع الدواوين ، وأزين ما تخرج الكتب فى رسوم بارعة ، وإخراج جميل يروق العين ويثلج الصدر ، قدّم لها شاعر الأسبان « فرنسيسكو ڤيلاسباسا » وترجم المقدمة شفيق معلوف ، أخو فوزى ، وهو شاعر بعد أخيه فى مبانيه ومعانيه وألوانه ، ولا نطمح فى تحليل المقدّمة ، وإنما نروى جملة منها فى الكلام على القصيدة قال :

« وهذه القصيدة وهى وليدة القرن العشرين ، كأنما هى من قلم أحد أولئك

الشعراء العظام الذين كانوا منذ أجيال زهواً وفخراً لكلّ بلاط فى بغداد ودمشق وقرطبة وإشبيلية وغرناطة . أولئك الشعراء الذين كانوا إذا كتبوا كأنما يغمسون أقلامهم فى حبر الخلود » .

وقد ترجمت القصيدة إلى الإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والروسية ترجمات كاملة حيناً أو مقتبسة أحياناً ، مزينة بالرسوم وموشاة بالألوان والزخارف واستقبلها النقاد بالترحيب والثناء .

وهى قصيدة رائعة فى يسرها . وتلخيصها سهل ولكنها لا تحتمل التلخيص — كما يقول الدكتور طه حسين فيها — وجمالها لا يأتى من موضوعها وإنما من ذلك الخيال الذى انبث فى زواياها ، والآراء التى سكنت فى أطرافها ، وأنشأها صاحبها متماسكة ذات وحدة منسقة ، ونظمها على البحر الخفيف ، يبدّل قوافيها كلما وصل إلى أناشيدها الصغيرة التى تعترض المقاطع ، وهذه الأناشيد موسيقية حقًّا بديعة فى اعتراضها ، لأنها تريح الشاعرَ والقارئ من امتداد القافية ، وتبيح له أن يستبدلها بغيرها ، فهى كالشجيرات فى وسط النهر لا تؤذى منظره ، ولكنها تكوّن فيه مشاهد تستريح عندها العين ، وتلون الصورة . لذلك كان كل مقطع يحتوى على ستة عشر بيتاً . والقصيدة تتحدّث عن الشاعر نفسه ، وتنطلق إلى الحديث فى كل شىء حوله ، على فلسفة بسيطة يسيرة لا تحتاج إلى تعقيد أو تفسير ، قريبة أشد القرب من آراء المعرّى فى الدنيا ، تعتمد على الألوان القاتمة ، ولعلها الصادقة حقًّا فى فهم الحياة . فالشاب فى السابعة والعشرين من عمره يصطنع الألفاظ السهلة والأنغام المتتابعة فى سيمفونية شعرية .

يبدأ الشاعر بالحديث عن موطن الشعر والإلهام ، فيرى أنه فى عباب الفضاء منذ بدء الكون ، ولذلك تحوم حول هذا العباب أرواح الشعراء ، فتحتله كأنها ملوك فى قصورها والمكان الرحب مملكتها ، فالشاعر ابن هذه المملكة بروحه ، وليس من الأرض إلا بلحمه وعظمه ، لأنه ليس من عالم التراب وإن كان التراب يلفه فالأريج فى بردتيه والخلود يجثو لديه ، واحمرار الأصيل لهب من قلبه ، وركام السحاب دخان من هموم صدره ، وأنين الرياح زفير من رئتيه ، ونواح

الطير كلامه ، وندى الفجر لؤلؤ من دمعه .

وذلك موطن الشاعر فى الأصل ، ولكنه دفع إلى الأرض ليعيش بين بقية المخلوقات ، وفى هذا ظلم له وسجن لروحه ، يحسّ الشاعر معه أنه عبد مسير يمشى من المهد إلى اللحد خاضعاً لقوانين الحياة الدنيا ، فى ظلّ الشرائع الجائرة التى يخطها الأقوياء بدم الضعفاء ، يتنقل من عصر إلى عصر ، وكأنه يسير من جور إلى جور عبداً للتمدّن ، وعبداً للمال والشهرة والحب ، فهو أعمى ومنقادٌ بجسمه ، ولكن الشعر فكّ روحه وأطلقها فراحت تنتحى عالم الخلود لتحيا حرة مستقلة .

وأراد الشاعر أن يزور بلحمه ودمه وعظامه موطنَ روحه وأن يحلق فى الأماكن التى ترتادها هذه الروح ، وحاول ذلك منذ بدء الكون ، ولكنه بلغ إلى تحقيق حلمه أخيراً ، فركب هذا الطير من الجماد وصعد فى الآفاق ، فإذا بالطير يخيف الأفلاك فى مواقعها ، والطيور فى مسالكها ، وإذا بها تتحدّث عن هذا الطير الحديدى فترى النسور أنه ليس منها ، فلعله آدمى جاء يستعمر الأثير بعد أن ضاقت عنه رقعة الأرض ، فعقدت العزم على أن تحشد له وأن تنقضّ عليه ، وطوقت هذا الطير الحديدى فإذا بشاعرنا يطمئنها بقوله :

لا تخافى يا طــير ما أنا إلاّ	شاعر تطرب الطيور لشعره
زارك اليومَ متعباً ينشد الرا	حةَ فى هدأة السكون وسحــره
فرّ عن أرضه فرارَكِ عنها	من أذى أهلِها وتنكيلِ دهره

وهكذا دفع الشاعر عن نفسه صفة البغى والعدوان ، وصور حاله فى عيشه هارباً من ظلم الدنيا وأهلها ، فهو حزينٌ متألم ، عاثرُ الجدّ ، عاش بالأحلام ، ولكنها تلاشت شيئاً فشيئاً أمامه ، فهو فى ميعة الشباب ولكنه مثل شيخ هزيل فى شجونه وعبوسه ، وقد ألف اليأسَ كما ألف جميلٌ بثينةَ ، وهو فى عالم المستحيل والخيال ينشدُ الراحة والأمن ، يغنى ويغنى لعل العالم يضحك ويفرح ، وقد ملأ السماء بشدوه .

ويجتاز الشاعر هذه المنطقة القريبة بين الطيور والنسور ، ويمرّ بسلام بعد

أن عرّف نفسه ، ووصف ما كان منه خلال حياته ، والطائرة ما تزال تعلو إلى منطقة بعيدة هى موطن النجوم ، فإذا بها ترعد كذلك ، وتفزع من استعماره ، ولكنها تطمئن حين يناجيها الشاعر بأنه صديقها ، وأنه نجى النجوم والكواكب يبكى ويشكو ، فكيف أنكرته ، وهل قُدّ قلبها من نسيان كقلوب الحسان ؟ إنه يسترحمها بقوله شاكياً حاله :

أىّ كأس قربته من شفاهى لم تحلْ حنظلاً عليه المدامُ
وفؤاد ذوّبتُ فيه فؤادى لم يضعْ عنده لعهدى ذمام

وانتهى الشاعر إلى وصف بؤسه بأنه أضاع عمره سعياً وراء رسوم خططتها الأقدام على الشاطئ ، وهل يبنى الإنسان على الرمال ؟

وتمرّ الطائرة بمنطقة ثالثة ليست أقل خطراً على الشاعر ، إنها بمنطقة الأرواح ، تألبت كذلك حوله ، وملأت الجو الفسيحَ دوياً ، وطوقته الأشباح وراحت ترفّ بين يديه ، وتطنّ فى أذنيه ، وتأتمر به ، تريد أن تطرده من السماء وأن تردّه إلى التراب ، فهو من طين وماء ، بل إنّ الطين والماء أشد طهراً منه ، فقد لوثهما الإنسان بالإثم والداء ، والشرّ والبغى ، وهو عديم النفع إلا حين يثوى فى القبر فيمتصّه الثرى ويغذى به الأعشابَ ، ويطلع على الأعشاب الندى وتبخره الشمسُ ، فتجعله سحاباً ينسكب على الثرى فينقيه ويطهره .

ويسمع الشاعر حوارَ الأشباح عن ظلم الإنسان وجوره وطمعه وأنانيته وأذاه ، وسعيه لتهديد الكون ، فالويلُ كل الويل من نُهى الإنسان وعقله . وأحسّ بالخطر وخشى شر الأشباح فى الانتقام منه ، ولكن روحه التى سعى إليها خلال هذه الرحلة أقبلت نحوه تدافع عنه وتقول لأخواتها :

هو بالرّغم عنه مِنْ عالَم الأر ض وإنْ كان تبرّيا بشكل أبناء جنسهْ
سكنَ الأرضَ مرغَماً وهو لو خُيِّر ما اختار غير ظلمة رمسه
إنّ بين السرير والنعش خطوات دعوها الوجود وهى بعكسه
عمرُه ليس غيرَ قطرة حبر ومَضَت من يراعه فوق طرسه

يتلاشَى كالشَّمع كى يعطىَ النو ر على هيكــل الخُلــود وقُدسه

وهنا يهبّ الشاعر ليقبّل روحه . وكان بينهما لقاء جميل رائعٌ أحلى من الأمل ، وموقف ليس أبهى منه ، حلم به الشاعر طويلاً ، ووقع عليه آخر الأمر ، فعاش لحظات من النعيم ، يعجز الكلام عن تصويرها ، لأنها سرّ الحياة ، ومنتهى اللذة ، وخاتمة المطاف . ولم يتح لشاعر أن يكشفَ السرّ وأن يرسم اللذة ، وذلك لأنها لا تطول .

وهبط الشاعر إلى الأرض ليعود إلى أساليب الرقّ والجور ، وخلف روحه وحدها تشقّ الشعاع إلى اللانهاية ، ولم ير قربه بعدَ هذا الفراق إلا قلمه فهو أنيسه فى رحلة الحياة ورفيقه فى الدنيا ، لا يسلوه ، ولا يخونه ، وهو الذى يرافقه إلى القبر ، فيروى عنه كلّ شىء بعد ذلك :

يا يراعى رافقتَ كــل حياتى فارْوِ عنى ما كان حقًّا وصدقَا
أنا لم ألقَ مثلَ صمتكَ صمتًا حولته عرائسُ الشعر نطقَا

وهنا سكت النشيد ووقفت القصيدة ولم يتمها فوزى ، لأن القضاء أراد أن لا تتمّ هذه السمفونية . فهى فى شعرنا العربى السمفونية الناقصة ، وهى تنساب فى الأذن كما تنسكب الموسيقا فى الآذان الرفيعة ، وتتغلغل الأنوار فى الأجواء البديعة ، فليس فيها بيت لا يستقيم مع أخيه ، وليس فيها قافية أو كلمة لا ترتبط بمجموعة الكلمات . فهى وحى ، والوحى لا يعرف التكلف والتصنع ، ومن عجب أنها كلها متماسكة لا ينفرد بيت من جماعة الأبيات ، بل ينسجم مع إخوانه فى حزن بعيد ، وسكون عميق وموسيقا باكية . ذلك لأن القصيدة صورة حياة ، وهذه الحياة تتماسك كذلك منذ الطفولة حتى الثلاثين من العمر . فقد ذكرنا أن الشاعر قال فى صباه وهو فى السادسة عشرة يصفُ سقوط الطيارين ما قال من حزن وأسى ، وذكر النجوم والطيور ، ولعله حين صعد إلى السماء عادت إليه ذكرى الكارثة ، وضجّ الماضى فى خياله ، وانسكبتْ فى أذنيه أنات الجرحى خلال الحرب ، وعويلُ الفقر وصرخاتُ المقتول ، وتسابقتْ إلى نفسه

آلامُ البشر وعذابُ الإنسانية ، وتراكضت كلها تتجمع أمام قوافيه وأخيلته ، فكأنه فى زحلة أو فى بيروت ، والشاعر لا تعرف روحه وطناً ولا مكاناً .

ولعل فوزى نسى أنه فى البرازيل ، وأنه فوق « ريو ده جانيرو » وغاب عن هذا الأفق ليكون فى كلّ سماء وليعبر عن كلّ قلب ، وليصف كل مأساة عرفها، وليصور كلّ إحساس شعر به، وبذلك بلغ ذروة الشعر ، وعلا قمة الشاعرية ، فكان بعد اثنى عشر عاماً يستذكر الأعوام ، منذ حلق الطياران إلى أن حلق بنفسه ، وحشد الذكريات وخاض الفضاء واختلف إلى النجوم ، وهو يذكر ما لقى الشابان فى الكارثة ، وما لقيت الإنسانية كلها خلال الحرب . فكان هذا النشيد الطويل ترنيمة البكاء ، وقصيدة الرثاء للإنسان رتلها على قيثارة الخلود بيراع ما عرفنا للمعاصرين مثله فى الدقة والانسجام والموسيقا على وحدة متتابعة متماسكة ما يكاد يعرفها الشعر القريب ، وخيال برىء صاف عذب نحسّ به وداعة الشاعر وقلبه الخيِّر ، ولا ننكر أنها تمثل الشاب لسنه وثقافته ، قبل أن يزحف إلى الثلاثين ، فى تفكيره وفى تعبيره ، وفى ألفاظه وجمله ، بل إنها تمثل الرومانطيقية التى كانت طاغية على العصر ، متمكنة من شعراء الوطن والمهجر أو من أكثريتهم ، وقد كان لفوزى أثر كبير فيمن تلاه من الشعراء ، وتبعه من الأدباء ، فأخذَ كثير منهم بأسلوبه وطريقته فى نظم البحور والأناشيد وقلده كثير منهم فى تعابيره وألفاظه .

* * *

ومهما يكن من أثر القدماء فى شعر هذه الملحمة ، أو من تشابه صورها مع بعض الشعر المعاصر لشعراء المهجر والوطن كمطران مثلاً ، أو شبهها بالشعر الفرنسى أمثال « سوللى برودوم » فى فكرة الزمان أو فى طلاق الروح والجسم ، فإنّ فوزى استطاع أن يثبت أصالته فى هذه القصيدة ، وأن يربط بين أجزائها ربط صانع ماهر ، يعرف كيف يختم أبيات المقاطع وكيف يفتتحها ، وكيف يصلُ بين معانيها أو يمهد لتتابع الأفكار فيها ، فكأنها تتسلسلُ بصورة عفوية ، أو تسيل فى شكل هيّن بسيط من غير تكلف منذ البدء حتى الختام ، كأن

الشاعر صنعها دفعة واحدة واستوحاها على هذا الأسلوب . ولقد تبعه فى هذه الطريق شعراء من الشباب حذوا حذوه ، لا نعدّدهم هنا ، وإنما نشير إلى بعضهم كعمر أبى ريشة ، وحسن كامل الصيرفى وغيرهما ، لأنها طريق شعر المهجر ، بل طريق الشعر الغربىّ فى الانطلاق نحو الحرية فى تبديل القوافى ، مثلما فعل شعراء الموشحات فى القديم ، تقريباً .

ونحن لا نشير هنا إلى أثر فوزى فى الشعر الحزين الذى نشأ فى الشرق وترعرع ، وإنما نشير إلى طريقته فى النظم ، فالشعر الحزين لم ينشأ مع فوزى كما قلنا ، بل نشأ قبله فى الغرب وفى المهجر ، ولكنه عند فوزى عجيب غريب أوغل فيه وأسرف حتى تساءل كثير من النقاد عن سبب الحزن ، أهو يأس أم تشاؤم أم خيبة أمل أم فشل فى الحياة ؟ ونحن قد أوردنا أمر حياته ومراحلها ، وليس فيها شىء من هذا كله ، فقد اجتمع له فيما بسطنا جمال ومال ومكانة ، فأحب وعبث ونال ما أراد ، وأنفق وبذل وعاش كما أراد ، ولكن شيئاً واحداً كان فيما نرى يسيطر على رأى الشاعر وغيره من شعراء الشرق والغرب هو هذه الصلة بين الروح والجسم ، بين القفص الطينى وبين الروح ، هو عذاب هذه الرّوح وانتقالها من برج إلى برج ، ومن سجن إلى سجن ، ثم انفلاتها فى فضاء الأرواح وعالم الأشباح ، والنظر إلى الهيكل الجسدى نظر الاحتقار لأنه من صلصال ، بل من مادة حقيرة يزدريها العاقل المفكر ، ويرى الشر كل الشرّ يفد من قبلها ، ويطلعُ من ثناياها والخير كل الخير يفد من الروح ، لأن الروح من عالم علوى . والجسد حين يتهدّم يصبح مادة من مواد الطبيعة ويلصق بالأرض ، ويغدو مداساً للأرجل أو يخدم فى صنع أى شىء صغير أو كبير ، بينما الروح تهرب حرة إلى عالمها السماوى .

بل لعله أخذ برأى « روسو » وغيره من أن الإنسان يولد صالحاً والطبيعة هى التى تفسده ، فالطهارة والصفاء والخير تولد مع الإنسان ، ولكن الحياة التى تحيط به هى التى تدخل الشرّ وتغرس الفساد ، ولذلك يعم العالم الألم ويغطيه الظلم ، وتقتله الأنانية . فهو وحش مفترس يأكل غيره ، ويعتدى على سواه .

وبهذا كان فوزى ينادى ، فى شعره ، بأن الخلود للروح فى عالم آخر ، فالدنيا سلسلة شرور ومآسٍ . وهى للشقاء ، فلماذا إذنْ جئنا وكيف جئنا وما هو كنه الحياة ، وهذه أسئلة اقتتلت على لسان أبى ماضى وغيره ، ونراها فى قصيدة فوزى « شعلة العذاب ». وهى طويلة كذلك سمّاها بعض النقاد « ملحمة » نعرض من أبياتها صورة لعذاب فوزى :

برعَم الزهر ما وجدتَ لتبقى ... بـل ليمضى بك الخريف
هـذه حالُنا : خلقنا لنشقى ... ولتقضى بنـا الحتـوف

* * *

كيفَ جئنا الدنيا ومن أين جئنا ... وإلى أىّ عالم سوف نُفضى
هل حَيينا قبلَ الوجود وهل نُبـ ... ـعثُ بعدَ الردى وفى أى أرض ؟
هو كنـهُ الحياة ما زال سرًّا ... كلٌّ حكم فيه يؤولُ لنقْض

* * *

كيف أجلُو غدى وأدركُ أمسى ... وأنا حرتُ كيف يومى سيمضى
قد حيينـا قبل الولادة لكنْ ... بجدود قَضوا كما سوفَ نقضى
وسنحيا بعدَ الرَّدى ببنينـا ... فى كيان نُعطيه بعضًا لبعضِ

ثم يقول :

إننى شاعر بروحىَ فوق الـ ... ـموت تمشى بكلّ حُبىّ وبُغضى
إيه يا موتُ لن تمس خلودى ... فاقضِ ماشئتَ لستَ وحدك تقضى
وإذا كنتَ مالكًا أمرَ روحى ... مثلما أنتَ مالكٌ أمرَ نبْضى
فأنا خالدٌ بشعرى على رَغْـ ... ـم زمانٍ عن قيمة الشعر يُغضى

وهذه الصورة تمثل القصيدة كلها فى حزنها وفى فلسفتها وفى قوافيها وسهولة ألفاظها . وقد أراد فوزى أن ينقل الشعر على لسانه من كلام يتسلى به السامع ويقلّبه المنشد إلى موسيقا حزينة ، أو إلى أفكار فى الوجود والحياة ، طرقها الفلاسفة وعالجها الحكماء ، وتقلبت على ألسنة الخيام والمعرى ، وأبى العتاهية وغيرهم .

فأصبح الشعر يهدف إلى التساؤل والشكّ والاستفهام بعد أن كان يخبر عن حالات وقعتْ للشاعر ، ومواقفَ ألهمته ، وآلام حدثت له ، وآمال انعقدت فى صدره . انقلب الشعر من جواب وإقرار إلى استنطاق وسؤال . وذلك لا يقلّ توفيقاً عن غيره من الشعر ، فالحزن فى الموسيقا يكسوها جلالاً وعظمة ، كما تكسوها المواقفُ المفرحة المسلية ، وكذلك الشعر فكل فنّ يهدف إلى مخاطبة الشعور الدفين ويبعد عن السطحية ، هو فنّ يحترم نفسه ويكرم صاحبه ، وكذلك فوزى يستحقّ هذا الثناء والإكبار ، ولو أنه عاش طويلا لكان منه غير الذى كان .

ولكن المنية بالمرصاد للنفوس الكبيرة ، فقد دخل « فوزى » المستشفى فى البرازيل لإجراء عملية الزائدة ، وظلّ أربعين يوماً بين الأمل واليأس ، بين الحياة والموت ، حتّى انقطع الأمل وخيم الموتُ فلفظَ روحهُ وأطلقها فى فجر يوم الثلاثاء ٧ كانون الثانى (يناير) ١٩٣٠ ، وهو فى ذروة الشباب ، لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، ففقد الشعر المعاصر قيثارة عظيمة ، وشاعراً ملهماً ، وخرجتْ عاصمةُ البرازيل تشيعه ، ووقف النقد المعاصر يبكى فيه أملاً ذوى وشاعراً قضى فى ريعان الشباب .

فهرس الكتاب

القدماء

المعاصرون

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

قدماء ومُعاصرون

يحتوى هذا الكتاب على تراجم لأعلام العرب فى الإقليمين السورى والمصرى ، تجمعهم فكرة هى النضال فى سبيل القومية العربية والدفاع عن التراث الفكرى العربى ، وأكثرهم عمل لخير الإقليمين معاً سواء أعاش هنا أم هناك . والكتاب لا يقتصر على ترجمة هؤلاء الأعلام وإنما يتحدث عن حياتهم وآثارهم وآرائهم على سبيل جذاب هو سبيل القصة أو الحديث المبسط دون جمود ولا جفاف . فلا يقف عند الأرقام ولا يحدد وصف الحياة بما عرف عن ذلك من سبيل المراجع الجافة والمصادر الجامدة .

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

٥٠ م

